

The image shows a horizontal strip of black ink on a white background. It features several large, bold, black Arabic characters. From left to right, there is a character resembling 'ك' (Kha'), followed by a character resembling 'ب' (Beem), then a character resembling 'د' (Dhaal). To the right of these is a small, stylized figure or symbol. Further along is a character resembling 'ف' (Feem), followed by a character resembling 'ي' (Yaa'). The characters are rendered in a thick, blocky style, typical of certain traditional or decorative Arabic scripts.



مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب - دمشق

العددان : ٥٥ - ذي القعدة ١٤١٤ نيسان «أبريل» ١٩٩٤  
٥٦ - صفر ١٤١٥ تموز «يوليو» ١٩٩٤ السنة ١٤

## عدد خاص:

# دشنه والتاريخ

# نـكـ - نـوـ

# التراث العربي

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب

المددان : ٥٥ - ذي القعدة ١٤١٤ هـ نيسان « ابريل » ١٩٩٤ م  
٥٦ - صفر ١٤١٥ هـ تموز « يوليو » ١٩٩٤ م السنة الرابعة عشرة

المدير المسؤول  
د. علي عقله عرسان

رئيس التحرير

د. عبدالكريم اليافي

أمين التحرير

عبداللطيف أزؤوط

هيئة التحرير

د. ابراهيم الكيلاني

د. عدنان البشني

د. أدهم السمان

د. عدنان درويش

د. محمد زهير البابا

ترسل المواد والراسلات الى العنوان التالي :

المدير المسؤول - اتحاد الكتاب العرب ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، ص.ب : ٣٢٣٠ - ٢١٢٤٢٩٩ - ٢١٢٤٢٧٩

# مكتبة لبنان العربي

تنوية :

- ١ - المواد الواردة الى المجلة لا تتم الى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر .
- ٢ - يخضع ترتيب المواد لاعتبارات فنية وطبعية .
- ٣ - يرجى من كتاب المجلة ما يلي :
  - أ - كتابة دراساتهم بخط واضح ومقروء ، أو طباعتها على الآلة الكاتبة .
  - ب - كتابة تعريف وجيز يكتب الدراسة ، يتضمن أبرز نشاطاته الأدبية والعلمية والمهنية .
  - ج - ارسال عنوان الباحث مع البحث أو الدراسة .

## الاشتراك السنوي

أعضاً اتحاد الكتاب	: ٥٠ ل.س.	أعضاً الدوائر الرسمية خارج الوطن العربي	: ٥٠٠ ل.س.	أعضاً الدوائر الرسمية في الوطن العربي	: ٣٥٠ ل.س.	الدوائر الرسمية داخل قطر	: ٢٠٠ ل.س.	خارج الوطن العربي	: ٣٠٠ ل.من أو ( ١٥ ) دولار أمريكي	لأفراد	: ١٠٠ ل.من	في الأقطار العربية	: ٢٠٠ ل.من أو ( ١٠ ) دولار أمريكي	داخل قطر
--------------------	-----------	---	------------	---------------------------------------	------------	--------------------------	------------	-------------------	-----------------------------------	--------	------------	--------------------	-----------------------------------	----------

■ الاشتراك يرسل حوالة بريدية او شيكا او يدفع نقدا الى : ( محاسب مجلة التراث العربي ) ■

الاخراج الفني : أكرم أفسدار



# مَكْتَبَةُ لِسَانِ الْعَرَبِ

أ. علاء الدين شوقي

[www.lisanarb.com](http://www.lisanarb.com)



مكتبة لسان العرب

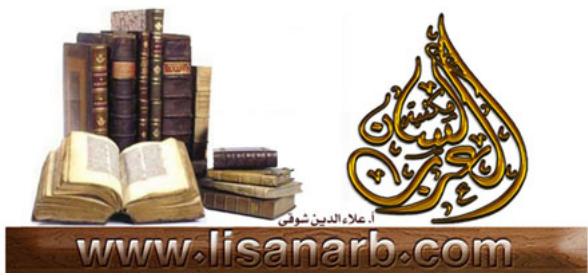
[www.lisanarb.com](http://www.lisanarb.com)

[lisanearb.com](http://lisanearb.com)

# المحتوى

ص

- دمشق والتراث ..... د. علي عقلة عرسان ٧
- دمشق ... حكاية الأزل ..... سليمان العيسى ١١
- دمشق في العرب العالمية الأولى ..... د. نور الدين حاطوم ٣٣
- الحياة العلمية في بلاد الشام في أيام المماليك ..... د. نقولا زيادة ٥٠
- دمشق .. من الفتح وحق المصر الباسى - دراسة في المران ..... د. نبيه عاقل ٧١
- دمشق في العصور الكنعانية ..... د. علي أبو عساف ٨٥
- دمشق على أبواب القرن العشرين ..... د. أسعد الإسطواني ٩١
- دمشق .. في التصوّص المساربة ..... د. فيصل عبدالله ١٠٧
- دمشق .. ما قبل التاريخ ..... د. سلطان حيسن ١١٧
- دمشق .. في مصر البيزنطي ..... بشير زهلي ١٢٩
- فضل دمشق في تطور الطب بين المغرين النوري والملوكي ..... د. نشات الحارنة ١٤١
- الحياة المعاصرة في دمشق في المهد العثماني ..... م. نزيه الكواكبي ١٧٧
- أضواء تراثية على مساجد دمشق ..... علي القيّم ١٩٦
- الديوان الدمشقي - شعر نظم في دمشق قديماً وحديثاً ..... عبد اللطيف ارناؤوط ٢٠٢
- اتساع دمشق في القرن العشرين ..... بقلم : آن ماري بيانكي - ترجمة : خليل فريجات ٢١٢
- دمشق .. أقدم مدينة في العالم ..... د. غيف البهنسى ٢٣٢
- دمشق من ٥٢٨ قبل الميلاد الى آخر القرن الثالث الميلادي ..... د. عدنان البنى ٢٤٧
- صورة مباشرة لـ دمشق في الأربعينيات ..... نصر الدين البحرة ٢٦١
- لمحات تاريخية عن قصر المؤتمرات ..... حسن كمال ٢٧٥
- فهرس السنة الرابعة عشرة ..... اعداد : متار ارناؤوط ٢٨٤



أ. علاء الدين شوقي

# دمشق و التراث

د. علي عقيلة عرسان

دمشق والتراث : حالتان من تفجر العشق وعناقه ، تغطران وتتماهيان وتتسربيان في متون الوقت والقلب ، من شفق الفجر الى تناومات الفسق ، ولا تنفكان عن العضور وتعليله ، تجمعنان المدى والزمن عند عتبة القلب ليزداد بصيرة وابصارا ، وعبرة واستذكارا . فإذا ذكرت دمشق ذكرت التراث ، واذا ذكرت التراث برزت لك دمشق بالف حلقة قشيبة وحلة ، وبالف ذؤابة مليسة ذؤابة ، بينهما وجه جميل أصيل يعمق فيك معنى الحياة وحبها ، ويقيمهك معافى في ارض « الريف والحامات والشهوات » بين ماء وثر وقر .

لا أعرف بدأية موقفة تكون مدخلًا طيبا الى هذه الدارة البهية : دارة دمشق - التراث ، وربما لهذا السبب أسلمت قياد نفسي للعشق ، يقودني في مقانها على هواه ، فانا الماخوذ من ناصية القلب ، وفي مثل حالي هذه يسقط كل عتب ولو .

إن قلت متى بدا تاريخ المدينة : هل مع الآراميين أم من قبلهم بعقود وقرون ، فلا أصل الا الى ضائمه من تراث تتشمخ به جبهة العجر ، وتسجله طرائق تسجيل البشر ، يقول : منذ ما قبل التاريخ المكتوب كان للمدينة تاريخ . وإذا قلت إنها تعاصر الأموريين وتعصرهم في خوابيه وتعتد الى ما يقرب من زمن البابليين والسموريين، نهضت التلال الأثرية المعيبة بها - الفسول وسواها - متعجّة على الإعجاز والتتجاهل ، معلنة حرب الوثائق على الظلم والجهل ، رافعة اشرعتها المتباوحة في بحر الزمن لتؤكد توافق التاريخ الحضاري للمنطقة وامتداده من الخطوط الأولى في سهل نطوف - قرب اريحا - في الآلف العاشر قبل الميلاد وامتدادا الى تل حلف في الشال الشرقي من سوريا .

وحين يعجز المرء عن تحديد البدايات ، ويتجاوز تلك العقبة الكاداء ، او يقفز فوقها ، سالكا مع الزمن طريقه الطبيعية الهينة ، ملتسما في التاريخ ما ينده حرفا مكتوب وظل بشري مسكون في نقش وعمارة وشكل من اشكال العضارة ، يجد نفسه بين لمسات وبصمات و Ashtonas ومعطيات ، تمتد من الكتابة المقطعة المسارية الى ابجدية اوغاريت ، ومن هذه الاخرية الى دوامة هذا العصر ، ويجد في

كل ذلك تسجيلاً وتوثيقاً لتفاقع حضاري مع العصارات والأمم والشعوب : العصر اليوناني القديم والهنستي والروماني والبيزنطي على أرضية الكتيعانية والإبرامية وأسirيـانـية والنـبـعـية والتـدـمـرـية، مشئـى بـاصـالـةـ أـهـلـ المـنـطـقـةـ الـذـيـنـ لمـ يـغـرـجـواـ فـيـ تـوـيـنـهـ وـاـنـتـمـاهـ وـنـسـيـجـهـ الشـفـقـيـ وـالـاجـتمـاعـيـ ، عـنـ دـائـرـةـ الـأـمـ وـالـشـعـوبـ الـتـيـ نـيـتـتـ مـنـ الـأـرـوـمـةـ الـعـرـبـيـةـ اوـ عـلـىـ جـذـعـ تـلـكـ الـأـرـوـمـةـ ، سـوـاءـ كـانـتـ منـ الـعـربـ الـذـيـنـ شـرـشـواـ فـيـ الـمـنـطـقـةـ مـنـذـ الـقـدـيمـ ، وـتـقـاعـدـتـ فـيـهـ لـهـجـاتـهـ وـشـفـقـتـهـ ، وـقـيلـ لـغـاتـهـ ، اوـ مـنـ تـقـافـلـهـ وـتـوـاصـلـهـ مـعـ الـأـخـرـيـنـ فـيـ جـوـلـاتـهـ وـهـجـرـاتـهـ الـدـاخـلـيـةـ فـيـ الـعـفـرـاـلـيـاـ وـالـبـيـتـةـ الـعـرـبـيـتـيـ ، دـيـنـ الـمـعـدـتـيـنـ فـيـ مـسـنـبـتـ الـحـضـارـةـ الـقـدـيمـ هـاـ ، الـذـيـ يـضـاهـيـ الـفـرعـونـيـ الـقـدـيمـ وـيـجـاـورـهـ وـيـعـاـورـهـ وـيـاـخـدـ مـنـهـ وـيـطـعـيـهـ وـيـكـوـنـ مـعـهـ اـرـضـ الـعـلـمـ الـقـدـيمـ وـسـقـفـهـ وـالـفـضـاءـ الـذـيـ بـيـنـ الـأـرـضـ وـالـسـقـفـ . وـهـمـ يـقـاطـعـونـ مـعـ الـعـصـارـاتـ الـأـمـ وـالـشـعـوبـ فـيـ يـادـوـنـ وـيـعـطـونـ بـثـقـةـ وـتـفـتحـ ، وـتـبـقـىـ لـهـمـ خـصـيـتـهـ وـدـمـشـقـيـتـهـ ، وـيـبـقـىـ لـهـمـ حـضـورـهـ الـذـيـ يـمـتدـ مـاـ اـمـتـ بـالـإـنـسـانـيـةـ تـارـيـخـ وـحـضـورـ حـيـ ، سـوـاءـ بـاتـجـاهـ الـشـرـقـ حـيـثـ كـنـ زـهـوـ الـفـرـسـ وـجـهـ حـضـورـ الـهـنـدـ وـالـنـصـنـ ، اوـ بـاتـجـاهـ الـغـربـ حـيـثـ اـعـطـتـ الـفـتـاةـ «ـ اـورـبـةـ »ـ اـخـتـ الـقـلـمـوـسـيـمـ وـسـلـيـلـهـ ، لـلـقـسـارـ الـجـدـيـدـةـ اـمـهـاـ ، وـحـيـثـ هـاجـرـ الـيـاهـ مـنـ نـسـلـ «ـ الـكـادـمـيـنـ »ـ الـكـتـعـانـيـنـ اوـ الـأـمـوـرـيـنـ عـامـةـ ، اـفـوـاـمـ اـفـوـاـمـ «ـ ضـارـةـ »ـ وـقـافـةـ لـمـ تـكـوـنـ بـعـيـدـتـينـ بـعـالـ منـ الـاحـوالـ عنـ تـأـثـيرـ هـذـاـ جـزـءـ مـنـ اـرـضـ الـبـشـرـ ، الـذـيـ كـانـ مـهـدـ الـحـضـارـةـ وـلـمـ يـكـنـ مـجـدـ مـلـتـقـيـ لـلـعـصـارـاتـ كـمـاـ يـعـبـ بـعـضـ الـفـرـيـنـ اـنـ يـقـولـ .

وهـذاـ هـيـرـوـدـوـتـسـ يـعـيـدـ لـهـذـهـ الـمـنـطـقـةـ مـنـ الـعـالـمـ خـصـلـ تـنـرـ الـمـشـلـوـجـيـاـ الـقـدـيمـ فـيـ اـيـوـنـانـ وـمـنـ شـمـةـ فـيـ الـقـرـبـ دـهـ ، فـيـقـولـ : «ـ وـاـنـ اـقـرـرـ اـنـ مـيـلـامـبـوسـ MELAMPUSـ بـعـنـيـ الـأـسـوـدـ الـقـدـيمـ »ـ دـلـكـ الرـجـلـ الـحـكـيمـ الـذـيـ اـوـجـدـ الـعـرـاقـ ، قـدـ تـلـمـعـ مـنـ الـمـصـرـيـنـ اـشـيـاءـ عـدـيـدـ مـخـتـلـفـهـ ، تـلـمـعـ مـنـهـ الـىـ بـلـادـ اـيـوـنـانـ - بـعـدـ تـعـدـيلـ طـفـيفـ - مـاـ يـغـصـ بـدـيـونـيـزـوسـ ، وـاـنـ لـاـ اوـمـنـ مـطـلـقـاـ بـاـنـ الـاـنـفـاقـ بـيـنـ شـعـائـرـ دـيـونـيـزـوسـ فـيـ مـصـرـ وـفـيـ بـلـادـ الـيـونـانـ وـلـيـدـ الـمـاصـادـةـ ، وـالـاـ لـانـسـجـمـتـ هـذـهـ الشـعـائـرـ مـعـ طـبـاعـ الـيـونـانـيـنـ ، وـمـاـ كـانـ دـخـولـهـ عـنـهـمـ حـدـيـثـ الـعـهـدـ . وـلـنـ اـفـوـلـ اـبـداـ اـنـ الـمـصـرـيـنـ نـمـلـوـ هـذـهـ الـهـنـةـ . هـاتـرـ عـنـ الـيـونـانـيـنـ ، لـاـ هـيـ وـلـاـ غـيرـهـاـ بـنـ الـعـادـاتـ ، وـلـكـنـ مـنـ بـعـدـ تـعـدـيلـ جـداـ - كـمـاـ يـغـيـلـ الـىـ - اـنـ مـيـلـامـبـوسـ تـعـدـ هـذـهـ الشـعـائـرـ مـنـ كـاـمـوـسـ الـصـورـيـ ، وـمـنـ اـوـلـتـكـ الـذـيـنـ هـاجـرـوـنـ مـعـهـ اـلـىـ الـبـلـادـ الـتـيـ تـسـمـيـ حـالـيـاـ : بـيـوـسـيـاـ »ـ(١)ـ

ويـضـيـفـ هـرـوـدـوـتـسـ : «ـ لـمـ يـعـرـفـ الـيـونـانـيـونـ اـصـلـ وـاـحـدـ مـنـ الـأـلـهـ ، وـلـاـ تـارـيـخـ وـجـوـنـهـ الـقـدـيمـ جـمـيعـاـ ، وـلـاـ مـاـ هـيـ اـشـكـالـهـ ، لـمـ يـعـرـفـوـذـلـكـ الـأـبـالـمـسـ وـبـالـأـمـسـ الـقـرـيبـ كـمـاـ يـقـولـونـ . وـاـنـ اـعـتـدـ اـنـ هـيـسـيـونـوـسـ وـهـومـيـروـسـ عـاشـاـ قـبـلـ عـصـرـ يـارـبـعـمـائـةـ سـنـةـ لـاـ اـكـثـرـ - نـهـاـيـةـ الـقـرـنـ التـاسـعـ قـ.ـمـ - وـهـمـاـ اللـذـانـ دـوـنـاـ لـلـيـونـانـيـنـ اـنـسـابـ الـأـلـهـ . وـسـمـيـاـهـ بـالـقـابـهـاـ ٠٠٠ـ الـخـ »ـ(٢)ـ

وـهـذـاـ لـاـ يـتـرـكـ مـعـالـاـ لـلـشـكـ فـيـ أـبـوـةـ وـأـوـمـةـ ثـقـافـةـ هـذـهـ الـمـنـطـقـةـ لـتـقـافـةـ الـقـرـبـ الـقـدـيمـ كـمـاـ اـنـهـ يـدـعـونـاـ إـلـىـ مـزـيدـ مـنـ التـقـصـيـ وـالـبـعـثـ وـالـتـدـقـيقـ لـتـوـقـوفـ عـلـىـ الدـوـرـ الـعـضـارـيـ الـذـيـ لـهـذـهـ الـأـمـةـ ، الـذـيـ يـتـالـ مـنـهـ الـيـوـمـ الـضـعـفـ ، وـيـنـغـرـ فـيـهـ السـوـسـ ، وـيـرـيـنـ عـلـىـ ذـاـكـرـهـاـ وـوعـيـهـاـ الـجـهـلـ ، وـيـتـاكـلـهـاـ الـأـهـمـالـ وـالـتـدـابـرـ وـفـسـادـ الـقـلـبـ وـالـنـيـةـ وـالـرـايـ .

١ - هـرـوـدـوـتـسـ يـتـحدـثـ عـنـ مـصـرـ - صـ ١٤٩ - ١٥٠ ، تـرـجـمـةـ : دـ. مـحـمـدـ سـقـرـ خـفـاجـةـ - دـارـ الـقـلمـ بالـقـاهـرـةـ - ١٩٦٦ .

٢ - هـرـوـدـوـتـسـ يـتـحدـثـ عـنـ مـصـرـ - صـ ١٥٥ - ١٥٦ .

لقد تداخل في دمشق المعبد الوثنى القديم - معبد حدد وسواه من سبقه وتلاه من آلهة هذه البلاد - والكنيسة ، والكنيسة والمسجد ، وهى بهذه الفتنى والتنوع والتداخل ، لم تكن مجرد حاضرة من حواضر الفنـالـقـيـدـيـمـاـتـيـشـارـكـتـفـيـاـخـضـانـالـعـقـائـدـوـالـفـقـاهـاتـوـسـاـهـمـتـفـيـنـموـالـوعـىـوـالـإـيمـانـفـقـطـ ، وـاـنـمـاـكـانـتـسـرـةـالـأـرـضـتـيـشـهـدـتـصـرـاعـالـوـثـنـيـاتـفـيـماـبـيـنـهـاـ ، وـصـرـاعـهـاـمـعـالـدـيـانـاتـاسـمـاـوـيـةـ ، وـصـرـاعـالـدـيـانـاتـالـسـمـاـوـيـةـفـيـمـاـبـيـنـهـاـ . فـهـىـجـارـةـأـيـامـوـخـدـنـهـاـ ، وـهـىـجـنـتـةـالـأـرـضـتـيـقـبـيـهـالـيـهـأـرـسـلـ ، وـهـىـالـدـارـتـيـتـعـزـزـفـيـهـاـرـسـالـةـالـإـسـلـامـبـنـوـعـيـةـمـنـأـتـاخـىـوـلـنـسـامـحـمـعـالـدـيـانـاتـالـسـمـاـوـيـةـ ، لـمـتـسـهـلـهـاـالـأـمـدـعـرـيفـفـيلـةـ ، وـهـىـالـتـيـتـنـادـلـفـيـهـاـالـسـيـجـالـمـعـنـارـيـوـالـعـضـارـيـوـحـتـىـالـاجـتمـعـيـالـأـسـدـمـوـانـقـدـيـمـفـيـتـكـوـينـحـضـارـيـعـضـوـيـثـيـتـشـخـصـيـةـتـقـافـيـةـتـوـعـيـهـمـنـخـلـالـتـرـاكـمـيـةـتـقـافـيـةـجـرـيـةـ ، كـمـاـتـنـادـلـفـيـهـاـلـقـدـيـمـمـعـالـجـدـيدـوـالـمـسـتـجـدـ ، وـلـكـنـذـكـالمـعـطـىـالـتـقـافـيـوـالـعـضـارـيـالـعـمـوـلـتـنـوـعـكـانـيـدـخـلـذـئـمـبـوـتـةـوـاحـدـتـصـهـرـهـوـتـسـبـعـعـلـيـهـفـيـنـهـاـيـةـثـوـبـةـ ، اـنـثـوـبـالـدـمـشـقـيـ ، اـلـعـربـيـ ، لـيـطـعـيـمـوـيـةـوـخـصـوصـيـةـوـشـخـصـيـةـلـلـمـدـيـنـةـيـجـاـهـهـاـ ، وـلـيـعـطـيـلـلـتـرـاثـشـمـرـخـةـزـاهـيـةـتـجـلوـهـيـشـخـوـصـهـوـتـجـدـهـوـيـتـهـوـأـنـتـمـاهـ .

لقد كان الفتح الاسلامي للدمشق في السنة الـ ١٤ـ يـعـنـةـلـهـجـرـةـ - الفـنـالـسـابـعـلـلـمـيـلـادـ - فـهـلـتـرـاهـ دـخـلـ دـيـارـهـ مـنـ تـكـنـعـرـوـيـةـسـتـقـرـةـفـيـهـاـ؟!ـمـتـرـاهـ وـجـدـمـنـأـهـلـلـدـيـارـعـونـلـهـ ، وـتـرـحـبـهـ، وـتـعـرـفـعـلـيـهـ ، وـاعـتـرـافـبـاـصـالـةـمـنـدـيـانـهـفـيـالـأـرـضـعـرـبـقـرـيـانـتـهـفـيـاـنـدـورـوـالـفـصـورـ ، وـعـلـىـضـقـافـبـرـدـيـ، وـفـيـبـسـاتـينـالـشـامـاـرـيـانـوـالـزـدـانـةـبـالـدـكـرـيـاتـوـبـوـشـمـالـانتـمـاءـالـعـربـيـالـصـراـحـ؟!

ربـماـكـانـلـدـلـكـمـنـاصـفـةـعـاـشـتـدـمـشـقـفـيـعـهـاـفـرـونـاـمـنـقـبـلـوـمـنـبـعـ ، وـتـكـادـتـكـوـنـعـلـامـةـعـلـيـهـاـ، فـيـوـمـسـبـعـخـلـدـبـنـالـولـيدـوـمـذـعـورـبـنـعـدـيـوـالـقـعـدـعـبـنـعـمـرـفـيـمـاءـخـنـدقـدـمـشـقـوـكـبـرـوـاـفـوـقـسـوـرـهـالـدـيـمـ ، وـفـتـحـوـاـبـابـاـشـرـقـيـلـلـجـنـدـ، تـعـهـوـاـعـنـةـمـنـهـدـاـجـانـبـوـلـكـنـذـيـنـفـعـهـوـلـجـنـدـيـزـيـدـبـنـأـبـيـسـفـيـانـوـابـيـعـبـيـدـةـبـنـالـعـرـاجـأـبـابـدـمـشـقـلـأـخـرـىـكـنـواـيـصـالـعـونـوـيـمـيـلـوـنـ، وـرـبـمـاـيـتـمـتـونـ، وـكـانـالـلـفـاءـبـيـنـالـعـنـوـنـوـالـصـلـحـ، بـيـنـالـعـرـبـوـالـسـلـمـ، بـيـنـالـمـوـتـوـالـعـيـاـ، فـيـدـرـبـالـرـيـعـانـ . وـبـيـدـوـأـنـلـلـدـمـشـقـحـقـلـهـالـوـافـرـ، فـيـكـلـالـعـصـورـ، مـنـشـنـائـيـمـلـحـوـظـةـالـوـجـودـوـالـتـائـيرـ، اوـمـنـتـلـكـ«ـالـنـصـفـيـةـ»ـالـتـيـتـجـعـلـصـدـيـنـيـمـتـقـيـانـوـيـتـوـقـانـوـيـنـتـكـرـانـفـيـأـنـوـذـرـوـمـكـانـ، وـلـاـأـدـريـاهـيـخـوـصـيـةـمـعـشـقـيـةـأـمـهـوـقـنـونـحـقـيـقـةـالـطـبـيـعـةـالـعـامـةـلـلـعـيـاـفـيـمـرـتـكـزـاتـالـتـجـمـعـالـبـشـرـيـوـالـعـضـارـيـ؟!ـفـنـدـمـشـقـسـبـاسـبـرـيـعـانـهـاـتـيـتـوـاـكـبـسـيـوـفـهـاـالـدـمـشـقـيـةـالـشـهـيـرـةـ، اوـتـقـطـعـعـنـهـاـحـدـدـوـالـسـيـوـفـ، وـلـهـحـرـيرـهـاـوـفـلـانـهـاـاـلـشـهـرـانـ، وـلـهـقـلـعـتـاـجـهـمـةـالـعـصـيـةـ، وـيـسـائـيـتـهـاـاـرـضـيـةـالـرـخـيـةـ، لـهـمـاـؤـهـاـوـصـحـرـأـهـاـ، جـلـهـاـوـغـوـطـهـاـ، عـمـرـهـاـوـيـزـيـدـهـاـ، فـضـلـهـاـوـفـجـارـهـاـ، لـهـأـطـبـأـهـاـوـعـلـمـأـهـاـ، وـأـدـبـأـهـاـوـشـعـرـأـهـاـ، وـلـهـأـيـضـاـجـهـلـهـاـوـجـهـلـهـاـ، وـكـانـفـيـهـاـ«ـالـزـعـرـانـوـالـعـوـانـيـةـوـالـبـلـاصـيـةـوـالـغـوـغـاءـوـمـشـانـيـعـالـخـارـاتـوـعـرـفـأـهـاـ»ـ(٣ـ)، لـهـاـمـنـيـمـورـلـكـنـصـيـبـوـمـنـصـلـاحـالـدـيـنـوـنـورـالـدـيـنـاـشـهـيـدـنـصـيـبـ، فـيـهـاـالـأـمـوـيـوـالـفـدـهـرـيـوـالـمـادـارـسـوـالـزـوـاـيـاـوـالـتـنـايـاـقـدـيـمـاـ، وـالـجـامـعـاتـوـالـمـكـتـبـاتـالـعـامـةـحـدـيـثـاـ، وـكـانـفـيـهـاـأـيـضـاـسـوقـالـغـيلـوـمـاـهـوـعـلـيـشـاـكـلـتـهـمـؤـدـيـاـأـوـلـفـيـتـهـقـدـيـمـاـوـحـدـيـثـاـ، وـلـهـأـيـضـاـمـنـzـالـزـهـادـوـالـمـتصـوـفـوـأـهـلـالـرـأـيـعـلـىـامـتـداـدـالـزـمـنـوـتـلـوـنـالـمـهـورـ.

٣ - دمشق بين عصر المماليك والثمانين - ص ٩٥ - تأليف: د. أكرم العلي - منشورات: الشركة المتحدة للتوزيع - دمشق ١٩٨٢ •

ومنذ توطلت فيها أول دولة عربية في فلسطين ، أعني الدولة الأموية ، وهي منطلق الحس القومي ومرتكزه ، تخبو جذوره آنا وترثب آنا ، وننه لا تمو ، وقد تغز ذلك فيها يوم قومنا ظلم الشهرين وحملات الترتير واتفاقية سايكس - بيلو ، والاستعمار الفرنسي ، والوجود الصهيوني في جناح بلاد الشام ، وظللت وستبقى منطلق العمل البولوني والتعريري والتعريفي ، على مستوى عربي شامل ، وقد أثبتت في معاركها ومواجهتها القديمة والحديثة ، وعيباً وصلابه وبياناً في وجه الظلم والقلام ومخططات الاعداء والطامعين والحاقدين .

أفلأ تتدخل ، من خلال هذا القليل الذي المحت اليه ، دمشق مع التراث ؟ ! أفلأ يشكلان حة وسدى يصعب العديث عن نسيج مديني ومدنى وحضارى من دونهما ؟ إن من ينظر الى أبواب دمشق وسورها وتجليات عمرانها داخل السور القديم ، والى صخب الحياة وغناها اليوم وتنوعها داخل ذلك السور ذاته ، يستشعر بان قلب دمشق هو قلب الحياة ، وهو الذي يضخ في قلوب عشاقها دم العج والاعتزاز بهما وبالانتماء اليها .

وان من يسرح النظر ويتأمل فيما استجد داخل سورها وخارجها على مدى قرون ، ويستفرغه عمر المدينة وعمرانها ، بالمعنى الغلدوني للعمران ، يعجز عن كبح جماح العشق والاعتزاز والزهو ، ويسلم قيادة القلب لقلب يرجو الا يعمى ابداً والا يشيخ ابداً ، ليرى ويدرك ويستمع ويعجب ، ولتدخل فيه ، كما تتدخل فيمن يعيش ، انشاج البدائيات مع ما انتهت اليه الشام اليوم من عمران ومواقف واستخلاصات ، وليتحقق من ان العذر الثقافى العربي القديم - القديم الذي نبت عليه جنوح دمشق وفروعها ، هو ذاته العذر الغى الذى ما زال يمد عروبتها واسلامها اليوم بنسخ الرؤية والحياة ، وانه سيفتى قادر على استيعاب كل معطيات التربية ومستجداتها ، فيتمثلها ويسوغها ويسوها ويندمها خذاءً ونموا وبقاءً لأنواع حضوره اليوم وبقائه المرتقب على الزمن ، حاماً هوية المكان والزمان والأمة التي كانت دمشق حاضرتها الأحب ، والأعز والأوضح والأصرح ، وستبقى .

فللمسنون ، من ريحانها وياسمينها وجوريها ، باقة فيها من حب القلب وخلاصات العقل والوجدان ، ما لا يخفى على البصيرة اذا ما عجز عن ترجمته البيان .

ولجلة التراث العربي التي تعتمد باصدار عدد خاص عن دمشق التعبية على اهتمامها ، وعلىها نظر الامنية بان تخرج خارج بعض اسوارها لترى كيف يزور العصر المدن ويقتum العضارات وثوابت الثقافات ، وكيف توجه جهات وبلدان سموها الى ارواح ابناها واسس بنائنا ، لتمكن من المواجهة الفعالة بعصرنة الرؤية والاسلوب ونوع الخطاب ، ليتمدد اعمق واغرض واطول جسر التواصل الذي تقيمه بين اجيالنا العربية وتراثها العريق ، ولتكون الوعي والإيمان والانتماء الأصيل حباً عميقاً ووعياً معرفياً دقيقاً ، للأمة وتراثها ولتها ومرتكزات العضارة ومراكيزها العرقية التي تنير الطريق اليها ، وتطلق الإرادات والعزمات لتنشق طريقها الى التقدم العلمي والبناء العضاري ، والتعامك القومي ، والفن الروحي ، والحضور الفعال لأمة وحضارة وعقيقة وثقة كانت مع الأمم والثقافات دائمة في سجال ، تعطي ولا تعرف الغياب المميت ، او الموت .. الغياب وستبقى كذلك .

والله من وراء القصد

« علي عقلة عرسان »

دمشق ٢٠ / ٣ / ١٩٩٤

# كتاب مشف حكاية الأزل

سليمان العيسى

عَبَقُ التَّارِيخِ .. يَا أَمَّ السَّنَّا !  
أَمْ نَدَاءُ الشِّعْرِ .. أَنْتَ لَدِيَّا ؟

أَيُّ خَمْرٍ ؟ كُلْتَمَا مُدْتَهَتْ يَدِي  
صَعَقْتَنِي الْكَأْسُ ، فَارْتَدَتْ إِلَيَّا

أَيُّ سِرِّ أَنْتَ ؟ نَهَدْتُ عَلَى  
شَاطِئِ السُّعْدِ .. وَبِقِي أَذْكَلِيَّا

أَيُّ اُنْشُودَةٍ مَجْدِ .. أَرْضَعَتْ  
مُولَدَ الدَّهْرِ سَاهَا الْعَرَبِيَا !

آه .. يَا شَامَ ! تَعْبَنْتَا كُلُّنَا  
وَمَضَى لَغْزُكِ جَيَّاراً عَصِيَّا

كُلُّنَا دُونَكِ زَوَّقْنَا الرَّوْيِ  
وَعَشِيقْنَا .. وَتَغْزَلْنَا مَلِيَّا

\* \* \*

شُعْرَاءُ الشَّامِ .. وَانْهَلَ الشَّيْدَا  
 وَإِذَا الْعَرْفُ جُنُونٌ مِنْ حُمَيْدَا  
 أَنْتَ أَعْطَيْتِ .. وَلَمَا تَنْتَمِبِي  
 وَمَشِيَ الْكِبِيرِ بِيَرْدَيْكِ فَتَبِيَا  
 مَرَّةً .. وَمَضَةَ سِيفِ فَاتِحِ  
 مَرَّةً .. عَصْمَاءَ تُخْوِي عَبْرِيَا  
 كُلُّنَا فِيْكِ .. أَنْخَنَا رَكْبَنَا  
 وَسَالْنَا بَرَادِيَ التَّارِيخِ رِيَا  
 كُلُّنَا عِنْدَكِ .. الْقَيْنَا العَصَنَا  
 وَوَقَفْنَا .. زَرَرَوْ رَدِّ نَتَفِيَا !

\* \* \*

آهِ يَا شَامِ ! تَقَاسَمْنَا الْهَوَى  
 فَإِذَا أَنْتَ الْهَوَى .. رُشْدًا وَغَيْرًا  
 إِيْدِنِي لِي أَفْتَأِيْعُهَا وَقُفَّتِي  
 غَزَّلًا يَفْرُضُهُ الْعَبُرُ عَلَيْهَا  
 أَيْكُونُ الشَّعْرُ إِلَّا قَصْفَةَ  
 مِنْ جَنَاحِيْكِ .. وَيَنْهَالُ سُخْيَّا ؟  
 لَا أَنَا قَلْتُ .. وَلَا قَالَ فَمَّا  
 أَنْتَ مِنْ رَقَرَقَنَا حَرْفَانَدِيَا

مَنْ سَقَانَا ..  
 مَنْ سَبَانَا ..  
 مَنْ حَكَى ..

\* \* \*

ثُمَّ رَدَدْنَا الصَّدَى حُلْنَمَا غَوِيَا

\* \* \*

يا قصيدة المبتدأ والمنتهي  
 إيندَني لي فيكِ أنسابٌ روياً !  
 لسةً منكَ ، ويصوّر عالَمَ  
 من غواياتِ الصُّبا بين يديَّا  
 إيندَني لي أرتسي .. يا حلوتي  
 في ذراعيِّ حلوتي طفلاً نقِيَا

★ ★ ★

تعية خضراء للشام .. تعية لدمشق، ملهمتنا الأولى ، وعروس قوافينا  
 الحالدة ، ولملحمة أمجادنا العربية التي ما نزال نعيش على ذكرها ، ونستظل  
 بذراها .

ومن ذا الذي يستطيع أن يتتجاوز عاصمة العب والمجد والضوء اذا أراد أن  
 يقول شعراً ، أو يفنى لعنًا ، أو يتقلد سيفاً في معركة ؟  
 أعرف أنني واحد من تلامذة المطر والياسمين ، في مدينة المطر والياسمين ،  
 وأستاذن القارئ لأعود في لمحات خاطفة الى ذكرياتي القديمة .. الى طفولتي .

كيف ارسمت صورة دمشق الأولى ، في رأس هذا الطفل الذي كان يحاول  
 كتابة أولى قصائده في ظل « شجرة التوت » في قريته الصغيرة الضائعة وراء الأسلامك  
 والضباب في لواء اسكندردون الغارب عن ذاكرة الأجيال العربية منذ أمد بعيد .

حول مدفأة تتقدّم نارها ، وتحتفظ حولها مساءً ، على مفرش من القش ، في  
 ليالي الشتاء الباردة ، كان والدي شاعر القرية ومعلّمها الشيخ أحمد العيسى  
 - رحمه الله - يتكىء على وسادة الى جانبه ، ثم يأخذ بيده نسخة من مجلة  
 « المجمع العلمي العربي » ، لا ادري كيف وصلت اليه .. الى تلك القرية المهملة  
 النائية ، شمالي سوريا ، يأخذ المجلة بكل ما عرفنا عنه من حب لذكلمة ، وتقدير  
 لفرسانها ، ويمضي في تصفّحها ، متوقناً عند بعض الأسماء الشهيرة التي كانت  
 تعرّر فيها .. ثم يتوجه إلينا قائلاً :

هذه مجلة المجمع .. صرح العرب الشامخ في دمشق ..

وهوّلاء هم فطاحل اللغة والشعر والأدب ..

محمد كرد علي ، عبد القادر المغربي ، التنوخي ، المبارك ، فارس الغوري ، عيسى اسكندر الملعوف ، خليل مردم بك .. إلى آخر القائمة ..

ويتعمّد أن يلفظ أسماء هوّلاء الأعلام بشيء من التفخيم والتعظيم ..

يجب أن تقرؤوا لهم .. وتعرفوا ما يكتبون ، ويبحرون من روائع ..

كنت أشعر أنه يوجه كلامه إلىـ بالذات حين يتابع قائلاً :

ادرسوا مقالات الكتاب ، واحفظوا قصائد الشعراء الذين ينشدون في دمشق ..  
إنهم ذخيرتنا الجديدة .. نضيفها إلى كنوزنا القديمة ..

وتمضي الأيام .. ويكبر الطفل .. ويأتي إلى دمشق بعد ضياع وطنه الصغير ، حاملاً معه ديوانه الأول ، وعروبه ، وذكريات قريته في أوائل الأربعينيات ..

يأتي مع مجموعة من فضيّان العروبة الصفار المتمردين ، المشردين الذين آثروا أن يحتفظوا « بهويتهم » مهما كان الثمن ، ولم يحسبوا لشيء حساباً ..  
« هويتهم » العربية المطاردة ، المهددة ، التي قاتلوا من أجلها في وطنهم الصغير « الملواء » .. ثم هُزِموا ، وسلب « وطنهم الصغير » ففرعوا إلى رحاب الوطن الأم ، مصرَين على أن تظل أقدامهم على الأرض العربية .. ول يكن بعد ذلك ما يكون ..

وتنستقر الأقدام الصغيرة المشردة ، المتمردة ، في دمشق ويستمر الكفاح ..

دمشق .. في أواخر الثلاثينيات .. وأوائل الأربعينيات ..

« جُنينة » خضراء واسعة ، ترمي أطراف إزارها الأخضر بين البساتين ،  
تفوش بيوبتها في الغصّرة والظلل والشجر .. يلاحقك عطر الياسمين في أي شارع صغير تمشي فيه ، حتى إذا ما بلقت ضفة من ضفاف « بردى » ، رأيت « عصفور الجنة » يسقّسق بين يديك ماء نقياً صافياً تفترف منه وتشرب ، قبل أن يغالطه كدر ، أو يلوّثه بشر ..

دمشق .. هذه «الجنبة» الخضراء الواسعة .. كانت تعرف جيداً كيف تتتمم وتنتفخ على «النير» الغريب الذي كان يفرض نفسه على لؤلؤة العرب ، وحورية التاريخ وتتتمم وتنتفخ بكل ما تملك من قوة وبأس وأمجاد على «الانتداب» الذي جثم على صدرها حقبة من الزمن .. الى أن خلعت «النير» الغريب ، وتركت منه الى الأبد ..

وكنا – نحن الفتية الصغار – نشاطر دمشق ، لؤلؤتنا الغالدة ، عطرها وفنالها .. نقاتل معها .. ونأوي مساءً إلى صدرها العربي الذي اتسع وما يزال يتسع للتاريخ ..

في تلك الفترة بالذات بدأنا حركة البعث .. في قلب العروبة العربي ، النابض على الدهر ، كما تعود كل عربي أن يقول وهو يعانق أول نسمة من «صبا بردى» ، ويضع قدميه على ثرى الشام ..

واستمتع القارئ عذراً ، لأقتطف بضعة أسطر من مقال طويل لي أتحدث فيه عن هذه الفترة ، بعنوان «البدايات» .. والمقال منشور ومعرف ..

«بيت صغير .. يعتل الزاوية التي تلامس الأرض من سلسلة بيوت في حي «السبكي» بدمشق ، تميز بابه القديم حجرة واحدة ترتفع قليلاً عن الأرض ، تعدد نفسها درجة ، أمر بها الآن في طريقي عجلان ، فيما أكاد أقترب منها حتى أتوقف فجأة ، وأحسن حنيناً في أعماقي ، يدعونني إلى أن أجلس عليها ، ولو اختلست اللحظة اختلاساً ..

هذه «الحجرة» الصغيرة ، هذه الدرجة التي لا يملك بيتنا القديم غيرها ، هي «برقة شهد» ، هي «حومة اندراج» هي «سقطر الطوى» هي «الدّخول» و «حومل» .. هي عندي وعند قبضة من رفاق الصبا أطلاناً الشاعرة ، وندوة سمرنا في المشيّات .. كنا نتقاسم الجلوس عليها في ليالي الصيف ، ليالي القمر ، والعطر ، والياسمين في دمشق ، يبدأ الجلسة رفيق الصبا وهيب الغائم بحديث عن التاريخ العربي ، تاريخنا الذي سنغير وجهه نحن الأطفال المشردين الذين لا يملكون ثمن عشائهم .. ولم تكن لتناجينا ذرة شك في أننا سنغير يوماً هذا التاريخ ، سنحرك «المقبرة» الضخمة .. سنبعث فيها

الحياة أغنى ما تكون الحياة ، وأجمل ما يكون البعث . ستصنع الدولة العربية  
الكبرى .. نحن الأطفال المشردين ، الجائعين ، الذين تعودوا في تلك الأيام  
ـ أيام العرب والبؤس والحرمان ـ أن يبقوا يومين أو ثلاثة أيام بلا طعام ، وهم  
سعداء أصنف ما تكون السعادة ، متفائلون أروع ما يمكن التفاؤل .. اليهوا الذين  
انتد بهم القدر لبعث الأمة العربية .. لبناء الوطن الواحد العظيم ؟

يا لروعة الطفولة .. وصفاء الأحلام !

الجوع وحده يستطيع أن يُبدع ..

أن يبني العالم من جديد ..

لا تظنوا نوما هادئا على وسادة من حرير قادرأ على أن يضيف شيئاً جميلاً  
إلى هذا العالم .

\* \* \*

برَدِي .. ياعصفورة يكتب ،  
يكتب شعرأ للأطفال  
علقنا بعنایك وارکض ،  
يانهر الأطفال

وأغيب عن دمشق .. وعن « عصفورها » الذي يكتب شعرأ للأطفال ..  
أغيب عنها الأعوام الطوال .. مرة في بغداد متابعاً تحصيلي الجامعي ..  
مرة في حلب .. مدرساً للغة والأدب في ثانوياتها ..

ولكن مدينة العطر والمجد والياسمين تظل معنـي .. تشدني إليها بغیوض  
خفية ما أظن أحداً يستطيع لها حصاراً أو تحديداً ..

لم انقطع عنها .. ولم تنقطع عنـي ..

وكيف ؟ وهي القلب الذي يوزع النبض على العروق كلها ..  
نهبط إلى دمشق .. نزورها كلما أتيحت لنا فرصة ..

فيها نلتقي رفاق الصبا .. ونقيم الندوات والمهرجانات القومية .. ونلقي  
قصائدنا الملتهبة بين يدي « عاصمة العروبة » التي يتلاقى فيها الشباب العرب من  
كل قطر من أقطار العروبة .

في دمشق .. كنت تجد العراق .. والأردن ، ومصر .. وتونس ..  
والجزائر .. والمغرب ..

في دمشق .. كانت الأحلام العربية كلها تستقر ، وتحاول أن تتجسد ..  
في دمشق .. كان الصدى يتردد قوياً واثقاً مشحوناً بالعزيمة والأمل لكل طموح  
عربي .. لكل ثورة عربية .. لكل خطوة تخطوها أجيال العروبة الظائنة إلى الحرية  
والحياة ..

\* \* \*

في مقهى شعبي يعتزل زاوية هادئة من زوايا « الجسر الأبيض » ، وينساب أمامه  
فروع من فروع بردى العالم الوديع ، كنت أجلس مع رفيق العمر والغربة والألم  
صدقى اسماعيل ، هذا الدهن العربى الصافى المتقد .. نجلس ساعتين أو ثلاثة  
نقرأ ونكتب ، وندخن « الترجيلة » ، ونرصد الحياة العادية ، حياة الناس  
الذين يمررون أمامنا في الشارع .. كان ذلك في أواسط التسعينيات .. وكانت  
دمشق آئتها لا تكاد تسعها الدنيا لكثر ما يضج في صدرها من صَبَّوات وأمانٍ  
وطلمات ..

وأكتب ذات يوم قصيدة بعنوان : « الجسر والمقهى الهرم » .. وأبعث بها  
إلى صدقى .. وأحاول أن أحئل القصيدة بعض ما كان يتصف في صدرنا وفي صدر  
دمشق من حب وعطش للحياة : فلاتوقف قليلاً عند « الجسر والمقهى الهرم »  
وأعرض بعض المقطع من هذه القصيدة - المذكرى :

ستقيناً للأمس .. أخا العام !  
وسلام .. يالليل الشام !  
الهم .. ذاب بالهم ..  
وكؤوس .. تعبق بالسُّمْر ..  
وشباب .. للدنيا ظامي !

افتق" .. يتكشّف عن افتق  
في روح ظمان قلق  
ويهيب' الشعر' : أن انتلقي  
فوق الاشفاق ، على العذر  
فإذا ببياني في رهق !

عُدْ بي لمَقِيلكَ فِي الشَّامِ  
 «نَفْسٌ التَّنبَّاكَ » .. وأَحَلامِي  
 وشَرُودٌ .. عَبْرَ الْأَيَّامِ  
 وخواطِرٌ «تَغْيِيرٌ» البَشَرِ  
 ومُخْطَطٌ إِنْسَانٌ سَامِي

للجمس ، و « مَقْهَاهُ الْهَرَمِ »  
 طيف في الغاطر لم يَرَمْ  
 صُورَ . . . تنتال على قلبي  
 شعراً . . . لومَّا على وترِ  
 التفجر نَبْعٌ من نَفَمْ

إنْ عَجِّتَ عَلَى الْمَقْهُى فَقَبِّلْ  
وَتَجَاهَ السَّاقِيَةَ اتَّعَطَّفَ !  
كُرْسِيُّ الْقَشَّ عَلَى طَرَفِ  
وَخِيوطٍ " مِنْ ضَوْءِ الْقَمَرِ  
وَسَلَامُ الزُّهْدِ عَلَى التَّرَفِ !

إجلس .. . تسبيقْكَ « النرجيلة »  
 وأبو عدنان<sup>(١)</sup> .. . فتى حيله  
 ولقد تعميّكَ « التشعلة »  
 وترنّقْ نارُكَ فاصطبّر !  
 فلِكُلْ عسِيرٍ تدلّلَه !

\* \* \*

ومَعَ النَّفَّاشَاتِ الْمَوَارَةَ  
 يجلو المتأمّلُ أفكارَهُ  
 ويُصافحُ قلبَ أسرارَهُ  
 فإذا هُوَ في لُجَّ الفِكَرِ  
 نَسَمَ .. . يتلمّسُ أوتارَهُ

\* \* \*

الشارعُ قربكَ .. . والناسُ  
 حسٌ .. . تتلوه أحساسٌ  
 مُتَّسِعٌ للعينِ .. . وإيناسُ  
 صُورَ تجلو شَبَحَ الضَّجَرِ  
 الشارعُ قربكَ .. . والناسُ

\* \* \*

حسناً ، ومنديل " شفَّ"  
 وفتى بالفاقة مُلْتَفٌ  
 وخُطى تمضي ، وخُطى تَقْفُو  
 وصفاءُ الأفقِ مدي البصرِ  
 ونداءُ العَبْ .. . ألا تهفو !!

\* \* \*

١ - أبو عدنان : صاحب المقهى .

فرحتان عاشتهما دمشق في تاريخها العديث ، فرحتان ما أظن أنها عاشت مثلهما في تاريخها المديد : فرحة الجلاء في ١٧ نيسان من عام ١٩٤٦ ، وفرحة اعلان الوحدة بين القطريين العربين الشقيقين سورية ومصر في عام ١٩٥٨ .

وفي كلتا الفرحتين كانت الشام تجسد أحلام العربوبة في كل هناف ، في كل زغرودة ، في كل خلجة يتحقق بها قلبها الكبير .

كانت للعرب جميعاً من محظوظهم إلى خليجهم ..

وكان العرب لها .. لا يساورها في هذا شك .. ولا ترى فيه إلا حقيقتها التاريخية ، وجوهرها الذي تنصره فيه كل الشوائب والأعراض وتزول ..

هل يناقش أحد في حقيقته ؟

وهل يشك في جوهره ؟

تلك هي المقوله التي كانت الشام تراها أبداً طارئة وعارضه ..

وكانـت أبداً قادرـة على أن تمثلـ الجميع .. وستـوـعـ الجميع ..

و تلك مـيـزة من مـيـزـاتـ المـدنـ الـمـظـيـمةـ الـتـيـ تـوـلـفـ نـسـيـجـهاـ الـحـضـارـيـ الـخـاصـ عـبـرـ العـصـورـ ، و تـجـاـوزـ بـهـ الـعـصـورـ ..

في كلتا الفرحتين عشت مع مدینتي العظيمة أيامأ لا أجمل ولا أحلى ..

في كلتا الفرحتين كانت أحلامنا العربية ثبتت ريشها القوي في الأجنحة ، وتطير بنا إلى المستقبل .. إلى الأمل المنشود .. الذي داعب - وما يزال يداعب - خيال كل عربي في السر أو في العلن : الوحدة ، الوطن العربي الواحد .. الذي تزول فيه العدود والسود التي لم يكن لهذه الأمة يد في صنعها .. لا من قريب ولا من بعيد ..

في كلتا الفرحتين كانت لي ، كفيري من الشعراء ، قصائد وأغان وأهازيج .. انتشرت في مجموعاتي الشعرية ، ولا أرى مجالاً آن لاستعادتها واستعراضها ..

بعض هذه الأحلام الجميلة تكسـر ..

وبعضها ما يزال أجمل ما في حياتنا ..

تباركَ العُزْنُ .. يُغْوِي جُنْتِي أَبْدَا  
إِذَا انتَهَى بِالرَّمَادِ الْيَاسُ وَالْعَزْنُ  
إِنِّي أَصِرُّ عَلَى رُؤْيَا تُمْزَقْنِي  
كُلُّ الْقَرَابِينَ فِي نِيرَانِهَا امْتَحِنُوا

\* \* \*

وأَعُودُ فِي عَامِ ١٩٦٧ لِأَسْتَقِرُ فِي دَمْشِقَ ..

عاصِمةِ الْعَطْرِ وَالضَّوءِ وَالْيَاسِمِينِ تَحْتَضِنُ هَذِهِ الْمَرَةَ طَفَلَهَا الْقَدِيمُ الْمُشَرِّدُ ،  
لِيَهُدُّا فِيهَا مَعَ زَوْجَةِ وَأَوْلَادَ ، يَجْعَلُهَا مَثَلَّهُ ، وَيَجْدُونَ فِيهَا الْأَفْقَ الْأَرْحَبَ الْدِي  
يَتَنَفَّسُونَ فِيهِ ..

فِي قَبُو صَفِيرِ جَبِيلِ تَحْفَ بِهِ « جَنِينَةً » صَفِيرَةً مِنَ الْخَارِجِ وَالْدَّاخِلِ ، وَتَعْرِشُ  
عَلَى سُورَهَا الْخَارِجيَّ شَجَرَهَا يَاسِمِينٌ تَمَدِّرُ أَسْهَا حَتَّى تَكَادُ تَغْطِي الرَّصِيفَ ، وَتَنَازَعُهَا  
السُّورُ الصَّفِيرُ شَجَرَهَا لِيَمُونُ عَطْرَهَا تَنافِسُ الْيَاسِمِينَ ، بَمَا تَوَزَّعُ مِنْ أَرْبِيجٍ يَسْتَقْبِلُ  
كُلَّ هَابِطٍ إِلَى قَبُونَا ..

فِي هَذَا القَبُو حَلَّتْ مِنْذُ عَامِ النَّكْسَةِ .. وَمَا أَزَالَ ..

شَجَرَاتُ النَّارِنجِ الْثَلَاثُ الَّتِي تَحْتَلُ حُوضَ التَّرَابِ فِي الدَّاخِلِ هِيَ مُلْتَقِي  
الْعَصَافِيرِ كُلَّ صَبَاحٍ .. وَلَيْسُ أَشْعَرُ وَلَا أَطْرَبُ مِنْ عَصَافِيرِ دَمْشِقَ عَنْدَ الصَّبَاحِ ..  
أَذْكُرُ أَنِّي أَهْدَيْتُ إِلَيْهَا ذَاتَ يَوْمٍ خَاطِرَةً شَعْرِيَّةً مُنْثُرَةً تَقُولُ :

أَيْتَهَا الْمَخْلوقَاتُ الصَّفِيرَةُ  
الَّتِي تَحْمِلُ الصَّبَاحَ فِي مَنَاقِبِهَا ..

وَتَشْرَبُ السَّمَرَّةَ وَالضَّوءَ شَعْرًا وَفَرَّحًا ..

أَيْتَهَا الْمَخْلوقَاتُ الرَّائِعَةُ !  
الَّتِي تَلْتَهُمُ أَصْوَاتُهَا شَجَرَاتُ النَّارِنجِ الْثَلَاثُ

مَعَ أَشْعَعَ الشَّمْسِ الْأُولَى  
فِي حَدِيقَةِ قَبُونَا الْمُتَوَاضِعِ

لا أدرى أي شاعر حديث قال عنك  
في إحدى «قصائد» :  
«كدت أحسد الطيور على حياتها  
لو لم أتذكر أنها ليست شاعرة!»  
يا «شاربة الريحق المُفَلْفَلَ»  
كما وصفك شاعرنا القديم<sup>(١)</sup>  
أين يمكن أن يتفجر الشعر  
إذا سكتت هذه «السمفونية» الساحرة

على شجيرات النارنج الثلاث ..  
التي غرسناها أنا والسمراء  
في مطلع الربيع الفائت ..  
ونحن نعلم بالمناقير الصغيرة تملؤ هاكل صباح؟  
نعم أين يمكن أن يتفجر الشعر والفرح  
أيتها المخلوقات الصغيرة المبدعة؟

\* \* \*

يا «شاربة الريحق المُفَلْفَلَ» !  
لا تفادي حديقة قبونا المتواضع ..  
لا تتركي شجيرات النارنج والمداد الأخضر الذي  
يرصع بازهاره الجدار !  
سنُبَكِّرُ أنا وسمرائي ، مع أشعة الشمس الأولى كل يوم ،  
لتسمع «سمفونية» الصباح ..

\* \* \*

وتلح علىِّ ابنتي الصغيرة ذات يوم أن أريها معالم دمشق الأولى ، دمشق  
التاريخ والطبيعة والفن ..

هذا ما قرأته في عينيها ، وهي تعيسؤالها كأنها لا تريد أن تتنازل عن حقها  
في أن ترى ، وتعرف ، وتطلع ..

١ - انظر فيوان امرئ القيس : المعلقة من ٦٣ .

وأخذ بيد الصغيرة ، ونمضي في صباح يوم جيل الى قمة جبل قاسيون ، حيث أصبحت تلك القمة مجموعة من العدائق الصغيرة ، توزعها الطرق المعدة ، المتسلسلة هنا وهناك ..

ومع أنسام الصباح .. نشرف من قمة الجبل الصامت الوقور على دمشق ، وغوطتها الخضراء ، الممتدة حتى الأفق ، في كل الجهات ..

أي منظر ساحر هذا الذي يأخذك ، وأنت تتأمل المدينة الكبيرة ، التي نشرت ذوانبها بين أحضان الفوطة ، حتى غاب الكثير من أحياطها بين البساتين التي لا تنتهي ..

ما أغلن أن عاصمة في الدنيا قررت أن تسبح بين أمواج الخضراء التي تلفها من كل جانب كما فعلت عاصمة العرب الخالدة ..

وأخذ بيد ابنتي ونبيط سريعاً لنغوص في قلب دمشق ، نجتاز شوارعها القديمة التي تحمل نكهة التاريخ ..

وأقف مع الصغيرة بعد قليل على عتبة الجامع الأموي ..

حيث يتجسد جلال الماضي كله أمامك ، وأنت تجتاز العتبة ، لتدخل هنا العرم الذي يضم بين جناحيه ذكريات أضخم امبراطورية عرفها العالم القديم .. من هذه العتبة .. من هذا المسجد العظيم .. مسجدبني أمية يا بنيتي .. كانت جحافل الفتح العربي تنطلق حاملة عقيدتها ولفتها وأشعارها لتركزها شاغة ، مضيئة ، هادبة ما بين الأندلس وسور الصين .. وما تزال حتى الساعة تترك بصماتها الحزينة بين الأندلس وسور الصين ..

من هنا .. من دمشق ..

كنا نحمل راياتنا العربية لنقول كلمتنا للعالم ..

ربما وقفت الصغيرة يومئذ حائرة أمام كلماتي هذه ، ولم تفهمها كما ينبغي . ولكنني كنت واثقاً أنها كانت شديدة التاثير بما ترى وتشهد ، الى حد أنها شدتني من يدي ، وقدرتني في صمت الى داخل المسجد العظيم ، تريد أن تتأمل كل شيء فيه ..

ورحم الله شوقي :

لولا دمشق .. ما كانت طليطلة  
ولا زهتْ ببني العباس بفدانْ

\* \* \*

وخرجنا من زيارة الجامع العظيم ..  
الصغيرة تريد أن ترى قبر صلاح الدين .. بل حطلين ..

لقد قرأت بعض قصص الأطفال عنه ..  
وهي تعرف أنه مدفون في دمشق ..  
ولم يكن قبر صلاح الدين بعيداً عنا ..

فما هي إلا خطوات .. حتى كنا أمام ضريح محرر القدس ، وداحر جيوش  
الفزو المفرنجي القديم ، صلاح الدين الأيوبي ، يلفه الصمت ، وتجلله هيبة  
الماضي ، في هذا الركن الهادئ من أحياء دمشق القديمة ..

وتصر ابنتي الصغيرة أن التقط لها صورة ، أمام قبر البطل التاريخي ،  
تحتفظ بها ذكري ثمينة ، من ذكرياتها التي تعرضت عليها ، وتمتز بها ، فأنفست  
لها رغبتها الطفولية التي كانت تحمل - دون أن تدرى - معنى ارتباط الحفدة  
 بالأجداد ..

نعم ، يا بنتي !

لم يحمل فاتح في الدنيا سيفاً ، وفكرة ، وقصيدة ، كما حمل أجدادك العرب  
إلى العالم .. ومع ذلك .. فإن هذا العالم ما يزال يحمل علينا النهب والسلب ،  
والغراب والمدمار ..

ولا ينبغي أن نلوم في هذا كله إلا أنفسنا ..

\* \* \*

وننطلق عبر الأسواق القديمة إلى :

« بيمارستان النوري » ، أعظم مستشفى قام في ذلك العصر ..

ثم الى « قصر العظم » .. هذه الآية الفنية التي تختصر سمات البيوت العربية القديمة كلها في دمشق .

حول البركة الواسعة التي تتوسط باحة القصر ، تعحيط بها الأشجار المطرة ،  
تعودت دمشق أن تقيم لياليها الشهيرة ، المنزولة بالشعر والنغم والطرب ..  
وتروف الذوق والفن الشعبي الأصيل .

والذين حضروا ليلة من تلك « الليالي » لا ينسونها مدى الحياة .

\* \* \*

وبعد أن أطوف بالصفيحة في قلب دمشق ، مارين بقلعتها التاريخية التي  
تتوسط المدينة ، أقرر أن أعود بابتي إلى البيت ، وفي رأسي نزهة أخرى ، في يوم  
آخر ، ربما كانت أمنع وأحلى .

نزهة أمضى بها مع الأسرة كلها إلى أحضان الغوطة ..  
إلى بساتينها التي لا تنتهي ..

ولكن الأفضل مثل هذه النزهة أن تؤجل بضعة أيام ..  
حيث تكون الغوطة قد بدأت « تُزهر » ..  
وننعم في مطلع الربيع ..

وحين تُزهر الغوطة .. في مطلع الربيع ..  
فإن كل من يتندوq جمال زهرة ، وعطر زهرة ..  
كل من يحب أن يرى الطبيعة .. أن يرى الحياة تتجدد ..  
أبهى وأروع ما يكون مشهد التجدد ..  
لا بد أن يفكر بنزهة في أعماق البساتين ..

حيث تبدأ ملايين النجوم - من كل الألوان - ،  
ولا سيما اللون الأبيض ..

تنشر ملائتها على ملايين الأشجار  
في غوطة دمشق الأزلية ..

كل صديق في الشام يخطر له أن يسألك :

هل زرت الفوطة في أيام الزهر ؟  
وأيام الزهر مع وفاة .. تمر بسرعة كالعلم الشاعري البديع .  
فلندع هذه الجولة يا صغيرتي إلى يوم آخر ..  
ولن أدع هذه المتعة تفوتنا ..

\* \* \*

عاصمة العطر والضوء والياسمين تتسع ..  
العمران يمتد .. والأخضر يتراجع ..  
دمشق ، الزمردة المنداحة شرقاً وغرباً حتى الأفق ،  
تُسلم ملابين النجوم الخضر من غوطتها التاريخية للاسمنت والعديد ..  
ظاهرة ابتلت بها كل عواصم العالم في العصر العظيم ..  
غابة الاسمنت تغزو غابة الخضراء ..

ولكن الياسمين ما يزال يقاوم .. يصر على أن مدینته الخالدة لا بد أن تظل  
مفتوحة التواقد ، مفتوحة الصدر للعطر والأريح ..

حديقة « السبكي » وحديقة « الباحظ » المختبرتان ما تزالان تدعوانك  
لتسلّل رئيك من « صبا بردی » ومن أنفاس الفوطة التي تهب من بعيد ..  
في حديقة « الباحظ » الأنيقة ، الملموسة على نفسهاها كفراشة لا ترید أن  
تُتعب جناحيها بالطيران ، تعودت أنا وزوجتي أن نلتقط أنفاس الصباح الأولى  
من كل يوم بمشوار نطوف فيه من خمس إلى عشر مرات أحياناً حول مملكة  
« الباحظ » الصغيرة ، قبل أن نعود إلى البيت ونبداً عمل النهار ..  
ولكي تتنشق أحلى وأنقى نسيم في الدنيا ، وتحس بأذدب متعة تتغلغل في  
صدرك ، استيقظ مع أشعة الشمس الأولى ، وطف ساعة أو بعض المساعة في  
إحدى حدائق دمشق ، أو في أحد مُتَنَزَّهاتها .. عندئذ ستدرك أي سر من أسرار  
الطبيعة تخبيء « بنت قاسيون » الخالدة في حنایاها ، وأي نعمى حبها بها خالق  
هذا الكون !

\* \* \*

أيتها الملهمة ! يا أقدم مدينة ما تزال حية عامرة على وجه الأرض !  
كما يؤكد تاريخ الحضارة ، وتاريخ العمران ، وتاريخ العبير ..

ساق قليلاً لأعيد على مسمعك نشيداً افتتحت به مسرحية شعرية لي .  
استعرتُ ركايزها الأولى من تاريخك .

إني أحب أن أعود معك قليلاً إلى الوراء . . . إلى التاريخ . . .

اسمعي لي أعد على سمعك هذا الحدأ الذي جعلته مدخلاً لمسرحية «ابن الأبيه ، الإزار العريج» ، ول يكن وقفه استراحة خلال سفرك ، ودندنة عود دمشقي تعودت أن تُسكري به المصور . سأنقل إليك النشيد مع مقدمته في مطلع المسرحية :

« قافلة غسانية تجتاز بساتين الغوطة ، قادمة من العجاز ، مثقلة بالبضاعة من شتى الألوان ، يحدوها الحدأ ياصوات تذوب رخامة ورقة ، وهي تشارف أسوار دمشق . يرتفع الحداء ويتموج بهيجاً مرحأ ، حين تدخل القافلة أبواب المدينة ، كأنما يحمل في أعطافه كل ندى الغوطة وأنسامها .

في ركن من أحد الشوارع يقف رجلان جاؤوا الأربعين .. يبدو أنها شاعران ..  
من أولئك الشعراء الذين يَمْدُون على الملوك . يرقب الرجال القافلة وما يُنصنـان في لذة إلى العداءِ الرخيم . . .

الحدأ ينشدون . . . وهم يدخلون المدينة التاريخية ، الفارقة بين المُحضر والظلالة » :

خَلَقْنَا الْبَيْدَ الْمَطْشَى  
وَدَعْنَا الرَّمْلَ الْأَغْبَرَ .  
وَلَهَا الصَّرَاءُ الْحَرَّى  
وَبِسَاطُ الرَّمْضَاءِ الْأَحْمَرُ .  
هاتِي . . . يَا أَيْكَةُ ظَلَائِيكَ  
مُدَّيِّ يَا شَامُ ذِرَاعِيْكَ  
الْغُوْطَةُ أَقْدَاهُ وَمُدَامُ  
وَالْجَنَّةُ عَطْرُ يَا شَامُ !

أَجْرُ الدِّيلَ، وَالْقُبُلَاتِ ..  
 خلفي .. من فمِ لِفَمِ ..  
 الثاني : دَعَ الْحَلْمَ الغُويَّةَ الْآنَ ..  
 دَعَنَا مِنْ نَدَى غَسَّانَ ..  
  
 نَرْمِيهِ غَدًا بِالسُّعْرِ ..  
 نُهْمِطْرِهُ شَرُودَ الشِّعْرِ ..  
 دَعَنَا الْآنَ ..  
 وَاشْرَبَ رُوعَةَ النَّفَمِ !  
  
 «يُرْهَفَان السَّمِعُ .. يُواصِلُ  
 الْحُدَّادَةَ النَّشِيدَ ..»  
  
 عُدْنَا يَا شَامَ مِنَ السَّفَرِ ..  
 عُدْنَا بِفَرِاشَاتِ السَّعْرِ ..  
 بِضَفَائِرَ .. كَانَتِ لِلْقُمِرِ ..  
 كَانَتِ لِصَبَابِيَا الْجَانِ ..  
 زُرْقَ "كَالصَّحْوِ حَسَانَ" ..  
 خُضْرَ "كَرْؤَى بَسْتَانَ" ..  
 رَوَاهَ كُوئِرُوكَ الأَسْمَرَ ..<sup>(٢)</sup>  
 فَسَقِي الدِّنِيَا .. وَمُضِيَ  
 يَسْكُرَ ..  
  
 الْجَنَّةُ عَصْفُورٌ يَسْكُرَ ..  
 في صدرِكِ .. عَصْفُورٌ ..  
 أَخْضَرٌ ..  
 يَا شَامَ .. سَلامٌ ! ..  
 يَا أَرْضَ الْمَجْدِ .. سَلامٌ !

في صدرِكِ .. عَصْفُورٌ أَخْضَرٌ ..  
 حَلْمٌ يَصْعُو .. حَلْمٌ يَسْكُرٌ ..  
 يَانَهْرَ السَّحْرِ .. سَلامٌ ! ..  
 يَا أَرْضَ الْمَطْرِ .. سَلامٌ ! ..  
  
 \* \* \*  
 الأول : «في ذهولٍ»  
 أَتَسْمَعُ؟  
  
 الثاني : موجَةٌ "خَضْراءٌ"  
 مِنْ طَيْبٍ ، وَمِنْ نَفَمٍ ..  
  
 الأول : أَحْسَنَ لِهَذِهِ التَّبَرَّاتِ  
 أَجْنِحةً ..  
  
 الثاني : وَالْكَلِمُ ..  
 تَطْبِيرٌ .. تَطْبِيرٌ ..  
 تَنْفُضُ رِيشَهَا المَسْحُورَ ..  
 ملءٌ دَمِيٌّ ..  
  
 الأول : شَبَابُ الْمُلْكِ مِنْ غَسَّانَ ..  
 لَا أَوْقَظْتُ مِنْ حَلْمِي ! ..  
 كَانِي بِالرَّحِيقِ يُدَارُ ،  
 وَالْأَوْتَارُ مِنْ خَدَّمِي ..  
 كَانِي بِالنَّعِيمِ الْآنَ ..  
 مَسْفُوحًا عَلَى قَدَّمِي ..  
 وَعَشْرُ مِنْ لِدَاتِ الْمَوْزِ ..  
 يَا سَكَرَاتِيَّ ازْدَحَمِي ! ..  
 يُطْوِقُنَ الْفَتَى الْيَمِنِيَّ ..<sup>(١)</sup>  
 أَشْرَبُهُنَ فِي نَهَمَ ..

١ - كان المتكلم الأول حسان بن ثابت الانصاري ، والثاني الاشعي . ٢ - اشارة الى نهر بربى .

ويستيقظ سلام دمشق ، بنت الأزل ذات يوم على غارة حاقده ، غارة صهيونية  
تصب حُممها على الخضرة والمنضرة ، والمحب والجمال .

كان ذلك في حرب تشرين التي أتيح لنا فيها أن نؤدب المعتمدي يوماً أو بعض  
يوم ، وأن يلقنَه أبطالنا الشبان في البر والبحر والجو درساً لا ينساه .. حين :

ناداهم ' المبرق ' فاجتازوه وانهروا  
عند الشهيد .. تلاقى الله والبشر  
في ساعتين .. خلقنا كثثنا بشراً  
قبل الشهادة .. لا وجه ولا صور  
في ساعتين .. تعللت كبر ياوهما  
كيف انتهى في عصور الفرقة السفر  
دم الشباب .. أفيقي يا بيادينا  
على المطاء وجُنَّ الزرع والثرم

في تلك الساعات الماطفة ، المضيئة  
في عمر التاريخ ، انتقض الشام كبريهاءها  
وعروبتها .. وراح :

تلقُّن المعتمدي درساً .. تعلّمه  
كيف الطريق إلى الإنسان يختصر  
وكيف تهوي «أساطير» .. هيأكلها  
في الحي .. بين يدي أطفالنا أكْرَ  
وكيف يرجع حق .. ظن سارقه  
أن الشرائع بالسُّكُنِ تتدثر  
وراحت حناجر الشعر والفن تهتف  
لدمشق .. وكنت بين الحناجر التي تغنى :

ياشام' .. مُدّي بساط المحب واحدة  
كأس العروبة .. وليخوضو ر السّمّر

اسقى العطاش .. حديث' المجد رائعة  
من الملحم .. يفني دونها السّهر'

شَبَابُنَا فِي مُتُونِ الرِّيحِ أَشْرَعَةً  
وَفِي التَّلَالِ دَمٌ "بِالنَّصْرِ يَأْتِرُ"

مُدّي بساط الهوى .. مازال في دمنا  
من ياسمينكِ كنز" للهوى عَطِيرٌ

وقفتِ فِي عَتَبَاتِ الْغَلْدِ شَامِخَةً  
بِالْأَنْبِيَاءِ تَفَطَّئِي الْمَرْجُ وَالزَّهْرُ

يقاتلُ النَّسْرُ .. ينسى غير ملعنه  
ينسى اسمه .. في السماوات اسمه الظفر

يوشوش المُهْرَة السمراءَ مُبْتَسِماً  
في نعلكِ الموت .. أدربي كيف أنتصر

\* \* \*

وفي غمرة هذه البطولات، ينتهي العدو فرصة فيقوم بغارقة صهيونية حاذنة على  
عرائش الضوء والحب والجمال .. على الشام .. وتحت العِيمَ المتساقطة  
بالقرب من قبوبي .. بالقرب من « نار نجاتنا » الثلاث .. أذكر أنني كتبت قصيدة  
صغريرة بعنوان .. يا ياسمين دمشق ! كان ذلك في يوم ٢٩/١٠/١٩٧٣ ..

فهل تاذن لي « بنت قاسيون » ، مدینتي الخالدة ، اليادة العروبة ، ونبضها  
المتجدد الباقى ، أن أختم حديثي بهذه القصيدة ، والى لقاء يتجدد معها كلما  
رنَّ وَتَرَ ، وغنت قافية ، وأمتُشِقْ حُسَامٍ ..

تَسْقِي مِنَ الْأَزْلِ السُّحْبِيقِ وَتَسْكُرُ  
مَاذَا أَقُولُ ؟ وَأَيْ "خَرِكَ" أَعْصِرُ ؟

يَا يَاسِمِينَ دَمْشَقَ ، مُدَّ بِبَارِقِي  
مَطَرًا بِمَلْحَمَةِ الرِّسَالَةِ يَهْدِرُ

يَا يَاسِمِينَ دَمْشَقَ ، عِطْرُكَ أَبِيسْنَ  
وَتَفَطَّرْسَتْ أَنْفِي ، فَعِطْرُكَ أَحْرَ

"وَغَضِبْتَ فَالْوَطْنَ الْكَبِيرَ عَبَاءَةَ"  
حَطَّتْ عَلَى بَرَدِي ، وَنَسْرٌ أَسْمَرٌ

هَشَّمْتَهَا أَسْطُورَةً .. وَذَرْوَتَهَا  
كُلُّ الْفُزَّاَةِ عَلَى الْعَبِيرِ تَكَسَّرُوا

كُلُّ الْفُزَّاَةِ .. وَظَلَّ قَنْدِيلُ الْهَوِي  
أَبْدَأَ عَلَى الْعَطَرِ الْمَدَلَّلِ يَسْهَرُ

تَمْتَدُّ يَا لَوْنَ الْعَبِيرِ جَهَنَّمَا  
فَوْقَ الرِّمَالِ .. جَهَنَّمَا تَتَسْعَرُ

وَتُقْهِقُهُ الصَّحَراءُ .. تَحْتَ نِعَالِهَا  
سُودَاءُ مِنْ قِصَصِ الْجَرِيمَةِ تُقْبَرُ

يا ياسمين دمشق .. طوق واحد  
وطن العروبة بالأريج مسوّر

بالنار، بالغضب المقدس، بالرُّؤى  
بالأنباء .. من التراب تفجّروا

من كل زنقة أطلّ مُقاتل  
من كل سوسة تعدد خنجر

ولدوا على بردّي مُرّوح غماماتٍ  
بالصاعقات، وبالطفوّل تُزهير

من أين؟ من أعماقِ أعمقِ الشّرى  
قدَّر يُزيل غباءه، وينجز

\* \* \*

يا قامة الفَضَب الذي لا يَنْحني  
مِيلادُك العربيُّ أخضرُ أخضرُ

يا ياسمين دمشق، وَحدَةً أَمَّةٌ  
بِيدِ النَّسُورِ، يدِ النَّسُورِ تُسَطَّرُ

تعز : نيسان (أبريل) ١٩٩٣

# دمشق في الحرب العالمية الأولى

١٩١٤ - ١٩١٨

د. نور الدين حاطوم

الحديث عن دمشق ، في الحرب العالمية الأولى ، ذو شجون . ولكن هذه الشجون كانت مصحوبة بالأشجان . ففيما ت تكون الشجون تكون الأشجان ، وحيث توجد الأشجان توجد الشجون : صنوان من دوحة العاطفة العربية ، اختلفا ثم التحما وتعانقا فتشاكل الأمر .

دخلت دمشق الحرب العالمية الأولى ، وليس لها فيها يد . لقد فرضت عليها فرضاً . أهلها يوم ذاك ، وكان على رؤوسهم الطير ، كانوا يتساءلون عن المصير . هل سيظلون تابعين للدولة العثمانية ويسامون الخسف ، أو سينجتون من جور الأتراك الاتحاديين ويقمعون في حبائل الدول الاستعمارية ، ويكون شأنهم شأن المستجير من الرمضاء بالنار ! هل ستكون العرب في صالحهم أو تقوم الساعة فيirth الله الأرض ومن عليها ؟ تساؤلات وترددات ، مخاوف وأمال تشابكت مع بعض أمام مصير في عالم الغموض .

قبل الحرب وفي الحرب ، كانت دمشق قطباً لتطور سياسي عربي منقطع النظير . كل الأنظار العربية تتوجه شطرها : كل العرب من مختلف أقطارهم يتواذبون عليها . وهي وهم على موعد ولقاء . المخوف من الاتحاديين قائم ، والأمال بغير مشرق غير مضمون . ولم ينقطع بعد حلول الوصل بين العرب والأتراك .

وما زال الناس يعتبرون ، رغم الارهاق، أن الدولة العثمانية دولتهم ، وأن رجال السلطة فيها سادتهم .

للاجابة عن هذه الأسئلة والتساؤلات يقتضي منا البحث معالجة نقطتين أساسيتين وهما :

- ١ - الوضع السياسي العربي - العثماني بعامة ، والوضع في دمشق وخاصة .
- ٢ - دمشق في العرب .

### ١ - الوضع قبل العرب :

ما من شك في أن كل تحرر سياسي لابد وأن يكون مسبوقاً بتحرر فكري ، والبلاد العربية ، منذ أوائل القرن التاسع عشر ، وحتى الربع الأول من القرن العشرين كانت تنتابها موجة فكرية واسعة النطاق، متعددة النواحي، بدا صداها ينعكس على الحياة العامة بطلالب سياسية . وهذه المطالبات لم تبدأ إلا بعد أن تشكلت في البلاد العربية طبقة فكرية مختاراة ومستنيرة ومتأثرة بالحضارة الغربية . بدأت بشكل تحسس وشعور ، وانتهت بوعي أكيد . ولم يكن هذا الوعي على درجة واحدة ، كما لم يخامر جميع الأذهان ، والسوداد الأعظم من أبناء العرب منهمك في مشاغل حياته اليومية ، يسمى وراء رزقه ، لا يهمه من أمر السياسة قليل أو كثير : ناهيك أن الأنبية في أواسطه كانت بنسبة مرتفعة .

وما كان لهذا الوعي العربي المفتح أن يتعرّك لولا ما حدث في الامبراطورية العثمانية من تغيرات مرحلية تتلخص بمحاولات الاصلاح المتواتلة : من قضاء على الانكشارية ، وصدور مرسوم خطى شريف ١٨٣٩ ، ومرسوم خطى همايون ١٨٥٦ ، وإعلان الدستور ١٨٧٦ ، ومن ثم تعطيل الدستور ، ومن بعده المودة إليه ، ولو ظاهراً ، منذ عام ١٩٠٩ . وكان لكل من هذه المحاولات أنصاره وخصومه ومعارضوه .

والجدير بالذكر أن أبناء المسيحيين من العرب ، من درسوا في المعاهد والجامعات الأجنبية ، كانوا أسبق من غيرهم إلى تفهم الفكر الغربي الحديث والاطلاع على مآئنه في مفاهيم العريبة والقومية والأخاء ، والعدالة

والمساواة ، والمواطنية ، والمشاركة في الحياة الوطنية ، وبث الأفكار التي تدعو أبناء الوطن الواحد إلى الاتحاد ، ونبذ التبعية في سبيل العيش المشترك ، واعتبار الدين الله ، والوطن للجميع . وما لبثت هذه الأفكار ، مع نمو الثقافة ، أن عمت المثقفين من أبناء المغرب مسيحيين ومسلمين .

يضاف إلى ذلك أن العركات القومية التي قامت في أوروبا : من وحدات قومية ، أو حركات تحريرية ، وبناء دون حداثة ذات أنظمة دستورية ، كان لها أثرها الواضح أيضاً على الأتراك والعرب معاً ، كل فيما يخصه . غير أن بعض الكتاب ، من أبناء العرب ، كانوا يشكرون في قيمة هذه الدعوات التأليفيّة بين قلوب العرب والأتراك ، ويخشون أن تنقلب لصالح الفريق الأقوى ، الأتراك . ولكن آخرين كانوا يرددون بأن الأحكام تتبدل بتبدل الأزمان ، وما كان سائداً أو مقبولاً في الماضي لا يصح قبوله أو بقاوته في الحاضر إلا بعد إعادة النظر فيه وتكييفه مع متطلبات العصر .

والدراسة لتاريخ العركات القومية العربية في البلاد العربية ، ترينا أن مسار التوجه بعد أ Fowler المجد ويقطة الفكر ، كان على الشكل التالي : نهضة فكرية عامة ، دعوة إسلامية عامة ، دعوات إسلامية إقليمية ، دعوة إسلامية – عربية ، دعوة قومية عربية .

أما القوميات الأخرى في الدولة العثمانية ، فقد هيئت عليها رياح التغيير أيضاً ، وأخذت تتعرّك لتزيح النير العثماني الرابض على أعناقها . وبال مقابل اضطر رجال الدولة العثمانية إلى التفكير بصيرورة هذه القوميات جميعاً في بوتقة واحدة . عندئذ انقلبت فكرة العاطفة العثمانية ، التي كانت سائدة في الماضي ، إلى عاطفة قومية تركية بحتة . وأخذ الأتراك الاتحاديون ، بعد انقلابهم ، يرددون أن أساس الامبراطورية يجب أن يكون وحدة قومية قائمة على الناطقين باللغة التركية من أصل تركي ، وأن تتجه سياسة الدولة نحو زيادة الاهتمام بكل ما هو تركي في داخل الامبراطورية وخارجها ، وأن الامبراطورية كانت وما تزال ويجب أن تظل دوماً وطن الأتراك الأصحاح ومن ترك من أبناء القوميات الأخرى طوعاً أو كرهاً . وظهر أثر ذلك بمحاولات رجال الامبراطورية

الاتعاديون في فرض سيطرة المناصر التركية في الحكم والادارة ، وفي اصلاحات مختلفة خاصة شملت مختلف مراافق الدولة .

ومع ذلك ، وجد بين العرب من كان يدافع عن هذه السياسة التركية القومية التي يراد بها تقوية الامبراطورية وتحديثها والحفاظ على بقائها وسلامتها . لأن الهم في نظرهم . قبل كل شيء ، دفع الأخطار الخارجية الأوروبية ، والبقاء في رعاية الامبراطورية العثمانية التي تجمع المنصرين ، العربي والتركي ، فيها تاريخ مديد وحياة مشتركة بعيدة ؛ وأن الأمل لم ينقطع بعد من الأتراك . بيد أن الاتعاديون المنادين بتركيتهم وطوارئتهم لم يكونوا على مثل هذا التفكير اطلاقاً . ومن هنا دخل الشك في القلوب .

والملاحظ في الأوساط العربية ، بالرغم من تشكيل الجمعيات والأندية العلنية والسرية ، التركية - العربية ، الصرف ، أن طابع الاعتدال فيها كان سائداً . لأن نشاطها كان يظهر ضمن النظام الدستوري ، حتى ان المعارض أيضاً كان يعبر عنها وفاقاً مع النظام ، وان المطالب العربية تظهر ادارية أكثر منها سياسية . وهذا يعني عدم الرغبة بالانفصال عن الامبراطورية العثمانية ، والاكتفاء بتحقيق بعض المطالب العادلة المتبدلة والمشروعة : كالاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في الأقاليم العربية ، وبالموظفين العرب المحليين ، واستشارة السلطات المحلية عند تعيين الموظفين ، والقيام بالخدمة العسكرية ميدانياً في داخل كل بلد ، وصرف الواردات للعاجات الإقليمية والبلدية ، وتوسيع سلطات المجالس ، وتعيين خبراء أجانب لتنظيم الشرطة والدرك والمالية . حتى ان المؤتمر العربي ، الذي عقد في باريس عام ١٩١٣ ، كان يدل على اعتدال المؤتمريين ، وليس في مقرراتهم تجاوز ملحوظ في المطالب ، أو خروج عن دائرة الامبراطورية . وإذا عقد هذا المؤتمر في باريس ، وبرعاية فرنسا ورضاهما ، فما ذلك الا لطلب المساعدة والدعم والتوسط لتحقيق هذه المطالب ، ولكن الذي فهم من المؤتمر « أن الولاء على قدر المعاملة » .

أخذت الحكومة التركية هذا المؤتمر مأخذ الجد ، وحاولت استماله بعض من أعضائه ، ولحقت اليهم بالمناصب العليا . وقبل بعضهم العرض دون الخروج عن المبادئ العامة المتبناة ، ولم يكن الاتعاديون الا مضللين ، لأنهم رأوا أن التسامح

مع العرب قد يجرهم إلى التنازل ومنح الامتيازات لأبناء القوميات الأخرى ، وبذا تتفتت الامبراطورية على أيدي رجالها قبل أن تتجزأ على أيدي أعدائها وهي أحوج ما تكون إلى التماس والتلام .

وإذا كانت هذه مطالب العرب المتبدلة ، فهذا لم يمنع من وجود بعض عناصر عربية متطرفة وذات أهداف عربية عامة : أهداف جمعية «العرببة الفتاة» السرية التي وضعت في برنامجهما : « تحقيق استقلال البلاد العربية وتعريفها من الحكم التركي ومن أي سيطرة أجنبية » . ولكن بين الأهداف والوسائل والتحقيق أغواراً سحرية وعوائق جمة . وكل المحاولات ، التي حاولها العرب ، لم تكن إلا من قبيل التحذير والتنبيه . وإذا كان هنالك من تطرف حقيقي في المطالب أو ثورة على النظام القائم والانفصال ، فهذا لم يظهر إلا بعد سلوك الشخصيات الكبرى العالمية في الدولة مسلك التطرف والمغالاة في الشدة والتعصب للطورانية ومحاولة اذلال القوميات . وهذا يسوقنا إلى معالجة النقطة الثانية وهي :

## ٢ - دمشق في العرب العالمية الأولى ، وهي بيت القصيد :

في هذا المنظور العام العربي ، وجدت في دمشق ، قبل الحرب ، نهضة فكرية قوية ، قامت على أيدي علماء أجياله ، وفقهاء ، ومفكرين ، التفوا حول الشيخ طاهر الجزائري . وقد استطاع هذا المعلم الطيب بعلمه وسلوكه ، وسعة اطلاعه ، وبعد نظره ، أن يغرس في نفوس الناشئة والأجيال الصاعدة ، التربية القوية ، وحب الوطن ، والاعتزاز بالأمجاد العربية ، والتاريخ العربي ، والاقبال على تعلم اللغة العربية واتقانها . جمع الكتب الموقفة على المساجد والمدارس والمخطوطات الثمينة ، وحفظها في قبة الملك الظاهر ، وألف منها نواة المكتبة الظاهرية الملحة حالياً بمجمع اللغة العربية .

كان بين حضور مجلسه ، شخصيات كان لها أثراًها البالغ في احداث النهضة الفكرية في دمشق . نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر : جمال الدين القاسمي ، عبد الرزاق البيطار ، سليم البخاري ، رفيق العظم ، محمد كرد علي ، فارس الخوري ، عبد الحميد الزهراوي ، شكري العسلي ، عبد الوهاب المليحي الشهير بالإنكليزي ، عبد الرحمن شهبندر ، سليم الجزائري ، وغيرهم . وكانت

عناصر الشبيبة المثقفة تحضر جلساتهم ، وتفيد من ثقافتهم ، ثم استقلت فيما بعد وألفت حلقة خاصة بها أطلق عليها اسم «الحلقة الصفيرة» ، وتضم بعض الشخصيات ، مثل محب الدين الخطيب ، عارف الشهابي ، عثمان مردم ، لطفي العفار ، صالح قنبار ، صلاح الدين القاسمي ... الخ

ووجدت في دمشق صحافة مثل : «صحيفة الشام» ، «حط بالغரج» ، «أبو نواس» ، ضاعت الطاسة » تعمل بتوجيهه كثير أو قليل من السلطات التركية ، ولكنها كانت تغزو أحياناً ، أو تكتفي بالتلبيح دون التصريح . والصحيفة الجادة العربية الرصينة ، كانت صحيفة «المقتبس» لمؤسسها المرحوم الأستاذ محمد كرد علي . وكانت ذات نزعة أدبية ، أخلاقية ، اجتماعية ، بعيدة عن السياسة ، إلا قليلاً ، خوفاً من السلطات . وادارتها ملتقي رجال الفكر في المدينة ، ومحفوظة يولانها للعشمانية .

وأسس الشهيد شكري العسلي ، نائب دمشق في «مجلس المبعوثان» ، جريدة «المقتبس» ، ووأدتها السلطات التركية وهي في أول تفتحها ، ومؤسسها خطيب مفوء ، وله مواقف مشرفة في التنبية إلى «الحركة الصهيونية» وأهدافها الخطيرة على العالم العربي : وشاركه في هذا التنبية نجيب عازوري المقيم في باريس ، وغيرهما من رجال الحركة العربية في ذلك العين . ومن عجب أن مؤتمر باريس ، في ١٩١٢ ، لم يتطرق إلى الحركة الصهيونية . فهل كان ذلك منه دليلاً على عدم ادراك حقيقة الخطر ، أو السكوت دفعاً لمشاكل أقوى من مشاكل قائمة ؟

وووجدت أيضاً حركة مسرحية نشيطة عامة ومدرسية تذكر بالتاريخ العربي وأمجاد البطولات العربية وحضارتها العرب .

ولم يكن رجالات دمشق المفكرون بمعزل عن زملائهم في بقية المدن السورية والعربية والأجنبية . كانوا على اتصال دائم فيما بينهم ، و يؤلفون جمهورية فكرية عربية مستنيرة تسعى جاهدة لايقاظ الفكر العربي القومي والتثبيع بالروح العربية .

وحقيقة القول ، أن الحياة المديدة ، التي قضتها العرب والترك معاً ، أوجدت بينهم بعض التألف ، حتى إن الأتراك ، قبل تفجير الطورانية ، يقدسون «الشام» ويعنون دمشق ، ويقولون عنها «شام شريف» ، ويعتبرونها الأول والمصير : «أولى شام وأخري شام» ، ووجدت منذ إرجاع الدستور جمعيات لتأليف القلوب في العاصمة وفي الأطراف تقرب وجهات النظر . من ذلك تأسيس جمعية وناد في دمشق عرف باسم «شام اتحاد وترقي جمعيتك قلوب بي» أي «نادي جمعية الاتحاد والترقي الدمشقية لتأليف القلوب» ، وكان قريباً من ساحة المرجة ، ساحة الشهداء في مدخل شارع السنجدار .

وبالرغم من هذه الظواهر الودية ، كانت الأفعال تكذب الأقوال . يقول فغري البارودي في «مذكراته» ، الجزء الأول : «الأتراك كانوا يومئذ أبناء السن ، ونحن أبناء الجارية ، ولم يتغير شيء إلا الكلمات : أي بدلًا من ياد شاه جوق شاه أصبحوا ينادون يشاسون حرفيت . ولكن بدأت عيوننا تتفتح على الحقائق القومية . وبسبب الرعب الذي به الحكم العثماني في النفوس ، لم يكن أحداً يجرأ على ذكر العرب والعروبة » .

وظهرت بالمقابل ، على الأفواه التركية عبارات «نه شام شكري ، نه عرب يوزي» أي «لا حلوي الشام ولا وجه العرب» . والأمثلة من هذا النوع كثيرة .

ومن جانب العرب ، كانت تسمع بعض الأنتمام القومية كالأالية :

بني يعربِ أين مجد جدودكم وجحودكم لعلائهم آثام  
أبناء يعربِ أين كل حقوقكم أو تخضعون ودوقها الأقدام  
أبناء يعربِ أين دور ملوكم ومقرها بغدادكم والشام  
ما جاء في إحدى وصايا المصطفى أن الغلائف بعده أعمام

و مع دنو الحرب ، بدأ الاتحاديون موقفهم ، وأخذوا يتحببون للعرب . ودخل هؤلاء العرب معهم مكرهين . وهنا يجدر أن نتدرج بالتاريخ لنرى تسلسل الأحداث و مفاعيلها .

نشبت الحرب العالمية الأولى ، في ٢٨ تموز ١٩١٤ ، ودخلتها الدولة العثمانية في ٢٩ تشرين الأول ، إلى جانب دون وسط أوربة: ألمانيا - النمسا - هو نقاريا

ولحليفاتها ، ضد دول الوفاق : فرنسا – إنكلترا – روسيا وحليفاتها ، وأعلن التغير العام في البلاد العثمانية ، ولم يسلم منه شاب من سن السابعة عشرة حتى الخامسة والأربعين . وكان وقمه شديداً في سوريا . إذ لم تبق القيادة العسكرية فيها جنوداً من أبنائها . وفرضت حالة الطوارئ ، والقانون العسكري ، والأحكام العرفية ، والرقابة ، فما من مسطور أو منظور أو على الهواء ، مدنياً كان أو عسكرياً ، إلا خضع لها وحسب ألف حساب من الواقع في شراكتها . وقام رجال الغ فيه (المخابرات) بواجبهم خير قيام . ونشطت «السوقيات» تجمع الجنود . وأعلن الجهاد المقدس ، في ١٤ تشرين الثاني ١٩١٤ . وأمسك الفيلق الرابع بعنق دمشق ، وعمت صلاحياته أرجاء سوريا والجزيرة العربية والعراق واليمن . واستلم إدارة القيادة والتوجيه الفريق الركن جمال باشا ، ناظر (وزير) العربية ، أصله من جزيرة ميتلين (لسبوس) في بحر إيجي ، ولد سنة ١٨٧٣ ، أي أنه كان شاباً في قوة الشباب عام ١٩١٤ . رجل قوي الشكيمة ، اتحادي متخصص ، انقلابي خطير ، ثالث الأثافي : طلعت ، أنور ، جمال . دخل الوزارة في كانون الثاني ١٩١٤ ، وبذلت طموحاته تظاهر . أبعده رفقاءه عن العاصمة خوفاً منه ، وابتلو به العرب بعامة ، ودمشق بخاصة . مسلم ظاهراً ، وطوراني قلباً و قالباً ، منعوه صلاحيات واسعة لإرضاء لطموحة ، شريطة أن يظل بعيداً عنهم .

استقبل جمال في دمشق استقبال الفاتحين . ويقول أحد أركانه : «استُقبلنا في دمشق استقبلاً حافلاً» ليس فيه زيادة لمستزيد ، وازدانت المدينة احتفاء بقدوم «فاتح مصر» ، وترافقن الآلوف من الناس إلى موقف القطار ، وفيهم رجال الدولة وقادة جندها ، وسادة البلاد ، وعلماؤها ، وخطباؤها ، وشعراؤها ، وقناصل الحكومات فيها . وذبعت الأرضاحي ، وألقيت القصائد . . وكان يوماً لا نظير له » .

اتخذ جمال فندق (داماسكس بالاس) ، في طلعة جوزة العدبا ، مقرأً عاماً له ، أخذ يتقرب من رجال دمشق وزعمائتها وصحابييها ، ويفدق على بعضهم المال في سبيل الدعاية . وسمى جاهداً لدفع الشكوك تجاه الاتحاديين . وشجع فكرة العرب والعروبة ظاهراً . قال في حفل أقيم على شرفه يعلم منه وللخوف منه : «اعملوا على ترقية العرب والعروبة . جددوا مدینتكم» ، ودعا إلى نبذ الخلافات

بين العرب والأتراء ، وكتم غيظه من هؤلاء الشباب الذين أزعجه أناشيدهم الحماسية ، وارتقت أصواتهم حتى اهتز لها سقف القاعة وجنابتها من ترددهم :

### نَحْنُ جَنْدُ اللَّهِ شَبَانُ الْبَلَادِ نَكْرَهُ الذَّلِّ وَنَابِيُّ الْاَضْطَهَادِ

وإذا أخذنا بقول جمال ، نجد أن أعيان دمشق جاؤوه وأقسموا بالأيمان الفلاط بالحفظ على ولائهم للدولة ، وبذل أقصى الجهد لمساعدتها . وما أن اطمأن بالله حتى تغيرت أحواله : أحسن ديواناً عرفياً في عاليه ، وأخر في دمشق ، في خان البشا ، وبدأت السجون تستقبل الضيوف من يشتبه باتجاهاتهم السياسية ، حتى غصت بالموقفين . وإذا ما اشتبه بأحد ، بادرت الضابطة بأعدادها الوفيرة تعتقل العي ، وتطرق الدار ، وتصعد السالم والسطوح ، وتنتزع المسكين من بين أهله . وإذا ما تشفع به أحد من أفراد أسرته بقوله : « مظلوم يا بك » ، أجيب : « سكت ، بيس أرب ، دين سيس ،أمانات يوك » ، أي « أحرس أيها العربي القدر ، لا ذمة لك ولا أمانة » ، حتى أن الأهالي أخذوا يرددون في مثل هذه الحالات العبارة : « جاء البلاء الأعظم » ، أو « يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف » .

وطبق التجنيد العام على أشكال مختلفة عند سوق الجنود : فنthem من امثيل مرضاه لوجه الله ودفعاً عن الاسلام؛ ومنهم من ذهب مكرهاً كمن يجر الى جهنم بالسلالس؛ ومنهم من دفع «البدل» وسلم؛ ومنهم من فرّ لاجئاً في البراري والقفار أو الجبال؛ ومن ذهب الى جبهة القوقاز فتفقعت يداه ومات من الدنق؛ والى جبهة الدردنيل ففرق في بحر مرمرة؛ والى جبهة سيناء فذهب ولم يعد أو عاد مشوهاً .

وشتت ضباط الاحتياط ، واعتقل أحرار العرب من اشتراكوا في مؤتمر باريس عام ١٣ ، أو في ناد من أندية الأستانة ، أو في حزب من الأحزاب . وبالرغم من «عيونه» الكثير ، لم يستطع الكشف عن أسماء وهوية رجال « جمعية الفتاة » نظراً للسرية العميقية التي غلفوها أنفسهم بها، وللأيمان التي تعاقبوا عليها ، واللوفاء بالوعيد شيمة العربي الأصيل . ومن ذلك أن الرئيس المرحوم شكري القوتلي أحل سفك دمه بقطع شرائنه وهو في السجن وفضل الموت على أن يبوح بسر الجمعية ورجالها .

وإذا اطلعنا على « مذكريات جمال » وجدنا أنه وقف على إضمار الموقوفين ، ولكنه أثر النظر في مصيرهم والحكم عليهم ريثما يعود ظافراً في حرب قناة السويس . وكانت هذه العرب لسد الطريق على مواصلات بريطانيا وأمبراطوريتها بعد أن حوصلت السواحل .

وخسر جمال المعركة وعاد إلى دمشق مدحوراً مقهوراً ، وبدأ حملة ارهابية مروعة ومنظمة : أجرى للموقوفين عاكمة سرية في الديوان العرفي في عاليه . فحكمت بادانتهم وسيقوا إلى الموت وهو ينشدون » .

نحن أبناء الآلى شادوا مجداً وعلاء  
نسأل قحطان الأب جد كل العرب

ونفذ الحكم بالاعدام بأحد عشر شاباً عربياً من خيرة الشبان في ساحة البرج ، ساحة الشهداء ، في بيروت صباح يوم ٢١ آب ١٩١٥ .

وفي غضون ذلك ، كانت الخليفة انفرنسا وإنكلترا تثيران الشعوب العربية على الإمبراطورية العثمانية ، وتدانها بالمساعدة والمعون والتحرر من حكم العثمانيين ، وفي الوقت نفسه ، بدأت مراسلات سورية بين حسين ، شريف مكة ، والسير ماكماهون معتمد بريطانيا في مصر ، في ١٤/٧/١٩١٥ ، وانتهت في آذار ١٩١٦ . وقد نشرت وأصبحت معروفة باسم « مراسلات ماكماهون والشريف حسين » .

خرج عن هذه المراسلات مفهومان : مفهوم الشريف حسين ، وهو مفهوم متوكل على الانكليز وواثق بحسن نواياهم ، وقصده شريف ونبيل وهو تحرير العرب من الحكم العثماني وتأسيس الدولة العربية في آسيا؛ ومفهوم انكليزي مراءوغ ومخادع يعرف ما يريد ، وينفذه في الوقت الذي يريد .

وفي نيسان من عام ١٩١٦ ، أصدرت الدولة بسبب ظروفها المالية العسيرة ، التقد الورقي بدلاً من النقد الذهبي ، وفرضت التعامل به ، واستوفت به الضرائب ودفت رواتب الموظفين . وما لبثت قيمة هذا النقد أن سقطت بالتدريج حتى الخمس . واغتنم المديونون الفرصة وسددوا ديونهم . إماماً اختزنوه

فقد حلت بهم الكارثة وأي كارثة؟ وكانت الكارثة بعد الحرب أفعى مما كانت قبلهم: الأحتمال المحملة من الورق النقي لا تساوي شيئاً مذكوراً وتصلح للعرق

ثم اتبع جمال القافلة الأولى من الشهداء بقافلة ثانية ، في بيروت ودمشق، صباح ١٩١٦/٥/٦ ، وأعدم رجالها في ساحة البرج ، في بيروت ، وساحة المرجة بدمشق . وكان لهذا الاعدام رنة أسى ، ودممع عيون في شتى الأنحاء السورية والمرية .

وقبل الاعدام ، كان الأمير فيصل بن الشريف حسين في دمشق ، وعندما صدرت أحكام الاعدام بالموقفين ، رجا جمالاً هو والشيخ بدر الدين الحسيني والشيخ أسعد شقير ، أن يغفو عنهم ، فأبى وتكبر ، ولم يقبل أي شفاعة ، واتحول « في مذكرياته » الأعداء بعد أن خرب الديار وأعدم الأحرار .

ولم يكتف بهذا الاجراء التعسفي ، بل اتبع الاعدام بعملية نفي انتزعت عائلات بكمالها ، كباراً وصغاراً من أقرباء الشهداء ، وأجلأها عن دمشق ونفاهما إلى الأناضول دون ذنب ارتكبه ، فراداً الألم آلاماً والبؤس بؤساً .

وفاض الشعر العربي بال歇رات على شهداء الرعييل الأول ، وتجددت ذكرهم كل عام . وكانت الجموع الغفيرة من أهالي دمشق تتزاحم بالمناكم لحضور الاحتفال بذكرى الشهداء في ساحة المرجة ، وبعد الاحتفال تسير هذه الجموع عبر الشوارع بكل خشوع الى « تربة الباب الصغير » تتقدّمها جوقة « مدرسة الاسعاف الغري » وهي تعزف الملحن العزيزين .

### أبَتِ الْعَيْنَ أَنْ تَدُوْقَ الْمَنَامَا      وَالْمَنَابِيَا تَقْتَالَ مَنَ الْكَرَامَا

حتى اذا ما وصلت ، وضفت الأكليل على أضرحة الشهداء سائلة لهم الرحمة والفقران .

\* \* \*

بعد هذه الأحداث الأليمة ، أدرك أحرار العرب وفيصل لا سبيل الي رده الظلم الا بالثورة على النظام . ومكر جمال ، ومكر فيصل والأحرار في دمشق ، واستأنذن فيصل جمالاً ، وقتل راجعاً الى أبيه الشريف حسين . ونشبت الثورة

العربية في ١٠/٦/١٩١٦ أي بعد شهر على اعدام الشهداء . وبمعرفة بريطانيا العظمى عسكرياً ومالياً نجحت الثورة ، وبقيت المدينة محاصرة حتى آخر الحرب . وأعلن الشريف حسين نفسه ملك العرب ، وانتخب الأمير فيصل وعمه ناصر لقيادة القوات العربية الزاحفة من مكة لمطاردة الأتراك . وتابعت جيوش الثورة طريقها إلى الشمال ، وقطعت الخط الحديدي بين المقدمة ومعان على الأتراك منعاً للامداد ، وأطبقت قوات فيصل وناصر عن يمين ، وقوات الحلفاء عن شمال على الجيش التركي المنهزم .

\* \* \*

هذه أحداث دمشق على صعيد السلطات . وهنا يحضرنا سؤال يطرح نفسه وهو : ما رد الفعل الدمشقي تجاه جرائم جمال ؟  
لامرية أن الرأي العام ، من حيث المبدأ ، لم يكن متضامناً مع الأتراك في العرب . وعندما رفعت أعواود المشانق ، خاف الناس ، ولبث الأهالي ساكنين واجميين . كل واحد منهم خائف على روحه ، لا حول له ولا قوة على المقاومة . والجميع يمضون ألامهم بين تضارب الآراء ، وشتى الإشاعات عن العكام والشهداء .

وفي الحقيقة ، كانت سنوات العرب عجافاً في دمشق . فقد قلَّ أو انقطع عنها استيراد المواد المصنعة . بسبب حصار السواحل من قبل الحلفاء . وندرت السلع الاستهلاكية وبعض المواد الغذائية الضرورية وشبه الضرورية ، كالرز والسكر وزيت الكاز والقهوة والشاي وغيرها . وارتقت أسعارها أضعافاً مضاعفة ، واستيعض عنها بمواد ومنتجات أخرى : كالبرغل ، صناعة وطنية ، عن الرز ، والشعير والحبص المعصين عن القهوة ، والزهورات والبابونج والنعنع و « بشابيل » الدرة عن الشاي ، والدبس عن السكر ، والشمع عن زيت الكاز ، وأصبح الغبز مركباً من شعير وذرة وكرستة ، علف الأبل ، طعام الزقوم ، بعد أن ارتفع سعر القمح ، ووضعت الحكومة يدها على الانتاج . وأصبح القليل منه يباع في السوق السوداء على أيدي المهربيين ولصوص المتهدين ، وغلت الماحيجات الضرورية بعد ندرتها ، وطفق الكومنيزم أدوات الوسطاء يبيعونها خلسة ويشرون على حساب الشعب المعوز المسكين . وقل الفحم العربي ، فقطعت

الأشجار لتسير القاطرات . وكثير الاقبال على استهلاك الكهرباء بعد نقص زيت الكاز . ولم تعد المحطة المركزية تلبى الحاجة ، حتى اضطرت الشركة الى قطع التيار الكهربائي مرة في الأسبوع عن كل حي . وتوقف ترامواي دمشق بين المرجة وحي الميدان ، والمرجة وهي المهاجرين ، وانتشرت في دمشق الطنابر والحمير البيض للانتقال من مكان لآخر ، ومن حي لحي في أنحاء المدينة .

وعلمَ الضيق ، وشاع في الناس القول : « اخشوشوا فان النعم لا تدوم » ، ومن الغير أن يقترب الإنسان على نفسه في الطعام والشراب ، ويبحث عن المواد الغذائية الضرورية عوضاً عن الأسراف في اللذائذ ، لأن البطنة تذهب الفطنة . وكثُرت الدعوة للمودة إلى الأرض ، المطعم الوحيد في أوقات الشدائِد والموز ، مما تتبّه من حشائش وأوراق ، كما كثُر التداوي بالأعشاب .

وقلَ الصديق ، وفقدت مكارم الأخلاق قيمها العليا ، وأصبحت المادة أساس التعامل بين البشر ، والقول « الهنا على قلب الشاطر» يتعدد على كل شفة ولسان . ولا نقول أن حالة البؤس هذه كانت فريدة في دمشق أو في سوريا عموماً ، ولكنها كانت في بلادنا أعظم منها في غيرها اعتمادنا على الخارج آنذاك . وفي ظروف العرب ، كل شيء للجيش ، وتحت تصرف الجيش ، ولكن جيش من؟ العرب أو الترك؟!

وفي هذه الظروف القاسية التي لا ترحم ، نجد أناساً من علية القول وكبار الشخصيات الدينية والعلمانية تقدم آيات الخضوع والولاء والاحترام والتجليل والتعظيم لجمال . وما من رد فعل ولو بالعياذ السليبي . وإذا سألهم السائلون : كيف لمَ هذا؟ ألا تخجلون من أنفسكم؟ تململوا ، وتحقولوا ، وتقوقلوا مستعينين مرددين : إيه؟ ماذا تقول يا بني إننا ندفع عنكم شرًّا مستطيراً . إنما نحن مستهزرون . ولكن هل هم حقاً مستهزرون أو دجالون، الله يستهزء بهم ويردهم في طفانيهم يعمهون . ومثل ذلك قولهم : « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم فاسق بنباً ، فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فصبّعوا على ما فعلتم نادمين » .

وأخذت الفتاوي والحكم والاجتهادات والأمثال المنتحلة ، والأقوال المأثورة تتناثر من الأفواه بأقوال ضالة مضللة . منها قولهم : « وأطيعوا الله وأطيعوا

الرسول وأولي الأمر منكم » . أقوال لا يسع الإنسان إلا يقول تجاهها : « استغفِرَ الله العظيم ، ربنا آخر جنا من هذه القرية الظالم أهلها وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم » .

وانتشر بين الطبقات الشعبية الفقيرة التي تبحث عن لقمة العيش قول بعضهم ما العمل ؟ هذا قضاء الله وقدره . ومن لا تقدر عليه ، إدع ربك يقدر عليه ، واليد التي لا تقدر عليها ، ادع ربك يقدر عليها ، « والذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا حسينا الله ونعم الوكيل » وما أكثر الأقوال والأقوال والضلال والتضليل في الظروف القاسية والأوقات العسيرة .

ولم تنتم دمشق بالراحة إلا بعد أن غادرها « الجنراليسيم » جمال في آخر العام ١٩١٧ ، فاستراح وأراح ، بعد أن فقد حظوظه للهزيمة التي مني بها في حرب القناة . واستدعته السلطة المركزية في الاستانة ، واقتصر على وزارة الضريرية . ومن عجب أنه لم يودع بمثل المفاواة التي استقبل بها . وتمثلت إثر مغادرته رواية في « مسرح الزهرة » ألفها بعض الشبان وكانتوا له الشთائم من كل نوع بالصاع والمد ، مقاييس السمعة في ذلك العين وبعيده ، ولقب بالسفاح . ورحم الله أحد الظرفاء لقول نطق به في هذه المناسبة . وأرجو أن تغفر له ولني خشونة التعبير : « مزاج أهل دمشق غريب ، يستقبلون الوافدين مكرهين بالترحاب ، ويودعون الرحيلين طوعاً أو بالقبقاب » .

وفيمَا كان أهل دمشق سادرين في أحياائهم ، تقدم جيش « الثورة العربية » ، وتولّت الأخبار بوصول الجيش العربي المنتصر . ودخل فيصل دمشق في غرة تشرين الأول ١٩١٨ ، وسيارته تشق الطرقات بين الجموع الفقيرة والتلويع بالأيدي ، وهنأت المستقبلين من الجانبين : فيصل ، ناصر ، شكري ، أورنس ، بدلا من لورنس . ونشرت المطror والرياحين من الشبابيك والشرفات ، وعلت التنheads ، وسال الدمع لروعة اللقاء ، والتلقى العجيبان الفرح والبكاء .

هيـم السـرور عـلـيـ حـتـى أـنـهـ من فـرـطـ ما قـدـ سـرـنيـ أـبـكـانـيـ  
يـا عـيـنـ صـارـ الدـمـعـ مـنـكـ سـجـيـةـ تـبـكـيـنـ مـنـ فـرـحـ وـمـنـ أـحـزـانـ

ياله من يوم عظيم من أيام العروبة الخالدة . رفعت فيه الراية العربية فوق مبانى الحكومة ، ودحر الجيش التركى بقيادة مصطفى كمال الى الأناضول ، ولم يمض شهر حتى تحررت سوريا كنها من النفوذ التركى .

وبعد جلاء الأتراك عن البلاد ، قامت في سوريا دولة عربية مستقلة عاصمتها دمشق ، وملكها فيصل . وسلكت حكومته سياسة عربية صرفة في مختلف أجهزة الدولة ، وبشرت بمستقبل واعد ، ولكن الصعوبات أحاطت بها من كل جانب .

أولاً : من جانب الحلفاء ، ظهرت الاتفاقيات السرية على حقيقتها :

أ ) الاتفاقية الانكليزية - الفرنسية - الروسية ( نيسان - أيار ١٩١٦ ) المعروفة باتفاقية سايكس - بيكو ، والتي أبرمت قبل قيام الثورة العربية في حزيران ١٩١٦ ، أي قبل شهر واحد من إعلان الثورة . وانتشرت أخبارها بصورة غامضة ، وأشار إليها جمال ، وأعلم بشأنها الملك حسين ، وتردد فيصل بسببها . وكان الكل بين مصدق ومكذب ، ولكن بعد فوات الأول . ولم يستطع أحد أن يعمل شيئاً أكثر من طلب استيضاحات دبلوماسية دون جواب شاف من أي دونة حلقة . وظهرت للعيان الخدعة المكتومة تعمل عملها في بلادنا .

ب ) بعدها أتى العام ١٩١٧ بثلاثة حوادث كبرى في تاريخ العالم وتاريخ القضية العربية عموماً حاضراً ومستقبلاً ، وهي :

١ - دخول الولايات المتحدة العرب العالمية الأولى في ٤/٦/١٩١٧ ، وكان لهذا الحدث أثره الكبير والخامس في تغيير موازين القوى المتصارعة وفي إنتهاء الحرب ، وت disillusion وحدة الدول الغربية - الأطلسية في المستقبل .

٢ - الثورة الروسية .

٣ - وعد بلفور في ٢/١١/١٩١٧ الذي هيأ للمستقبل ميلاد إسرائيل ، وكان بعد مرور سنة على إعلان الشريف حسين ملكاً على العرب . وقد كتب عنه تشرشل : « إنه حادث لا يُحصى به » . وعرض هذا « الوعد » على الرئيس الأميركي ولسون فباركه وباركته الحكومة الفرنسية في ١٤/٢/١٩١٨ ، والحكومة البريطانية في ٩/٥/١٩١٨ .

و بعد قتال دام أربع سنوات هلك فيها العرش والنسل ، و قتلت الهدنة في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ ، و وضعت العرب العالمية أوزارها . و بدأ كبار الساسة في العالم يلعبون بمصير الشعوب على خوان فرساي في قاعة المرايا و ينظمون السلام الذي يريدون .

## ثانياً : صعوبات داخلية في حكومة دمشق :

إلى جانب المشاكل الخارجية التي جاهاه العرب وفيصلا ، كانت المشاكل الداخلية تتواتي : اضطراب حبل الأمن ، أعمال السلب والنهب في العاصمة ، ثورات في الأقاليم ، عصابات ، تنازع في الرأي حول إدارة الحكم بين الشيخ والشبان من « رجال الغيب » ، أحذاب متنافرة ، تعاطفات فرنسيّة ، تعاطفات انكليزية ، مشاحنات ، عدم استقرار . لقد حار فيصل ، و حيره أهل دمشق و طال صبره حتى عيل .

و بعد أن وضعت خارطة العالم العربي الجديدة موضع التطبيق ، بموعد الماهمات السرية المكتشفة و تتعديلاتها ، زحفت الجيوش الفرنسية إلى دمشق ، بعد أن نزلت في الساحل اللبناني وأخذت تهدد دمشق . و نهض الشعب السوري تلقائياً بقضيه و قضيبيه للدفاع عن الحمى والمعهد الجديد ، توازره قوات منظمة وغير منتظمة ، متطوعة « باشبورزوك » . وقاد هذا الجيش يوسف العظمة لقاء الجيش الفرنسي بقيادة غورو ، بقوات غير متكافئة بحال من الأحوال مع قوات الجيش الفرنسي المنتصر في الحرب ، وحارب ببسالة ، واندفع بعزم ، وصح منه العزم والدهر أبي . ولم تدم المركبة طويلاً ، وسقط يوسف العظمة شهيداً في وادي ميسلون ، في ٢٤ تموز ١٩٢٠ ، ودخلت الجيوش الفرنسية دمشق في اليوم التالي .

ومهما يكن من قول في هذا الاستشهاد الانتحاري ، فإن أقل ما يقال فيه ، إنه دفاع عن العربية والاستقلال والكرامة العربية ، وان لم تكن النتائج مضمونة . ولا ريب في أن العرب خدعوا بوعود الدول العلية المرقوبية – الانتهازية ، واتخذوا من تصریحاتها اللولبية والمطاطة والمقطة والمواشة بالجلال والاحترام ،

عهوداً ومواثيق ، ولم تكن كذلك . ولذا كان يأسهم عظيماً بعد ميسلون . ولكنهم جددوا العزم لجهاد جديد في المهد الجديد .

وهكذا تداعت بسرعة أول دولة عربية حديثة تأسست في دمشق الشام ، دولة قصيرة الأجل ، في عمر الورود والزهر ؛ لأن المدة التي انقضت بين تكوينها ووأدتها ، كانت أقل من سنتين (٢٢ شهراً) ، من أول تشرين الأول ١٩١٨ إلى ٢٤ تموز ١٩٢٠ . والمدة بين اعلان استقلالها بصورة فعلية وزوالها ، كانت أقل من خمسة أشهر . من ٨ آذار إلى ٢٤ تموز ١٩٢٠ .

★ ★ \*

# الحياة العالمية في بلاد الشام في أيام المماليك

د. نقولا زبيادة

## ١ - المقدمة :

بلاد الشام بين سنتي ١٢٥٠ و ١٥١٦ ، جزءاً من دولة المماليك . فقد حكم سلاطينهم مصر وبلاد الشام والعجاز . وقد كان السلطان هو صاحب الأمر في جميع الأمور السياسية والعسكرية والإدارية . لكن الناس في هذه المنطقة قد اعتادوا من قبل أن يكون الخليفة العباسي البغدادي هو صاحب المركز الأول في دولة الإسلام . ذلك أن القضاء على الخليفة الفاطمية سنة ١١٧١ على يد صلاح الدين أعاد الاعتراف بالخلفاء العباسيين إلى مصر وبلاد الشام . صحيح أن ذلك لم يقض على جيوب شيعية هنا وهناك ، لكن المهم هو قبول الناس عامة بال الخليفة العباسي . ومن هنا فقد رأى الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦ / ١٢٦٠ - ١٢٧٢) ، أن يطمئن الناس إلى وجود خليفة على رأس الدولة ، فعمد إلى إحياء الخليفة العباسية ، ولكن في القاهرة ، في شخص المستنصر (٦٥٩ - ٦٦٠ / ١٢٦١ - ١٢٦٢) . لكن الذي حدث هو أن الخليفة انتدب السلطان المملوكي للقيام بالحكم فعلاً ، وقد سمي بيبرس قسم أمير المؤمنين . واستمر الأمر على هذه الحال .

وقد تم على أيدي المماليك الأوائل أمران في غاية الأهمية بالنسبة لبلاد الشام . أولهما القضاء على الوجود الفرنجي (الصلبي) في تلك الديار . ولستنا نتولى الدخول في تفاصيل هذه الحالات التي توجت باحتلال عكا سنة ١٢٩١ في أيام الملك الأشرف خليل (٦٨٩ - ٦٩٣ / ١٢٩٤ - ١٢٩٦) . أما الأمر الثاني الذي تم على أيدي المماليك فهو إعادة الأمن إلى بلاد الشام بعد الفوضى التي عصفت بها (١١٧١ - ١٢٥٠) ، ولو أن شيئاً من الخلاف بين أمراء المماليك أنفسهم ظل يؤثر في سير الأمور ، لكن أثر هذا كان أقل أذى مما كان قد ساد قبل ذلك .

وحرى بالذكر ان وجود السلاطين والمالكين لم يكن له أساس قانوني . ولم يتبع أسلوباً واضحًا في الخلافة ، اذ ان السلطة كانت تنتهي دوماً الى الأقوى من امراء المالكين . اي الذي يكون له انصار الأقوية والاتباع من المالكين الذين كان بيتابعهم ويربيهم ويعتني بهم الى حين العاجة .

ونتيجة لاحتلال المالكين الموانئ الشامية ، وخشية منهم ان يعود الصليبيون اليها ، كان السلطان المنصور يهدى الميناء الذي يحتله . لكن اتضاع ، بعد بعض الوقت ، ان الموانئ مهمة للتجارة فعادت الحياة الى بعضها ، وقد عمل السلاطين أنفسهم على اعادة النشاط الى هذه الموانئ .

ومن اهم ما يجب ان يذكر لعصر المالكين ان المركز التجاري الذي كانت بلاد الشام تتمتع به دائمًا عاد اليه الكثير من الشاطئ .

ولعله من المناسب ، اتساماً للنفائدة ، أن ننقل بعض ما رواه بعض الرحاليين الأوروبيين الذين زاروا المنطقة ، بما فيها دمشق ، في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . والصورة التي تكتنا من رسومها تتلخص فيما يلي :

سورية بلد غني ، وقد كان موقعها على الطرق التجارية ذا قائدية خاصة لها في العصور المتوسطة . ولم تقد دمشق من هذه التجارة فحسب، بل من الصناعات ( ايضاً ) ، وخاصة من العرف . فقد كانت دمشق تتنقّل السكر والنقوالت وتصنّع المسوجات القطنية والعبريرية والزجاج والغزف والفتّار والزخرفات العديدة والتّاغد والصابون والطّور وماء الزهر والشّموع والأحذية . وكانت المدينة مشهورة ايضاً بصياغة الذهب والفضة . وكانت تقرن بالقاهرة ، وكان بعض الأوروبيين يفضلونها على باريس وفلورنسة .

وثمة فئة من الرحاليين الأوروبيين مثل نيكولو البوغوبونسي وليوناردو فرسكوبالدي وجورجو غوشي وسيمون سيلولي وفون سوخم الذين زاروا الأرضي المقدسة في القرنين السابع والثامن (الثالث عشر والرابع عشر) ، او مثل برتراندون دو لا بروكييه ولو ديفيك دي فارتما ، اللذين شملت زيارتهم الشرق في الوقت نفسه : جميع هؤلاء قادتهم استفارهم الى دمشق . ومؤلاً لهم مرشدونا في زيارة دمشق في تلك الفترة .

فلنزر أجزاء المدينة المختلفة في صحبة هؤلاء النفر . وقد ضمت رواياتهم بعضها الى البعض الآخر ، فتم لنا منها صورة ذات الوان زاهية لأسوق دمشق ومتاجرها .

ان جميع الشوارع الواقعة داخل أسوار المدينة تثيرها في الليل مصابيح معلقة فيها . وبيوتها مرتفعة ومبنيّة من الخشب الذي لا يظهر للعيان ، اذ ان جدرها الداخلية مطلية باللون الأزرق الفاتح ، وأرضها مكسوة بالبسيقسام . ما أقل البيوت التي لم تكن فيها نوافير منحوتة من الرخام ، هي متنة للناظرين .

ومع ان عشرين الفا قد يغادرون دمشق الى لأداء فريضة العج ، فلم يجد على المدينة كان احداً تركها . وقد كانت شوارع كثيرة يملأها الناس كما يملأ الناس شوارع فلورنسة يوم صيد القديس يوحنا . وكما كانت المدينة مزدحمة بالسكان فان شوارعها كانت مكتظة بالتجار والصناع .

ان ما يصنع في دمشق ، من أي نوع كان ، كبيراً كان او صغيراً ، هو أكثر ما يصنع في اي مكان آخر في الدنيا، سواء في ذلك الأقمشة المزيرية والقطنية والكتانية والذهب والفضة والنحاس من جميع الأصناف ، والزجاج من جميع الأنواع . فقد حدق الصناع ذلك كلّه ، وكان منهم مهرة الصناعة في كل فن . وعندهم الى ذلك غالب أصناف الفواكه التي تعرفت من سنة الى سنة .

ولنعد الى متاجر دمشق : فهنه لا يصدق وصفها الذي لم يرها بام عينه ، وذلك بسبب كثرة التجار والصناع في المدينة بأجمعها ، داخلها وخارجها . لا يمكن تصور شيء غير موجود في الضواحي . فأجمل ما في الدنيا وأنبئه وأشده اتقان صنعة موجودة هناك . فلو أنك سرت متفرجاً لرأيت المصنوعات الراينة الانيقة التي تفريك ، بحيث لو أتيت كنت تخفي نقودك في قصبة رجلك لما ترددت في كسرها وآخر انتقد لشراب بعض ما هناك . فان خيالك لن يمكنه ان يتصور شيئاً وبأي شكل كان الا وجدته هناك . فالاقمشة العبرية الكثيرة من اي نوع او لون تجدهما هناك على افضل وأجمل ما يعرفه العالم . وثمة كميات كبيرة من الأقطان ، من اجمل ما في العالم ، بحيث لو شاهدتها أحد الناس ، ولم يكن خيراً ، لعسها حريراً لاما هي عليه من النعومة واللمعان والدقة والجمال . والبروكار أيضاً متوفّر في الأسواق . وما أكثر ما يصنع هناك من طسوت النحاس وأباريقه التي تبدو كأنها من الذهب ، وكلها مزخرفة ببنقوش من الأشكال والأوراق ، كما يعمل من الفضة أشياء فنية جميلة تسرّ العين لرؤيتها .

والواقع ان محاولة وصف المتاجر الكثيرة الموجودة في دمشق قد تربك الكاتب ، ولكن قد يقع الذي لم يرها في ارباك وحيرة أشد . وحتى لو رغب الواحد في تعداد المصنوعات وأصناف الأشياء الموجودة ، لاضطر الى الاطالة الى ما لا قبل له به . اذ انه بالإضافة الى ما ذكر فان أسواق دمشق فيها المجارة الكريمة والجوائز والأفواقي التي تأتيها من الهند . وقد قال المسيحيون الماروفون بهذه الأمور بأن ما في دمشق من المتاجر يكفي حاجات العالم المسيحي سنة كاملة . ولذلك ان تتصور ما أجمل هذا كلّه عندما تقع العين عليه : أما اللسان فيمجّز عن القول ، كما يعجز المقل عن التصور .

زار برتراندون دو لا بروكييه دمشق في أواسط القرن التاسع (الخاص عشر) وقد جاءها من بيروت . وبعد زيارته للفلسطين اتجه شمالاً في سوريا . وقد ابتعث الأشياء التي احتاجها من دمشق . وما نحن أولاً ننقل هنا تجاربه وملحوظاته عن المدينة بكلّها :

« رافقت احد أصحابي الى السوق وايصرت رديفين طولين حتى انما كانا يبلغان الكاحل ، وعنة كاملة وحزاماً من الجلد ورباطين من القطن اضم بهما طرف الرداء ، وكيسين صغيرين احدهما لاستعمالي والآخر للحصان [مخلاقاً] يطم فيه شعره وتبنه ، وملعقة من الجلد وبساطاً انا ام عليه . وآخر ما ابتعته معلف من الجلد الابيض ، بطنته بالكتان ، لاستعماله ليلاً . وايصرت كذلك جعبه بيضاء كاملة ، وقد تدلّى منها سيف وسكاكين . أما الجعبه والسيف فقد ابتعتها سراً ، اذ لو عرف القيمون على القضاء بذلك لترعضاً ، أنا والبائع الى مخاطر كبيرة .

ان سيف دمشق هي أنيبل وأجمل ما يصنع في سوريا . ومن المتع أن يلاحظ الواحد أسلوب الصناع في صناعتها . فان هذا يتم قبل أن تنسق ويستخدمون في سبيل ذلك مقيناً من الخشب

شكك في قطعة من الحديد يجرونها على نصل الصيف ، وبذلك يتم ملسمه ، كما تنعم الفارة سطح الخشب . ثم يسقونه ويلمعونه . وهذا التلميع بلغ حداً كبيراً من الاتقان بحيث إن الواحد إذا أراد أن يصلح من شأن عمارته اتخذ من نصل السيف مرآة . وأما السعدي فهو كامل ، ولم أر قط ممیوغاً تقطع بمثل هذه الدرجة من الاتقان . ويصنع في دمشق ، وفي ما جاورها من الديار ، مرايا من المدن التي تضخم الأشياء كما في الزجاج العاكس النور . رأيت بعضها وقد وجهت نحو الشمس فنكس من العراوة ما كان كافياً لعرقلة من الخشب على بعد ١٥ أو ١٦ قدماً<sup>(١)</sup> .

## ٢ - ملاحظات عامة :

حري بالذكر أن بلاد الشام عرفت في الفترة المملوكية عدداً كبيراً من المدارس كانت مراكز مهمة للتعليم ، على أن المدرسة لم تكن المكان الوحيد ، ولو أنها كانت المكان الرئيسي ، الذي يطلب فيه الناس العلم – على درجات مختلفة – بل كان هناك الجامع والزاوية (الخانقاه) . ومع أن هذه كانت مرتبطة أصلاً بالطريقة الخامسة بها أو التي أنشأتها ، فقد كان بعضها يؤدي دوراً كبيراً في سبيل الاهتمام بالعلوم الدينية .

ويجدر بنا أن نذكر أموراً ثلاثة تتعلق بالحياة الفكرية ، من الناحية الإسلامية ، عرفتها البلاد واتضحت بشكل خاص في دمشق بالذات . وهي : إحياء السنة وتقوى العناية والاهتمام بالتصوف .

وقد كان إحياء السنة أمراً طبيعياً بسبب انتصار الأيوبيين وسيطرتهم على البلاد منذ قيام صلاح الدين ، وخاصة بعد القضاء على الغلافة الفاطمية . وكان قاضي القضاة أصلاً من المذهب الشافعي ، حتى بدل الأمر الظاهر بيبرس . فعين قاضي قضاة لكل من المذاهب الأربع في القاهرة ثم في بلاد الشام .

وكان العناية ذوي نفوذ وقوة واسعين في القرون السابعة والثامنة والتاسع (الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر) ، وقد كان للهجرتين اللتين ذكرتا من قبل أثر في ذلك : هجرة جماعة ابن قدامة الذين تركوا بيوبتهم قرب نابلس واستقرت في دمشق ، ومجيء أسرة ابن تيمية التي جاءت من حران في شمال سوريا . وقد ظهر فيبني قدامة عدد من العلماء والدارسين الذين كانت خدماتهم العلمية جمع الفتنة ووضع المصنفات الموسوعية فيه . وأسرة ابن تيمية (تو ١٣٢٨/٧٢٨) التي لعله كان أكبر فقيه في أيامه ، فهو يمثل الفئة الثانية ، بعد آئمه السنة الأربع الأوائل ، التي يعود إليها الفضل في إعادة النشاط إلى الدروس الإسلامية الشرعية ، وتصنيف بعض ما مبقي للنقاء أن قسموه من آراء هامة ، وتطبيق المطلق الحديث على بعض القضايا التي لم تكن قد خطرت لأسلافهم من قبل . وقد يكون في الاشارة إلى ابن تيمية وصحبه على أنهم مصلحون بعض المبالغة . ولكن أثرهم ، وخاصة أثر ابن تيمية نفسه ، يمكن ملاحظته في آراء المسلمين حتى يوم الناس هذا .

ومنتناول التصوف بالحديث أولاً ثم نعمود على المعلم الأعلام . ولعله من المناسب أن نولي الإمام الفزالي ملاحظة هنا ، لأنه هو الذي أعاد التصوف إلى حظيرة الإسلام السنّي ، ولو أن ذلك

لم يمنع من قيام صوفيين كانت لهم شطحات تختلف ما توصل اليه الفرزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م .

وقد فصل الفرزالي موقفه من التصوف في كتابه (المنقد من الضلال) ، ذلك انه قد درس أقوال الحكماء وال فلاسفة وغيرهم من أهل الفكر ، ثم انتهى الأمر به أن أقبل على طريق الصوفية وخبر أمورها علماً و عملاً ، وأخيراً لما أحس بعجزه ، على ما يقول : « ثم لما أحسست بعجزي وسقط بالكلية اختياري ؛ التعبات الى الله التجاء المضرر الذي لا حيلة له . فأجابني الذي يحب المضرر إذا دعاه . وسهل على قلبي الاعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب . »

وقد ترتبت على هذه النقلة ان أوجد الفرزالي « للمواقف الباطنية الداخلية مكاناً في مجال الإسلام الرسمي ، فكان جنباً الى جنب مع الشريعة والكلام » الا أن الفرزالي جعل التصوف شيئاً ، لأن ما قبله من التصوف لم يكن التصوف المترافق . وقد ارتأى ا.ج. أزيري أنه منذ أيام الفرزالي أصبح بإمكان نوع هادئ من التصوف أن يعتلي مكانة بين العلوم الإسلامية . الا أن هذا القول يقابله استثناءات متعددة ، كابن تيمية ، عالم دمشق في ذلك العصر ، الذي كان شديداً العملة على التصوف . ولنا الى هذا الموضوع عودة .

كان التصوف الإسلامي ، في القرن السابع (الثالث عشر) ، قد كون ثيوزوفيته الخاصة المبنية على أساس فكرة الكلمة ، والتي أصبحت فيما بعد فكرة الحقيقة المحمدية . وقد كان لصوفيين كثييرين التفضل في نشرها وهم : ابن القارض (المتوفى في القاهرة سنة ٦٢٣/١٢٣٥) وابن عربى (المتوفى في دمشق سنة ٦٣٨/١٢٤٠) . وكانت دمشق بين القرنين السابع (الثالث عشر) والتاسع (الخمس عشر) مركزاً هاماً للناحية التفكيرية الإسلامية : السيدة والشريعة من جهة والتصوف من جهة أخرى ، وكانت كفته الناحية الأولى أرجع في غالب الأحيان .

وقد كانت ثمة عوامل كثيرة أدت الى ذلك ، منها النظام الجديد الذي ظهر في هذه الرقة من العالم الإسلامي . لكن يجب أن نذكر الآن أن خطراً الفزو المغولي ، الذي تحقق لما احتل هؤلاء بغداد ، حمل كثييرين من العلماء على الهجرة من العاصمة العباسية متوجهين غرباً ، وكانت دمشق المكان لطبيعي الذي يلقون عصا التسيير فيه . كما أن الرعاية التي كان آل زنكى والياقوبيون وبعض سلاطين المالك ييسنونها على العلماء ، جذبت كثييرين منهم فانتقلوا من شمال العراق الى دمشق . فأنسارة ابن تيمية انتقلت الى دمشق وعالم المستقبل كان لا يزال طفلاً ، لكن آباء وجده كانوا من العلماء المرموقين . ويبعد أن القاهرة لم تجذب أهل الفكر دوماً في تلك المصور .

اما دمشق ذات جاذبية خاصة . عن ذلك قان عدداً من العلماء هجر فلسطين ، وهي تحت حكم الصليبيين ، الى دمشق مثل بنى قدامة ، الذين أنشأوا الصالعية . ومع أن بغداد ظلت مركزاً للعلم ، فإن دمشق سبقتها .

قد يبلغ عدد سكان دمشق ، على ما يقال ، نحو مئة ألف نسمة ، والمدينة غنية تجارية وهي ، بعد القاهرة ، أهم مدينة في دولة السلطان . يمتد حولها الى الشمال والجنوب والشرق سهل متسع ، ويرتفع غربها جبل عال وقد قامت الضواحي عند أقدامه . يخترقها نهر تقسمه قنوات متعددة .

وال المدينة وحدها يدور بها سور بديع ، لأن الضواحي أوسع من المدينة . « ولم تقع عيناي على حدائق أوسع ولا على فواكه أجود ، ولا على مياه أغزر من هذا الذي شاهدته هناك . فالماء هناك غزير إلى حد أنه قلما يمثّل على بيت ليس فيه نافورة . وحاكم المدينة نائب السلطنة لا يعلو عليه ، في مصر وسوريا ، سوى السلطان . ولكن بسبب الثورات التي قام بها بعض الحكام فأن السلطان يحاول أن يضيق على الحكام حيطة وحدراً »<sup>(٢)</sup> .

### ٣ - التربية والتعليم :

تتميز الفترة التي تتحدث عنها ، من حيث الاهتمام بال التربية والتعليم ، بأمور مهمة يجب أن يضعها الواحد من نسب عينيه عندما يتتحدث عن الحياة العلمية .

**أولاً :** كانت الدولة تشرف على التعليم العالي . وكان هدفها حماية نفسها ، وكان هذا هو الفرض الذي قبل علماء الدين والمفكرون الأصطلاع به . فلم يكن لعربي الفكر مكان في نظام التعليم في تلك الفترة ، بل انه لم يكن لها مجال في الحياة الفكرية عامة . وبروي أبو شامة أن صلاح الدين لم يكن يحب الفلسفة أو أولئك الذين كانوا يخالفون التدين المأثور ، حتى انه أمر بقتل السهروري (المقتول) . وقد كان هنا سابقة خليرة استثنى هذا الرجل الذي كان ينطر اليه خلفاؤه بين الأكابر<sup>(٣)</sup> .

**ثانية :** كانت التربية أساسها فهم النظام الذي بذل «العلماء جهداً في اقامته ومن ثم فقد ضاقت حلقات المتعلمين واقتصرت موضوعات التعليم : ويلاحظ الباحث أن الكثير من كتب المقادير لم تكن أكثر من شروح وتفاسير لكتاب واحد أو ذيول له . ومن حيث أن المجتمع الإسلامي لم يتلق ، في القرن السابع (الثالث عشر) أو بعده ، تيارات فكرية من الخارج ، فإن الحياة الفكرية لم تعرف العوافر أو البواعث التي تحملها على الانطلاق . ذلك أن التوازن الداخلي القائم وجدر في الفتنة المعاصر له ما يلزم له لسد حاجاته . وكان لا بد من ضغط خارجي لحداث رد فعل يؤدي إلى تبديل الوضع ، ومثل هذا الضغط لم يشهده العصر المملوكي<sup>(٤)</sup> .

**ثالثاً :** كان ثمة شعور عام بأن العمل في حقل الفقه هو العمل العلمي الأصيل . ولعل من أطرف ما وصلنا مما يدل على هذا الأمر أن ياقوت لما وضع مؤلفه الشمين « ارشاد الأربيب إلى معرفة الأدب » اعتذر من ذلك في مقدمته بقوله :

« واني لجد عالم بيفيض يند ويزري علي، ويقبل بوجه اللائمه الي ؛ من قد اشرب الجهل قلبه ، واستمتعى على كرم السجعية لبه ، يزرم ان الاشتغال بامر الدين اهم ، وتنفعه في الدنيا والآخرة اعم . أما علم أن النفوس مخلقة الطبائع ، متلونة النزاع؛ ولو اشتغل الناس كلهم بنوع من العلم واحد لضاع باقيه ، ودرس الذي يليه . وان الله جل وعز جعل لكل علم من يحفظ جملته ، وينظم جوهرته ؛ والمزم ميسر لما خلق . ولست انكر أني لو لزمت مسجدي ومصلاي ، واشتغلت بما يعود بعاقبة دنياوي في أخرى أولى ، وبطريق الاسلامة في الآخرة أخرى ، ولكن طلب الافضل مفقود ، واعتماد الأخرى غير موجود ، وحسبك بالمرء فضلاً ان لا يأتي محظوراً ، ولا يسلك طريقاً وعيراً »<sup>(٥)</sup> .

رابعاً : لمد له كان من الطبيعي ، والنصر هو الزمن الذي نعرف ، أن ينصرف الناس إلى الفقه . فقد أثر القول بأن العلماء هم حماة الشريعة، هذه النظرة الإسلامية التقليدية إليهم . وفي الفترة التي تتحدث عنها كان العلماء أصحاب نفوذ كبير . فقد كانوا يحتلون الوظائف الدينية : فمنهم القاضي والمحاسب والمفتى والمدرس والأساس والخطيب والقارئ ، وبذلك استطاعوا السيطرة على التعليم ، وكان إليهم النظر في القضاء ، وإليهم تعود الفتوى . وكان ثمة عدد كبير من الوظائف الدينية وقنا عليهم . فكتاب الإنشاء ونظائر المؤسسات المختلفة ، كالبيمارستانات والبيش ، كانوا من العلماء . والأدب الرسمي الذي تحدّر علينا من تلك الفترة مطبوع بطبعاتهم<sup>(٦)</sup> .

خامساً : كان للصدام بين أهل المنطقه والصلبيين أثر كبير في ازدهار الشعر العربي . فقد زودت انتصارات نور الدين وصلاح الدين الشعرا بموضوعات لقصائدهم ، ولم يقتربوا فقط في التفني بأعمال الأمراء الكبار . فابن عثيمين وابن الساعاتي امتحنا الأيوبيين مع أن الأول ذات الم التفني من دمشق ، وقضى مدة في اليمن – لكن في بلاط واحد من الأيوبيين .

وشعراً الفترة – أي في القرنين السابع (الثالث عشر) والثامن (الرابع عشر) – الذين يمكن عدم بين شعراً مسورة كثر : فمثلاً ثلاثة وعشرون منهم . لكن نتابتهم الأدبية لا يبلغ مبلغ النتاج الشعري العربي القديم من حيث نوعه . ولعل ابن نباتة أديعهم صيّتاً . ولد هذا الشاعر في مyarفاقيين سنة ١٢٨٧/٦٨٦ وانتقل إلى دمشق سنة ١٣١٦/٦٩٦ ، لكنه رحل أخيراً إلى القاهرة وتوفي فيها سنة ١٣٦٧ . وفي ديوانه الكثير من شعر المدح ، ومن هذه القصائد ثمانية عشرة تبدأ بالطريقة التقليدية من تذكر الأحبة والمرابع . وقد نظم ابن نباتة المنشد الذي يزعم البعض أن ابن عربي نقله إلى المشرق من الأندلس ، كما أنه نظم الرجل ، وفي ديوانه نموذج من ذلك<sup>(٧)</sup> .

#### ٤ - ابن عربي :

نود أن نتوقف قليلاً عند ابن عربي أولاً لأنه من كبار أهل التصوف في عصره ، وثانياً لأن قضى السنوات العشرين الأخيرة من حياته في دمشق، حيث وضع جزءاً كبيراً من خير مصنفاته .

ولد ابن عربي في مصرية من أعمال الأندلس سنة ٥٦٠/١١٦٥ ولتقى علوم الحديث والفقه في لشبونة واشبيلية وبسبطة وأطّال التجوال في شمال إفريقيـة . ومع أنه كان قد تعرّف إلى الصوفية من قبل ، فإنه انضم إلى المتصوفة في تونس ، ويسلّوانـ هذا الاتجاه الجديد في حياته هو الذي حمله على الاتجاه شرقاً إذ أن عصر الموحدين لم يكن يتقبل مثل الآراء التي كان ابن عربي يقول بها . فضلاً من أنه ، مثل غيره من أهل الورع من المسلمين ، رغب في اداء فريضة العج . وقد كان بلغ الثامنة والثلاثين من عمره لما بدأ رحلته إلى المشرق .

ولم تكن اقامته في مصر هيّنة ، فقد هدد في حياته غير مرّة ، لكن مكّة راقته وطابت له صحّة اهلها والواردين عليها من المعجاج ، فأقام هناك ثمانين سنوات عكف أثناءها على التأليف والتدرّيس . وقد تم له أثناءها إقامة مذهبة التائلي . وقد زار فيما بعد بغداد التي أعجبته لكنه لم يتم فيها طويلاً . ولله الحمد بالأخطر المحدث بالعاصمة العباسية من الشرق . وبعد تبعاً قصير في آسيا الصغرى التي عما الترحـال في دمشق ، وفيها توفي سنة ٦٣٨/١٢٤٠ .

حظي ابن عربي في دمشق بكل ما يمكن أن يطبع فيه من لقاء طيب وعيش رغيد ورعاية أولى الأمر ، وكان في ذلك خير له ولنا . وكان بين الدين أناذوا عليه الرعاية ابن الزركي قاضي القضاة ، الذي كان يقوم على خدمة الصوفي الكبير بنفسه . وكان جو دمشق العَرَّ نسبياً ، إذا قورن بالقاهرة والقرب الإسلامي ، مما راق ابن عربي فحمله على العمل الفكري الجدي - إذ أنه أتمَ وهو في دمشق « الفتوحات المكية » ، و « فصوص العكم » .

وقد خللت لنا ابن عربي عدداً ضخماً من المؤلفات تقدر بين ٤٠٠ و ٧٠٠ ، وقد سلم ما يربو على المائتين . لا شك أن بعضها يختلف من بضم أوراق ، لكن الكثير منها يتكون من مجلدات عديدة ، مثل الفتوحات والفصوص ، ولم يكن ابن عربي كاتباً فحسب ، ولكنه كان شاعراً على نحو ما نعرف من شعره الذي رواه صاحب نفح الطيب .

جمع ابن عربي في إطار تأملاته الجامع علوم الإسلام ، ولم تكن معرفته الوثيقة مقتصرة على ما وضعه الفقهاء والفلسفه واللسنيون والمتصوفة القدماء والمحدثون فحسب ، بل كان مطلعاً على ما عند المخالفين لهم مثل المغزلة والقراطضة والإسماعيليين . ومذهبـه ، على ما فيه من اتساع وتنوع ، يكشفـ عما عرفـه مصادره جمـاء من تأـملات وتأـمـير . ومن ثم فـان الاشارـات الفـاقـنة تزداد تـقيـداً بـسبـب المصـوـبة التي تـواجهـنا باـستـمرار ، وهي المصـوـبة النـاشـة عنـ استـعمال التـعـابـير الفـنـية المـتـناقـحة لـابـن عـربـي ، فيما صـنـفـه الفـتوـحـات المـكـيـة ، وهو مجلـيات هـذا الرـجـل وـتـفسـيرـه لـلـكـون وـالـعقـيدة وـالـروح وـشـؤـون الـحـيـاة بـجمـلـتها .

وقد يصعب علينا تعيين مذهبـ ابن عـربـي وبـسبـبـ هـذا الـذـي يـبـدو لـنا مـتـناقـضاً ، ولـمـلـ مثلـ هذا المـقـفـ سـبـبـ اـنـا نـحـن نـحـكم عـلـى الرـجـل مـنـ الـخـارـج ، فـنـرـى الـغـلـافـات وـالـمـتـناقـضـات . اـمـا مـوـ قـدـ كـانـتـ آـرـاؤـه نـتـيـجـة تـماـزـج وـتـنـاغـم دـاخـلـيـين .

ويـبـدو لـابـن عـربـي أـحـسـ بـمـوـافـقـ الآـخـرـين مـنـ فـوـضـعـ كـتـابـه « الأـجـوـبة الـلـانـقـة عـنـ الـأـسـئـلة الـفـاقـنة » ، وـقـدـ تـصـورـ فـيـ نـفـسـه يـبـحـبـ مـائـلاً اـيـادـيـ القـضاـيا الـتـي تـعـرـضـه .

وـعـلـى كـلـ فـانـتـا نـفـسـ اـمـامـ الزـمـلـاء مـا يـصـحـ أـنـ يـسـمـيـ « بـعـضـ اـرـاءـ اـبـنـ عـربـيـ » ، رـاجـينـ إـلاـ يـحـسـبـهاـ أـحـدـ اـنـا خـلاـصـةـ لـذـهـبـه :

- ١ - الله هو الوجود الحق وهو مصدر كل الموجودات . وفي الله وحده يتتجدد الوجود والكيان .
  - ٢ - الكون له وجود نسبي اما والهي او تصوري . وهو في الوقت ذاته وجود دائم وعدم موقت . فالوجود الدائم هو في علم الله ، اما العدم الموقت فهو خارجي بالنسبة لله .
  - ٣ - ان الله مترى ومشبه ، ذلك بان التنزيه والتتشبيه مظاهر اساسيات للحق على ما يدركه الانسان ، فالحق الذي يقوم على التنزيه هو الغلق الذي يقوم على التشبيه ، مع ان الغلق يتصدى عن المغلوق .
  - ٤ - ان الوجود ، يعنيـ اـنـ يـقـعـ بـارـادـةـ الله ، وـهـوـ خـاصـعـ لـلنـوـامـيـسـ الـمـتـعـلـقةـ بـالـأـشـيـاءـ الـكـائـنةـ :
- ويـتـمـ ذـلـكـ بـوـاسـطـةـ الـأـسـمـاءـ الـعـسـنـيـ اوـ الـأـرـاءـ الـكـلـيـةـ .

- ٥ - كانت الأشياء في العالم الظاهري ، قبل أن تصبح موجودات ، قائمة في العقل الإلهي كاعيان ثابتة ، ومن ثم فقد كانت شيئاً واحداً مع الكيان والوعي الإلهيين .
- ٦ - ليس ثمة شيء اسمه اتحاد بآلة ، بمعنى أن يكون المرء واحداً مع آلة ، ولكن هناك تحقيق للكيان الواقعي وهو أن الصوفى واحد مع آلة .
- ٧ - ان الأصل الخلاق المعي العاقل في الكون او العقل الأول هو الحقيقة المحمدية المسماة أيضاً حقيقة العقائق . هذا الأصل يظهر على او في صورة الإنسان الكامل .
- ٨ - كل نبي هو حقيقة آلة ، والحقيقة هي محمد سيد الأنبياء . وهذه العقائق جميعها تتقمصها الحقيقة المحمدية .
- ٩ - الإنسان الكامل هو مصفر الحقيقة . انه العالم الأصغر الذي يعكس الصفات الكاملة للعالم الأكبر جميعها . وكما ان الحقيقة المحمدية كانت المبدأ الخلاق في الكون ، فإن الإنسان الكامل هو علة الكون لأنها رغبة الله في أن يعلن . ذلك بان الإنسان الكامل وحده هو الذي يعرف آلة ويعب آلة ويعبه آلة . فقد صنع العالم من أجل الإنسان فقط<sup>(٨)</sup> .
- ويمكن تقصي المدى الذي تأثر فيه المتصوفة بابن عربي في أكثر من اتجاه واحد . فعند أولئك الذين لم يقبلوا ، أو ظاظروا بأنهم لم يقبلوا ، نظرته بالوهية الكون كثيراً ما عبوا من معيته وخاصة آراءه في العب ، وحتى القاهرة ، التي أضفت مضاجعه أثناء إقامته فيها ، وجدت فما بعد الكثير عنده ، وتجد أنه في نهاية القرن السابع(الثالث عشر) أصبح جماعة من المتصوفة في القاهرة من أشد المؤيدين لزراته . وحتى العلماء حفظهم ابن عربي على العمل ، لأنهم انعمروا إلى نقه ، وما كان ذلك بالأمر اليسير ، في تقييم آرائه بسبب تنوع ما مرّ به من التجارب الروحية والتأملات وعمتها .

## ٥ - ابن تيمية :

العلوم الشرعية هي التي كانت طلبة أهل العلم في مصر التي تتحدث عنه . ونعن نفترض أن نمثل على هؤلاء بالحديث عن ابن تيمية ، لكننا نود أن نشير إلى عالم كبير سبقه هو الموقف ، الذي رافق أمرته بنى قدامة في معرتها من فلسطين(الواقعة تحت الاحتلال الأجنبي) وكان صبياً . وكان أبوه أول معلميه ، ثم أخذ العلم عن بعض علماء دمشق ، ورحل بعد ذلك إلى بغداد والموصل ومكة حيث لقى العلماء وأخذ عنهم ، وكان قد بلغ الثلاثين من عمره لما استقر في دمشق نهائياً ، وانصرف إلى التعليم والتأليف حتى وفاته سنة ٦٢٠/١٢٢٢ . وكان عدد كبير من الطلبة يحضر دروسه ، بينهم جماعة يلغوا عن العلم درجات عالية . كان الموقف حنانياً وأشهر بالفقه ، وخلفه لمنه المفتى ، وهو كتاب في الفقه في عشرة مجلدات . ومميزة الكتاب هو أن مؤلفه كان يقارن فيه بين نظرية الحتابة وآراء غيرهم من أهل السنة ، ومن ثم فالقارئ يجد فيه الفقه المقارن . وقد قيل عن الموقف أنه كاد أن يصل إلى مرتبة الاجتهد .

وابن تيمية مثل حسن لتبيان أثر العالم المتنين الخلق في شؤون الدولة والمجتمع ، على ما يتضمن من بضعة حوادث منتزعه من حياته . لما رأى الخطر المغولي المعد بالبلد سنة ١٤٩٨/١٩٧ ، تحدث

الى الناس عن شؤون الbehad ، فكان حديثه أوقع في النفوس من أوامر السلطان . ولما احتل المغول دمشق بقيادة قازان ، كان ابن تيمية الذي حضر أرجواش ، نائب القلمة ، على وجوب الامتناع عن تسليمها ، وقد ذهب ابن تيمية الى البنك ، بصحة نفر من أعيان دمشق ، للقاء قازان والحصول على امان لأهل المدينة . وبعد رحيل جيش قازان من دمشق طاف ابن تيمية وأتباعه على حوانين التمور يكسرون آنية الغر ويهرون محتوياتها على الأرض ، ويعزرون أصحاب العاتنات . وقد رافق ابن تيمية حملتين عسكريتين الى كسروان بلبنان في اوائل القرن الثامن (الرابع عشر) ، وقبل مرحلة شقحب (سنة ١٣٠٢ / ٧٠١) ذهب الى الجبيش وتحدث الى الجندي من الوحدة والنصر واستوثيق من ان الأباء وغيرهم أقسموا على الاخلاص ، واوضح لهم شرعية قتال المفسول ، ولو ان هؤلاء كانوا مسلمين مثل أهل سوريا .

قدمنا هذه الأمثلة لنوضح الدور الذي كان المعلماء يقومون به في الحياة العامة . فاذا أضفنا الى ذلك نشاطاتهم الفكرية ، لا يتولانا العجب اذا نحن وجدنا ان حظهم في ارشاد القوم وتوجيه قضيائهما المختلفة كان كبيراً .

وقد كانت دمشق في أيام المماليك تتعجّ بالعلماء ، فقد هاجروا اليها من الجزيرة وينداد وفلسطين ، وتقلّبوا في دمشق مشجعة وأقاموا عليهم من خيراتها وأمنها ، ومنحهم الفرصة لينموا اهتمامهم العلمي .

وتميز ابن تيمية (٦٦١ - ١٢٦٣ / ٢٢٨ - ١٢٦٢) بأنه ارتفع إلى مستوى القضايا المطروحة يومها وعالجها بمعونة وصراحة وواجهها مواجهة الميبة . وحياة ابن تيمية بالذات تموج يعتدّ في مجابهته للصعب متى اقتضى بالحق في مسألة ما .

كان أحمد ابن تيمية قد بلغ السابعة من عمره لما رحلت أمته من حرثان في الجزيرة الى دمشق ، خشية تكرر الهجمات المغولية . وقد أصبحت دمشق في القرن السادس (الثاني عشر) مركزاً للفقه العنابي ، الأمر الذي تقوى بمدستوطنه بنداد سنة ١٢٥٨ / ٦٥٦ ، ولما كانت أمراً احمد حنبلية ، فقد أتيح له من أول الأمر ، أن يأخذ العلم عن خير المدرسين العتابلة في تلك الفترة ، فالمدارس العنابية كانت قد دربت فقهاء ومتكلمين ومسفرين ومحدثين يشار إليهم بالبنان ، وكان علماء العتابلة يولون الخطب في المساجد والمدارس والزوايا عنابة كبيرة ، وكان ابن تيمية ينمو مع هذه الأمور كلها كأنه جزء منها ، ولما كان في الثانية والعشرين من عمره خلف أبيه ، وكان قد توفي في السنة السابقة ، في التدريس ، وكان هذا اعترافاً بمقداره ، وذاعت شهرة دروسه لا بين السنة فحسب ، ولكن بين الشيعة الذين حضروا لها .

وكان العصر الذي عاش فيه يسيطر عليه المذهب الأشعري ومسحة من التصوف مع استعداد تام لقبول النظرة التقليدية في الشؤون العامة ، وكان ابن تيمية خصماً لهذه جماعتها ، وقد أثار عليها منذ اول الأمر ، حرباً عوائنا ، وهذا هو الذي جعله يعتبر « مصلحاً » .

وقد قام بذلك في حياة مديتها وجماعته، وأثارت « قسوته » في مهاجمة خصومه كثيراً من ردود الفعل العنيفة ، فاتتهمه هؤلاء بالعناد وطلبوان تنزل به العقوبة ، ومن ثم فقد صرف الرجل

سنوات من حياته في سجون القاهرة و دمشق ، حتى ان السنوات الأخيرة من حياته قضتها في قلعة دمشق وتوفي فيها .

لم يكن ابن تيمية عالماً يكتفي بالتعليم والتصنيف ، بل كان أيضًا ، مثل عدد كبير من العناية عبر التاريخ ، متفاعلاً مع بيئته ، فقد أخذ على عاتقه أن يتأكد من أن الناس ، كبارهم قبل صغارهم ، كانوا يحافظون على الآداب الإسلامية في تصرفهم . هذا كان من واجبات المحتسب ، لكن ابن تيمية كان (بتوظيفه نفسه بنفسه) محاسبًا غالباً تشيطاً .

وخلف ابن تيمية عدداً كبيراً جداً من المصنفات التي تعالج قضايا مختلفة ، وليس من الممكن أن نتحدث عن كتبه جميعها في هذه العبارة ، لكننا نرجوا لزاماً علينا أن نضع بين أيدي القارئ بقعة من آرائه وموافقه الأكثر أهمية .

فقد يبحث في رسالته الواسطية ، وفي غيرها ، المقيدة الإسلامية التي كان يرى أنها تأذت من الأشعريية والتصوف والتقليد ، فقد قبل بعض المسلمين القول بأن الله ذو صفات جسمانية ، بانين ذلك على تفاسير مجازية لبعض آيات جاءت في القرآن ، وقد هاد ابن تيمية ، ودعا الناس إلى أن يعودوا مثلك ، إلى القرآن الكريم والسنة النبوية لفهم المقيدة فهماً عيناً دقيقاً صحيحاً أصلياً ، تاركين غير ذلك من الوسائل والأراء التي تسببت إلى الإسلام من الخارج كالتشييل والتفسير والتفسير ، ولم يكن ليقبل بما جاء به المتصوفة من تطرف في الرأي إذ قالوا بالحلول والاتحاد ، فمثل هذا القول كان ، في نظره ، شركاً لا يقبله الإسلام ، ومن ثم كان مجموعه النفي على ابن عربي . ومع أن ابن تيمية لم يهاجم التصوف جملة ، إلا أن المتصوفة نفوا عليه موقفه منهم ورفعوا أمره إلى السلطان في القاهرة ، ونجحوا في أن يرجع به في السجن .

وكان ابن تيمية حرياً على المقلدين . ذلك أن المألوف في ذلك الوقت هو أن الفقهاء كانوا يتقيدون ، في بحثهم أمور الشريعة ، بما جاء به أئمة السنة الاربعة ، أي أنهم لم يكونوا يبدون رأياً خاصاً قط . ذلك أن باپ الاجتہاد قد اقتصر قبل نحو خمسة قرون . ومع أن العناية لم يقبلوا بهذا تماماً ، إلا أنهم رأوا هذا التقليد في بعض نواحيه . وكان ابن تيمية يرى أن الاجتہاد أمر أساسي للجماعة الإسلامية واستمراره لازم . وقد أوضح موقفه هذا في عدد كبير من الفتاوى ، التي اغتھر فيها أصالة في الرأي والأسلوب مقتضراً في جملة على الاستشهاد بالقرآن والسنّة ، والرجوع إلى الاجماع على ما عرف في أيام الصعابة .

كان الفقهاء يعتمدون الاجماع والقياس والرأي أحياناً في تفسيرهم للأمور الشرعية . وقد تحدى ابن تيمية هذه كلها وقال بأن اجماع العلماء يمكن إعادة النظر فيه ، ومن ثم فإن آراء أئمة المذاهب السنية الاربعة يجب أن ينظر فيها من جديد متى سنت فرصة لذلك ، على أن يعتمد على الكتاب والسنّة .

ولم يكن ابن تيمية وحيداً في هذا الموقف ، بل إن عبد السلام وأبن قيم الجوزية لم يربما قبول آراء الأئمة الاربعة قيولاً مطلقاً . وقد حدد ابن عبد السلام موقفه ، إذ لم يسمح للجمهور بالاجتہاد ، بل قصره على أهل العلم . وكان ابن قيم الجوزية يقول بأن الفتوى يجب أن يكون عملية نامية متطرفة كي تسترشد به الدولة للوصول إلى الوسائل التي تعينها على القيام بمصلحة الأمة<sup>(٩)</sup> .

## ٦ - التاريخ والموسوعات :

وكان التاريخ موضع اهتمام وعناية في هذه الفترة ، وقد صنفت فيه كتب قيمة . وقد كان الخبراء الأوائل في الإسلام مقلين على أنفسهم بعض الشيء ، وكان الإسلام وتاريخه هو كل ما يهمهم ، وقلما منوا بن من سبقهم من الأقوام أو حتى بعاصيرهم من الأمم الأخرى باستثناء الطبراني وابن قتيبة وابن الأثير . أما مؤرخو العصر المملوكي فقد كانوا منفتحين . كانت كتاباتهم عن الإسلام والبلاد الإسلامية إلا أنهم كانوا قد ارتبطوا بجماعات أخرى في الشرق والغرب وكونوا معها علاقات وثيقة وتعاملوا معها بشكل واسع ؛ وقد جاء مؤرخو المماليك بعد أن كان عدد كبير من الجغرافيين والرحالة قد درسوا أجزاء العالم وكبيواعتها . فلم يكن بإمكان مؤرخ المؤرخين أن يتجاهلو الأقوام الأخرى حتى ولو أرادوا ذلك . فضلاً عن أن بعضهم بذل جهوداً لتدوين تاريخ العرب الصليبية – أكبر نزاع مسلح بين المسيحية والإسلام، ولستا نعني الآن بموقف المؤرخين ، ولكن المهم أنهم تناولوا الموضوع بالكتابة . كانت آفاقهم أوسع ، والذي نراه هو أن مؤرخي القرن الثامن (الرابع عشر) هم الذين أرشدتنا إلى كتابة التاريخ : لقد كان طليعتهم ابن خلدون ، وقد قاتلت دمشق ومؤرخوها بدور كبير في هذا الاتجاه .

وقد ازدهرت في الفترة التي تتحدث عنها أيضاً المؤلفات الموسوعية التي شملت فنون العلم والمرفة على أنواعها : ففي الفقه وضع المؤتق «المبني» . وفي التاريخ ظهر أشبال ابن الفرات والذهبى ، وفي الموسوعة بالذات صنف ابن فضل الله المعربي كتاب «مسالك الأنصار» ، وهذا الكتاب ، ومستند إليه فيما بعد ، جاء في عشرين جزءاً فيه الجغرافية والتاريخ السياسية والأدب على نحو ما عرفها المصر . فضلاً عن أنه كان ، في زمانه ، دليلاً رسمياً للذين يملون في وظائف الدولة . ولعله من الأفضل لتوضيح نواحي الحياة الفكرية في ذلك الوقت أن نضع أمام القارئ تراجم مقتضبة جداً لبعض المؤرخين والموسوعيين الذين كانت حياتهم نموذجاً للمصر ، إذ ان ذلك من شأنه أن يدخلنا إلى الجو الذي عاش فيه مؤلام الناس .

من مؤلام النبوي المؤرخ (تو ١٣٤٩/٧٤٩) الذي صنف «تاريخ الإسلام» في سبعين قسماً خص كل قسم منه بعقد من السنين . وقد كان واسع المعرفة ضليعاً في علمه بالمصادر حيث ان كتابه يمكن اعتباره من نوع الموسوعات التاريخية . وقد خلفه في كتابة التاريخ ابن كثير صاحب «البداية والنهاية» الذي وضعه في أربعة عشر جزءاً . وقد جلب الآثاران – النبوي وابن كثير – إلى تلخيص من سبقهما في كتابة تاريخ القرون الأولى ، لكنهما كانا يعيشان ، وهما يدونان أخبار زمانهما ، إنما يورثان لفترة فيها الكثير من الحركة والنشاط ، ومن ثم فقد انتصرتا إلى عملهما باهتمام ، فختلفا لنا ثروة تاريخية لا يمثل لها ، وخاصة ابن كثير الذي يرسم لنا صورة حية للأحداث والماجريات حيث نستطيع مرافقته يوماً في يوماً .

ويعتبر ابن فضل الله المعربي (تو ١٣٤٨/٧٤٩) مؤلف «مسالك الأنصار» في مسالك الأنصار ، موسوعي دمشق في عصر المماليك ، فقد كان أبوه وجده من قبل موظفين في الدولة المملوكية ، وكانت متصلين بتنظيم البريد خاصة ، وقد ولد المعربي في دمشق حيث سمع العربية والفقه وتولى منصب

القضاء فيها . وأخيراً تأسى خطوات والده وجده فتوظف في ديوان الانتشام ، وهذا ما حفظه على وضع مؤلفه **«المسالك»** ، والكتاب فيه يبعث عن جغرافية الأرض ، إلا أنه عندما يتكلم عن الجغرافية السياسية فإنه يقصر بعثه على بلاد الإسلام (وهو يأمل أن يتحدث عن بلاد الكفار في مناسبة تالية) . على أن الافتقاء بهذا القول عن الكتاب فيه اجحاف ، ذلك بأن المؤلف يزورنا بالأخبار التاريخية المعاصرة وبالمعلومات المتعلقة بالادارة وال العلاقة بين السلطان ونوابه وأمرائه . ويسهب في تبيين الأمور المتعلقة بالضرائب وموارد الدولة والمكافآت وحق الانتفاع بالأرض وما إلى ذلك . ووصفه للمدن ، وخاصة القرية ، وافر ودقيق . وأسلوبه يتفق مع روح العصر ، إلا أنه لا يصحى بالدقابة في سبيل زخرف التول . وفي الكتاب عدد كبير من المراسيم والأوامر السلطانية التي صدرت في أوقات مختلفة ، وإن لم يكن هو الكتاب الوسيم الذي يوردها . ولا سبيل إلى فهم الادارة المملوكية إلا بكتاب **المسالك** هذا .

وأبن طولون الصالحي ولد في أواخر عصر المماليك وتوفي سنة ١٥٤٦/٩٥٣ ، لذلك لم يتمتع برعايتهم مدة طويلة ، إذ جاء موته بعد زوال إمبراطوريتهم ب نحو ثلاثة عقود من السنين . وسمع ذلك فهو من أهل مصر لأن ولد قبل الاحتلال العثماني (١٥١٦/٩٢٧) باثنتين وأربعين سنة . ولم تكن مؤلفات ابن طولون شيئاً مبتكرة ، إلا أنه عالم من علماء تلك الفترة . فقد قرأ القرآن وسمع الحديث والفقه ودرس التصوف (وهو أمر غير مألوف إلا إذا كان المقصود الرد على المتصوفة) واللغة والتاريخ والرياضيات والفلك والهندسة والطب . والكتب التي وضحتها ، وبلغ عددها سبعين ، شملت هذه الموضوعات جميعاً . كان ابن طولون نموذجاً لعالم العصر : كان ذكيّاً فتعلم كل شيء قراء ، وقرأ كل شيء وقامت عليه ، وكان قادراً على فضم المعرفة ، ومنه على الكتابة بيسر . لكن الذي لاحظه دارسو ابن طولون هو أن الرجل لم يُنْدِي بالقضايا المعاصرة له رأياً خاصاً ، فهل أن الرجل لم يبع المشكلات التي كانت البلاد تعانيها ؟ على أن ابن طولون لم يكن الوحيد بين علماء عصر المماليك الذي لم تشغله القضية العامة ما دام يستطيع أن يحقق حلمه أي التعلم والتدريس في الموضوعات المألفة وعلى الطريقة التقليدية (١) .

## ٧ - المؤلفون والكتب :

تمكننا في مناسبات مختلفة من جمع أسماء المؤلفين الذين عرفتهم بلاد الشام ، وخاصة دمشق ، في عصر المماليك ، فتبين لنا نتاج حري بالدرس المفصل . أما الأسماء فقد حصلنا عليها (ولن نذكرها هنا مفصلاً) من كتب الذين في تاريخ الروضتين لأبي شامة وتاريخ أبي الفداء والبداية والنهاية لابن كثير والدرر الكامنة لابن حجر وفوائد الوفيات للصندي . وقد أسفنا كتاب بروكلمان في تاريخ الأدب العربي كثيراً في الحصول على الأسماء وتيسير الرجوع إلى المطابق الأصلية . وهذه هي الخلاصة التي توصلنا إليها :

١٤	<b>الأطباء والعلماء والفلكيون</b>	٢٦	<b>الفقهاء</b>
٤	<b>الموسوعيون</b>	٢٣	<b>المفسرون والمحدثون</b>
٢	<b>مؤلفون متفرقون</b>	٥	<b>المتصوفة</b>
—		٣٢	<b>أهل النحو والأدب والشعراء</b>
١٣٥		٢٨	<b>المؤرخون والجغرافيون</b>

فأهل الأصناف الثلاثة الأولى ، أي الذين اكتفوا في الموضوعات الدينية ، وعددهم ٥٤ عالماً ، يكُونون ٤٠٪ من مجموع العلماء .

وقد وضع مؤلِّفَو المؤلفون ، بقدر ما تيسَّر لنا التفصيل والتصنيف من المصادر التي ذكرناها تبلاً ، ٩١٨ كتاباً (هي التي وصلتنا) وهي ، موزعة على الموضوعات ، تبدو على النحو التالي :

١٢٣	٢٧١	التاريخ والجغرافية
٥٢	١٦٤	الطب والعلوم والفلك
٤	١٥٨	الموضوعات
<hr/>		
(١١)	١٣٥	مؤلفات متفرقة
		اللغة والأدب والشعر

والكتب الموسوعة في الشؤون الدينية هي ٥٩٢ وتتألف ٦٥٪ من مجموع ما ألف . ولعله من الغير أن نضيف الملاحظة التالية :

١ - من المناسب أن تذكر أن معداً كبيراً من المحدثين والمفسرين والقراء والائمة اكتفوا بالتدريس ولم يؤلفوا كتباً .

٢ - نجد أن الكثير من الدواوين الشعرية يدخل في عداد الكتب الدينية ، إذا كان الموضوع ذكر الله و مدح الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ سَلَامٌ) ومثالنا على ذلك : ديوان ابن نباتة (تو ٧٦٨ هـ / ١٢٦٦ م) الموسوم منتخب الهدية من المذائن النبوية ، والوادائى (تو ٢٧٦ / ١٣٢٦) في ديوان البدر الطالع ؛ وفي بديعية العبيان للشاعر الغزير (تو ٢٨٠ / ١٣٧٨) .

٣ - ثمة عدد من الكتب الدينية يتكون من عدد من المجلدات ، مثل فتاوى ابن تيمية وتفسير ابن كثير .

٤ - وقد عرفت الفترة النور من التأليف العلمي ، باستثناء كتب قليلة في الطب والفلك . وثمة كتابان في المنطق وأثنا عشر كتاباً في المغافرية وكتاب واحد عن الاستراتيجية والتبعة . وقد اتبع الطب بسبب رعاية نور الدين وصلاح الدين وخلفانهما . فضلاً من أن الطب كان ذا فائدة عملية ولم يكن له نصيب من التدخل في أمور السياسة . وعلى غرار ذلك كانت كتب الفلك وما إليه في الفلك تعنى بالناحية العلمية من هذه القضايا ، مثل التوقيت وعمل الأسطرلاب .

ونحسب أن هذا يتفق مع روح العصر من جهة ، ومع التطور الذي سبق ذلك في مسافات الحياة التكنولوجية الإسلامية .

فقد عرفت هذه الحياة ، في رأينا ، ثلاثة مساقات لا ساقين على نحو ما جرى عليه المعرف . فهناك المساق الفقهي والمساق الفلسفى ومساق العلوم النفعية ، وهي تشمل الطب والهندسة والفلك من حيث أهميته التوفيقية . والأول كان سند الدولة وكانت الدولة سنته باستمرار . والثانى نما واتسع في فترة زمنية محدودة في القرنين الأولين أو الثلاثة الأولين (الفقهي) والمساق الثانى (الفلسفى) كان هذا الخامس ، فاتحسرت الفلسفة ، على الأقل منذ أيام الفارابى (تو ٥٠٥ / ١١١١) ، وظل للفقه سلطاناً . أما العلوم النفعية فلم يقع بينها وأهلها وبين الفقه وأهله أي صدام حقيقى أو خلاف جذري . فاستمرت تتخرج طباجه وصيدلة وهندسة في جميع المصادر التي تلت ، ومنها الفترة التي نعني نحن بها الآن .

## ٨ - القضايا العامة :

والقضايا الشرعية والادارية والسكنية والمدنية التي شغلت العلماء كانت كثيرة ، وكانت مجالاتها وأبعادها تختلف بين المنطقة والأخرى وبين العالم والمالم التالي ، ثم بين عقود وعقود من السنين .

وقد رأينا أن تتناول عدداً من هذه القضايا بغية منا في الاشارة الى ما شغل الناس وملا عليهم توسمهم وضمائهم في العصر المملوكي :

١ - كانت قضية الاجتهاد مما شغل علماء كثرين ، ومن كبارهم بطبيعة الحال ، فنحن نجد أن ابن عبدالسلام في كتابه «قواعد الأحكام في صالح الانام» ، وابن تيمية في فتاواه وابن قيم الجوزية في «الطرق الحكيمية في السياسة الشرعية» تناولوا هذه القضية بالذات ، وبيدو أنهم لم يكونوا مرتاحين لأحكام الآئمة الأربعية . وقد استغرب ابن عبدالسلام كيف أن عالماً يرى ضفت حجة آمامه ثم يسمع لنفسه باتباعه (قواعد الأحكام ص ١٥٣) . وابن تيمية أخرج أموراً كثيرة تعتبر اجتهاداً شخصياً ، منها قضية العلاق ، وابن قيم الجوزية كان يقول بأن السياسة (اي الحكم) قد تتبع ميلاً تنتهي الى الخير الشام ، وهي حرية بالاتباع ما دامت لا تتعارض مع الأصولين المسلمين – كتاب الله وأحاديث الرسول (صـ) .

٢ - كان من الطبيعي ، والعصر المملوكي كان زمن جهاد ضد الفزو الخارجي ، أن يكون لهذا الموضوع شأن كبير بين الفقهاء ، خاصة وأن خط هجوم أوروبي جديد لم يكن بعيداً عن التصور ، بل يجب أن نذكر حملتين الواحدة على الاستكبارية والثانية على نيكوبوليس . وكانت بعض عناصر السكان تهم بمساعدة الأوروبيين . وكانت الدولة تعتبر مؤلام خونة ، ويجب أن يطالهم العقاب أما إفراداً أو جماعات . وقد هاجم المفouل سوريا وجوارها مرات عدة ، وكان القتال يتراوح بين النصر والخيانة بدرجات مختلفة . وقد وجد هناك من يعطى على المفouل من أبناء البلاد . فهل يعتبر مؤلام خونة ؟ وعلى أي أساس ؟

كانت هذه القضايا المتعلقة بعروبة تلك الفترة موضوع بحث ونقاش . كان الأوروبيون مسيعين لذلك كان في الواقع الأمر يتوجب على الدولة أن تقوم بالجهاد ضدتهم على يد السلطان . لكن المفouل قد أسلموا . فهل كان القتال ضدhem عملاً مشرعاً ؟ لقد رأينا أن ابن تيمية قاد الجملة ضدتهم بنفسه ، ولو لم يكن الرجل مقتنعاً بصواب رأيه لما قام بهذا العمل . وقد كان رأيه في الموضوع واضحاً كل الوضوح . كان المفouل مسلمين ، ولكن تصرفهم الوحشي مع المسلمين في مدن العراق وشمال سوريا وقراها وضعهم في مصاف المجرمين العاديين : ومن ثم فقد حق عليهم القتال . وكان أكثر من نصفهم من الشيعة ، ولم يكن ابن تيمية ممجياً بهم . ولذلك فقد رافق حملة أرسلت للهجوم على معاقلهم في جبال سوريا ولبنان(١٢) .

٣ - تقدس الأرضي القلبية (فلسطين) : كان اهتمام الناس بالأراضي المقدسة من الموضوعات التي احتلت مكاناً مرموقاً في المناقش الدينية في عصر المالكية . ونكتفي هنا بالاشارة إلى الكتب الثلاثة التالية التي وضمت في هذه الفترة لظهور مدى استثار هذه القضية بتفكير العلماء ،

وهي : « ترغيب أهل الإسلام يسكنى الشام » لعن الدين ابن عبدالسلام الملقب بسلطان العلماء ، و « شير الغرام في زيارة القدس والشام » لشهاب الدين المقدسي ، و « شير الغرام في زيارة الغلبي عام » للتدمرمي الغليلي .

والفكرة التي يتناولها الكتاب الأول ، وهو مثل تكتب كثيرة في الموضوع ، هو أن الشام (أي ديار الشام) - ودمشق خاصة - بلد مقدمة بالنسبة لل المسلمين وذلك بسبب الأحاديث المتبوية المتعددة المتعلقة بها . وقد دفن عدد من الصعايدة في سوريا ، ومن ثم فان البلاد تشغل مكانة هامة في الإسلام ، واذن فإنه يتعمق على المسلمين الدفاع عنها . والمشير الأول يضع الثبة على القدس ، بينما يهتم الثاني بالخليل .

ويبدو أن تقدير الأراضي المقدسة كان قد أصبح في القرن السابع (الثالث عشر) قوياً إلى حد أن ابن تيمية وجد أنه من المصلحة أن ينفي مثل هذه الفكرة ، التي كان يعتبرها أمراً فاضحاً . لذلك فإنه صنف كتاباً سمى : « قاعدة في زيارة بيت المقدس » . وحججه وتفنيده تتلخص فيما يلي : ١ - أن المسجد الأقصى يعتبر ثالث مسجد في الإسلام من حيث أهميته ، أما مسجد الخليل فلا يعتبر مساوياً له . ٢ - والمسجد الأقصى هو مكان لعبادة الله ، مثل أي مسجد آخر ، لكن زيارة لا تغنى المرء عن الحج إلى مكة . ٣ - ليس ثمة حرم مرتبط ب اي من مساجدي القدس أو الخليل ، مع أن المسجد مكة حرم خاصة به مثل المدينة . ٤ - زيارة المسجد الأقصى أمر عادي ويمكن أن تتم في أي وقت ولكن لا يمكن فقط اعتبارها حججاً . ٥ - لا يمكن اعتبار زيارة لسلقلان ومكا وطرطوس زيارة دينية لأن هذه الأماكن هدمت مساجد لها . وقد جرب ابن تيمية ، بالإضافة إلى أمور أخرى ، أن يبين أن كثيراً من الأحاديث التي يقبلها الناس على أنها صحيحة ليست هي كذلك ، وإنما هي من وضع القسماء (١٣) .

٤ - علاقة الإنسان بالله : كانت علاقة الإنسان بالله من المسائل التي كثر التواعده فيها في ذلك العصر . وكان ثمة اتجاهان : الأول هو التفسير الصوفي ، وهو الذي يجذب إليه العدد الكبير من الأتباع ، والذي لفت نظر اللطئ لما أخذ التصوفة تنظيم أنفسهم طرقاً جديدة . وكان الاتجاه الآخر هو الاتجاه السني ، الذي كان يحتضنه الأشاعرة والمدارس الخبلية الحديثة المهد ، والتي كانت تتطور بسرعة بين القرن السادس (الثاني عشر) والقرن الثامن (الرابع عشر) .

كان التفسير الصوفي يقول بالعلول والاتباع ، وما فكرتان نشأتا مع الوقت وتطورتا بتاثير عدد من المفكرين . وقد أضيف اليهما ، في القرن السابع (الثالث عشر) ، وحدة الوجود . وقد تشدد التصوفة في اعتبار المعرفة طريقاً لادرaka الله . وكان الكثيرون منهم ، ان لم يكن كلهم ، مستعددين لقبول أساليب غريبة للعبادة ، أو التخلّي عن بعض ما هو مفروض من العادات : فقبلت الطرق الصوفية الذكر والسماع طريقاً للمعرفة . وقد كان الصوفي الأول في هذه الفترة ابن هربي ، لذلك لما أخذ ابن تيمية نفسه بمقارنة التصوف اتخد ابن هربي هدفاً لحلاته .

اما الاتجاه السني فقد حافظ على مستوى رفيع في الأخلاق والتفكير ، ورفض قبول أي تجديد أو ترتيب قد ينتقص من صفاء العقيدة الأولى . وقد كان علماء السنة ، سواء في تفديهم للتصوفة

أو في إعادة النظر في بعض الأمور المتعلقة بالاسلام ، نشيطين جداً . ولمل ابن تيمية ، على ما ذكرنا ، كان أكبر قادة الفكر السنّي (الحنبلبي) في ذلك المصر .

كان ابن تيمية ومعاصروه يرون أن الاسلام هو الدين الحق ، ومن ثم فانه كان يتبع على المسلم أن يؤمن به وبرسوله . والمسلم يرجع إلى القرآن والسنّة لتفهم العقيدة لأن جميع الأمور المتعلقة بالإيمان والعمل موضحة فيها بما لا يترك زيادة لمسترزيد . والإيمان الذي يضمن مسلم النجاة هو الاعتقاد بآلهة وبرسوله . وأصرار ابن تيمية على أن الإيمان وحده لا تتجزأ أمر يلفت النظر ، إذ إن هذه النظرية قبلت العبادة على ما جاءت عليه في مصدري الاسلام الاساسين فقط . يضاف الى ذلك أن الانسان يجب أن يسلم أمره الى الله ، وأن تسليمه يجب أن يكون تاماً ، شأنه في ذلك شأن إيمانه .

كان الله يوحى الى الانسان بواسطة الرسل ، ومحمد هو خاتم الرسل . واذن فعلى الانسان ، عندما يطلب العون من الله ، أن يسأل النبي شفاعته، لكن ابن تيمية عارض التردد على المزارات وزيارة قبور الأولياء على انسان ان مثل هذه الاماكن وأولئك الرجال لهم قوى خارقة ، او انهم يمتحنون برؤسات خاصة او انهم يستطيعون أن يتوصلوا بين الانسان وخلقه ، وحمل على مثل هذه الزيارة حملات شعواء، وبذل الكثير من الجهد ليظهر للناس أن الله لم يهب مثل هذه القبور مكانة مميزة او قوة خاصة (١٤) .

٥ - الفرد والأمة : كانت الأمة الاسلامية هي الأمة في نظر ابن تيمية ، وكان التعاون بين أفراد الأمة هو أساس العمل المشترك فكان يقترب على المسلمين أن يعيّن الآخرين على فعل الخير وتتجنب الشر واحتقار الحق . وكان ابن تيمية يعتبر الأمانة شيئاً عظيماً وان لها أهدافاً وهدایات معروفة .

وغرض الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومعنى هذا أن الأمة كانت تحقق أراده الله . وكان على الأمة ، رغبة منها في تحقيق غاياتها ، ان يكون لها تنظيم دولة هو الامامة التي يتوجب عليها ، وعلى من فيها من موظفين وهيئات ، أن تندم عن مبادئه الاسلام . ويترتب عليها أن يكون مدعها أيضاً الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويجب أن تكون دولة عادلة لأن الله لن يؤذر دولة ظالمة ، ولو أن هذه قد تكون دولة مكونة من مؤمنين . والدولة التي كان ابن تيمية يفكّر فيها هي دولة دينية ، لكنه كان يريدها ، على ما يرى هنري لاوسن ، دولة واجبها أن تتعاون مع الأمة وخدمتها ، لا أن تكتفي بان تقبل خصوصها فحسب . على أن الخضوع كان لازماً لتحقيق الهدف الذي وجدت الأمة من أجله . وعلى الدولة واجب أديبي في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للأمة ، إذ يتوجب عليها ان تحق الحق ، وتنشر الأمان وتأكد من أن الناس قاموا بغير وضهم الدينية . وعليها ، بالاهتمام على المحاسب ، أن تستوثق من صحة المعاملات وأن تعجم الناس من المفسد والتداليس (١٥) .

أما من الناحية الاقتصادية فقد كان على الدولة أن تعجم الأمة ضد الاحتكارات وتداليس التجار . ومرآبة الأسعار كانت جائزة متىما يكون المقصود منها مساعدة الناس في الحصول على حقوقهم – في أيام القحط والوزع . وقد قبل ابن تيمية أن تتدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية للمجتمع لفسمان حاجاته فقط . واذن فقد كان جائزاً أن يكلّف البعض القيام بأعمال تجارية أو زراعية أو في حالة العرب على أن يكون ذلك لقاء تعويضاً ، وعلى أن لا يتاذى أحد بسببها .

ولم يكن ابن تيمية يعبد الاقتصاد الفردي ، لأن الفرد لم يكن السيد المطلق في تصرفه . فهو من الجهة الواحدة خاضع لتعاميم الاسلام ومن الجهة الثانية جزء من الامة ، مرتبطة بها .

## ٩ - الغاتمة :

لقد ترك علماء عمر المالك أثراً لا في معاصرיהם فحسب بل تعدادهم الى الاجيال التي تلت . وفي هذا المجال يبدو اسم ابن تيمية في طليعة المصلحين في ذلك العصر ، وذلك بسبب نشاطه ودقة تفكيره وصفاته اسلوبه (بالنسبة الى الفقهاء وأهل الشرع) وصرحته . وقد كان اتباع ابن تيمية كثرين ، ومن أبرزهم ابن قيم الجوزية (توفي سنة ٧٥١/١٢٥٠) . ومن ثائر ياراء ابن تيمية من غير العنابية ذكر الذهبي وابن كثير وابن حجر ، وهم ثلاثة من كبار المؤرخين للعلماء . وقد كان تأثير ابن تيمية في مصر كبيراً حتى في حياته .

ومن العذير بالذكر انه لما سمع بعض علماء بغداد ، العاصمة التي نعمرها هولاكو قبل ذلك بسبعين سنة ، بان ابن تيمية معرَّض للسجن في قلعة دمشق كتبوا الى السلطان الناصر يرجونه في قضية شيخ الاسلام . وقد جاء في رسالتهم انه لم يبلغ المشارقة وأهل الولايات العراقية الشرقية بان شيخ الاسلام تقى الدين احمد بن تيمية مسجون ، حزَ ذلك في نفوسهم . وما ادرك علماء تلك التواحي مدى المسافة كتبوا الى السلطان مؤيد الدين الشیخ في فتوحه ، مشيدين بعلمه وفضله ، مدافعين عن دينه وحرصه على نصح الامراء المسلمين بما يتوجبه عليهم نحو الاسلام .

ولما فتح المamlقون سوريا ، ضفت شان العنابية ومدارسهم ، لأن الانترات كانوا حنفيين . وقد ظلل ابن تيمية مدة طويلة منسياً في بلده ، وللتصوفة ، الذين مال المamlقون اليهم (فقد بنى سليم ، فاتح سوريا ، زاوية حول ضريح ابن عربي في دمشق) أسهموا في ذلك . الا ان بلاداً اخرى أخذت نفسها بالتعرف الى ابن تيمية ودرس آرائه واتباعه . ففي اواسط القرن الثامن عشر قام محمد بن عبدالوهاب بدمومته في نجد ، وكانت اصلاً تسير على خطوات ابن تيمية . وبعد ذلك بقرن تقريباً قام السيد محمد بن علي السنوسي بحركته الاصلاحية في ليبيا – وأثر تعاملين ابن تيمية واضح في الدعوة السنوسية . وفي مطلع القرن العالى أعلن السيد رشيد رضا ، صاحب الماز ، واحد كبار السلفيين ، أنه من أتباع ابن تيمية .

ومكذا فقد وضع ابن تيمية الاطار الأول للإصلاح الاسلامي والحياء الديني ، الامر الذي قبله دعوة الاصلاح وجامعة الاحياء منذ ذلك اليوم .

## □ العواشي :

١ - نشرت الدراسات المتعلقة بالفتررة المملوكية بحيث أنه يصعب احتراوم المادة هنا . ولمل أنساب ما يمكن أن يفعل هو أن ينظر الباحث المهم فعلاً بتفاصيل عن هذه الفترة في الموسوعة الاسلامية (EI<sup>2</sup>) الطيبة الجديدة ويتابع حكم المamlقون فرداً فرداً . على أنه من المناسب أيضاً أن يعرف إلى ما كتب الرجالون المسلمين والأفرنج على السواء . وقد جمعت أنا في كتابي :

خلاصة وافية لما دونه الرجالون الأجانب عن دمشق خاصة ، فليرجع إليه . ومن مؤلام الدين : تحدثنا عنهم هناك :

(a) Benjamin of Tudela, *Travels* ... ed. Wright (London 1848).

(b) Frescobaldi, Leonardo and others 'Visit of the Holy places of Egypt, Sinai, Palestine and Syria in A.D. 1384 Jerusalem 1948).

Niccolo of Poggobonsi, *A Voyage Beyond the Seas*, Jerusalem 1945.

Ziadeh, Nicola *Urban Life in Syria under the Early Mamluks* (Beirut, 1953).

2 — Afifi, A. E. *The Mystical Philosophy of Mahyid Din Ibnul 'Arabi*, (Cambridge 1939).

Arberry, Arthur J. *Sufism*, (London, 1950).

ابن تيمية ، تقي الدين : *بغية المرتد* (القاهرة ١٣٢٢ م) .

ابن تيمية ، تقي الدين : *مجموعة الرسائل الكبرى* (القاهرة ١٣٢٣ م) .

ابن عربي ، عبي الدين : *ترجمان الأشواق* (بيروت ، صادر ١٩٦٣ م) .

أبو الفدا ، اسحاعيل بن علي : *المختصر في أخبار البشر* (استانبول ١٢٦٨ م) .

٣ - انظر : ليونز وجاسون *صلاح الدين* ، ترجمة: علي ماضي ، مراجعة : نقولا زيادة وفهمي سعد (بيروت ١٩٨٨ م) .

4-7— Makdisi, George *The Rise of Colleges*, (Edinburgh, 1981).

Nashabe, Hisham *Muslim Educational Institutions*, (Beirut, 1989).

زيادة نقولا : *العصبة والمحتسب في الإسلام* (بيروت ١٩٦٣ م) .

8 — Afifi, ibid.

9 — Laoust, Henri : *Essai sur les doctrines sociales et politiques de Taki-Din Ahmad B. Taymîyya* (Cairo, 1939).

ابن تيمية ، تقي الدين : *فتاوی* (القاهرة ١٣٢٥ م) .

ابن تيمية ، تقي الدين : *كتاب السياسة الشرعية* (القاهرة ١٣١٦ م) .

١٠ - زيادة ، نقولا : *الجغرافية والرحلات عند العرب* (ط ٢ ، بيروت ١٩٨٠ م) .

زيادة ، نقولا : *رواد الشرق العربي في المصور الوسطى* (ط ٢ ، بيروت ١٩٨٦ م) .

11— Ziadeh, Nicola, *Urban* pp. 151-189.

زيادة ، نقولا : *دمشق من ١٨٥٠-١٩٠٠* .

12— Ziadeh, Urban, pp. 179ff.

١٣ - ابن تيمية : *القاولة في زيارة بيت المقدس* (JAOSL 1936).

14— Ziadeh, Urban, pp. 179ff.

15— Ziadeh, Urban, 180ff, Laoust, *doctrines*, 316ff.

## □ المصادر والمراجع :

- ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله : تحفة النثار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار - باريس ، المطبعة الأهلية ، ١٨٧٦-١٨٩٤ (٤ أجزاء) .
- ابن تفري بربدي ، يوسف : النجوم الظاهرة في أخبار مصر والقاهرة - القاهرة ، ١٩٦٣ (١٧ جزءاً) .
- ابن تيمية ، تقى الدين : بقية المرتد - القاهرة ، ١٣٢٣ هـ .
- ابن تيمية ، تقى الدين : رسائل وسائل - القاهرة ، ١٣٤٦ هـ .
- ابن تيمية ، تقى الدين : فتاوى - القاهرة ، ١٣٢٥ - ١٣٢٩ هـ (٥ أجزاء) .
- ابن تيمية ، تقى الدين : كتاب السياسة الشرفية - القاهرة ، ١٣١٦ هـ .
- ابن تيمية ، تقى الدين : مجموعة الرسائل الكبرى - القاهرة ، ١٣٢٣ هـ .
- ابن جibr : رحلة ابن جibr : حسین - بيروت ، صادر ، ١٩٦١ .
- ابن طولون ، محمد بن علي : تاريخ الصالحية - دمشق ، ١٩٤٩ (جزمان) .
- ابن عربى ، محيى الدين : ترجمان الأشواق - بيروت ، صادر ، ١٩٦٣ .
- ابن الفرات ، محمد : تاريخ ابن الفرات - بيروت ، ١٩٣٦ - ١٩٣٨ ، جزء ٨ و ٩ .
- ابن قشلة العمري : مسائل الأنصار في ممالك الأنصار - القاهرة ، ١٩٧٣ ، جزء ١ .
- ابن قدامة ، موفق الدين : المغني - القاهرة ، ١٣٤٦ هـ (١٢ جزءاً) .
- ابن كثیر ، اسماعيل بن عمر : البidayة والنهاية - القاهرة ، ١٣٥٨ هـ (جزء ١٦) .
- ابو شامة ، عبدالرحمن : تراجم رجال القرنين السادس والسابع (ذيل كتاب الروضتين) - القاهرة ، ١٩٥٢ .
- ابو الفدا ، اسماعيل بن علي : تقويم البلدان ، (تحقيق ديرنوي سلان) - باريس ، ١٨٤٠ .
- ابو الفدا ، اسماعيل بن علي : المختصر في اخبار البشر - استانبول ، ١٢٦٨ هـ .
- البدرى ، عبد الله : زهرة الاعلام في معاجن الشام - القاهرة ، ١٣٤١ هـ .
- ذاترسن ، ل.ف. (محقق) : تاريخ سلاطين المالكية - ليدن ، ١٩١٩ .
- الشيزري ، عبدالرحمن : نهاية الرتبة في طلب العصبة - القاهرة ، ١٩٤٦ .
- الظاهري ، خليل : زينة كشف المالك ، (تحقيق دالبيسو) - باريس ، ١٨٩١ .
- القلقشنوى ، شهاب الدين : صبح الاعشى - القاهرة ، ١٩١٣ - ١٩١٤ (جزء ١٤) .
- العسني ، عبد القادر : تاريخ سوريا الاقتصادي - دمشق ١٣٤٢ هـ .
- القسطلاني : تاريخ الحكماء - ليبزغ ، ١٣٧٠ هـ .
- ابن أبي اصيحة : ميسون الاقباء في طبقات الاطباء - بيروت ، ١٩٦٥ .
- ابن عبد السلام : ترغيب اهل الاسلام في سكتي الشام - القدس ، ١٩٤٠ .
- م.ه، ليوز - و.أ.ب. جاكسون : صلاح الدين (مترجم) - بيروت ، ١٩٨٨ .
- زيادة ، نسولا : رواد الشرق العربي في الصور الوسطى ، ط ٢ - بيروت ، ١٩٨٦ .
- زيادة نسولا : الجغرافية والرحلات عند العرب ، ط ٢ - بيروت ، ١٩٨٠ .

- Afifi, A. E., «The Mystical Philosophy of Muhyid Din Ibn 'Arabi», Cambridge, 1939.
- Arberry, Arthur J., «Sufism», London, 1950.
- Benjamin of Tudela, «The Travels of Rabbi Benjamin, In Early Travels in Palestine», (ed. by Th. Wright), London, 1848.
- Brocquiere, Bertrandon de la, «The Travels of Bertrandon de la Brocquiere», (ed. by Th. Wright), London, 1848.
- Ecochard, M. and Claude Le Cœur, «Les Baines des Damas», Beirut, 1940.
- Frescabaldi, Leonardo and others, «Visit to the Holy places of Egypt, Sinai, Palestine and Syria in A.D. 1384», Jerusalem, 1948.
- Gaudfroy-Demombyne, M., «La Syrie a l'époque de Mamlouks d'apres les Auteurs Arabes», Paris, 1923.
- Gibb, Sir Hamilton, «Arabic Literature », Oxford, 1963 (2nd ed.).
- Laoust, Henri, «Essai sur les Doctrines Sociales et Politiques de Taki-Din Ahmad B. Taymiyya », Cairo, 1939.
- Niccolo of Poggobonsi, «A Voyage Beyond the Seas», Jerusalem, 1945.
- Sauvaget, Jean, «Esquisse d'une Histoire de la ville de Damas», «Revue Etudes Islamiques», 1934.
- Smith, Margaret, «Readings from the Mystics of Islam», London, 1950.
- Terressc, Rene, «L'Irrigation dans la Ghouta de Damas», «Revue Etudes Islamiques», 1929.
- Ziadeh, Nicola A., « Urban Life in Syria under the Early Mamluks», Beirut, 1953.
- Nashabe, Hisham, Muslim Educational Institutions (Beirut, 1989).
- Barlet, Robert, The Making of Europe Allen Laue The Penguin Press, 1993.
- Makdisi, George, The Rise of Colleges, (Edinburgh, 1981).
- Housley, Norman, The Later Crusades (OUP 1992).



# دمشق . من فتح و حتى لعصر العباسى

## دراسة في العُمران

د. نبيه عاقل

أود الاستفناح بالقول بأن هذه الصفحات محاولة للدراسة عمران دمشق ، وليس تاريفها السياسي أو العسكري أو الاقتصادي أو الاجتماعي ، ذلك أن هذه الأمور شرحها يطول وتقتصر منه همة الفرد ، ثم أن يختصر تاريخ مدينة تغوص أقدامها عميقاً في تربة التاريخ وترتفع اجنبتها عالياً حتى تطاول السماء في ساعة أو ساعات ، هو لعمري من الأمور التي لا بد أن تغطي هذه المدينة حقها ، وتقديم عنها صورة ليس فيها إلا الإطار وشيئاً قليلاً من ملامح . والاتساع الموقر حين قرر أن يستو布 أخبار دمشق في مسيرتها منذ أن دبَّ إنسان على أرضها وحتى يوم الناس هذا أو قبيله ، في ساعات معدودة ، قصد دوننا شك أن يترك الباحث العرض إلى الجواهر ، وأن ينتهي من هذا السفر الضخم صفحات قليلة رأها علامات بارزة وهامة على هذا الترب الطويل من العطاء في كل مجال و مآل .

ولئن كان نصيبي من هذه المهمة يبدأ مع دمشق بعد أن قامت للعرب دولة على أرض الجزيرة ورأرت هذه الدولة أن الأهل في الشام أحق الناس بالتحرير من ربقة سيطرة غريبة على أرض هي استمرار لأرضهم ويقيم فيها أهل لهم تربطهم بهم وشائع القرى ويعيش فيها غريب فساداً وسلباً . والحديث عن فتح العرب لبلاد الشامة بعامة ودمشق بخاصة قد يكون معاذًا ومكروراً ، ولا مجال لتفصيله في هذه العجلة ، ولكن لا بد من وقفة هنا أو هناك عند بعض قضايا نجمت عنه أو أمور تعلقت به .

ولعل أول ما يجب أن يذكر في هذا المجال أن بلاد الشام قبل الفتح كانت في حال من الضعف والتفكك الشديدتين بسبب ضعف الامبراطورية البيزنطية التي كانت تتولى مقاليد السلطة في هذه البلاد نتيجة حربها مع فارس من جهة وبسبب أزماتها الداخلية من جهة أخرى . وكان الفاسنة الذين دخلوا في حلف مع بيزنطة فولاذم البيزنطيون مقاليد الأمور ، ولا سيما في الجنوب يعيشون مرحلة من الصراع الداخلي بين أمرائهم من جهة ، وبينهم وبين الدولة البيزنطية من جهة أخرى ، الأمر الذي خلَّفَ الغراب والدمار ، وفقدان السلطة المحلية التي تمسك بزمام القبائل النازلة في الجنوب وتمتنع ثوراتها ضد بيزنطة ، ورفضها دفع الضرائب أو الانضمام للجيش الامبراطوري . أما العرب مع فارس فقد كانت مستمرة منذ القرن الخامس للميلاد ، الأمر الذي خرب الاقتصاد وفرق الشمل والعق الدمار بالبلاد والعباد . وكان من بين أهم أحداث هذه العرب احتلال الكسرى الفارسي خسرو الثاني لدمشق في العام ٦١٢ م . وإذا أضفنا إلى ذلك كله أن معظم سكان دمشق كانوا يدينون بالذهب اليعقوبي الذي يقول بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح بخلاف بيزنطة الملكية ، لوجدنا ما يفسر حسن استقبال الدمشقين للفرس وبالتالي حسن معاملة الفرس لهم ، يعكس ما سيحدث بعد سنتين أي في العام ٦١٤ م حين وصلت جيوش فارس إلى القدس وأعملت فيها يد التخريب والنهب . وحين توفي الكسرى الفارسي في العام ٦٢٧ م ، انسحب الجيش الفارسي من دمشق ، وعاد هيراكليوس إلى سوريا .

كان هذا يجري في الشام ودمشق في الوقت الذي كان فيه نور الإسلام ينتشر فوق ربي جزيرة العرب . وحقق الإسلام بقيادة محمد بن عبد الله نصراً مؤزراً على الكافرين والمنافقين وأمتد بصر محمد إلى ما وراء العدود بعد أن بايعته الجزيرة في عام الوفود ، فكانت مؤتة ثم كانت خلافة أبي بكر وحروب الردة وبعثت أسامة بن زيد . وبعد أن استقرت الأمور في الداخل ، توجه الثنى وخالد إلى العراق ، ومن ثم ارتد خالد إلى الشام ، وكانت بداية الفتح في العام ١٢ للهجرة . وليس يهمنا كما أسلفنا ، أن نعيد ما هو معروف ، وسنكتفي بالاشارة إلى أن مسيرة المسلمين إلى دمشق واجهت مقاومة بيزنطية شديدة عند مرج الصفر شمال الصنمين وذلك في المحرم من العام ١٤ هـ ، ولكنهم لم يلبثوا أن ولو الأذبار باتجاه

دمشق ، فلاحتهم الجيوش الاسلامية حتى أبواب دمشق حيث أقام خالد قيادته في الشمال الشرقي من المدينة . وقصد خالد من حصاره للمدينة من جهة الشمال قطع الطريق على أي نجدة بيزنطية قد تتسرب من هذه الجهة . و ويبدو أن الود كان مفقوداً بين دمشق والسلطة البيزنطية ، الأمر الذي حدا ببعض وجهائها وعلى رأسهم بطريقها والمسؤول المالي فيها وهو منصور بن سرجون ، والد يوحنا الدمشقي وسواهما ، للدخول في مفاوضات مع الجيش العربي لتسليم المدينة وتجنب السكان المعاناة المتوقعة إذا ما أحكم عليها العصار . وفي رجب من عام ١٤ للهجرة فتح الباب الشرقي للجيش العربي المسلم وانسحب الجيش البيزنطي من المدينة باتجاه الشمال . ولست هنافي مجال الحديث عن الروايات المدينة التي تتحدث عن فتح العرب لدمشق أو مناقشتها وتفضيل بعضها على بعضها الآخر ، ولكن الرواية الأكثر شيوعاً وقبولاً عند العديد من هي الرواية التي يعتمدها ابن عساكر والتي تقول أن فتح دمشق تم على يد خالد بن الوليد من جهة باب شرقى عنوة ، وعلى يد أبي عبيدة بن الجراح الذي دخل المدينة سلماً من جهة باب الجاوية بعد أن أعطى الناس الأمان ، والتقى القائدان الفاتحان وسط كنيسة المدينة . أما البلاذري صاحب فتوح البلدان، فيقول أن المدينة استسلمت لخالد عند باب شرقى دونما قتال ، وإن أبا عبيدة دخلها عنوة من جهة باب الجاوية ، وأن القائدين التقى عند البريص ، في وسط الشارع المستقيم قرب كنيسة المقلاد . وهناك نقاش طويل بين بعض الباحثين : عرباً وأجانب ، حول موضوع فتح دمشق ولا سيما قضية اقتسامها ، لما لهذا الأمر من صلة بموضوع بناء المسجد فيما بعد ، مما لا نرى ضرورة للدخول في تفصياته . والمهم في الأمر أن المسلمين ضمّنوا للمسيحيين حقوقهم بالاحتفاظ بأراضهم ومساكنهم وكنائسهم وسوى ذلك من ممتلكات على أن يدفعوا الجزية وسواها من الضرائب المقررة .

وفي ربيع عام ١٥ هـ / ٦٣٦ م قامت قوة يرأسها ثيودوروس ، شقيق الامبراطور هيناكليوس ، بالتوجه نحو دمشق لاستردادها من العرب المسلمين ، فقام خالد بن الوليد بسحب جيشه إلى موقع الجاوية ومن ثم إلى اليرموك شرق بحيرة طبريا . وفي اليرموك جرت المعركة التي حسمت مصير دمشق ، إذ استطاع خالد أن يهزم تجمع الجيوش الرومية وذلك يوم ١٢ رجب سنة ١٥ للهجرة المواقف

ل ٢٠ آب سنة ٦٣٦ للميلاد ، وما لبث خالد بعد ذلك أن استدعي للمدينة وألت مقاليد أمور دمشق إلى القائد الكبير أبي عبيدة بن الجراح . وحضرت المدينة مرة ثانية وأخيرة للحكم العربي الإسلامي وذلك في شهر ذي القعده من عام ١٥ للهجرة الموافق لشهر كانون الأول من عام ٦٣٦ للميلاد .

كان دخول دمشق في ظل الحكم العربي حادثة مميزة ، إذ انه يضع حدًا للتسلط الغربي عليها الذي دام لما يقارب الألف عام ، فعادت هذه المدينة إلى إطارها المشرقي واستأنفت دوراتها في هذا الفلك مع بقية أشقانها الذين كانوا مثلها ، يتحدون لغة سامية ويولون وجههم شطر المشرق وحضارته وثقافته وديانته التي تقول بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح ، في مقابل الأرثوذكسيّة البيزنطية ولنتها اليونانية . لذا استقبلت الفاتحين العرب ، إبناء العمومة بترحاب كبير لما بينهم من روابط اللغة والتراث الحضاري المشترك والفهم المتقارب للدين .

وقد ظن البعض أن القلة الفاتحة التي دخلت دمشق ستذوب في الفالبية المفتوحة وأن العرب سيغدون رافداً صغيراً من روافد الخليط الحضاري لهذه المدينة . ولكن الأمر لم يكن كذلك، إذ أن سكان دمشق زمن الفتح لم يتكلموا اللغة اليونانية ٰ لغة بيزنطة ، بل تكلموا الآرامية ، وهي كالعربية فرع من الشجرة اللغوية السامية ، كما أنهم لم يقبلوا مذهب القسّطنطينية في طبيعة السيد المسيح . وقد أدى ذلك كله إلى شعور الدمشقيين بالقرب من أولاد العمومة القادمين من شبه الجزيرة ، ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى أخذت اللغة العربية تعنى على اللمة المحلية ، وحتى بدأ الطابع العربي يسود الحياة في مختلف مسالكها . وعين الخليفة عمر بن الخطاب أحد قادة الفتح ، وهو يزيد بن أبي سفيان ، واليًا على دمشق ، وأخذ الأشراف العرب يتواترون على هذا المصر الجديد ، وأقاموا في البيوت التي هجرها أصحابها المعليون ابان عمليات الفتح . وقد أعجب الفاتحون بهذا البلد حتى أسموه «شامة الدنيا» . ولكن عدم توفر الأرض التي تصلح كملاهي لمواسيمهم جعلتهم يسكنون الجاية . وبسرعة فائقة أخذت دمشق ترثي طابعاً مقدساً وأخذ اسمها وبعض الواقع فيها ترتبط بالأنباء والرسل وغدا العج فيها ظاهرة شائعة ، وبخاصة إلى جبل قاسيون ومغاربة الدم حيث قُتل هايل بيد أخيه قابيل ، وإلى بربة حيث يوجد مكان مولد سيدنا إبراهيم ، وإلى القدم حيث يقع قبر موسى بن عمران .

وأما سيدنا عيسى بن مريم فقد أوجدوا له أيضاً صلة بدمشق إذ فسروا قوله تعالى : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » ( سورة المؤمنون ، الآية ٥٠ ) ، يقولهم أن الربوة الواردة في الآية الكريمة هي ربوة دمشق . ويكلّلون هذه الرواية بدعواهم أن سيدنا عيسى سينزل في آخر الزمن فوق المئذنة البيضاء التي هي مئذنة باب شرقي ، عند البعض ، أو المئذنة الشرقية المعروفة بمئذنة عيسى ، عند البعض الآخر ، ليحارب المسيح الدجال ، ولست أجد خيراً من ابن عساكر لأنقل عنه هنا الخبر يقول ابن عساكر في : تاريخ مدينة دمشق ، المجلدة الثانية – القسم الأول ، المختص بخطط دمشق – والذي حققه صلاح الدين المنجد ما نصه : « ..... عن ابن عباس قال : من أراد أن يرى الموضع الذي قال الله عز وجل : « ..... وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ..... » فليأت النيرب الأعلى بدمشق بين النهرين ، وليصعد إلى الغار في جبل قاسيون فليصل فيه فانه بيت عيسى وأمه . وهو كان معلّمهم من اليهود ، ومن أراد أن ينظر إلى ارم فليأت نهراً في حضن دمشق يقال له بربدا ، ومن أراد أن ينظر إلى المقبرة التي فيها مريم بنت عمران والعواريون فليأت مقبرة الفراديس ، وهي مقبرة دمشق ، فيها قبور جماعة من الصحابة والأخيار » . ( ص ١٩٠ ) .

وإذا كانت فترة خلافة الراشدين قد شغلت بأحداث كالردة وبدايات الفتح ومقتل عثمان وعلي والصراع على السلطة وسوى ذلك من أمور لم تتع للتطور العثماني والحضارى بأن يأخذ ماء ، فان انتقال السلطة إلى بني أمية ونقلهم العاصمة إلى دمشق كانت بداية العصر الذهبى لهذه المدينة الذي شهد تحولات كبيرة ورائعة في جميع مجالات الحياة من عمران وسياسة واقتصاد واجتماع . وقد بدا كل ذلك أثر وفاة يزيد بن أبي سفيان وتولية أخيه معاوية مقاليد ولاية دمشق ، ومن ثم حين آلت إليه الخلافة بعد صفين والتعكيم والاغتيال الفادر لرابع الخلفاء الراشدين : علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه .

مع معاوية يبدأ نجم دمشق بالصعود إذ انه سكنها منذ ان كان والياً وأولاها اهتماماً غلت معه حاضرة الخلافة وقبلاً الانتظار لملة تزيد على القرن من الزمن . ومع ان العرب لم يشكلوا غالبية سكانها أول الأمر ، فان عملية تعرّب السكان الأصليين بدأت منذ الأيام الأولى لفتح رغب سبيطه عدد منهم على بعض المراكز الإدارية الهامة في الدولة . ولم تأت خلافة عبد الملك بن مروان حتى غداً التعرّب حقيقة واضحة للدرجة انه أمر يتعرّب دواعين الدولة في دمشق وسواها من حاضر

الدولة ، الأمر الذي يوضح مدى تمكن العرب ورسوخها لكفة تعامل ولفة ادارة . وقد اتصفت الأيام الأولى للدولة ببني أمية بجدية العظام وحرصهم الشديد على تثبيت دعائم الدولة وعملهم الدائب على الارتقاء بها لتكون في مصاف خصومها، لا بل لتفوق عليهم في كل مجال بما في ذلك مجال الانجازات العضارية والفكيرية . ولعل أبرز ما تم انجازه في مجال العمران : الصراحان الكبيران : قصر الامارة ، والمسجد الكبير ، اللذين ستنutherford عنهما بعد قليل ، اذ انتا لا بد ، في سبيل فهم الفضل للوضع العماني للمدينة ، من ان تقف عند بعض مظاهر العمارة في دمشق قبل الفتح العربي لها ...

فقد أدى الازدهار الاقتصادي الذي كانت تنعم به دمشق أيام بيعتها لبيزنطة إلى مضاعفة عدد سكانها واحداث حركة عمرانية نشطة ، فتوسعت المدينة ، وأحدث فيها تنظيم عمراني جديد يحقق المفاهيم الجديدة في تنظيم المدن وتحصينها ، فقد أحيا طب دمشق بسور واسع مستطيلبني بأحجار ضخمة ، احتوى وراء وادي بردى في ناحية الشمال ، وزود بسبعة أبواب : أحدها في الشرق ( باب شرقى ) وأخر في الغرب ( باب الجاوية ) واثنان في الجنوب ( باب كيسان والباب الصغير ) وثلاثة في الشمال هي باب توما وباب الجنين ( الذي كان بالقرب من باب السلام ) وباب الفرداديس . وشق في المدينة شارع رئيسي عريض يمتد من الغرب الى الشرق وينحصر بين باب الجاوية وباب شرقى ، وعرف باسم الشارع المستقيم وكان طوله ١٥٠٠ م ، ويتألف من طريق واسع في الوسط ورواقين جانبيين مسقوفين تحملهما أعمدة كورنثية ، ما يزال بعضها مطموراً وظهر بعضها الآخر أو أجزاء منه أثناء أعمال الحفر والبناء في موقع هذا الشارع . الذي كانت تزيقه التماشيل ، وقد أدرك العرب أحدها وكان يتوسط الشارع وهو عبارة عن عمود عليه تمثال رجل باسط ذراعيه وأخر على رأسه مثل الكرة فيها حديد ، كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية ( ج ١٤ ، ص ٢١٧ ) وكانت تقطع هذا الشارع أقواس النصر ، وقد ظهر أحدها منذ أعوام قليلة ، وقامت مديرية الآثار بترميمه عام ١٩٥٠ . ويعتقد بأن هذا القوس هو الذي أشار إليه ابن عساكر باسم قنطرة سنان .

على ان الآبدة الهمامة التي خلفها البصر البيزنطي في دمشق هي معبد جوبيترا الذي عرفه العرب وأطلقوا عليه اسم حصن دمشق . وقد بني هذا المعبد على أنقاض المعبد الأرامي ، وتحول فيما بعد الى كنيسة القدس

يوحنا وذلك في آخر القرن الرابع ، وقد أحدثت أسواق ذات أروقة تصل بين أبواب الميد الداخلي وبين أسواره الخارجية ، يشاهد جانب منها عند البابين الشمالي والغربي للجامع الأموي . وخللت الأروقة ذات الأعمدة في الناحية الجنوبية الممتدة من باب الزيادة في الجامع الأموي باتجاه الجنوب باقية حتى القرن التاسع عشر ، إذ شاهدتها السائح الانكليزي بورتر في عام ١٨٥٥ م ، وعد منها اثنى عشر عموداً ، فقدت جميعها فيما بعد .

كما ظهرت في العصر البيزنطي الكنائس والأديرة كمنشآت عمرانية جديدة ، شيد منها حوالي خمس عشرة كنيسة داخل الأسوار وخارجها . وأما الأديرة فقد كانت عديدة في أطراف المدينة وضواحيها ، واشتهر من بينها دير مران في سفح قاسيون الغربي ، قريباً من الربوة . وتذكر الروايات أن الولي د . توفي في موقع قرب دير مران .

ومن المؤكد وجود قصور وجواسق على سفح قاسيون ، أحدهما كان للحاكم البيزنطي . وتذكر المصادر العربية قصراً في قاسيون يسمى بقصر هرقل ، أصبح يدعى في العهد السلجوقي بقصر شمس الملوك ، نزله صلاح الدين الأيوبي في القرن الثاني عشر .

وكان للفسasseنة قصر في قلب دمشق يدعى البريص كان يؤمه زعماء العرب وينزلون فيه ضيوفاً على أمراء الفسasseنة ، وهو الذي يقول فيه حسان بن ثابت :

لله در مصابة نادتهم يوماً بجلق في الزمال الأول  
يسقون من ورد البريص عليهم بربى يصف بالريحق السلس

والمعروف أن « جلق » لقب من ألقاب دمشق . وقد أكد البلاذري بأن موقع هذا القصر كان عند المقلادط ، أي في وسط الشارع المستقيم .

بعد هذا العرض السريع لبعض مظاهر العمران في دمشق قبل الفتح ، نعود لنتقول أنه منذ السنوات الأولى لهذا الفتح أخذت دمشق تتتحول تدريجياً إلى مدينة عربية مسلمة . وحل الأمراء العرب وكبارؤهم في الدور والقصور التي أخلاها أصحابها البيزنطيون من حكام وقواد . وبذلك توزع المسلمون في جميع أنحاء المدينة ، ولم يكن لهم آنذاك أحياء خاصة بهم وأخرى خاصة بالسيعين ، كما سيحدث فيما بعد .

ودليلنا على ذلك أن ابن عساكر يعدد دوراً للصحابة كانت في محلته باب توما وباب شرقى وهما من الأحياء المسيحية التقليدية . كما شارك المسلمين المسيحيين في المعبد القديم ، فأصبح يضم كنيسة للنصارى في الجانب الغربى ومسجدأ للMuslimين في الجانب الشرقي ، وأقيمت طقوس العبادتين في بناء واحد . وظلت هذه الحال من الجوار بين العبادتين أكثر من نصف قرن الى أن شرع الخليفة الوليد بن عبد الملك في تحقيق مشروعه المعماري الضخم وبنى المسجد الأموي الذي سنتحدث عنه بعد قليل .

وإذا عدنا إلى ما ذكرناه آنفأ عن الصروح الكبيرين اللذين يقعان على رأس قائمة المنجزات العمرانية زمن خلافة بنى أمية لوجب أن نذكر أن معاوية اتخد أول الأمر مقر اقامة العاكم البيزنطي مقرأله ، واكتفى باصلاح ما تهدم منه . ثم ما لبث بعد ذلك أن طوره وأضاف عليه المباني الالازمة للادارة وشؤون الحكم ، وهكذا أصبح المكان يعرف بدار الامارة أو قصر الخضراء نسبة الى القبة الخضراء ، وموقعه قرب ما يعرف اليوم بسوق الصاغة في الجنوب الشرقي من الساحة التي كان يقوم عليها المعبد الذي سيغدو فيما بعد المسجد الأموي . وكانت الى جوار الجدار الجنوبي للجامع ويتصل به بباب خاص . ويدرك ابن عساكر (المجلد الثاني - ص ١٣٣ ) أنه « لما بني معاوية الخضراء بدمشق ، وهي دار الامارة ، بناها بالطوب ، فلما فرغ منها قدم عليه رسول ملك الروم ، فنظر اليها، فقال له معاوية : كيف ترى هذا البناء؟

قال : أما أعلاه فللعاصف ، وأما أسفله فللفار . قال فنقضها معاوية وبنها بالعجارة . وتذكر الروايات الى أنه كان في القصر جناحاً خاصاً باهل الخليفة ، وجناحاً آخر يستقبل فيه رجال الدولة ، ويتناول فيه طعامه ، ويخرج منه للصلة في الجامع . وتحولت بعد ذلك الى دار للملك يقطنها من يتولى الخلافة من بنى أمية . ثم حين قامت الثورة العباسية على بنى أمية تهدمت هذه الدار ، وأصبح مكانها داراً للشرطة ولضرب النقود . ثم أتى عليها حريق عام ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م مع الجامع الأموي ، فزالت أثارها نهائياً، وحل مكانها منذ العام ٦٤٢ هـ / ١٢٤٥ م حتى اليوم سوق للصاغة . وجدير بالذكر أنه كان الى جانب قصر الخضراء دار عرفت باسم دار الخيل وكانت نوعاً من دار الضيافة لاقامة المبعوثين الأجانب الذين يفدون لمقابلة الخليفة .

ومن جملة الدور الشهيرة التي بناها رجالات الدولة في دمشق ، دار عبد العزير بن مروان وابنه الخليفة عمر ، وكانت تقع بجانب جدار الجامع الشمالي مكان المدرسة الشميساطية اليوم .

ونعرف قصراً كان لهشام بن عبد الملك في مكان المدرسة المجاهدية داخل باب العريش أي في سوق القلبيجة ، وقصوراً أخرى بنيت خارج سور ، أحدها ينسب إلى العجاج بن عبد الملك وقد أطلق اسمه على الحي الذي حول القصر بعد ذلك . وقصر عائكة بالقرب منه ، ويسمى اليوم حي من أحياe دمشق باسم قبر عائكة وصحيحة قصر عائكة .

وقد اندثرت كل هذه القصور ولا نعرف عنها شيئاً ، بخلاف قصورهم العديدة خارج العاصمة ولا سيما قصور الصحراء وقصور فلسطين ، وأغلبها يعتبر مثلاً رائعاً على الفن المعماري الأموي مما لا نجد ضوراً للحديث عنه . واليقين أن مدينة دمشق في العصر الأموي كانت ترفل بأبدع حلة إذ أن في مصادرنا الكثير عن متزهاتها ومتناهياً دورها الفارهة وساحاتها العامة ، فضلاً عن حماماتها وفنادقها ومشافيها وسوى ذلك .

وقد أدى الدور المتعاظم لدمشق كحاضرة للخلافة إلى اتساعها وامتداد المساجن خارج سور ، فنشأت في أطراف المدينة وضواحيها من أكبر سكنية عرفت بـ «نازل القبائل» . وامتد البناء على ضفاف بردوى وسفوح قاسيون وظهرت الجوايسق والطوارم (ج طارمة وهي البناء المستديرين المشرف) وشق يزيد بن معاوية النهر الذي عرف باسمه ، فساعد ذلك على امتداد الخضراء وال عمران إلى أعلى السفح ، فضلاً عن أحياء عدد من القرى في الشمال من دمشق . وقد تغيرت هذه المنازل والارباض في الفتنة والغروب التي تلت المهد الأموي .

وكان في المدينة ميدانان عامان (هيبيوروم) أحدهما في الجنوب وهو ميدان المحصى ، والأخر في الغرب ويعرف بالدرج الأخضر (مدينة معرض دمشق الدولي الحالية) حيث كانت تقام سباقات الخيل التي أولى بها الأمويون ولا سيما الخليفة عبد الملك وابنه الوليد ، ولعل خير شاهد على هذه المidanاني والرياش ما نراه في فسيفساء الجامع الأموي الذي لا أظن أحداً لم ينعم برأفيه .

اما الصرح الثاني الذي اشرنا اليه ، فهو المسجد الاموي . ولست اريد في هذه العجاله ان ادخل في تفاصيل النقاش العقيم حول ملكية المكان ما ورد في معاهدة الصلح ، وهل اشتريت الارض من اصحابها او هل استبليت كيسة بكتائب ، وهل كان ذلك طوعا او قسرا ، ففي ذلك حديث يطول ، ويصعب الفروج منه برأي قاطع . امهم ان المسجدبني ، وانه كان درة في جبين الدولة الاموية ما زال بريئها يتلاً حتى يوم الناس هذا ، حين تصدى السيد الرئيس لواقعه الذي يتهدده الغطر ، وامر الا يدمر جهد حتى يعود هذا الصرح لسابق عهده ، وادعوا الله ان يوفق المسؤولون الامانة ويكونوا على قدر المسؤولية امام التاريخ وامام من عهد اليهم بها .

و قبل ان أدخل في حديث مقتضب حول المسجد أود أن أقف وقفة قصيرة مع ملامح الفن العربي الذي أخذت معالمه تتشكل مع اطلاالة فجر دولة بنى أمية . وأود أن أقول بأمانة أن الملامح الأولى والأساسية لهذا الفن ولدت في دمشق حتى غدت هناك مدرسة فنية عالمية هي مدرسة الفن العربي الاسلامي ، وأقول عاليه لأن ملامحها انتشرت خلال اثنين عشر قرنا على بلاد تمتد من الصين الى المحيط الأطلسي ، وكانت بداياتها مع العرب الامويين ثم تطورت تبعا للعصور والمؤثرات المحلية والمستوردة .

ولست أشك بأن هذا الفن هو ثمرة مشتركة بين الاسلام كدين ومعتقدات وموافق من الحياة وشئونها وما هو محروم وما هو محلل وبين الفتح وما أدى اليه من انقسام حضارات وثقافات لها تاريخها وتقاليدها ومنجزاتها الفنية الى الاسلام ، فتفقیدت به واحترمت أوامره ونواهيه ومزجت كل ذلك مع الموروث العربي في بوتقة واحدة لتخرج فتناً متميزاً ما زلت انتفيأ طلاله حتى اليوم وعلى طول هذه البقعة الواسعة من الأرض . وبكلمات قليلة أن ما نسميه بالفن العربي هو نتيجة تمازج عقائد الاسلام ، وفنون العرب ، بفنون فارس وبيزنطة وقبلها اليونان والرومان والذي جعل مؤرخي الفن يقررون وحدة الفن في العالم الاسلامي ، هو ما وجدوه من صفات مشتركة وخصائص متشابهة بين فنون هذه الاقم التي دخلت في الاسلام وتبنّت معتقداته . ثم ان بلاد الشام بخاصة كانت المعبر الدائم لمختلف الحضارات العالمية والبوتقة التي انصهرت فيها وتمازجت لتخرج فناً فيه من الملامح العالمية ، ومن الشخصيات المحلية آنذاك ما يجعله فناً روائعاً لا أجد مثلاً له خيراً من مثال تدمر حيث تلاقت حضارات العالم القديم لتنتج

ولن أطيل فقد شهدت دمشق مولد هذا الفن المركب الإسلامي على يد الأمويين ، وكانت أولى ثماره الجامع الأموي الذي بناء الوليد بن عبد الملك وغدا الدرة الشفينة في الناج الأموي .

وإذا رجعنا إلى البدايات لوجدنا أن المسلمين بعد الفتح شاركوا المسيحيين في المعبد القديم الذي غدا يضم كنيسة للنصارى في جانبه الغربي ، ومسجدًا للمسلمين في جانبه الشرقي ، كما سلف وأشارنا إلى ذلك . وظلت هذه الحال من الجوار بين العبادتين ما يزيد على النصف قرن وكانت كنيسة القديس يوحنا زمن معاوية تنعم باستقلالها عن المسجد المجاور ويرؤيد هذا الرعم ما يذكره كاتب مادة «دمشق» في الطبعة الجديدة من الموسوعة الإسلامية من أن القس الغالي أركونف مر بدمشق سنة ٥٧٠ هـ فوجدان هناك مبعدين منفصلين يمارس في إحداهما العبادة الإسلامية وفي الثاني العبادة المسيحية . ومن أجل المناسبات التي تقتضي تجمع المسلمين أقام الأمويون الأول ما أسموه مصلى العيد، وفق تقالييد السنة ، خارج المدينة ويوجد في محلة الميدان اليوم جامع يدعى جامع المصلى ، وهو مصلى العيد الأموي . ولما بني قصر الخضراء وشيدت القصور والمؤسسات الحكومية في الساحة الواسعة المحيطة بالمعبد القديم ، بدا انه لا بد من توسيعة المسجد القديم ليتناسب مع حاجات الدولة المت坦مية . وكان هذا ما فعله الوليد عندما شرع ببناء المسجد الأموي .

وكما أشرت في مطلع هذا الحديث ، وبعيداً عن النقاش حول الأسلوب الذي تم فيه استحواذ الأرض التي بني عليها المسجد ، لأنه نقاش عقيم لا يثبت حقاً ولا ينحو باطلًا ، ولكل رأي أو ادعاء ما يؤيده أو ينفيه ، وتظل الحقيقة محبوبة بستار داكن من سنين طويلة وأهواه متناقضة ومواقوف تتبع عن عصبيات وآراء ليس لها ما يثبتها أو ينفيها ، أقول بعيداً عن هذا النقاش الذي يخصه لنا اليسييف بدقة وموضوعية فيما كتبه عن «دمشق» في الطبعة الجديدة من الموسوعة الإسلامية ، فإن الوليد أمر في العام ٨٦ هـ / ٧٠٥ م . بهدم كل ما كان موجوداً داخل ساحة المعبد القديم ، وكنيسة القديس يوحنا وبدأ باشارة المسجد الكبير . ولن أدخل في وصف مفصل للمسجد ويكفي القول أنه مستطيل الشكل طوله ١٥٧ متراً وعرضه ٩٧ م ، ويحتل قسمه الشمالي صحن مكشوف تتوزع فيه

قبتان جميلتا العمد والتیجان ، وبركة يحفّ بها من العجائب عمودان ، كانا يسرحان في العهود الماضية لزيارة الصحن . ويؤدي الى الصحن ثلاثة أبواب ، ويحيط بالصحن من الداخل رواق مسقوف قائمه على عمد وعضائد تحمل طبقتين من العقود الكبيرة والصغرى مفتوحة الى الصحن . ويحتل المصلى (الغرم) الطرف الجنوبي ، وهو قاعة مستطيلة مؤلفة من ثلاثة أروقة ( بلاطات ) تتمتد من الشرق الى الغرب وينتظمها صفائح من الأعمدة عليها طبقتان من العقود تحمل السقف . ويقطع الأروقة الثلاثة هذه من الشمال الى الجنوب رواق مرتفع يحمل في وسطه قبة النسر الشامخة . وقد أطلق المرب على المصلى اسم النسر : القبة رأسه ، والرواق المقاطع جسمه ، والأروقة عن يمين وشمال جناحاه . وفي جدار المصلى الجنوبي باب يصل الجامع بالمدينة . وكان في هذا الجدار باب آخر ذو فتحات يصل الجامع بقصر الخضراء . قصر معاوية ومن تلاه من خلفاءبني أمية . ويستürüي الانتباه في هذا المصلى بناء صغير أنيق قائم بين أعمدة الرواق الأوسط ، وهو ضريح النبي يحيى . وعند ابن عساكر (المجلدة الثانية - القسم الأول - خطط دمشق ، ت المنجد ، ص ٩ وما بعدها)المديد من الروايات حول رأس سيدنا يحيى ، وأسبقيس فيما يلي احداثا : « ٠٠٠ عن زيد بن واقد ، قال : وكُلْنَي الوليد على العمال في بناء جامع دمشق . فوجدنا فيه مغارة . فعَرَفْنا الوليد بذلك ، فلما كان الليل وافى وبين يديه الشمع . فنزل ، فإذا هي كنيسة لطيفة ، ثلاثة أذرع في ثلاثة أذرع ، وإذا فيها صندوق . ففتح الصندوق ، فإذا فيه سقط ، وفي السقط رأس يحيى بن زكريا عليه السلام ، مكتوب عليه : هنا رأس يحيى بن زكريا . فامر به الوليد فرد الى مكان ، وقال : اجعلوا العمود الذي فوقه مغيّراً من الأعمدة ، فجمل عليه عمود مسبك مسفل الرأس . » .

ونميز على مخطط الجامع ثلاثة أبراج شاهقة هي منائر الأذان ، وقد بنيت كلها في عهد الوليد ، وجدت أقسامها العليا في العصور التالية : الأولى وتنوسط الجدار الشمالي وهي معروفة بمئذنة المرووس ، والمئذنتان الآخريان بنيتا في زاويتي المصلى ، الشرقية والغربية ، وقد عرفت المئذنة الشرقية بمئذنة عيسى .

وقد سخا الوليد في الانفاق على البناء وجلّله بكل أنواع الزخرفة مما لا مجال للدخول في تفصيله . ويكتفي أن نشير إلى أن وفداً بيزنطياً حضر خصيصاً من القسطنطينية لمشاهدته حين سمع به . وقد بلغ من دهشة الوفد أن صرح رئيسيه بما معناه : إننا وقد شاهدنا هذا البنيان الرائع لعقولكم بأن العرب باقون في هذه البلاد إلى الأبد ، وأنه لا رجعة لبيزنطة إليها بعد اليوم . وهكذا كان ٠ ٠ ٠ ٠

كما يعزى للفترة الأموية إقامة مقبرتين إسلاميتين جديدين إلى جانب مقبرة باب الفراديس : الأولى أقيمت قرب باب توما ، أما الثانية وهي الأهم لأنها وارت جثمان أكثر من رجل من صحابة رسول الله ، وهي مقبرة باب الصغير ، جنوب المدينة .

وقيل أن أختم الحديث عن دمشق في زمان بنى أمية بطيب لى أن أنقل إليكم بعض ما ذكره لنا ابن عساكر في تاريخه عن هذه المدينة :

اقرأ من ص : ٣٤ - ٣٥ - ٣٦ ، ص ٥٣ ، ٧٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ : ٩٩ - ١٠٢ - ١٢٧ ، ١١٠ ، ١٢٩ .

وهناك أشياء كثيرة أخرى عن الأنهر والسوقين والقنطرة ( جمع قنطرة )  
والحمامات وعددها ٥٧ حماماً ٠ ٠ ٠

هكذا كانت دمشق زمان بنى أمية الدين جعلوها حاضرة الخلافة وجعلوها بما يليق بعاصمة إمبراطورية عظمى تنافس بيزنطة على سيادة العالم . ولما آل الأمر إلى بنى العباس ، بعد خصومة مسلحة مع بنى أمية ، كان طبيعياً أن تتراجع مكانة هذه المدينة وأن تندو مدينة ثانية في إطار الإمبراطورية الجديدة التي غدت حاضرها الكوفة أول الأمر ، ومن ثم بنت حاضرها الجديدة : بغداد ، وعملت على أن تكون قبلة الأنظار في كل المجالات .

ولا نجد في مصادرنا حديثاً مطولاً عن دمشق في ظل بنى العباس ، فما عدا ما نقرأه من نبشهم القبور الأموية والتمثيل بالبعثة وسوى ذلك من فظائع ، تعيش دمشق فيعزلة عن الأحداث إلا من ثورة تقوم بها بين حين وآخر ، فتسمع بها الدولة وترسل من يؤدب العصاة . وما ان يأتي القرن الثالث للهجرة حتى يخيم الظلام على المدينة لبضعة قرون قطعتها زيارة بعض الخلفاء العباسيين لها

فاستطاب بعضهم هواها وفاكهها ، وود لو أنه أقام فيها ، وكره آخرون الاقامة بها ، وبين هذا وذاك كانت المدينة تهبا للطامعين والحكام الاقطاعيين ، ثم غدت تابعة لصر زمن الطولونيين والفاتاطين ، وكانت سنواتها في غالبيها سنوات صراع على السلطة بين قوى قادمة من بغداد أو مصر ، أو بين قوى محلية . وقد عبر المؤرخ ابن الجوزي عن حالها هذا بشيء من المبالغة وذلك أثناء حديثه عن العام ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م وهي السنة التي انتهت فيها الحكم الفاطمي فيقول : « ... ولم يبق من أهلها سوى ثلاثة آلاف انسان بعد خمسمائة ألف أفناهم الفقر وال فلاء والجلاء ، وكان بها مائتان وأربعون خبازاً فصار بها خبازان ، والأأسواق خالية ، والمدار التي كانت تساوي ثلاثة آلاف دينار ينادي عليها عشرة دنانير فلا يشتريها أحد » .

وتعود دمشق لالتقاط أنفاسها بدءاً من الحكم السلاجقي ، إذ بنيت قلعة دمشق في عهدها الأول في عام ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م ليتخذ منها حكام دمشق السلاجقة دار إمارة وقصراً حصيناً وزودوها بالأسوار والأبراج والخنادق وشيدوا داخلها الدور والحمامات والمساجد والمدارس ، مما لا يدخل في نطاق حديثنا . وتابعت دمشق مسيرةها العمرانية بعد ذلك زمن الأيوبيين والماليك والمثمانيين . مما سيكون موضع حديث علماء أفالضل .

ولست أدعى لهذا الذي قلت فضل الجدة أو الريادة أو الاحتياط ، فهو معروف مكرر من جهة ويقتصر عن الواقع بكثير، ولكنني حاولت التذكير ببعض ما تعرفون ، وأرجو أن أكون قد وفقت .



# دمشق

## في العصور الكنعانية

د. على أبو عساف

الوثائق المختصة بدمشق، كلاً أو جزءاً ، قليلة جداً . هي سطور في وثائق التقاديمية ، او رسائل تاتي على ذكر دمشق ومعيطها . وجمهم سطر فوق سطر ، يظهر رواية غير محبوبة ، وجداراً مرماً في قبوره واضحة للعيون .  
وان كان يبلو للمختصين متكاماً متراصاً وشامغاً .  
هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن التنقيبات الأثرية لم تجر في دمشق ، ولن تجر في المستقبل المنظور ولو جرت لعشنا على وثائق او بعضها من وثائق عصورها وشواهد حضارتها على مر العصور القديمة .

لم تمع العروب والكوارث ، كل التي نقرأ فيها سطراً ، او كلمات عن دمشق . كما أنها لم تغيب كل شواهد حضارتها . فلا تزال هناك أشياء تنطق بأنباء عن دمشق ومعطيتها .

"وطبيعي" في هذا الصدد ، أن نتعرف على موقع مدينة دمشق . فلو دققنا في المخطط الطبوغرافي لمدينة دمشق ، اندى وضعه العلامة الألماني ثال تزن كر وفول تزن كر ، لوجدنا أن الأرض التي تقوم عليها دمشق القديمة ليست مستوية . فهي منخفضة . ومنبسطة عند ضفة بردى الجنوبية ، ومرتفعة إلى الجنوب من المسجد الأموي ، على جوانب الشارع المستقيم .

ان هذا الجزء المرتفع في الجنوب ، هو الذي يهمنا ، وهو لا يشكل كتلة واحدة ، ذات ارتفاع واحد ، بل يشكل عدة تلال .

في الشرق ، إلى الشمال من الكنيسة المريمية ، تلة الدوامنة . والى الغرب منها ، وبالقرب من المسجد الأموي ، تبدو تلة أخرى في حي العمارة الجوانية تدعى تلة السماكة . أما إلى الجنوب من المسجد الأموي ، فيمتد تل كبير بين سور في الجنوب ، والصاغة القديمة في الشمال ، وبين الكنيسة المريمية في الشرق ، وباب الجاوية في الغرب . وهو الذي يخترقه الشارع المستقيم من الغرب إلى الشرق . في هذا التل قمتان : شمالية صغيرة تقع قبلة الزاوية الجنوبية الشرقية للمسجد الأموي ، وتبعد عنها حوالي ٢٠٠ م . وجنوبية أكبر تبعد عن المسجد الأموي حوالي ٣٠٠ م ، ويفصل بينهما الآن الشارع المستقيم . ويُخيل إلى ، أن الشارع قد سُد في هذا المكان ، لأن فجوة كانت بين التلتين ، استغلت لمرور الشارع .

هذا وصف موجز لشكل الأرض التي تقوم عليها دمشق القديمة . فماذا نستنتج منه ؟ وما هي فائدته ؟

إن هذه التلال ، طبقات المدينة القديمة ، وأنقاض مبانها ويرجع عدد من الباحثين ، أمثال فال تزنكر وفولتزنكر ، أن هذه التلال تمثل المسرح أو الأوديون الروماني . بينما يفترض الباحث الفرنسي سوفاجيه ، أن قصر الامبراطور انتيوخوس التاسع سيزينوس كان في هذا المكان عندما حكم دمشق ، قبيل نهاية القرن الثاني ق.م وقد توصل إلى هذه الافتراض ، من كون الموقع كان يسمى في المصور الوسطى البرص أي القصر ، الحصن . علما بأنه لا يوجد حصن . وقد ذهب إلى أبعد من ذلك ، اذا افترض ، أن قصر انتيوخوس ، قد شُيد على أنقاض قصر (الستراب) . وهذا بدوره كان قد احتل المكان ، الذي كان يقوم عليه القصر الملكي الآرامي .

هذا هو رأي سوفاجيه . ولو أمكن التنقيب في هذه الأماكن ، لأيدنناه أو رفضناه . ولكن ثمة أشياء أخرى ، يمكن أن يُقال في هذا المجال ، تأييداً لرأيه .

في الواقع ، أن هذا التل ، هو الوحيد في البقعة التي تقوم عليها مدينة دمشق القديمة . وهو مجاور لمسجد بنى أمية ، الذي كان معبداً للرب هدد في العصر الآرامي وتأسياً على ما نعرفه من أساليب تنظيم المدن الآرامية ( جوزن - خدامتو - شمال ) ، يكون المعبد والقصر متجاورين .

وهذا ينطبق أيضاً ، على كثير من المدن الكنعانية (اللاخ - إيمار - إيبلا). هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، قامت وزارة الأوقاف ، باعادة تبليط صحن المسجد الأموي عام ١٩٦٦ ، فاغتنمت المديرية العامة للآثار والمتاحف هذه الفرصة الذهبية ، وأجرت سيراً في الصحن ، لم تكمله ، ولم تستمر به إلا لوقت قصير ، فضاعت الفرصة ، ولكننا مع ذلك ، حصلنا على بعض الكسر الفخارية ، التي تعود إلى عصر الملك الكنعانيةالأمورية الأولى ، أي مطلع الألف الثاني ق.م . وهذا دليل قوي ، على أن دمشق ، كانت مأهولة في هذه الفترة .

ثمة أمر آخر ناتي على ذكره هنا ، وهو الوثائق المتعلقة بمعيط دمشق . يتفق الباحثون على أن دمشق كانت في منطقة تدعى (أفَا / أفي) . وقد ذكرت لأول مرة في نصوص الاحتحار المصرية ، التي سطرت في عصر الملكة الوسطى ٢٠٥٢ - ١٧٧٨ ق.م . الواقع أن هذه النصوص شيعية ، لا تحوي سوى أسماء النساء ، مضافة إليها أحياناً أسماء المكان أو بالعكس . وفي هذا العصر ، وعلى وجه الدقة ، في عهد السلالة الثالثة عشرة ، التي حكمت في النصف الأول من القرن الثامن عشر ق.م ١٧٧٨ - ١٧٨٦ ق.م .

كانت أفَا مقسمة جغرافياً إلى منطقتين شمالية وجنوبية . وقد جاء في الوثائق اياتا : ح ق (١) ن - افوم - رست = أمير آفوم الجنوبية ٠٠٠ . ح ق (١) ن - افوم - محتي - ع خوكب ككب = أمير أفول الشمالية أخو كوكب . ويجب ألا يدهشنا هذا الشيء ، لأن القبائل الكنعانية ، كانت قد توزعت على مناطق بلاد الشام ، وأسست ممالك عديدة كبيرة وصغيرة . كانت في منطقة أفَا / أفي وحدها مملكتان .

ويوسعننا على ضوء ما تقدم ، أن نعد هاتين الممالكين ، من الممالك القوية ، والا لما ذكرتا في نصوص الاحتحار ، كعدوتين لفرعون مصر . ولو أن النصوص الفرعونية ، كانت أوسع وأشمل ، وفيها ما يشير من قريب ، أو بعيد ، إلى الموقع الجغرافي للأفتين ، لأنفانا ذلك عن التخمين . ولحل هذا اللغز ، جرى تحديد حدود أفَا / أفي بالاعتماد على مصادر كثيرة منها رسائل العمارنة ، وبعض الوثائق العثية والأمر الواضح ، أن كوميدو / كوميدي ، التي هي الآن كامد اللوز في البقاع الجنوبي ، كانت أفَا ، مثلما كانت دمشق .

هذا من ناحية أخرى ، ومن ناحية أخرى ، فقد انتشرت المالك التي كانت معاصرة لـ / أفتا ، ورد ذكرها في المصادر المصرية ، إلى الجنوب من البرموك : مثل فعل ، التي هي الآن خربة فعيل ، وفي حوران ، مثل عشتروت ، وفي سهول حمص مثل عشتروت ، وفي سهول حمص مثل قادش وقطنة .

ونحن نرجح ، أن أفتا كانت بين هذه المالك ، وشملت البقاع ، وسلسلة جبال لبنان الشرقية ، ودمشق ، وغوطتها ، مع مناطق النبك وبيرود ، وقد تتمثل في أراضي محافظة ريف دمشق الآن ، مضافة إليها البقاع الجنوبي ، وجبل الشيخ .

وقد جاء توكييد أهمية أفتا / أفتى ، دورها القوي في بلاد الشام ، في الألف الثاني ق.م. من الوثائق الفرعونية والعنية .

ففي عصر العمارنة ، الذي يبدأ مع عهد الفرعون آمنوفس الثالث ( ١٤٠٣ - ١٣٦٤ ) ، وينتهي بانتهاء عهد آمنوفس الرابع / أختاتون ١٣٦٤ - ١٢٤٧ ، تعزز النفوذ المصري في بلاد الشام الجنوبية ، وحدثت هزات وأحداث زعزعت الأمن والنظام في بلاد الشام الجنوبية ، وانعكست آثارها على التوازن بين المالك الكنعانية .

وفي طليعة هذه الأحداث نضع ظهور ملك قوي ، يدعى بيراوزا ، كان قد دخل في خدمة الفراعنة ، وحينما قوي نفوذه ، وهو في دمشق ، سار بقواته منها إلى كوميدي ، فاحتلها ، وأعلن من هناك ، ولاءه للفرعون ، وذلك برسالة وجهها إلى أختاتون فرعون مصر . لقد كان الدافع وراء حركة بيراوزا ، التصدي للجماعات التي كانت تنادي بالتخليص من النفوذ الفرعوني ، والتحالف مع العثيين والميتانيين لتحقيق هذه الغاية .

ان انحياز بيراوزا إلى الفراعنة ، ضد الذين يرغبون بالانحياز إلى الميتانيين ، يضع الرأي القائل بأنه من أصل حوري / ميتاني في مدار الشك . فلو كان حورياً لأنحاز إليهم على الأرجح . نعم نعتقد أنه كنانعي واسمه مركب من برايا أي المخلوق مضافة إليه زا / زو أي العظمة والفارغ .

نعلم من رسائل العمارنة أن ممالك المدن الكنعانية من إربد في الجنوب وحتى دير العدس وغباغب في الشمال . ومن حسيما / تخسي في الشمال وحني

صيادنايا ومضايها في الجنوب قد سارت في ركابه . ولم يتصد له ويعاديه إلا مملكتا  
قادش وقطنة في الشمال .

هذا ما كان من أمر الوثائق المصرية، أما الوثائق العתية التي تعود إلى  
منتصف القرن الثالث عشر ق.م. فهي تشير بوضوح إلى قوة مملكة أفتا وسعة  
رقتها .

ففي عام ١٢٥٦ ق.م. تزوج رعمسيس الثاني بابنة الملك العثني  
خاتوشيلي الثالث . وقد سار موكب العروس ، من خاتوش ، عاصمة العثنيين ،  
حتى مدينة أيسو ، والتي ينتهي عندها النفوذ العثني . ومن أيسو ، قاد موكب  
العروس ، رجال أفتا وقادة جيشها حتى مصر . وإذا علمنا ، أن أيسو ، هي على  
الأرجح ، تل أيسو ، الذي يقع على بعد سبعة كيلو مترات جنوب حماة ، جاز لنا  
القول ، أن نفوذ أفتا قد وصل اليهاشاما ، ووصل فلسطين جنوباً .  
من كل ما تقدم ، نخلص إلى نتيجة مفادها ، أن أفتا / أفتى كانت أحدى  
الممالك الكنعانية القوية ، وقد لعبت دوراً بارزاً في أحداث البلاد ، قبيل ،  
وبعد منتصف الألف الثاني ق.م. وقد امتدت رقتها ، من حسيا والبريج في  
الشمال ، إلى حوران في الجنوب ، ومن البقاع والجولان في الغرب ، إلى البادية  
في الشرق .

وعلى هذا الأساس تكون دمشق في وسطها ، فمتى ظهر اسم دمشق ؟  
وما معناه ؟! اهتم الباحثون بمعرفة معنى دمشق فتبينوا مراحل كتابته في مختلف  
الوثائق . ففي عهد الفرعون تحوتيس الثالث ١٤٩٠ - ١٤٣٦ كتب اسم دمشق  
على الشكل التالي : ت م س ق وذلك على جدران معبد الكرنك ضمن أسماء المدن  
التي غزاها هذا الفرعون في العام الثالث والثلاثين من حكمه . أما في عهد  
الفرعونين أمنوفس الثالث ١٤٠٢ - ١٣٦٤ وأمنوفس الرابع (أخناتون)  
١٣٤٧ فقد كتب تمَسْقٌ وتمَشْقٌ ودمِشْقٌ .

وفي كتاب العهد القديم كتب الاسم بصيغ مختلفة فقد سجل مرة دمشق ومرة  
آخرى سجل دِمشَق وثالثه دارمِسْقٌ . أما الآشوريون فقد دونوه في وثائقهم  
بصيغة واحدة تقربياً هي دِمشْقٌ وذلك عندما غزوا بلاد الشام في عهد ملوك  
المملكة العديدة من عام ٩١٢ - ٦١٢ ق.م. أما الآراميون الذين جعلوا من دمشق  
أحدى أبهى المدن فقد كتبوه دمشق أيضاً .

ما سبق يمكننا أن نقول أن اسم دمشق قد يطرأ عليه تبديل أو تعريف ، إنما استبدل حرف الدال بالباء أو حرف الشين بالسين عند الفراعنة لأن الكتاب سمعوه هكذا على الأرجح .

على أن الصيغة التي شغلت الباحثين هي دار مِسْقٌ التي وردت في سفر الأخبار الثاني الاصحاح السادس عشر ، الآية الثانية . وفي الاصحاح الرابع والعشرين الآية الثالثة والعشرين . وفي الاصحاح الثامن والعشرين الآية الخامسة والآية الثالثة والعشرين .

لقد تعددت الآراء واختلفت التفسيرات لهذه الصيغة الملفتة للنظر والمفاجئة لكل الصيغ الأخرى . وقد عمل عدد من الباحثين على تحليل هذه الصيغة فقالوا أن الأسم مركب من اسم المكان دار واسم العلم مش الذي هو اسم الرب مختولا وقد ألقى حرف القاف بدلاً من المقطع كي في آخر الاسم للاشارة إلى أن الاسم هو اسم مدينة وذلك حسب الأسلوب (الأكدي) .

هذا رأي وهنالك رأي آخر يرى أن مِسْقٌ هو اسم مفعول من الفعل سقى ويصبح معنى دارمش / دمشق دار السقاية .

والى جانب هذين الرأيين اللذين انطلقا من تحليل كلمة دارمشق ، يوجد رأي ثالث يقول في كلمة دمشق أنها مركبة من اسم الاشارة ذو / ذي / ذات بالإضافة إلى مشق أي ذو مشق أو ذات مشق ومعناها ذو السقي أو ذات السقي . أما إذا كانت الميم مشددة كما هو الحال عليه في سفر أخبار الأيام الثاني ، الذي أشرت إليه أعلاه ، فيصبح معنى دمشق ذات التربة الفضارية .

ويتبين من هنا أن الآراء متضاربة حول معنى الاسم ، لكنها جميعها تنطلق من كون الاسم كعناني وأنه وصف لبيئة دمشق ووظيفة المكان .

ومجمل القول أن الوثائق التي تشير إلى دمشق كمدينة أو كملكة هي قليلة جداً في المصور الكنعانية . ومع ذلك ندرك منها أنها كانت مدينة عاصرة كغيرها من مدن المالك الكنعانية وما لم تجر فيها تنقيبات أثرية ، تبقى معلوماتنا عن حضارتها وعن أحوالها السياسية ناقصة . وبقي دورها في صنع تاريخ بلاد الشام مجهولاً .

د. علي أبو عساف

# دمشق

## على أبواب القرن العشرين

د. أسعد الأسطواني

### مؤامرات الغرباء ونشوء الفكر القومي في القرن التاسع عشر

الحديث عن دمشق هو دوماً شائق ومثير .. لأن دمشق هي الماضي والتراث، هي الحاضر والغضور، هي المستقبل والمماصرة .. لأن دمشق لا تعيش الماضي، وإنما تجعل الماضي يعيش في روحها ووجانها، فهي الأصلة والعدالة معاً .

ولعل دمشق تعلمت أيضاً من التاريخ ما تعلّمته المدن العربية العريقة الأخرى؛ فجميعها اختفت من التاريخ العقل والحكمة والتبصر . ولذلك فإن فكر دمشق متصل بكل ما له صلة بالعروبة والإسلام ومطبوع بابداع التمرد ، متعلق بباباب السماء تعلقه بالذى يجري على الأرض .

وكانت دمشق بالذات ، بوزنها التاريخي والاقتصادي ولقربها من العاصمة استانبول أهم مدينة عربية في الإمبراطورية العثمانية . وكان لا بد لها أن تؤثر في مجريات الأمور والأحداث وأن تقوم بدور فاعل من الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية في القرون الماضية . وينصب حديثنا اليوم بطبيعة الحال ، عن دمشق على أبواب القرن العشرين . فمن الطبيعي إذن أن نتساءل: كيف كانت صورة دمشق في القرن التاسع عشر ، وكيف تفاعلت مع مؤامرات الترسان العظمى ولرياح التغيير التي هبت على المنطقة ، بل ما هو دورها في نشوء الفكر القومي ؟ .

وكانت السمة البارزة للقرن التاسع عشر هي التصنيع السريع لدول أوربا الغربية وانتشار الاستعمار الغربي فيسائر أرجاء العالم . وكان نقصان المواد الضرورية لعيشة بريطانيا سبباً في اقتناصها المستعمرات المختلفة عبر البحار لتصريف انتاجها الصناعي ، فكان ذلك يُعْتَمَّ عليها بسط نفوذها في المشرق العربي لحماية طرق مواصلاتها نحو فارس والشرق الأقصى ، فأنشأت اسطولاً بحرياً معدلاً في قوته جميع الأساطيل الأخرى المنافسة . وكانت بريطانيا حريصة كل العرص على أن لا يكون لأي دولة أخرى كفرنسا وروسيا أي نفوذ على طرق مواصلاتها إلى الهند .

وكان التنافس شديداً بشكل خاص بين الدولتين الاستعماريتين ، فرنسا وبريطانيا ، على اقسام النفوذ السياسي والاقتصادي في أرجاء الامبراطورية العثمانية . ولم يكن هذا الأمر مطروحاً إبان قوة هذه الامبراطورية في المصور السالفه عندما كانت تشكل تهديداً خطيراً على الشعوب الأوروبية الذين كانوا يهدون الأتراك مادة غريبة في جسم أوربا من الجوانب اللغوية والعرقية والدينية . ولقد وضعت الخطط الواسعة للقضاء على هذه الامبراطورية وباءت كلها بالاخفاق في أثناء احتفاظها بقوتها<sup>(١)</sup> .

ولكن ، في أواخر القرن الثامن عشر ، عندما أصبح الشماليون بالضعف لم يُعْدَ الأوربيون يكترثون من أجل القضاء على الدولة العثمانية لأنها أصبحت أحد الأطراف في لعبة التوازن الدولي . ومن هنا برزت المسألة الشرقية وأصبحت وظيفتها التي تقوم بها هي تنظيم توازن القوى بين الدول الأوروبية الأربع إضافة إلى الدولة العثمانية .

#### حادثان خطيران :

وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر وقع حادثان خطيران كادا أن يُطِيعَا بتوافق القوى . وكان العادث الأول احتلال القائد الفرنسي نابليون بونابرت لمصر ومبادرته غزو بلاد الشام ما بين عامي ١٧٩٨ و ١٨٠١ . وقد شكل هذا الأمر تهديداً واضحاً لقوة بريطانيا في الهند ولسلامة الامبراطورية العثمانية ، مما أدى إلى تدخل بريطانيا العسكري وهزيمة نابليون براً وبحراً وتكريسها كدولة تصون استقلال هذه الامبراطورية وسلامة أراضيها<sup>(٢)</sup> .

وأما الحادث الآخر فهو تعاظم قوة محمد علي باشا في مصر . ولقد كان هذا الرجل الكبير يطمع إلى بناء دولة حديثة وكان انساناً عملياً . فعندما وجد أن لا مستقبل للغة التركية في مصر انصرف إلى اللغة العربية ، فجعلها لغةً للدولة والأدارة والتعليم ، وبواسطة العربية تمت حركة النقل والترجمة ، فأحياناً بذلك اللغة العربية وكرّسها لغة رسمية وسائلة . ومن ثم أظهر استقلاليته عن الدولة العثمانية . كما أن العملة التي أرسلها في صيف عام ١٨٣٢ إلى بلاد الشام بقيادة ابنه إبراهيم باشا ذات دلالة تاريخية كبيرة . فلقد كان هدف إبراهيم باشا إنشاء دولة عربية عصرية تقف سداً منيعاً أمام مطامع الدول الكبرى . وهكذا شعرت الدول الغربية وفي مقدمتها بريطانيا بخطورة اندفاع المصريين نحو الشرق العربي ، فسارعت إلى دعوة الدول الأوروبية للاجتماع في لندن حيث تم توقيع اتفاقية جائزة في ١٥/٧/١٨٤٠ بين بريطانيا وروسيا والنمسا وروسيا ، فراح قناصلها في القاهرة يبلغون محمد علي باشا إنذاراً بوجوب الانسحاب من بلاد الشام ، فلم تتحرك فرنسا آنذاك ساكناً لإغاثة الدولة العربية الناشئة بعد أن رعت خطواتها الأولى بل ساهمت في طرد المصريين من لبنان وببلاد الشام لأن تعاظم نفوذهم وقوتهم سوف يقضي أيضاً على المصالح الفرنسية . . . وإذا كانت تجربة تلك الدولة العربية قصيرة في عمر الزمن إلا أنها أشرفت المستعمرات الأوروبية بخطورة اندفاع المصريين نحو الشرق العربي فأبعدوهם زهاء قرن كامل ، كما قاوم الغربيون بضراوة محاولة محمد علي باشا في التحديث وتأسيس دولة عصرية فكان ذلك من أكبر أسباب سقوطها وراحوا يخططون منذ ذلك العين لزرع دولة يهودية في قلب الأمة العربية .

### الاصلاحات :

وما لا شك فيه أن حدوث الثورة الصناعية في أوروبا أدى إلى بروز علاقات عالمية جديدة حتمت على الدولة العثمانية السعي للحاق بأوروبا . وكان أول عمل هام لها في هذا السبيل هو تحديث الجيش . وهكذا تم القضاء على النظام الانكشاري وكان يضم طوائف شتى من الجنود المرتزقة وحل محلها بعده فرق من الجيش النظامي وفق الأساليب العسكرية الغربية<sup>(٢)</sup> .

وكان من نتائج وجود المصريين في بلاد الشام حدوث عدد من الاصلاحات الهامة . فأنشئت المدارس الحديثة وطبقت المساواة التامة بين المسلمين والمسحيين ، واستطاع ابن المدينة توسيع أعماله في القرى ، فيما راح يستثمر أرضه بفضل الأمن الذي ساد البلاد ، كما تمت عمارية تدميرات أهالي الباادية على المدن . وشهدت البلاد لأول مرة إقامة المجالس المدنية والسكنية وإنشاء مجلس للشوري يلتقي فيه أعضاء من جميع الطوائف وهكذا طرأ على بلاد الشام تبدلات أساسية خلال عقد من الزمن أصبح من العسير التراجع بعد أن عاد العثمانيون لحكم سوريا في أول عام ١٨٤١ . وقد شمل الاصلاح أيضاً الادارة والقضاء ، وفتحت البلاد للمؤثرات الأجنبية<sup>(٤)</sup> .

ومع تبوء السلطان عبد المجيد الأول العرش العثماني في عام ١٨٣٩ صدر أول مرسوم للإصلاحات نتيجة للضغوط الأجنبية ، وكرد فعل للإصلاحات التي أجرتها ابراهيم باشا في بلاد الشام . وقد تلاه أيضاً مرسوم آخر في عام ١٨٥٦ تم فيه الوعود بالمساواة بين المواطنين مهما كانت ديانتهم والتاكيد على مضمون المرسوم السابق . وكان الأمر البارز في هذه الإصلاحات أن الدولة أخذت بنظام الحكم المركزي ، فشددت قبضتها على الولايات العربية القرية التي أصبحت مرتبطة مباشرة بالعاصمة استانبول<sup>(٥)</sup> .

ولتنفيذ سياسة القبضة الحديدية كان لا بد للفئة الحاكمة في عاصمة الامبراطورية العثمانية ، أن تلعب على حبل التناقضات بين الطوائف المختلفة إسوة بالدول الأجنبية التي توازعت هذه الطوائف ، فاتخذ الفرنسيون جانب مركزية الدولة العثمانية والصراعات الموارنة فيما بрез البريطانيون بمظهر المدافعين عن الدروز ، فظهر الخلاف الدرزي الماروني على أشده في جبل لبنان فيما راحت الدولة العثمانية تستغل الأزمات الاقتصادية التي أصابت العرفيين المسلمين في دمشق لتأجيج النعرات الطائفية بين المسلمين والمسحيين<sup>(٦)</sup> .

وفي الوقت ذاته ، فإن تصميم الدولة العثمانية على فرض الحكم المركزي في بلاد الشام وفي مدينة دمشق بشكل خاص قد ساهم في إثارة أعيانها وعلمائها الذين اعتادوا منذ قرون طويلة على التصرف المستقل . وكان من الطبيعي أن تحدث هذه الأمور تطورات جديدة ومترابطة رافقت انهيار المؤسسات التي اعتاد

عليها الدمشقيون ، فنشبت من جراء ذلك أزمة حادة ذات جوانب اقتصادية واجتماعية وسياسية ودينية انفجرت في شهر تموز من عام ١٨٦٠ .

### أحداث ١٨٦٠ في دمشق :

ولقد أجمع المصادر المختلفة أن السلطة العثمانية كانت وراء تلك الأحداث فلقد استغلت التناقضات بين الطوائف وأعزت إلى ولاتها وضباطها في دمشق وصيدا وجبل لبنان بتأجيج الفتنة . فلقد أمر والي الشام ضباطه بافساح المجال أمام المسلمين من الجنود والشرطة والأشقياء ، فقاموا بالأعمال المشينة التي استنكرها جميع أبناء دمشق وتضافر واقتنى في مختلف أنحاء المدينة للتخفيف من آثار تلك الفتنة واغاثة المتضررين<sup>(٢)</sup> .

وقبل حوادث دمشق ، كانت أنباء الأحداث الطائفية في لبنان قد وصلت إلى استانبول ، وشاعت أخبارها في البلدان الأوروبية . فأراد السلطان عبد المجيد استباق ردود الفعل وتلافي ذيولها بسرعة قبل تدخل الدول الأجنبية ، فأرسل فرقة من الجيش مع وزير خارجيته فؤاد باشا من وداداً بصلاحيات واسعة ، وعندما وصل الوزير إلى بيروت أمر باعتقال والي صيدا خورشيد والي دمشق أحمد باشا وتم اعدامهما مع عدد من الضباط بعد محاكمة سريعة .

ثم انتقل فؤاد باشا إلى دمشق وأمر بالقاء القبض على عدد كبير من الناس وأعدام ١١١ شخصاً من المتهمين ، كما تم اعتقال أعضاء مجلس الولاية وعدداً آخر من أعيان دمشق وعلمائها ونفيهم إلى قبرص وتركيا ، على الرغم أن المحاكم لم تثبت اشتراكهم في الحوادث ، مما يشير بوضوح إلى أن الدولة العثمانية هدفت أيضاً إلى تلقين الدمشقيين درساً مفاده أن لا يطمحوا إلى أي حكم مستقلٍ في المستقبل<sup>(٤)</sup> .

### طموح الدمشقيين إلى الاستقلال :

وهنا لا بد أن نتساءل : هل كانت لدى أهالي دمشق طموحات وطنية وعربية؟ كان أعيان دمشق في المدينة القديمة يشعرون بقدرتهم على التصرف المستقل عبر نظام اقتصادي واجتماعي متماستـ الفوه منذ قرون ما قبله . كما كان الدمشقيون في المدينة القديمة يعتمدون في كسب عيشهم وجنبي ثرواتهم على

مصدرين رئيسيين ، الزراعة والتجارة . وكان قطاع كبير من الأراضي الزراعية القرية من دمشق تحت سيطرة أعيانها، فيما كان تجارة التسييج يرتبون بالصناعات المعرفية . ومن جهة أخرى راحت قنصليات الدول الغربية تُفقد الوكلالات التجارية على المعدين من أبناء الطوائف غير الإسلامية حتى أن عدداً كبيراً منهم جنووا ثروات طائلة خلال الشرين عاماً التي سبقت عام ١٨٦٠ . ولقد كان من شأن التغلغل الغربي للسلع الأوروبية في الأسواق الدمشقية أن وُضعت الصناعة المحلية في موقف حرج ، ولم يكن بمقدور سلع الانتاج المحلي منافسة منتجات الصناعات الآلية الرخيصة الواردة من أوروبا وانتهى الأمر بالعرفيين إلى الإفلاس<sup>(٩)</sup> .

وكان الأعيان ، من الأشراف وأبناء الأسر الدينية العريقة ، يقومون بدور الوسيط بين العكّام والمعكومين . وكان يعيش معهم في المدينة العرفيون والباعة الذين اعتادوا على نمط واحد من الحياة، فلم يحاولوا تحسين وتطوير انتاجهم ليواكب جودة وتقدم البضائع الغربية . وكانت العرقفة هي التي تضمن استمرار التقاليد العامة وتقاليد الأحياء الخاصة التي يخضع لها العرفيون في علاقاتهم الاجتماعية والعائلية ، وكانوا بشكل أو بآخر تحت رعاية السلطة الدينية . وعندهما هزت الصناعة الغربية اركان المجتمع القائم خسرت دمشق منافذها التقليدية ، بل إنها خسرت نفسها وكل ما يمت إلى وجودها الذاتي بصلة . فالعلدو داهمها في عقر دارها . وكان رفض الغرب هو الرد الأول عبر رفض وكلائه التجاريين . ولقد كان ذلك في رأي الأعيان والعلماء والعرفيين دفاعاً عن الوجود والنفوذ ولقمة العيش<sup>(١٠)</sup> .

وتشير البيانات المختلفة الصادرة في تلك الفترة ، بأن الدولة العثمانية استغلت الأجواء النفسية التي رافقـت الأزمـات الاقتصادية المتلاحـقة وتنـفيـذ الاصـلاحـات فـدفـقت عـناـصرـهاـ فيـ جـبـلـ لـبـانـ وـدـمـشـقـ لـتفـجيـرـ الأـحـدـاثـ . وـكـانـ مـنـ نـتـائـجـ هـذـاـ الـأـمـرـ أـنـ فـرـنـسـاـ أـنـزـلـتـ قـوـاتـ عـسـكـرـيـةـ كـبـيرـةـ عـلـىـ السـاحـلـ الـلـبـانـيـ ، وـرـاحـتـ تـتـدـخـلـ بـشـكـلـ سـافـرـ فيـ شـوـؤـونـ الـجـبـلـ وـلـكـنـ بـرـيطـانـيـاـ كـانـتـ لـهـاـ بـالـمرـصـادـ فـدـعـتـ الـدـوـلـةـ الـعـشـانـيـةـ فـيـ مـوـقـعـهـاـ بـالـمـطـالـبـ بـاـنـسـعـابـ الـعـبـوشـ الـفـرـنـسـيـةـ لـأـنـ أـيـ مـنـ الـدـوـلـتـيـنـ الـفـرـيـتـيـنـ ، لـمـ تـكـنـ لـتـرـضـىـ أـنـ تـشـرـفـ الـأـخـرـىـ عـلـىـ أـيـ شـبـرـ مـنـ

بلاد الشام . فاضطررت فرنسا أن تسحب جيوشها من لبنان بحيث لم يبق في أواخر عام ١٨٦١ أي جندي فرنسي فيه<sup>(١١)</sup> .

والجدير بالذكر ، أنه على الرغم من وفرة الوثائق والتقارير ، لم يستطع المؤرخون حتى الآن تحديد جميع العوامل التي كانت وراء الأحداث بشكل واضح ودقيق . فإذا أمكن للبعض منهم إبراز الحوادث السياسية والاقتصادية والدينية بشكل مقبول ، فإن الجوانب الثقافية والقومية ظلت مهملة إلى حد بعيد ، ولم تُمنَح الاهتمام اللازم ، مع أن إرهاصاتها كانت تظهر بوضوح من أن آخر من ذاك اليوم الذي وطّن المُصريين بلاد الشام . وكان من أبرز معالم الوجود المصري إزدهار اللغة العربية وأدبها والمساواة بين المسلمين والمسيحيين ، فبدأ حس عربي قومي يتلمس طريقه إلى الفريقين على حد سواء . وسرعان ما أدركت الدول الثلاث ، بريطانيا وفرنسا والدولة العثمانية ، بأن الوعي الثقافي العربي في بلاد الشام سوف يسد المنافذ أمام المطامع الاستعمارية ، فراحت جميمها تُوجّح التغرات الطائفية بين أبناء البلد الواحد كي تُجهض أي نشوءٍ لفكر قومي عربي في المستقبل .

### بواحد الوعي القومي :

إذن ، يمكن القول أنه منذ أوائل القرن التاسع عشر شهد الوطن العربي تغيرات هامة أدت إلى بروز حكام وقادة تفهموا ما يلفته المدن العربية من تضيّع اقتصادي وسياسي ، فاستثمرواً ضعف مركزية الدولة العثمانية والمصراعات الأوروبية وتناقضاتها لاقامة دول مستقلة تتضمّن أجزاءً من الوطن العربي . وكانت أبرز تلك المحاولات هي تلك الدولة الموحدة التي أنشأها محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا ما بين عامي ١٨٣١ - ١٨٤٠ والتي كان هدفها تأسيس أمبراطورية عربية ما بين مصر وبلاد الشام على حد تعبير سفراء الدول الأجنبية . وفي هذا السياق لدينا مقتطفات من نص تقرير أرسله إلى وزارة الخارجية الفرنسية دبلوماسي فرنسي رفيع المستوى هو البارون دي بواليكومت الذي قام بمقابلة محمد علي باشا في القاهرة في ربيع عام ١٨٣٣ ، وفي شهر آب من العام نفسه قابل ابنه إبراهيم باشا في طرسوس جنوب تركيا .

يقول المندوب الفرنسي : « لا يخفى ابراهيم باشا نياته باحیاء القومية العربية ( وكان المندوب يستعمل عبارة Nationalisme Arabe للدلالة على ذلك ) بل يُعلن صراحةً وجوب انشاء وطن للعرب وقبولهم في المجالات المختلفة سواء في ادارة الشؤون الداخلية أو الجيش . وكانت بياناته وخطبه تذكر جنوده بانتصارات العرب وبامجاد الأمة العربية ، وكثيراً ما كان يردد بأنه يجب على جميع الناطقين باللغة العربية أن يتضمنوا تحت لواء والده محمد علي باشا » .

ويستطرد بواليكومت قائلاً : « وفي تعامله مع الناس يستخدم ابراهيم باشا اللغة العربية إذ يعتبر نفسه بل يرغب من الجميع أن يعتبروه عربياً . وقد تعرّض مرة إلى سؤال عن سبب استهزائه بالأتراك مع أنه محسوب عليهم ! فأجاب بعده : « أنا لست تركياً ، لقد جئت إلى مصر صغيراً ، ومنذ ذلك التاريخ بدلت شمس مصر دمي وجعلته عربياً » .

ويُضيف دبلوماسي آخر هو الكونت بروكش دوستن : « هنالك شعور عام بأن تأسيس امبراطورية عربية أصبح أمراً راهناً قريباً المنال . . . لقد نشأ ابراهيم باشا وفق المبادئ الحديثة وتأنى بنفسه تماماً عن تأثيرات التشكيلات القديمة التي تؤمن بوجوب الطاعة إلى الخليفة السلطان . . . ومن جهة أخرى ، ومقابل الضعف الذي يستشرى يوماً بعد يوم في السلطنة العثمانية ، برز جيش مصرى عربى كامل التجهيز والتدريب تحفزاً للانتصارات ويدعمه أسطول بعري هائل . . . وهكذا تستطيع مصر المزودة بموارد كافية الاستغناء عن المساعدة التركية نتيجة ليقظة الروح القومية العربية » (١٢) .

وكتب القنصل النمساوي إلى المستشار مترنيخ في ٢٦ تموز ١٨٣٣ يقول : « أسباب عديدة تثبت أن فكرة تأليف الامبراطورية العربية لا تزال موجودة . . . أضف إلى هذا كله يقظة الروح العربية بعد سبابها إذ أن محمد علي يتمتع بحسن السمعة والصيت الحسن في جميع الأقطار العربية » . . . وكتب بالمرستون وزير خارجية انكلترا آنذاك ( وأصبح رئيساً لوزرائها فيما بعد ) إلى قنصله في الاسكندرية يقول : « كان قصد محمد علي باشا تأليف مملكة عربية لجميع بلاد العرب » .

وتكشف الوثائق والتقارير عن قيام عدد غير قليل من القوى المحلية في الوطن العربي بحركات تعاطف وتأييد لدولة محمد علي باشا إلا أن علينا أن نتذكر أن تأييد تلك القوى كان لهذه الدولة الجديدة وما تمثله من ثقل سياسي وعسكري جديدي في المنطقة أكثر مما يتمثل في قيام هذه الدولة على صعيد الأمة العربية . . . وكان ابراهيم باشا أبد نظراً من أبيه في تقويه دور الأمة العربية وأكثر حماسة لقيام الدولة العربية الواحدة ، فقد أعلن بصراحة أيام بعض القنائل الأجنبية أنه «ينبني إحياء القومية العربية» ، وأن يجعل من العرب شعباً ناضلاً له كيانه الخاص »<sup>(١٢)</sup> .

والمهم ، في نظرنا ، أن هذه العقبة شهدت ولأول مرة استخدام مصطلح «القومية العربية» . . . ولكن هذا المصطلح لم يكن ، في الربع الثاني من القرن التاسع عشر عنواناً لأيديولوجية محددة في الوطن العربي ، وإنما كانت الدعوة إليه شعاراً لحركة استقلال سياسي عن الدولة العثمانية والدول الأوروبية رفع لواءها في الشرق العربي محمد علي باشا وابنه ابراهيم باشا ، وحارب من أجلها الأمير عبد القادر الجزائري قائداً للنضال المسلح في الجزائر . ففي رسالة وجهها إلى القائد الفرنسي بوجو في عام ١٨٤١ نلمح إدراكاً متميزاً لحقيقة أن الفرنسيين والأتراك أغراهما بالنسبة لبلاده فيقول : «إن هذه القارة هي بلاد العرب ، ومهمماً مكثتم عشر المفرنسين فلستم إلا عابري سبيل ، ولو طال مكثكم فيها ثلاثة أيام مثل الترك سينتهي الأمر بخروجكم منها» . وكان شعور الأمير عبد القادر بالانتفاء العربي واضحًا وهو القائل<sup>(١٣)</sup> :

ورثنا سؤداً للعرب يبقى وما تبقى السماء ولا العجال  
فبالمجد القديم علت قريش" ومنا فوق إذ طابت فعال  
وكان لنا ، دوام الدهر ، ذكر" بذا نطق الكتاب' ولا يزال  
ومنا لم يزل في كل عصر رجال للرجال هم الرجال

مراحل تطور الوعي القومي في بلاد الشام :

ويحق لنا أن نتساءل . . . كيف تطور الشعور القومي في دمشق وبلاد الشام ؟ كان الأمر البارز لدى علماء دمشق وأعيانها هو امتزاج الفكر الديني بالنزعة

المرية إيداناً برغبتهن الدفينة بالتعزز من الآثار ولسان حالهم يقول : « نحن لسنا أتراءاً ، نحن عرب وإن كنا عثمانيين ». وكانت دمشق تحكم من قبل الأسر الدينية العريقة ، وبتسلسل عجيب ، منذ القرن السابع عشر . وكان الاعتزاز بالأصل العربي والانتساب إلى النبي العربي الكريم أو إلى أحد أبطال العرب المسلمين يمتزج لدى هذه الأسر بما فعله العرب في سبيل الإسلام ، وكان هذا الأمر بالذات يقوى من شعور الاتتماء نحو الجماعات العربية وماضيها . . بل وكانت هذه الأسر في أحد معانها لسان حال الوعي القومي العربي .

ومن جهة أخرى ، شكلت الأحداث الطائفية في عام ١٨٦٠ حداً فاصلاً بين مرحلتين هامتين من تاريخ دمشق . فإذا كانت المرحلة الأولى قد اتسمت بالأحداث الدموية وبمقاومة أعيان دمشق لاصحاحات السلطة المركزية في استانبول ، فلقد تميزت المرحلة الثانية بالهدوء والاستقرار . فالحكومة العثمانية التي استطاعت فرض الحكم المركزي على دمشق لم تعاول ضرب الزعماء التقليديين فيها حتى الجنور ، ولذلك لم تجنب لفرض عقوبة الاعدام بحقهم بل اكتفت بنفيهم . ولقد لقنتهم درساً مفاده : « إنكم لستم وحدكم في الميدان ، فعليكم بالامتثال لأوامر الحكومة المركزية ولسوف أُبقي على مصالحكم الاقتصادية ولكن عليكم أن تدركوا أننا بحاجة إلى قيادات جديدة من غير التقليديين لتعاون مع النخبة السياسية المختارة في استانبول . »

ويعد فترة وجيزة ، وبالتحديد في عام ١٨٦٥ ، اتخذت السلطة العثمانية خطوة جديدة لاسترضاء أهالي دمشق ، فأصدرت عفوًأ عاماً وعاد المنفيون من وجوه الأسر القديمة وقد تقلص نفوذهم الاجتماعي وأدرکوا أن عليهم الانضواء تحت لواء الدولة العثمانية وأن يقبلوا بجميع اجراءاتها . . وهكذا لم يجد أبناء العائلات الدينية مناصاً إلا بالتكيف مع الأوضاع الجديدة وخاصة عندما شعروا أنهم سوف يفقدون احتكارهم للمحاكم الدينية بعد أن أنشأت الدولة محاكم مدنية خاصة للأحكام العاجلة في عام ١٨٥٨ فبدأ عدد من العلماء الكبار بتشجيع أبنائهم على دخول المدارس الاختصاصية المدنية في استانبول لدراسة القانون والإدارة العامة بهدف تأمين موظفٍ قدم لهم في النظام القضائي المدني الجديد .

وهكذا تضاءل نفوذ الأسر القديمة ومن نجح من أفرادها في المحافظة على قوته السياسية أصبح أكثر اعتماداً على قاعدة موارده المادية منه على أصوله الاجتماعية . . . . . ومع ذلك لم تطمئن الحكومة العثمانية إلى هذه الأسر ، بل كانت تشعر بالعداء المتواصل الذي يكتن لها علماء دمشق وللإصلاحات التي فرضتها ، فاعتمدت على فئات أخرى من كبار الملأك ، وكان معظمهم من حديثي النعمة الذين تسلقوا السلم الاجتماعي بعد عام ١٨٦٠ وحصلوا على الأراضي من خلال مناصبهم في الادارة المحلية . . . . . وكان امتلاك الثروة يعني فتح الأبواب في الدوائر السياسية المحلية وفي استانبول نفسها التي أخذت على هذه الفئات المناصب واللقب الباشوية والامتيازات المختلفة ، فبرزت قيادات سياسية جديدة تدين بالولاء الكامل لجميع مفاهيم السلطة المركزية في استانبول . ولم يقت الدمشقيون موقف المتفرج من اجراءاتها الاصلاحية بل وجدوا من مصلحتهم التعاون مع هذه السلطة في عمليات البناء والتحديث فأُنشئت المدارس المختلفة وتطورت الزراعة وافتتحت الطرق والجسور لتأمين الوصول الى المناطق الريفية ولإعادة فتح طريق بغداد أمام المقوافل وتحسين شبكات الطرق والنقل والاتصالات التي تربط دمشق بالعراق ولبنان والجزيرتين العربية واستانبول<sup>(١٥)</sup> .

### سياسة عبد العميد الإسلامية :

وهكذا استفادت طبقة الأعيان والملأك من إصلاحات التحديث فانحازت الى السياسات الصادرة عن استانبول وخاصة أيام السلطان عبد العميد الثاني الذي حكم منذ عام ١٨٧٦ وحتى عام ١٩٠٩ والذي شدد على الطبيعة الإسلامية للامبراطورية بعد فقدانه للولايات المسيحية في البلقان ، كما اهتم بارضاء الأعيان العرب في دمشق والمدن الشامية الأخرى فقرر ببعضهم اليه وجعلهم موضع سره . وقد جسد نزعته الإسلامية بإنشاء شبكات من الخطوط الحديدية ما بين بيروت ودمشق ، وبين يافا والقدس وأخيراً مشروع سكة حديد العجاز الذي انتهى العمل فيه عام ١٩٠٨ وبدت الامبراطورية العثمانية في مطلع القرن العشرين أشبه بدولة اسلامية للأتراث والعرب معاً . . . . وبالرغم من استبداد السلطان عبد العميد بدا أعيان دمشق والمدن الشامية الأخرى سعداء في العيش فيها<sup>(١٦)</sup> .

## نشوء الفكر القومي :

وفي الوقت نفسه كان الشعور الوطني والقومي يتفاعل وينمو بين أفراد الطبقة المعرفية المتعلمة الذين تأثروا بآفكارهم الحضارة الفرنسية وأفكار الثورة الفرنسية الداعية إلى التمسك بالمعريات الدستورية ومقاومة الاستبداد . فجاءت الخطوط الأولى من بعض المثقفين المسيحيين عندما تبلور لديهم شعور عربي أصيل بدأ على مستوى تذوق اللغة العربية وضمن مفهوم جديد يهدف إلى تخطي العدود الطائفية وإلى تعميم الحس القومي واجراء نهضة شاملة في جميع نواحي الحياة .

وكان المعلم بطرس البستاني ( ١٨١٩ - ١٨٨٣ ) أول من دعا سنة ١٨٦٠ إلى القومية العربية . وكان توجهه أنهى العرب بشكل عام وليس إلى السوريين وحدهم . وتُظهر موسوعته العربية اهتماماً واضحاً بماضي العرب والشخصيات البارزة في التاريخ وفي الثقافة العربية والعالمية .

وأما إبراهيم البازجي ( ١٨٤٧ - ١٩٠٦ ) فقد ذهب بعيداً في شعوره القومي عندما راح يُلقي في الجمعية السورية في عام ١٨٦٨ قصيدته المشهورة :

**تنبهوا واستفيقوا أيها العرب      فلقد طمى الغطب حتى غاصت الركب**

وكانت القصيدة مشبعة بروح التمرد ، وقد دعا فيها السوريين إلى الوحدة في سبيل اسقاط الحكم التركي :

**لنطلبين بعد السيف مارينا      ولن يغيب لنا في جنبه أرب**

وفي هذا السياق فلقد شمل الحس القومي عدداً كبيراً من المثقفين والمتعلمين المسيحيين من أمثال أحمد فارس الشدياق وناصيف البازجي وسليم البستاني وأديب اسعق وفرنسيس فتح الله مراد ونجيب عازوري وغيرهم .

ولم يكن نمو فكرة القومية العربية ثمرة الأسهام الفكرية للعرب المسيحيين وحدهم بل شارك المثقفون المسلمين في نمو الفكرة العربية وخاصة عندما شرعت النزعة الطورانية التركية تظاهر في أواخر القرن التاسع عشر ، ساعية إلى تتربيك الولايات الغربية القريبة من تركيا كبلاد الشام والعراق .

وكان السيد عبد الرحمن الكواكبي ( ١٨٤٩ - ١٩٠٢ ) والسيد محمد رشيد

رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥) من بين أئمة الاسلام في زمانيهما ، ومع ذلك أعلنوا صراحة تفضيل العرب المسلمين على الآتراك المسلمين . فلقد كان موقفهما وقولهما بأن العرب هم مادة الاسلام ، وهم أحق بالخلافة من الآتراك ، يُفصح عن إيمان أصيل بحق العرب في تطليم حياتهم سياسياً على أساس وجود الأمة العربية .

وقد تابع نجيب عازوري العربي الماروني أفكار الكواكبى ورضا وأعطاماها تعبيراً أوضح وأكثر تحديداً في كتابه «يقطلة الأمة العربية» حيث انطلق في نظرته من واقع العرب عند الفتح الاسلامي ، وبأن سياسة العرب هي سياسة التحرير لا المقهى « بينما الآتراك يضطهدون المسلمين العرب أكثر من اضطهادهم المسيحيين إلا أنهم يعرضون أولئك على هؤلاء ». وكان يتعدى دوماً الآتراك بقوله بأن «النبي عربي والقرآن عربي ولغة السماء عربية» ويتبنى نجيب العازوري فكرة خلافة عربية روحية يشمل سلطانها الدينى العالم الاسلامى كلّه ، والى جانبها تقوم امبراطورية عربية تمتد من وادي دجلة والفرات الى السويس ومن البعير الأبيض المتوسط الى بحر غمان ، تعكمها ملكية دستورية وسلطان عربي .

وقد أخذت الفكرة القومية في نهاية التاسع عشر ومطلع القرن العشرين المكانة المرموقة بين الشباب المتعلّم في دمشق وبلاد الشام . وبدأت الجمعيات والأحزاب السريّة المنادية بالقومية العربية تنتشر بسرعة البرق . فالجيل الأول ، مثلاً بالكواكبى و محمد رشيد رضا وأديب إسحق وغيرهم ، لم يُبلور نظريته في الأمة لأن طبقات الأمة المختلفة لم تكن قد وقعت أهمية الاستقلال والبناء القومي ، إذ أن مصالحها كانت وما زالت مرتبطة بالامبراطورية العثمانية ، وأن وعيها لم يكن قد اكتمل بعد . ولذلك طرح الرواد الأوائل فكرة تطوير الامبراطورية وطالبوها باللامركزية على أن يكون للعرب دور بارز فيها . وفي مرحلة لاحقة ، عندما احتكَ المثقفون العرب بالغرب ونماضجهم السياسي واكتمل وعيهم القومي اختلط الوضع لديهم ، فهناك الصراع مع الآتراك والصراع مع الغرب وانتشار الفكر الغربي وبعث التراث العربي ، فادى بهم ذلك الى مرحلة جديدة من النظرة القومية الشاملة<sup>(١٧)</sup> .

ولقد عبرَ عن ذلك الوعي والاختمار نجيب العازوري في كتابه الذي صدر عام ١٩٠٥ في باريس ، وطرحها في الوقت ذاته الشاب الدمشقي صلاح الدين

القاسي . وقد تبلورت الفكرة في ماسمي « حلقة دمشق الصغيرة » المنشقة عن « حلقة دمشق الكبيرة » التي تكونت حول الشيخ المصلح طاهر الجزائري حيث ضمت الجيل الأول الذي تغلبت عليه الثقافة التقليدية . وقد كان الشيخ الجزائري ( ١٨٥١ - ١٩٢٠ ) في أساس فكرة الاصلاح والتعريف . فهو مؤسس المكتبة الظاهرية واستطاع أن يجعل اللغة العربية لغة التعليم ، وقد كفت الدولة العثمانية يده لأنها كانت ماضية في سياسة الترسيخ لتعود اللغة التركية لغة للتعليم في جميع المراحل الدراسية . ومن رجال هذه الحلقة جمال الدين القاسمي وعبد الرزاق البيطار وسليم البخاري وشكري العسلي وعبد الرحمن الشهبندر وفارس الخوري وغيرهم . واذا كان الجيل المطالع قد تعلم من جيل الرواد إلا أنه بما يمثل من مطامع وما بلغه من ثقافة أصبح يتطلع إلى شيء آخر . ٠٠

نشأت حلقة دمشق الصغيرة من رحم حلقة دمشق الكبيرة ، فأنجبت جمعية النهضة العربية التي ترأسها محب الدين الخطيب وكان أمين سرها الشاب صلاح الدين القاسمي الذي كان في التاسعة عشرة من عمره عام ١٩٠٦ عندما تم تأسيسها . ولقد توفي في عام ١٩١٦ في التاسعة والعشرين من عمره عندما كان يمارس مهنة الطب في العجاز . وقد كتب خلال حياته القصيرة مقالات كثيرة وعبر عن أفكار قومية واضحة متباذلةً أتقنها نجيب العازوري الذي قصر كلامه على « يقظة الأمة العربية في آسيا التركية » .

يقول صلاح الدين القاسمي : « إن القومية كانت وما برح من أعظم عوامل النهوض ، وتاريخ النهضات شاهد على ذلك إذ أثبتت أن الأمم المتقدمة لم تتمتع بالحياة الاجتماعية والسياسية إلا عندما شجعت نفسها بفكرة القومية ، وأنزلتها منزلة الاعتقاد الراسخ والایمان الصحيح ، فمجدها وضحت لها على مذاييع الثورة بنفسها وأهرقت من أجلها دماءهم » ويقول في مكان آخر « إن الذي يعادى فكرة القومية ، بدعاوى أنها مدعوة لتفريق الكلمة جاهل بحقائق التاريخ وسر تقدم الأمم » . وهكذا فإن موضوع وجود الأمة العربية كان محسوماً تماماً بالنسبة لصلاح الدين القاسمي ، فهو لا ينالق الموضوع مناقشة الذي يثبت وجود الأمة كما فعل ساطع العصري فيما بعد ، ولا يحدد عوامل وجودها . إن الأمة موجودة والقومية من الضرورات الاجتماعية ، ولا شيء أكثر من ذلك .

وقد ظهرت جمعية النهضة العربية إلىعلن بعد اعلان الدستور العثماني

عام ١٩٠٨ وكان لها الفضل الأول على كل العركات السياسية والتحريرية في المشرق العربي ، فهي التي أشرعت العرب بشخصيتهم وأرست القواعد الأولى للفكرة العربية في ظل الحكم التركي . وتوالت بعد ذلك الجمعيات العربية والأحزاب السياسية للدفاع عن قضايا العرب وحقوقهم . وكان من عوامل إذكاء الروح القومية لدى الشباب العربي برامج التتربيك الذي حاول تعبيقه وتنفيذها في الولايات العربية جماعة الاتباع والترقى ورجال تركيا الفتاة الذين جاؤوا بعد خلع السلطان عبد العميد في عام ١٩٠٨ . . . . . عندما اتخدت هذه الأحزاب والجمعيات الطورانية من القومية المتطرفة والتفوق العرقي أساساً لبرامجهما راح قادة العرب وشبابهم المثقف يفكرون بمستقبل أوطانهم العربية بالأسلوب ذاته<sup>(١٨)</sup> .

وهكذا نشأت أحزاب وجمعيات عربية في بلاد الشام والعراق كالنهضة العربية والمنتدى الأدبي والجمعية المقطعلانية والمعلم الأخضر والمهد وجمعية بيروت الاصلاحية ، وجمعية البصرة الاصلاحية ، والنادي الوطني العلمي في بغداد ، وجمعية العربية الفتاة ، وحزب اللامركزية الادارية العثمانية . . . . . وتوقف قليلاً عند هاتين الحركتين الأخيرتين . ولقد كانت جمعية العربية الفتاة التي انبثقت عن جمعية النهضة العربية أهم تلك الجمعيات إذ قادت الاتجاه القومي العربي حتى نهاية العرب العالمية الأولى في دمشق وبلاد الشام ، وقد رجحها الحكم الوطني في عهد الملك فيصل وبعده خلال الانتداب الفرنسي تحت أسماء أخرى . وأما حزب اللامركزية الادارية العثماني فلقد أسسه جماعة من سياسيي سوريا المقيمين في مصر وبمعرفة الحكومة التركية في استانبول . وكان من مبادئه أن يكون هناك لفتنان رسميتان ، التركية وال العربية ، وأن تدار كل ولاية على أساس اللامركزية الادارية ويتم التعليم باللغة الغالبة وقد شارك عدمن أعضاء هاتين الحركتين في المؤتمر العربي الأول الذي انعقد في باريس عام ١٩١٣ كما قدمت الحركتان عدداً من شهداء ٦ أيار ١٩١٦ في بيروت ودمشق<sup>(١٩)</sup> .

وهكذا كان لدمشق فضل كبير في نشوء الفكر القومي العربي في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . ولا يتسع المجال هنا للكلام عن مسيرة القومية العربية في هذا القرن وعن المؤامرات الأجنبية التي استهدفت تجزئة الأمة العربية وضرب أي تطلع نحو الوحدة وتحقيق حرية الإنسان العربي .

لقد أثبت تاريخ المشرق العربي بأن ما يسمى بالشرعية الدولية ، لا تسعى أبداً لمحاربة الظلم ولا تهتم مطلقاً بتحقيق العدالة والانصاف ، بل تستهدف النظام والاستقرار كي تظل العدود التي رسمتها الدول المظلمى للأقطار العربية بعد الحر بين العالميتين الأولى والثانية غير قابلة للنقاش والتعدل ولتبقى خاضعة على الدوام للمتطلبات الاستراتيجية لهذه الدول .

ولذلك فان مقاومة المخططات الأجنبية التي تستهدف ابقاء الجزئية وتفتت الأمة العربية أمر واجب على كل مواطن عربي يؤمن بحق العرب في الحياة الحرة الكريمة . ومن هنا فان بناء الوحدة العربية أمر مثير يتطلب الالتزام الشخصي لكل انسان عربي . فالقومية العربية هي روح التاريخ ومنتفسها عبر الأجيال .

**فلا شيء يتم دون التزام ٠٠٠ ولا شيء يتحقق دون كفاح ٠**

#### □ العواشى :

- ١ - ذين نور الدين ذين - الصراع الدولي في الشرق الأوسط ، ص ٢٢ - دار النهار للنشر - بيروت ١٩٧٧ .
- ٢ - نفس المصدر ، ص ٢٤ .
- ٣ - ساطع العصري - البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٧٦ - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦٠ .
- ٤ - عبد الكريم رافق - العرب والعثمانيون ، ص ٤١٠ - مطابع الفياب - الأديب - دمشق ١٩٧٤ .
- ٥ - ساطع العصري - البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٩٢ - ٨٧ .
- ٦ - ذين نور الدين ذين - الصراع الدولي في الشرق الأوسط ، ص ٣٥ .
- ٧ - محمد سعيد الأسطوانى - مشاهد واسعات مشتقة (١٨٤٠ - ١٨٦١) الورقاتن ٢٧ ب و ٢٨ .
- ٨ - نفس المصدر السابق .
- ٩ - البرت حوراني - الاصلاح العثماني والمشرق العربي - مجلة الواقع - بيروت - العدد الرابع - شباط ١٩٨٢ .
- ١٠ - فاروق مردم يك - ملاحظات حول الفكر العربي في عصر النهضة (البرت حوراني) مجلة موالف - بيروت - العدد السادس - كانون الثاني - شباط ١٩٧٣ .
- ١١ - كمال الصليبي - تاريخ لبنان العديث - ص ١٤٧ - دار النهار للنشر - بيروت ١٩٨٦ .
- 12 — Gabriel Enkiri - Ibrahim Pacha , Imprimerie Française le Caire 1948.
- ١٣ - صاد عبد السلام رؤوف - الجمعيات العربية وفكرها القومي - مجلة المستقبل - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت - العدد ٨١ - ١٩٨٥ .
- ١٤ - نفس المصدر السابق .
- ١٥ - فيليب خوري - آفاق الدين والقومية العربية - ص ٤٤-٢٦ - مؤسسة الابحاث العربية - بيروت ١٩٩٣ .
- ١٦ - نفس المصدر - ص ٤٩-٤٧ .
- ١٧ - الفكر العربي في مائة سنة - بيروت مؤتمر هيئة الدراسات العربية - الجامعة الأمريكية - بيروت ١٩٨٦ .
- ١٨ - ناجي علوش - رؤاز الحركة القومية العربية - مجلة المستقبل العربي - العدد ٦٨ - ١٩٩٤ - من ٥٦-٥٧ .
- ١٩ - نفس المصدر السابق .

# دمشق

## في النصوص المسماوية

د. فيصل عبد الله \*

تمهيد :

لَا أحد يعلم متى بدأ الإنسان باستغلال نهر بردى بصورة منتظمة ، أو متى شيد المدينة المعروفة اليوم باسم دمشق ، ولكن القسم الاشارات الكتابية عنها وعن غوطتها الخضراء تعود إلى بدايات الالف الأول قبل الميلاد ، وتشير الكتب الدينية والتراثية ، المتاخرة من المصادر المسماوية ، إلى أن دمشق هي أقدم عاصمة ، مسكونة في العالم ، وينسبون تاسيسها إلى حنيد لسونج<sup>(١)</sup> .

إذا تركنا جانبًا الأسطورة والملامح الأدبية القديمتين ، فإن العقائير الأثرية لم تقدم شواهد كتابية أو قرآن يمكن تاريجها وبعد من بدايات عصر العديد (القرن الرابع عشر قبل الميلاد) ، ولا شيء يُعرف عن ماضيها المفرّق في القسم إلا من مصادر كتابية وأثرية مكتشفة في مواقع أخرى ، باستثناء تمثال صغير ، اكتشف في جدار المعبد الروماني ، نمطه سوري - فلسطيني يُؤرخ في القرن التاسع ق.م<sup>(٢)</sup> .

### البحث عن دمشق القديمة :

فضلاً عن قلة الدراسات وتعدّ التنقيب في دمشق ذاتها ، فإن المصادر المسماوية والمصرية القديمة (الهيروجليفية) منتشرة ، ولا تنطلي حكماً ولا عصراً ، ويتلو أقدم إشارة كتابية عنها في عصر البرونز الوسيط قرون من الصمت ، ولا يوجد سوى إشارات معزولة في عصر البرونز المتأخر . وعليينا الانتظار حتى القرنين التاسع والثامن لنقرأ بعض المعلومات المتصلة في الموليات

\* استاذ مساعد في تاريخ المسماويات - جامعة دمشق .

الآشورية ، ويتوالى ذلك عقود وعقود من الصمت والغموض . . . ولهذا تقود حماسة البحث في تاريخ المدينة القديم إلى خيبة الأمل .

## ● أسماء دمشق وممالكها . . .

### الاسم . . . دمشق :

إذا كان إسم دمشق من أصل لغوي سامي كبقية الأسماء ، أو أنه من أصل آخر ، فليس من المؤكد فهم معناه واشتراطاته . هناك كثير من الفرضيات التي تستحق الاهتمام ، ولكنها لم تتوصل بعد إلى تفسير مقنع ، يستند إلى معطيات نصية .

لقد ظهر إسم دمشق للمرة الأولى في التاريخ على الشكل التالي : ت - مس - ق ' Ta-ms-qu وهو منقوش بالكتابة الهيروجليفية ( المصرية القديمة ) على جدار معبد الكرنك في الأقصر بمصر بين لائحة من أسماء المدن التي فتحها تحتموس الثالث في القرن الرابع عشر ق .م.

وظهر اسم دمشق للمرة الأولى باللغة الآكادية وبالخط المسماري في نصوص تل العمارنة في ذات العصر أيضاً في ثلاثة نصوص على الشكل التالي :

(uru) di-mass-qa*	(197:21)	أورو ( uru ) د - مَش - ق
(uru) du-ma- ass- qa	(107:28)	أورو ( uru ) د - مَ - اش - ق
(uru) ti-ma-ass-qi	(53:63)	أورو . تِ - مَش - ق (أورو تعني مدينة )

وذكر إسم دمشق في رسالة بالأكادية المسмарية موجهة إلى أحد ملوك دمشق ، عشر عليها في موقع كامد اللوز في لبنان ، تعود إلى القرن الرابع عشر ق .م. كما يلي :

أورو ( uru ) ta-ma-ass-qa .

وذكرت دمشق في النصوص الآشورية في مطلع الألف الأول ق .م. كما يلي (٢) :

\* يرجى قراءة كل ss = ش .

(uru) di-mass-qa	أورو) دِ - مَش - قَ
(uru) di-mass-qi	(أورو) دِ - مَش - قَ
(uru) di-mass-qu	(أورو) دِ - مَش - قُ
(uru) dim-mass-qu	(أورو) دِم - مَش - قُ

لقد كتب الكثير حول معنى الاسم دمشق وكأن البرايت Albright ، وتبعه آخرون ، قد فسروه على أنه من أصل لغوي سامي ، ويمكن فهمه بطرقين ، الأولى تعتبر الدال إسم إشارة ذو ، والثانية أن أصلها دار معتمدين على التوراة حيث يرد دار مشق أي دار مشق أما معنى مشق / مشق فقد أرجعه كلاي Clay إلى إسم جبل ورد في ملحمة جلجامش هو مش' حيث تغرب الشمس وفهم إسم الإله مش الشمالي على أنه شَ - مش ، وبما أن شَ هي إسم موصول بالأكادية أي الذي ( هو ) مش' ، مطابقاً لهذا الجبل على جبل حرمون . ومن ثم يكون المعنى (المدينة) التي على سفح مش' . أما الفالق في دمشق فليست إلا تناسخاً لـ (كي KI) السومرية التي تعني مكان أو مدينة ، هكذا تنتهي الفرضية التي تريد أن تفهم من دمشق مدينة الشمس ؟ رغم جمال الصورة وإغرائها الشاعري ، إلا أنه لا توجد نصوص أو أدلة لغوية أخرى تدعم هذا التفسير<sup>(٤)</sup> .

وذهب هو بت Haupt إلى أن مشق وشق لها علاقة بالجدر سقى ، فترجم دار مشق بالدار المسقية . واقتصر البرايت أن تكون مشق مشتقة من الكلمة مشق التي تعني العوار الفخاري فهي مدينة الفخار إلى . تفترض التفاسير السابقة أن الاسم سامي وأن دار جزء منه ، وهذا أمر غير مؤكد ، إذ لا توجد أمثلة على ذلك من النصوص المسمارية في الآلف الثاني ، ومن الصعب إعتبار دار مشق تعود لأبعد من العصر المبابلي .

ونلاحظ أخيراً أن التاء أقدم من الدال ، كما ورد أعلاه في النصوص المصرية ومن الصعب تحولها إلى دال ثم ذاء كي تصبح إسم إشارة .

ويعتقد آخرون أن أساس المشكلة يأتي من إعتبار الاسم من أصل سامي ، ولهذا لم نعثر على تفسير مقبول حتى الآن<sup>(٥)</sup> .

## أسماء منطقة مدينة دمشق :

لقد كانت مدينة دمشق عاصمة لمدن الممالك في الألف الأول والثاني ق.م . وعرف سكانها إسم منطقتهم بـ آبوم (بتشديد الباء) Apu(m) في الألف الثاني و آرام Aram في الألف الأول . ولذا لا بد من التعرف على هذين الاسمين ، وخاصة آبوم الذي لم يرد إلا في النصوص المسماوية والهiero-جليفية .

لقد ورد آبوم بين أسماء بلدان ومدن النتش المصري المعروف بنصوص اللعنة ، المكتشفة في صقارة زمن الملكة الوسطى ، وكان البرايت أول من تحقق من أن البلاد التي تدعى إبوم Ipwm كما جاءت في النصوص هي دمشق<sup>(١)</sup> ، مستنداً إلى نصوص عصر البرونز المتأخر حيث ورد في محفوظات تل العمارنة بالصيغة آبي ، أبي .

KUR a-pi (197:43,42) , KUR u-pi (EA 53:57, 59, 62, 189: rev. 12)

حيث أن كور تعني بلاد وبالتالي إن المقصود بلاد آبوم ، وقد ورد في نصوص حثية بصيغة آبينا و آبا ، وقد لاحظ اللغويون أنضم ليس إلا لهجة سوريا كنعانية ، واعتبر البرايت أن أصل الكلمة أكادي آبوم (م) apu(m) معناه غيبة القصب وهو إسم أطلقه الأكadiيون على مناطق الغياض في بابل وسوزا وهذا يتناصف أيضاً مع طبيعة جزئها الشرقي الملئ بالقصب . لقد إستحسن بعض العلماء هذا التفسير اللغوي ، رغم ضعف برهاهنه<sup>(٢)</sup> .

من جهة أخرى ، فقد ظهر في نصوص ماري إسم آبوم وقد حاول البرايت جاهداً أن يثبت أن آبوم الدمشقية ، ولكن تبين بعد سنوات من النقاش بين المتخصصين في الدراسات المارية أن هناك مملكتين تحملان ذات الأسم الأولي في الجذرية العليا ، ربما في موقع عرف بـ شُباط انليل (تل ليلان قرب القامشلي) والثانية في منطقة دمشق ، ومعنى ذلك أن لا ذكر لدمشق أو آبوم في محفوظات ماري (ن. نفسه ص ٤٧).

وهكذا نلاحظ ندرة المعلومات حول آبوم / آبي ، فهي معدومة في نصوص ماري وتقتصر على إشارات غير كافية في عصور الصراع الدولي المصري والمعشني والميتاني على ثروات سوريا . ولم يعرف شيء عن دور دمشق السياسي في بلاد آبي ، رغم ظهورها في النصوص كملكة متواضعة متحالفة مع مصر غالباً .

## آرام :

لن نفصل في استخدام هذا الاسم ، لأن النصوص المسماوية الآشورية المديدة ( بدايات الألف الأول ق.م ) لم تذكر للدلالة على منطقة دمشق ، وإنما استخدمت تعبيرًا خاصا هو (كور أنش - شو) بالسومرية و (مات إميريشو) بالأكادية ، وهو ما سنتناوله بعد قليل . لقد كان إسم آرام في الألف الأول ق.م متعدد الاستعمالات، الجغرافية والعرقية، بعد أن أصبحت سوريا والرافدين تحت الحكم الآرامي ، وكانت دمشق عاصمةً إحدى أقوى المالك الآرامية .

## مات إميريشو ، شا - إميريشو :

كما ذكرنا آنفًا ، لم يستخدم الآشوريون اسم آرام للدلالة على مملكة دمشق خلال القرنين التاسع والثامن ق.م وإنما استخدموها التعبير إميريشو ( كور أنش - شو ) مع الاختلافات التالية :

mat Imerissu (KUR ANSSE-ssu) Ssa-Imerissu (KUR ssa ANSSE-ssu, KUR sa ANSSE. NITA-ssu).

لا توجد معلومات واضحة عن سبب استخدام الآشوريين لهذا الاسم ، كما أن معناه قد أسأل حيراً كثيراً ، وهناك أكثر من مكان يحمله . لا بد من الاشارة إلى أن بعض العلماء قد قبلوا دلالة مات إميريشو على دمشق نفسها وهذا أمر غير مؤكد<sup>(٤)</sup> .

ان الكتابات الآشورية المتأخرة للملك شلمنصر الثالث قد ذكرت حزائين ملك دمشق الآرامية على الشكل التالي : 1 ha-za-'i-DINGIR SSA KUR ANSSE-ssu, في حين ذكره شلمنصر لاحقا أنه حاصر حزائيل في URU di-ma-ass-qi URU ssarru-ti-ssu, (أورو - م - ش - ق أورو شرّو - ت - ش') أي «في دمشق عاصمة مملكته» ونجد في كتابات أددنيراري الثالث ما يلي :

a-na KUR ssa-ANSSE-ssu lu-u a-lik 1ma-ri-'i ssarru ssa KUR ANSSE-ssu ina URU di-ma-ass-qi URU ssarru-ti-ssu lu-u e-sir-ssu.

(أ - نا كور شا - أنش - ش ل - و أ - ليك ا م - ر - عي شرّو شا كور أنش - شو - إنا أورو د - م - ش - ق أورو شرّو - ت - ش ل - و ا - صير - ش') أي : (إلى بلاد شا - إميريش ، قد ذهبت . مرععي ، ملك بلاد

‘إِمْرِيش’، قد حاصرته في دمشق عاصمة مملكته ٠ ) نلاحظ أن النص يفرق بوضوح بين البلاد وهي إِمْرِيش والعاصرة وهي دمشق<sup>(٩)</sup> ٠ ولنذكر هنا أن هذه آخر اشارة لمدينة دمشق في النصوص المسماوية ، بعد سقوطها على يد الآشوريين عام ٧٢٢ ق.م ٠٠ وتشير في هذا المجال الى الكلمات الأكادية التي بقيت في لغتنا العربية حتى اليوم ، وهي كما نلاحظ، شا أنش السومرية ويقابها إِمْرِ الأكادية وحمار العربية كما سنرى بعد قليل ، أليك من ألك وهلك بمعنى ذهب ، الاسم مرعبي ، وأخيراً أصرو يقابلها حصر ٠

لقد حدث بعض الاختلاط فيما يتعلق بتفسير شا أنش السومرية التصويرية التي ترجمها الأكاديون إِمْرِ أي حمار ، ومردذلك أن أوائل علماء الأكاديات قد اعتبروا أن شا—أنشـ هو ANSSE-ssu هي الترجمة الأكادية لـdmssq دمشق ، حيث رأوا أن يقابلوا شا في مطلع الكلمة بالـdال في دمشق وأنها ليست الا الاسم الموصول ذو ٠ ولكن أنشـ تعني إِمْرِي حمار ، ولا نجد علاقة بين مسق / مشق وحمار في أي من اللغات السامية ٠ وهناك آخرون اعتبروا أن الناسخ القديم قد أخطأ وفهم من مسق المني اياه ٠ أما Speiser فقد ارتأى معنى إِمْرِ هو دولاب ماء ، طالما هناك من يعتقد أن مسق لها علاقة ٠ بـشقى التي تعني غيمة المياه ، ولكن هذه الفرضية لم تلق الرضى أيضاً ٠ وتنذكر بوجنون Pognon الذي قرأ الاشارة التصويرية السومرية أنشـ على أنها آرام ، ولكن دون سبب مقنع ٠ وهكذا لم نستطع أن نفهم تماماً سبب تسمية الآشوريين دمشق ومنطقتها بـ «بلاد العمير» ، ولعل آخر دلو ندللي به في هذا المجال هو أن دمشق كانت مركزاً ل التربية سلالات من البفال أو العمير في الفترة التي سبقت ظهور الجمل وحداثة عهد استخدام العchan وارتفاع ثمنه ، كما كانت مركزاً لدور قوافل العمير القادمة من قطنة وتدمير والراوفدين ومن شمال سوريا والأناضول والمتوجهة الى لبنان وفلسطين ومصر والعباز في الجزيرة العربية ، فقد كانت لا شك هائلة المدد، ويمكن أن نذكر في هذا المجال رسالة لمحمون أبي يعرض فيها على زمري ليسم ملك ماري أن يرسل له خمسة آلاف حمار محمل بالعبوب ٠ ربما كان الرقم كبيراً ، ولكن العمار كان واسطة النقل الوحيدة

آنذاك . وهكذا يمكن أن نتصور أعداداً من قوافل العمير التجارية التي تعبّر المنطقة ، مما جعل الآشوريين ينعتونها ببلاد « قوافل » العمير<sup>(١٠)</sup> .

من جهة أخرى ، لم تقدم نصوص الآلف الثالث ق.م . أية معلومات عن دمشق وخاصة محفوظات ابلا التي اكتشفت في تل مرديخ ، رغم أن بيتيينا تو Pettinato قد نوه إلى ذكرها في البدء ومن ثم لم ينشر ذلك في قوام الأسماء الجغرافية وغيرها التي تظهر تباعاً<sup>(١١)</sup> . ولكن الدلائل المستمدّة من العفارى والنصوص المجاورة تشير إلى أن دمشق كانت من الواقع الأساسية لاستقرار الأموريين منذ نهاية الآلف الثالث ق.م . كما كانت محطة للقوافل المتوجّهة إلى حاصور في فلسطين التي ذكرت في نصوص ماري في القرن الثامن عشر ق.م . ويشير نص رسالة من المحفوظات الأنففة الذكر إلى مناطق ، ربما كانت إمارات أمورية ، ويأتي ذكرها وفق التسلسل الجغرافي الآتي : بلاد يمخاض (أي حلب / خلب بالأكادية ) ، بلاد قطنة (حمص) ، بلاد أمورو؛ وتذكر رسالة أخرى مبعوثة لأربعة ملوك أموريين قد ارتحلوا برفقة مبعوثين من حاصور وقطنة . يمكن الاستدلال من هذه المعلومات أن بلاد الأموريين المقصودة هنا تمتد من جنوبى قطنة إلى مناطق مملكة حاصور ، أي أن منطقة دمشق هي أحدى تلك الإمارات الأمورية حيث كانت تعرف ببلاد آبوم آنذاك ، ولكن يجب أن ننوه إلى أن أمورو قد تعني الفريبيين وبالتالي فإن عبارة الملك أموريين هنا لا تشیر بالضرورة إلى منطقة دمشق . لقد أصبحت دمشق مملكة آرامية في نهاية القرن العادي عشر ، ولكن لم يكن لها شأن كبير ولا توجد معلومات حول الموقف السياسي الدولي . ولكنها لعبت دوراً على طريق التجارة المؤدي إلى مصر والجزيرة العربية .

وتقدّم بعض الكتابات المسماوية الآشورية معلومات هامة عن دمشق - أرام في المعترك الدولي بين ٨٤١ - ٨٥٣ ق.م ، حيث تذكر لأول مرة ، كما ذكرنا أعلاه ، في كتابات شلمندر الثالث ، الذيواجه تحالفآً آرامياً بقيادة أدد - إدري (IM-i-id-ri DINGIR) ملك إمريشو ، وعاصمتها دمشق ، واستطاع أن يؤلب حوله جميع المالك الآرامية . ولكن شلمندر ينتصر عليه وفق ما نقشه على

نصبه المعروف KAH30<sup>(١٢)</sup> . و تتالت حملات الآشوريين على دمشق حتى أصبعت تحت السيطرة الآشورية في عهد تجلات بيلصر الثالث عام ٧٣٢ ق.م : للنفوذ الآشوري في جنوب سوريا .

وأخيرا ، اذا أردنا أن نستعرض النتائج الأساسية لتاريخ دمشق المستمد من المصادر المسماوية ، نلاحظ ما يلي : لقد كانت دمشق تعرف ببلاد أبي / أبي في النصف الثاني من الألف الثاني ق.م . ، ولكن دون أهمية سياسية تذكر ، وأشارت المكتابات المصرية والحتية الى دور تجاري لها ، كجزء من مناطق نفوذها. ولم نعرف عن دمشق ما يذكر عن دور سياسي وثقافي وفني ، كبقية المدن الأمورية والكنعانية مثل حلب وقطنة وقادش والقدس وغيرها من المدن التي ذكرت في النصوص المسماوية ولن يبرر مثل هذا الدور الا في نهاية القرن العاشر ق.م . حيث عُرفت باسم آرام ، ولكن لم نشر حتى الآن على مصادر كتابية أو أثرية من المدينة نفسها . وكل ما وصل اليانا هو من مصادر خارجية آشورية فقط . وبلغت أهميتها القصوى عندما شكلت تحالفآً آرامياً ضد الآشوريين ، واستطاعت أن تفرض سيطرتها السياسية على جنوب سوريا وفلسطين ، خلال القرن التاسع وبداية الثامن ق.م . ولكن الآشوريين أخضوها من جديد ، زمن تجلات بيلصر الثالث ( ٧٣٢ ق.م ) ، ونلمس ضمور دورها السياسي من خلال محاولة للثورة ضد شروكين الثاني عام ٧٢٠ ق.م . ولم تتوقف دمشق عن التطور الاقتصادي والتجاري بدليل نماء زراعتها في الغوطة الشهير ، وموقعها الجغرافي على طرق تجارة الجنوب أي فلسطين ومصر والجزيرة العربية . ورغم انعدام المعلومات الكتابية والأثرية في القرون التالية الطويلة ، الا أن دورها السياسي لا بد وأنه كان على مستوى تطور زراعة غوطتها وأهمية موقعها التجاري . ولا شك أن تغدر التنقيب فيها يمنعا للأسف عن توثيق أيامها الفايقة التي يفترض أن تكون ذات مجد وفخار .

□ العواشي :

- ١ - انظر : 2 .. Sauvaget, 1934, 427-28 . Pitard p. 2 . قائمة المصادر أدناه وفق التسلسل الأبجدي من أجل الاسم الكامل لكل مصدر أو مرجع نورده مختصرًا .
- ٢ - من أجل قائمة مصادر موسعة عن تاريخ دمشق القديم ن Pitard, p. 193ff. حيث يتعرض لجميع الدراسات التي سبقته خلال القرنين الماضيين ، وجميئها بلغات أجنبية . نعتقد هنا عن ايات دراسات باللغة العربية لسد توفر فهرسة لها ، كما أنها ليست أصلية بل مقتبسة او مترجمة ، أما شانتانا هنا ، فقد اعتمدنا في دراستنا هذه على المطرودة أدناه رقم ١٢، pitard . فهي الأحدث في هذا المجال ، وتقود إلى ما سبقها ، أما دراسات الأعوام التي تلتها ، فلم تقدم جديدةً لناريخ دمشق ، إلا فيما يتعلق بالتعبير الجغرافي أيام ، بعد اكتشاف نصوص تل ليلان (قرب القامشلي) التي دعيت قديماً شباطاً أنتيل ، عاصمة شمشي إحدى الأول مؤسس الدولة الآشورية القديمة وقد أصبغ شبه مؤكداً أن أيام هو الاسم الجغرافي للأقدم للمنطقة في القرن الثامن عشر ق.م . وأن دمشق كانت تحمل الاسم نفسه . ن. حسول الموضوع D. Charpin, M.A.R.I. 5 = Mari Annales de Recherches Interdisciplinaires, pp. 129-140. Paris, 1989.

٣ - من أجل تهجئة الاسم ن .

Ablright 1934 p. 62. Helck 1971, 129. Edzard 1970, 52. Pitard, 7.

٤ - ن. التفاصيل 8 Pitard,

٥ - يمكننا يرى كل من Sauvaget 1934, 435. Gordon 1952, 175 no. 7 . هناك امكانية أخرى وهي أن الاسم من بذر رباعي سامي بدئي ن . Pitard 9 .

٦ - ن. Albright 1940, 34-35 نشرت نصوص اللغة العربية المكتشفة في مقارنة من قبل Posener 1940 ووردت الأسماء في النصوص E33, E34, p. 81-82 .

٧ - ن. Pitard p. 11 .

٨ - من أجل تفاصيل النقاش ن. المرجع السابق ص ١١ .

٩ - من أجل ترجمة النص ن. نفسه ، وقبله Tadmor 1973, 148-149 .

١٠ - من أجل اصحاب هذه الفرضيات والقراءات وتفاصيلها ن. Pitard, p. 15 .

١١ - كان جورج دوسان أول قارئ لنصوص ماري من أكتشاف ماري في الأربعينيات حتى وفاته عام ١٩٨٣ ولم ينشر كل ما حوتته المخطوطة من نصوص مسارية ، وكان يكتفي أحياناً بنشر مقاطع فقط من النصوص وفق احتياجات دراساته . وقد نشر المقاول المعنية هنا في : Klengel 1965-70, : 2. 96-138 Dossin 1954, 417-25, 1957, 37-38

□ بعض المصادر والمراجع الأساسية :

- ١ — Albright, W. F. The Vocalisation of the Egyptian Syllabic Orthography. New Haven : American Oriental Society. 1934.
- ٢ — The Land of Damascus between 1850 and 1750 B.C. BASOR 83:30-30. 1941.

- 3 — The Amarna Letters from Palestine, pp. 98-116 in The Cambridge Ancient History, 11/2, Ed. by I. E. S. Edwards, 1975a.
- 4 — Syria, the Philistines, and Phoenicia, pp. 507-36 in The C.A.H. 1975b.
- 5 — Aldred, C. Egypt : The Amarna Period and the End of the Eighteenth Dynasty pp. 49-97 in The C.A.H. 11/2, 1975.
- 6 — ANET 3 Anciet Near Estern Texts Relating to the Old Testament. J. B. Pritchard, Princeton, University, 1969.
- 7 — Dossin G. Les rachives épistolaires de Mari, Syria 19:105-26, 1938.
- 8 — Les archives Economiques du palais de Mari, Syria 20:97-113, 1939. Le royaume de Qatna au XVIII<sup>e</sup> siècle avant notre ère d'après les Archives Royales de Mari, BARB : CL 40:417-25, 1954.
- 9 — Edzard, D.O. Die Keilschrift briefe der Grabungskampagne 1969, 1970, pp. 94-62 in Kamid el-loz-Kumidi : Schriftdokumente aus Kamid el-Loz, D. O. Edzard, et al. Bonn : Rudolf Habelt.
- 10— Klengel Horst, Geschichte Syriens im 2. Jahrtausend v.u. Z. I,II,III, 1965-1975.
- 11— Merrill F. Unger's, Israel and the Aramaeans of Damascus, 1957.
- 12— Porter, H. Five Years in Damascus, London : 1855.
- 13— Pitard T. Wayne Ancient Damascus, a Historical Study of the Syrian City-State from Earliest Time until its Fall to the Assyrian in 732 B.C.E. Indiana 1987.
- 14— Rost, p. Die Keilschrifttexte Tiglat-Pilesers III. Leipzig : 1893.
- 15— Sauvaget, J. Esquisse d'une histoire de la ville de Damas, Revue des études islamiques 8:421-76, 1934. Le plan antique de Damascus, Syria 26:314-58, 1934.

\* \* \*

# دُمِشْقُ ما قبْلَ التَّارِيخِ

د. سلطان محسين

## مقدمة :

دمشق مدینتنا المظیمة ، نعرف الكثیر عن تاریخها القديم والحديث ولكننا نجهل كل قصتها في عصور ما قبل التاریخ، أو المصور العجریة ، وهذه فرصة ثمينة لفتح صفحات تلك القصة ، وتمرّف وقائع وأحداث تبدو للوهلة الأولى وكأنها من عالم الخيال بينما هي وثائق علمية ثم الحصول عليها من خلال أبحاث أثرية - تاریخية منهجة ودقیقة .

لقد أصبحنا نعلم أن دمشق ومنطقتها، قد سكنت منذ مئات الآلاف من السنين، إلا أن الزمن أتى على الجزء الأكبر من الدلائل . كما أن سكان تلك المصور لم يعرفوا الكتابة ولم يسجلوا أحداثهم أو أفكارهم ومعتقداتهم . ونحن نحاول التعرف على كل ذلك ، وغيره ، عبر دراسة البقايا المادية التي خلفوها كالأسلحة والأدوات العجریة ، والأبنية والأوانی والفنون انتهاءً بفضلات الطعام وبقايا المستودعات والمواقد والقبور . ولأن طبيعة حياة هؤلاء الناس قد اختللت حسب الزمان والمكان فقد قسم الباحثون عصورهم إلى أجزاء لها سماتها الخاصة . الجزء الأول من تلك العصور هو المصر العجریي القديم - الباليولیت - وفيه عاش الناس منتقلين خلف مصادر الصيد والالتقاط البريin

وما الى ذلك من ثروات الطبيعة العريقة ، والجزء الثاني هو العصر العجري الحديث - التيولين - وفيه عرف الناس البناء واستقروا في قرى دائمة ومارسوا الزراعة وتدرجت العينيات محققت درجة من التطور الاقتصادي - الاجتماعي أصبحت أرضية حفارنة الإنسان بمعناها الشامل . وبين هذين العصرتين هناك عصر انتقالى هو العصر العجري الوسيط - الميزوليت - الذي حمل صفات مشتركة من العصر الذي سبقه والعصر الذي لاحقه .

لقد كان بلاد الشام ، ولعوضة دمشق ، دوراً مركزياً في ذلك الزمن . إن ما نعرفه الآن تحت اسم محافظة مدينة دمشق وريف دمشق ، هي منطقة تشكل الجزء الشمالي من الأقليم الجنوبي الغربي في سوريا وهي إطار جغرافي متباين تفاعلت فيه عناصر طبيعية وبشرية ، جعلت منه أكثر المناطق تميزاً في العالم . لقد بدأ تشكل هذه المنطقة منذ ملايين السنين (العصر الكرياسي ) واستمرت أحاديثها الجيولوجية في العصور اللاحقة ، ولكن أهمها حصلت في الزمن الجيولوجي الرابع الرباعي ، إذ أخذت تلك المنطقة شكلها الجغرافي الراهن تقريرياً ، فاستقر فيها تشكل السهول والجبال والوديان والأنهار .

ورغم أنه لم تحصل حتى الآن دراسات كافية للرباعي في منطقة دمشق إلا أن المعلومات المتوفرة الأولى تشير إلى أنه في بداية الزمن الرابع كانت تغطي جزءاً كبيراً من هذه المنطقة بحيرة واسعة امتدت من منطقة الضمير في الشرق حتى الكسوة في الغرب ، ارتفعت شواطئ هذه البحيرة بين ١٠٠ - ١٢٥ م عن مستوى بحيرة العتبة العالية ، وذلك في العصر المسمى البليستوسين الباكر ، منذ حوالي مليون سنة خلت ، وكانت تتغذى ، ومنذ ذلك الوقت ، بمياه نهرى يبردى والأعوج ، إضافة إلى الأمطار والأودية الفرعية والأنهار الموسمية الأخرى التي دلت على قيام مناخ بارد وماطر وانتشار غابات كثيفة على الجزء الأكبر من المنطقة . ومنذ حوالي نصف مليون سنة (البليستوسين الأوسط) حصل جفاف نسبي في المناخ وترجع شواطئ البحيرة حتى ارتفاع حوالي ١٥ م عن مياه بحيرة العتبة وبذلك تقلصت مساحتها .

ومنذ حوالي ١٠٠٠٠ سنة (البليستوسين الأعلى) توضحت حدود تلك البحيرة بشكل أفضل وأضفت تغطي منطقة أبعادها ،  $20 \times 10$  كم تقريرياً ومركزها

بعيرتا العتيبة والهيجانة ، ومنذ ذلك العصر تشكلت في المنطقة التربة السوداء الخصبة ، تربة غوطة دمشق ، نتيجة جملة نشاطات بحيرة - نهرية - سيلية حتى وغيرها .

وقد بقيت هذه البعيرة بين مد وجزر حتى حوالي عشرة آلاف سنة ق.م .  
( بداية عصر الهولوسن ) عندما حصل جفاف مناخ آخر وتقلصت حدود البعيرة من جديد وشكلت شواطئ ارتفاعها ٦ - ٧ م فقط ، واقتصرت فيما بعد على بعيرتي الهيجانة والعتيبة<sup>(١)</sup> . وعلى شواطئ بحيرة دمشق القديمة نشأت مستوطنات هامة من عصور ما قبل التاريخ كما سنرى .

### الانسان الأول في منطقة دمشق :

إن المعلومات الأولى حول انسان العصر القديم في منطقة دمشق تعود الى الثلاثينيات من هذا القرن ، أنت على يدهواة منوعين التقاطوا الأدوات العجوية من هنا او هناك ، ومن حوضة دمشق ، وادي بردى منطقة قطنا ، المزة ، وليس مدينا للاسف أية معلومات عن تلك الأدوات أو مصدرها<sup>(٢)</sup> .

وفي السنتين وصلتنا معلومات أدق عن سكان دمشق الأوائل فقد عثر في مدينة دمشق نفسها أثناء أعمال الحفر والبناء ، وفي وادي بردى والفوطة على أدوات حجرية ، هي فؤوس يدوية ، من النوع المسمى الآشولي ، والتي يعود تاريخها الى حوالي مليون سنة خلت كمادلت على ذلك دراسات مناطق الساحل السوري وحوض العاصي<sup>(٣)</sup> لقد صنعت تلك الفؤوس ، وهي أدوات فعالة في الحفر والقطع او غيره ، من قبل الجماعات البشرية الأولى التي وصلت الى منطقة دمشق منذ بداية العصر العجري القديم وكانت من النوع المسمى الهومو اركتوس وهو انسان ظهر لأول مرة في افريقيا ثم انتشر تدريجيا الى بقية القارات وكان يعيش من الصيد والالتقاط وبقى مستمرا حتى حوالي ١٠٠,٠٠٠ سنة خلت بعده ظهر نوع جديد من البشر هو انسان النياندرتال الذي كان يملك قدرات جسدية وفكرية أكثر تطوراً من سلفه وقد عثروا على آثار هذا الانسان ، ومعظمها أدوات حجرية على شكل سكاكين ومقاحف ، في كل مكان في حوضة دمشق ووادي بردى وبخاصة في سهل المصحراء .

بعد انفراط النياندرتال وظهور الانسان العاقل السلف المباشر للانسان العالمي منذ حوالي أربعين ألف سنة ، أتت مرحلة غامضة امتدت حتى حوالي عشرة آلاف سنة ق . م ، غاب فيها الانسان وغابت آثاره ولم نثر الا على بعض الدلائل سواء من منطقة صيدنايا أم منين وعموماً هذه فترة فقيرة في المشرق كله ولا غرابة أن يكون عليه الوضع كذلك في دمشق . ولكن مع انتهاء العصر العجري القديم اختلف الوضع وعاد الانسان ، والحضارة ، وبلا انقطاع الى هذه المنطقة .

### **المزارعون الأوائل في منطقة دمشق :**

ان الاستيطان البشري الفعلي والأهم بدأ في منطقة دمشق منذ العصر العجري الحديث . في هذا العصر حصلت تحولات بنوية وحضارية جذرية في حياة الانسان الأول الذي تحول من حياة التنقل والصيد والالتحاط الى العيش في قرى دائمة وممارسة زراعة العيوب وتربيه الحيوانات . ان هذا التبدل «الثورة الزراعية» وضع حجر الأساس في نشوء المجتمعات الحضارية بمعناها الشامل . لذلك حظيت هذه المرحلة باهتمام خاص من قبل الباحثين<sup>(٤)</sup> وتبين أن منطقة المشرق العربي القديم وبلاد الشام كانت مهد هذه الثورة بل أن حوضة دمشق أعطت شرارتها الأولى . وما العديد من التلال المنتشرة في الغوطة الا بقايا القرى الزراعية التي نشأت ومنذ العصر النبولياني . لقد كرس الباحث الفرنسي هنري دي كونشنون باسم المديرية العامة للأثار والمتاحف سنوات طولية لدراسة المجتمعات الزراعية الأولى في منطقة دمشق والمتحف نصب في العديد من التلال ( تل أسود ، تل الفريفة ، تل الرماد ، تل الخزامي ) وحصل على نتائج أكدت معرفة الزراعة في هذه المنطقة ومنذ مطلع الألف الثامن ق . م أي قبل آية منطقة أخرى من العالم . وأصبحت أعماله مرجعاً لا غنى عنه لكل الباحثين في ظاهرة نشوء وتطور المستوطنات الزراعية الأولى . وتوضيحاً للموضوع سوف نعرض نتائج هذه الأعمال على مرحلتين: الأولى تتناول المجتمعات الزراعية الباكرة التي عاشت على امتداد الألف الثامن والنصف الأول من الألف السادس ق . م والمرحلة الثانية تعرض المجتمعات الزراعية المتطرورة التي عاشت منذ النصف

الثاني للالف السابع ق.م و حتى انتهاء عصور ما قبل التاريخ في نهاية الالف  
الرابع ق.م .

### المجتمعات الزراعية الباكرة :

الى الشرق من مدينة دمشق بين بحيرتي المتيبة والهيجانة يقوم تل أسود حيث أجريت أسبار دلت على حصول أربع مراحل استيطان متتالية في هذا الموقع (أسماها المنقب أسود آآ، آ، ١١، ١١ب) لقد ضم المستوى الأول (IA) بقايا أقدم قرية زراعية في التاريخ فقد عثر هنا على كميات كبيرة من حبوب القمح والشعير والحمص والمعدس المتقطعة التي زرעה سكان التل الأوائل وأرخت بطريقة الفحم المشع الدقيقة على حوالي ٧٨٠٠ سنة ق.م.<sup>(١)</sup> ولكنهم بنفس الوقت التقاطوا المبوب والتلار البرية وأصطادوا الثروات السمكية والحيوانية .

أقام سكان تل أسود في ذلك العصر في بيوت ، أكواخ ، صغيرة بيضوية أو دائيرة قطرها حوالي ٢ م ، غرست عميقاً في الأرض ، استخدموها في بنائها اللبن والطين والقصب وهي مواد متوفرة بكثرة في الوسط المستنقعى الذي يقام فيه الموقع ، إلا أنها قابلة للتلف . ووُجد في المستوطنة الكثير من مستودعات التخزين والخفر المليئة بالرماد مما يشير الى حرائق متكررة تعرض لها الموقع بل أن اسم التل بعد ذاته يشير الى ذلك ، لقد عرف السكان شيء الطين وصنعوا منه اللبن الذي كان له شكل معدب من جهة ومقرن من الجهة الأخرى ، واحتوى على عناصر بنائية مميزة وحملت سطحه هذا اللبن طبعات أصابع صانعيه ، ورصفت به ، وبانتظام ، أرضيات البيوت كما صنعت منه المصاطب والسطح المرتفعه .

ويقي سكان تل أسود في مراحلهم يسكنون في نفس (IB ، 11) اللاحقة أنماط بيوت المرحلة الأولى . بين أنقاض قريتهم وجدنا العديد من أدواتهم وأسلحتهم التي استخدموها في حياتهم اليومية وبخاصة مناجل الحصاد وهي عبارة عن شفرات حيوانية حادة وطلوية تم تثبيتها على قبضات من الخشب أو المعلم . وهناك رؤوس النبال من النوع المفرّض عند نهايتها المسماة « نبال الغيام » لأنها وجدت لأول مرة في موقع الغيام الى الغرب من البحر الميت في فلسطين ، وهذا دليل بمقاييس حضارية باكرة بين المنطقتين .

إن التنقيب المحدود في تل أسود لا يسمح لنا بتحديد معالم هذه القرية بالكامل ولا حقيقة علاقتها مع المناطق المجاورة ولكن يلاحظ أن الوسط الفقير بالأحجار دفع السكان إلى جلب موادهم العجرية من مناطق بعيدة فقد حصلوا على أحجار الصوان من سفوح جبال لبنان الشرقية بل أنهم استوردوا حجر الاوسيديان من الأناضول وقد أثبتت التحاليل أن اوسيديان تل أسود يعود في غالبيته إلى مناطق وسط الأناضول (موقع نمرود داغ) ومن أطراف بحيرة وان . كما أنهم استوردوا أنواعاً مختلفة أخرى من الأحجار النادرة التي صنعوا منها العلى وأدوات الزينة كما سنرى .

لقد شهدت المرحلة الثانية من حياة تل أسود (II) زيادة في السكان وانتشاراً أوسع للاستيطان فنشأت في الآلف السابع ق.م. مستوطنة جديدة أخرى هي تل الغريقة (I) الواقعة إلى الشمال قليلاً من تل أسود أي في نفس الوسط الجغرافي المرتبط ببحيرة دمشق القديمة وقد دلت الأسباب المعدودة في الموقع أن الناس قد أقاموا في بيوت بسيطة من الطين والقصب تشبه بيوت جيرانهم في تل أسود وأنهم تعاصرروا في مرحلتهم الأولى مع سكان المرحلة الثانية في تل أسود . وفي هذا العصر تطورت تقنيات تصنيع الأدوات العجرية فأصبحت المناجل أكثر فاعلية وأصبح لها أسنان كبيرة وظهرت رؤوس النبال ذات الساحة المسماة «نبال جبيل» لأنها وجدت لأول مرة في موقع جبيل في لبنان . كما ازداد استخدام الأزاميل والمكاشط والأدوات الزراعية الثقيلة ، كالرص والأجران والبلطات . لقد صنعت الأدوات العجرية من نوع من النوى حضرت وفق تقنيات خاصة وأصبح لها شكل القارب مما سمح باستغراج الشطايا الطويلة والمنتظمة . وتطور استخدام الطين المشوي في صنع التماثيل وغيرها .

### المجتمعات الزراعية المتطورة :

في النصف الثاني من الآلف السابع ق.م. اتسع من جديد الاستيطان في حوضة دمشق فنشأت مستوطنة الغريقة الثانية الأكبر والأكثر أهمية من المستوطنة الأولى . ولكن التحول الأهم كان نشوء مستوطنة تل الرماد في وسط جفراني جديد و مختلف بعيداً عن البعير و في سفوح العيال قرب قطنا حالياً ، وهي منطقة غنية بالأحجار كما أن أمطارها تسمح بنشوء الزراعة المبلدية .

لقد حدد المنقبون ثلاثة مراحل تطورية لمستوطنة تل الرماد ( الرماد I , II , III ) . المستوطنة الأولى أرخت على حوالي ٦٢٥٠ سنة ق .م . أقام سكانها في بيوت متواضعة عبارة عن أكواخ بسيوية أو دائيرية ، قطرها بين ٣ - ٤ م ، مفروسة في الأرض رصفت أرضها بالحجر أو طليت بالملاط الأبيض أو الطين وكانت جدرانها من الطين الدك والحجر . ففصلت بين هذه البيوت مساحات واسعة قامت فيها أراضيات مبلطة بالحجر ومواقد تناير ومستودعات تخزين وهناك ما يشير الى أن سقوف بعض البيوت كان مقبباً . المستوطنة الثانية في تل الرماد ، أرخت على حوالي ٥٩٥٠ سنة ق .م ، وعندما بلغت القرية أوج اتساعها وقدرت مساحتها بحوالي ٢ هكتار ومع أن مواد البناء في هذه المستوطنة لا تختلف عن سابقتها الا أن تنظيم الأبنية وأشكالها اختلف تماماً . فقد حدد هنا نمطان من البيوت ، الأول تمثله بيت صغير ، مستطيل أو مربعة راوح اضلاعها بين ٥ الى متر ، وبلغت سماكة جدرانها حوالي المتر الواحد بنيت من اللبن المقولب والمجفف أساساتها من الحجر وأراضياتها من الطين أو الحجر ولكن هذه الأرضيات ليست مطلية بالجص ، الملاط ، الأبيض . ولا بد أن مثل هذه البيوت قد ضمت عائلات كبيرة بعد أن اتسع وتعقد النسيج الاجتماعي في القرية . والنقطة الثانية مثلثة بيت صغير جدأ أنها رفيعة ( حوالي ٤٠ سم ) من الحجر واللبن ولكن أراضياتها مطلية بالجص أو بالطين ، لقد انتشرت بيوت المستوطنين الثانية في تل الرماد حول شوارع مستقيمة وساحات عامة احتوت على مواقد ومستودعات تخزين . وتدل التحاليل أن السكان قد اعتمدوا على الزراعة بشكل خاص فزرعوا القمح والشعير والعدس كما زارعوا الكتان وهو نبات بعاجة الى ري منظم مما يشير الى أنهم استطاعوا جر المياه الى حقول الكتان ولو من خلال الفوادي البسيطة .

في المرحلة الثالثة والأخيرة من حياة مستوطنة تل الرماد ، والتي ليس لدينا تاريخ دقيق حولها ولكن نعتقد أنها بدأت بعد المرحلة الثانية مباشرة واستمرت حتى حوالي منتصف الألف السادس ق .م ، في هذه المرحلة حصل تحول اقتصادي ناجم عن هام في حياة سكان المستوطنين الذين تحولوا من مجتمع زراعي مستقر الى مجتمع رعوي متقل . وهكذا تراجعت زراعة الحبوب وظهرت تربية الحيوانات

ودليلنا الى ذلك البيوت البسيطة على شكل حفر دائريه عميقه ضعيفه التنظيم والمتاهة وتصلح لاقامة موسمية ومؤقتة فقط ، اضافة الى البقايا الغزيره لعظام الماعز والغنم وغيرها من الحيوانات المدجنة . وهكذا نستطيع ومنذ ذلك المصر التحدث عن نشوء مجتمعين زراعي حضري مستقر والآخر رعوي متقل تعابيشاً وتعاملاً معًا . وهذا نمط لا زال سائد حتى يومنا هذا يمثله البدو ، الذين يعتمدون على تربية الماشي ، والحضر الذين يعيشون من الزراعة .

لقد عثرنا في تل الرماد على كميات كبيرة جداً من الآثار المنقوله والتي تعطينا فكرة عن موقع هؤلاء الناس وطبيعة أنشطتهم ، نذكر منها الأدوات العجرية الصوانية والبازلتية والكلسية كالمناجل ورؤوس النبال والمكافش والسكاكين والأجران والرحي والمدقات والبلطات والفوؤس والأواني العجرية لحفظ وتخزين الطعام والشراب وهي أواني صنعت بخاصة من الحجر الكلسي ، والغير ، بعد طعنه وتحضيره « الأواني البيضاء » ، وقد انتشرت في النصف الثاني من الألف السابع ق.م في العديد من المستوطنات المشرفة وسيقت ظهور الأواني الفخارية بقليل ولكن استخدامها تراجع واختفى مع معرفة تصنيع الفخار ، التي ظهرت بدءاً من المستوطنة الثانية في تل الرماد حيث ساد نمط من الأواني الفخارية ذات اللون القاتم المصقول المسمى فخار العمق<sup>(٢)</sup> ويعتقد أنه مروراً بتل الرماد انتقل هذا الفخار جنوباً إلى فلسطين . وهناك أدوات عظيمة عديدة كالمخازن والابر والملاعق والاشاطر وغيرها من الأمور التي تدل على مجتمع تمكّن من انتاج كل ما يحتاج .

بعد أن هجرت مستوطنة تل الرماد نشأت مستوطنة جديدة في تل الغرامي إلى الشمال من تل أسود في غوطة دمشق ، سكنت خلال النصف الثاني للألف الخامس ق.م . لقد أظهرت الأسبار وجود قرية بيتها صغيرة مستطيلة من اللبن كما كشف عن كميات كبيرة من الفخار الفاتح اللون والمطلبي بالملاظ الأحمر والمزخرف بالعجز : وقد ساد هذا النوع من الفخار في العديد من المناطق المشرقية في لبنان وفلسطين بخاصة . وهناك أيضاً الأدوات العجرية ، وأهمها المناجل والعديد من التماثيل البشرية والحيوانية من الطين والكرات والأقراص والمقاييس وما إلى ذلك .

## فنون ومعتقدات المزارعين الأوائل في حوضة دمشق :

لقد عشنا في قرى المزارعين الأوائل في حوضة دمشق على ما يؤكد أن هؤلاء الناس قد تخطوا في نشاطهم اليومي مجرد تأمين الحاجات المادية المباشرة ، من طعام أو شراب ، لأفراد مجتمعهم ، ليكتنوا بأمور الفكر والفن والروح أيضاً . فهناك الحلي والمدمى والتماضيل والقبور التي تعكس نظام شعائرهم ومعتقداتهم . ونعن نلجم إلى تلك الوثائق الأثرية التي تدلنا ، وإن بشكل غير مباشر ، على عالمهم الروحي فهم أنفسهم لم يكتبوا ولم يدونوا أي شيء عن أفكارهم ومعتقداتهم . بل أننا لا نعرف أسماءهم ولا أسماء قراهم أو آلهتهم ولكننا نعتقد أنها الأصل الذي أتت منه معتقدات شعوب الشرق القديم المدونة بالخطوط المسماوية . لقد صور هؤلاء الناس حيواناتهم التي دجعواها ، صنعواها من اللبن المشوي بالثار أو المجفف أو العجر . وجسّدت البقر والماعز والغنم والغزال والخنزير ، تكرر بينها الثور وقروه كثيراً ومن هنا تتحدث عن «الثور المقدس» وعبادة الثور منذ مطلع الألف الثامن ق.م . هذه الحيوانات جسدها سكان تل أسود وتل الفريقة وتل الرماد وتل الغرامي في كل مراحيل مراحل مستوطناتهم . كما جسد هؤلاء أنفسهم ولمل أروع ما أطعاه سكان تل أسود (المرحلة الثانية) هو التماضيل البشرية ، طولها بين ٣ - ٦ سم ، بعضها واقمي وعبر جداً تظهر فيه المرأة «الآلهة» جالسة، وركها وأعضاؤها التناسلية مضخمة صدرها بارز ترفعه بيدها ، وهي غالباً بلا رأس أو بلا نهايات لأطرافها لأن التركيز انصب على مراكز الأمومة والجنس . وهناك تماثيل أخرى ببسطة عبارة عن أفخاذ عليها رأس مختزل أنفه كتلة صغيرة وعيونه حفرة ولا إشارة للقلم ولا للأذان على الرأس عصبة تلفه تشبه «العقل» . ومن تل أسود وتل الرماد أيضاً أتت تماثيل عبارة عن عصبي متطاولة أو ذات أشكال غريبة لا تستطيع تحديدها معالها بسهولة . ومهما يكن فهذا دليل آخر على عقيدة «الآلهة الأم» التي استمرت زمناً طويلاً لدى مجتمعات الشرق القديم دون أن نعلم أن جذورها تقع في قرى المزارعين الأوائل منذ الألف الثامن ق.م . وهي الأصل الذي أتت منه عشتار أو أفروديت وفينيوس<sup>(٨)</sup> .

لقد دفن الموتى وفق شعائر محددة ، في تل أسود ، غالباً ما كانت الجماجم عن الأجسام التي دفنت مثنية ومطلية بالغرة العمراء مما يشير إلى عنيدة معينة أعارت

الجامجم ، الرؤوس ، مركز العقل والروح ، اهتماماً خاصاً . وقد تجلى ذلك واضحاً في مستوطنة تل الرماد الأولى والثانية ، حيث وجد العديد من الجمامجم البشرية ، معظمها يعود لفتيات يانعات ، وقد فصلت عن الأجساد وكشط لعمها وخلعت أسنانها وتم طليها بالملاط الكلاسيكي الأبيض المحضر ، بشكل خاص كمادة تعنفط وبشكل أعاد تصوير ملامح الوجه فظهرت العيون وقد أشير لها بكلس أكثر بياضاً كما ظهرت تفاصيم الفك الأسفل والرقبة وطلبي الرأس بالمفرأة العمراء إشارة للشعر على ما يبدو . لقد وجدت جمامجم تل الرماد على شكل مجموعات ، ثلاث مجموعات منها كانت مطمورة في الأرض مقابل جدران أحد البيوت . ولكن أهمها كانت « طميرة » ضمنت حوالي اثنى عشرة جمجمة مقولبة ، أي مطلية بالكلسي ، ووزع على شكل مجموعات أصغر ضمن حفرة منتظمة بضوئية الشكل جدرانها من اللبن والأواتي البيضاء وقد رافقت هذه الجمامجم تماثيل من الطين بلغ ارتفاع بعضها حوالي العشرين سنتيمتراً ، تمثل أشخاصاً جالسين ، لها رقبة شكلها الأسطواني و نهايتها مسطحة من أجل أن توضع عليها الجمامجم المقولبة ، على ما نعتقد ، وذلك من خلال ترافق هذه التماثيل مع الجمامجم في أكثر من مكان .

لقد جرى نقاش طويلاً حول دور مثل هذه الجمامجم وهل تدرج في إطار عملية بناء البيوت أي أنها « وداع تأسيس » تبارك البناء وتقويه . أم أنها تجسيد لحضور الأمواط بين الأحياء واستمرار حياة الأجداد والأباء بين الأحفاد والأبناء أم غير ذلك . ومهما يكن فان جمامجم تل الرماد ، وبالخصوص المقولبة منها والمترافق مع التماثيل ، كانت أثاثاً دينياً متزلياً تستعمل أثناء الشعائر الدينية فقط ، ثم يعاد حفظها في مكان مأمون ، وهي تدل على عقيدة « تقديس الأجداد » أو « تقديس الجمامجم » التي انتشرت على مساحة واسعة في الآلف السابع ق.م . لدى المجتمعات الزراعية في بلاد الشام ، ولعبت دوراً جنائرياً في اجلال الأمواط وتأكيد حضورهم ومباركتهم للأحياء وفي الرابط بين الموت والحياة<sup>(٤)</sup> .

ومن بقاياهم أيضاً تعرف أنهم أحبو الزينة والظهور بالشكل الجميل فقد وجدت في كل المستوطنات الزراعية النيولينية أدوات زينة وحلبي غزيرة ومنوعة كالخرز ، والأطواق ، والعلق والأساور والقلادات وقد صنعت من أحجار نادرة وثمينة بعد أن استوردوها من مناطق بعيدة وأجادوا من صقلها

وثيقها وغير ذلك . وهكذا نجد الموارد المصنوعة من أحجار الألباتر والكورنالين والسربيتين والشيت والستيابت والهيماتيت والابوسيديان والصدف والمعاج والعظم والقواقع . بل وجدت في تل الرماد خزنة من النحاس الذي أظهرت التعاليل أن أصله يعود إلى منطقة ارغانلي في جنوب شرق تركيا وكل ذلك دليل علاقات وتبادلات تجارية وحضارية بعيدة المدى .

خاتمة :

لقد وصل الإنسان الأول إلى حوض دمشق منذ حوالي المليون عام ولكننا لا نعرف الكثير عن هؤلاء البشر الذين توضحت صورتهم مع مرور الزمن . إن مرحلة الاستيطان الأهم بدأت في هذه المنطقة منذ الآلف الثامن ق.م. عندما اهتم الناس إلى البناء والزراعة والتدجين فنشأت مستوطنة تل أسود تلتها مستوطنة الغريقة ثم مستوطنة تل الرماد ثم تل الغرامي وما أن حل الآلف الرابع حتى دخلت المنطقة في العصر العجري النحاسي الذي ازدهرت فيه الحضارة الفسولية والتي بانتهاها انتهت عصورها قبل التاريخ وبأنهت العصور التاريخية القديمة وذلك منذ مطلع الآلف الثامن ق.م .

إن هذه الصورة ل渥حة دمشق هي جزء لا يتجزأ من لوحة أكبر مسرحها بلاد الشام كلها لأن تاريخ الإنسان والحضارة في هذه البلاد قد تكاملوا ومنذ البداية . ففي الوقت الذي وصل فيه الهوآرلتون الأول إلى وادي بردى كانت وديان الأردن والمليطاني وال العاصي والفرات مسكنة من قبل النوع ذاته من البشر . كما أن البيناندرتال انتشر على كل المناطق الجغرافية الساحلية والداخلية والصحراوية في بلاد الشام والشرق . وعرفت هذه البلاد مرحلة متشابهة من الفقر الحضاري الذي تلا انقراض البيناندرتال لتعود لها من جديد العيوبية والانسان وتنشأ فيها المجتمعات المستقرة والقرى الزراعية الأولى ، وفي الوقت ذاته تقريباً ، من وادي الفرات في الشمال مروراً ب渥حة دمشق في الوسط وحتى وادي الأردن في الجنوب ، حيث عاشت مجتمعات واحدة لها ليس فقط النشاط الاقتصادي نفسه وإنما اعتمدت الشعائر والمعتقدات ذاتها مجسدة وحدة حضارية هي الأكثر وضوحاً والأبكر ظهوراً في التاريخ ، بل أن هذه المجتمعات كانت تنتهي في صفاتها الانتropولوجية إلى العرق المتوسطي التنديل ذاته الذي سكن بلاد الشام منذ العصر العجري الحديث (١٠) .

□ المسواني :

١ - قال البر خبير تربة ندى الحكومة السورية في الخمسينات ولكنه كان منهمكاً جداً بدراسات المصور العبرية وقد استفاد من تنقله في مختلف مناطق القطر وحصل على معلومات مختلفة ، بعضها يعاد النظر فيه الآن ، ولكنها فتحت عين الكثرين على أهمية دراسات تلك المصور في سورية وقد نشر كتاباً صغيراً هو :

W. Y. Van Liere 1960 - 1961, *Observations on the Quaternary of Syria*.  
ملاحظات عن الرياحي السوري . منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف بدمشق .

٢ - انظر : Potut, L. 1937, *La prehistoire de la region de Damas*, B.S.P.F. 34, p. 130-132.

٣ - قال البر نفس المرجع رقم ١ . ظهر العديد من الكتب والمؤلفات التي تناولت ظاهرة الزراعة من حيث مكان وزمان وكيفية نشوئها وأسبابها التي دفعت لها وتبادر الأراء حول هذا الموضوع من باحث آخر ، ولكن الاجتماع قائم على أن بلاد الشام هي موطن الزراعة الأول . انظر :

Redman, Ch. 1978, *The rise of civilisation*, San-Fransisco : Freeman.

Cauvin, J. 1978, *Les premiers villages de Syrie - Palestine, du IXème au VIIème au millénaire avant J. C.* Lyon Maison de l'Orient.

Henry, D. 1989, *From foraging to giculture*, Philadelphia U.S.A.

وتدل الأدلة على أن جملة شروط بيئية وحضارية قد توفرت في بلاد الشام منذ الآلت التاسع ق.م. ساهمت في الانتقال نحو الزراعة وتدجين الحيوانات قبل مناطق عالمية أخرى .

٤ - عمل السيد هنري دي كونتنسون ( H. de Contenson ) في حوض دمشق بين أعوام ١٩٦٣ - ١٩٧٤ ونشر تقارير أولية عن أعماله في عدة مجلات علمية بينها مجلة العوليات الآثرية العربية السورية ، ولكن حتى الآن لم ينشر الدراسة النهائية لهذه الأعمال .

٥ - انظر : Zeist, W. Von and Y. A. H. Bakker - Harris 1949 *Some economic and ecological aspects of plant husbandry of Tell Aswad*. Paleorient 5: 161 - 180.

٦ - كان الباحث الأمريكي روبرت بريدوود أول من درس منطقة العمق في شمال سوريا بحثاً من أصل الزراعة ونقب في عدة تلال لأهمها تل الجديدة حيث تعرف على مختلف مراحل تطور الآلاني التخاري منذ الآلت السادس ق.م. وحتى المصور العربية الإسلامية ومن أهم منشوراته حول هذه الأعمال :

Braidwood, R. Y. and L. S. Braidwood, 1960, *Excavations in the Plain of Antioch*, Oriental Institute publications Nr. 61. Chicagu University Press.

٧ - انظر :

Cauvin, J. 1987, *l'Apparition des Premières divinités la Recherche nr. 194, Vol. 18, p. 1472 - 1480.*

٨ - انظر :

Cauvin, J. 1972, *Religions Neolithique de Syro-Palestine*, Paris, Maison neuve.

وهو مترجم إلى العربية بعنوان : ديانات المصور العبري الحديث في بلاد الشام . دار دمشق .

٩ - ترجمة : سلطان معيسن \*

١٠ - انظر :

Ferombach, D. 1973, *l'Evolution Humaine au Proche - Orient*, Paleorient 12, p. 213 - 221.

# دمشق

## في العصر البيزنطي

بشير زهدي

### لمحة تاريخية موجزة عن عصر الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) :

اعتبر بعض المؤرخين بداية تاريخ الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) في عهد الامبراطور (قسطنطين الكبير ٢٧٤ - ٣٣٧) الذي أسس مدينة (روما الجديدة) في موقع (بيزنطة) في ١١ مايس ٣٣٠ م دون أن يكون هناك أية قطعية بين (روما) و(القسطنطينية) اللتين اعتبرت كل منهما متممة للأخرى طوال ثلاثة قرون. وكانت أزمات القرن الثالث قد قلبـت أسس الامبراطورية الرومانية وأوضحت خطر غزوـات البرابرة والجرمان . فكان لا بد للامبراطوريـن (ديوكليسيـان) و (قسطنطـين) من القيام جديـاً باصلاح عام . وكان الامبراطور عـصرـئـيـ كالـرب يـعـدـ بـطـقوـسـ شـرقـيـةـ . وكانت الامبراطورية الرومانية تحكمـها سـلـالـةـ حـاكـمـةـ حـكـمـاـتـلـقاـ . وقد ظـهـرـتـ مشـاـكـلـ الدـافـاعـ عنـ الحـدـودـ الـامـبـراـطـوـرـيـةـ ، وـقـضـاـيـاـوـرـاثـةـ العـرـشـ ٠٠٠ـ وـضـرـورـةـ الـحـكـمـ الـرـبـاعـيـ (اوـغـسـتـانـ ، وـقـيـصـرـانـ) لـلـامـبـراـطـوـرـيـةـ الـرـومـانـيـةـ فـيـ الشـرـقـ وـالـفـرـقـ . ولكن الـامـبـراـطـوـرـ (قـسـطـنـطـينـ الـكـبـيرـ) اـسـطـاعـ أـنـ يـعـتـكـرـ السـلـطـةـ مـصـلـعـتـهـ ، وـيـصـبـحـ سـيدـ الغـرـبـ بدـ اـنـتـصـارـهـ عـلـىـ خـصـمـهـ الـامـبـراـطـوـرـ (ماـكـسـانـسـ) فـيـ (بوـنـتـ مـيلـفـيـوسـ)

\* أمين المتحف الوطني بدمشق وأستاذ معاشر في جامعة دمشق .

عند أسوار روما في عام ٣١٢ ، ويصبح سيد الشرق بعد انتصاره على خصمه (ليكينيوس) واستطاع أن يجعل الامبراطورية الرومانية ذات طابع مسيحي وشرقي . وكان صهر الامبراطور ديوكليسيان (جاليز ٣١١-٣٠٥) قد حرص على اعلان التسامح Edit de Tolérance عام ٣١١ . وأصدر قسطنطين اعلان ميلان Edit de Milan الذي تقررت به حرية العبادة . والجدير بالذكر أن المؤرخين يذكرون أن قسطنطين بينما كان متوجهًا في حملته العربية ضد خصمه (ماكسانس) ظهر له في الفضاء صليب مع عبارة ( In hoc signo vinces ) ما يشير إلى هذه العلامة فرسم شارة (الصلب) على ( رايته Labarum ) . وهناك من يذكر اعتناق المسيحية في نحو عام ٣٢٢ في حين أن الآخرين من المؤرخين يتعدّثون عن ميله إلى المسيحية منذ عام ٣٢٠ وتميمده قبيل وفاته . وعند وفاته اعتبرته الكنيسة أحد قدسيها . وفي الواقع اعترف بال المسيحية كديانة شرعية ومنحها امتيازات جعلتها قوية فقضت على الوثنية نهائياً . وهكذا استلم قسطنطين الامبراطورية الرومانية وثنية فجعلها مسيحية . واعتبر المؤرخون تأسيس مدينة روما الجديدة (القسطنطينية) حدثاً تاريخياً بارزاً . ورغم أنه لم يحرم (روما) من مكانتها ، فإنها لم تعد العاصمة الفعلية بعدما جعل منها عاصمة ثانية (روما الجديدة - القسطنطينية) تمثل الحياة والمستقبل ، مقابل الانحطاط والماضي ... مما أكَدَ انتصار الشرق على الغرب ، وبُشِّرَ بظهور حضارة جديدة .

ويلاحظ المؤرخون بين عهد (قسطنطين الكبير) وعهد (جوستينيان الأول) ظهور عهدين هامين أيضاً هما :

- عهد الامبراطور (تيودوس الأول الكبير ٣٧٩ - ٣٩٥) الذي اعتبر آخر امبراطور يحكم فعلاً الامبراطورية الرومانية في الشرق والغرب .
- عهد الامبراطور (تيودوس الثاني) الذي وسَعَ العاصمة القسطنطينية وجعلها عاصمة الثقافة بعدما أسس فيها جامعة تضم واحداً وثلاثين كرسيًّا جامعياً وتدرس اليونانية واللاتينية .

ويلاحظ تزايد معارضه الشرق والغرب وبخاصة بعدما تمركزت في الشرق القوى الحقيقة المختلفة الفعالة ، وغدا مركز الثقافة والفعاليات المختلفة ، ويضم

المقاطعات الفنية والمنتجة ٠٠٠ الخ ( او سايبوس ٢٦٥ - ٣٤٠ ) قد تشق في انطاكية السورية وأصبح صديق الامبراطور قسطنطين ، وعرف كأول مؤرخ كنسى ، ويعود اليه وصف ظهور المسيحية وعلاقتها بالدولة . وفي عام ١٣٨٦ انتقل القديس ( ايرونيموس ) ( ٤٢٠ - ٣١٥ ) الى بادية الشام ليعيش حياة العزلة ،فاعتبر ذلك بمثابة إسهام في ادخال حياة ( الرهبنة ) الى سوريا ، وتأكيد للاعتقاد بأن في جمال القيم الروحية ما يحبب المرء بالاعتزال عن هذا العالم الفاني ، والاستشهاد في سبيل هذه القيم الروحية ٠٠٠ ) .

بعد وفاة الامبراطور ( تيودوس الأول الكبير ) عام ٣٩٥ م . ظهر بوضوح انقسام الامبراطورية الرومانية الى امبراطورية رومانية غربية يحكمها ابنه ( هونوريوس ) وامبراطورية رومانية شرقية ( بيزنطية ) يحكمها ابنه الآخر ( اركاديوس ٣٩٥ - ٤٠٥ ) .

إذا كان ( قسطنطين الكبير ) أسس امبراطورية بيزنطية ذات طابع شرقي ومسيحى ، فان على خلفائه حتى عهد الامبراطور ( جوستينيان ) الدفاع عن المسيحية ضد النظريات المختلفة الدينية المتعلقة بطبيعة السيد المسيح ، والجدير بالذكر أن تلك الشخصيات لم تكن لأسباب دينية بحتة ، لأنها كانت تتضمن في الواقع أهدافاً ومدلولات سياسية . وهكذا فقد ظهر صراع القسطنطينية والمقاطعات اليونانية من جهة ، والمقاطعات التي تبنت مذهب الطبيعة الواحدة ( أي سورية و مصر ) . وقد عقدت مجامع دينية كنسية مختلفة في ( القسطنطينية ) عام ٣٨١ لمواجهة الاريانية ، وفي ( اييفيز ) عام ٤٣١ لمعالجة أنكار نسطوريوس وفي ( خلقيدونيا ) عام ٤٥١ للبحث في آراء المقايلين بالطبيعة الواحدة ( المونوفيزيين ) ، مما أوضح ما وصلت اليه علاقات الشرق بالغرب ، وعلاقة البابا بالامبراطورية البيزنطية ، وعلاقة الامبراطورية البيزنطية بسوريا ومصر . وكان من نتائج المجمع الديني في خلقيدونيا عام ٤٥١ م نمو الشعور الوطني والقومي في سورية متذمراً مظهراً دينياً وانضم الى أتباع هذا المذهب في وقت قصير كثير من الناقمين على سياسة الامبراطورية البيزنطية حتى غداً مذهبهم الديني يعبر عن وعي قومي

وشعور وطني واتجاه البلاد نحو الاستقلال . . . . . مما لفت أنظار البيزنطيين الى خطر نتائج خطأ سياستهم . فحاول الامبراطور ( زينون ٤٧٤ - ٤٩١ ) كسب عطف السوريين والمصريين ، ووضع حد لاستيائهم ، فأصدر مرسومه Henoticon عام ٤٨٢ ولكن ذلك كان بدون جدوى . واستمر الامبراطور ( انسطناس ٤٩١ - ٥١٨ ) على ترضية أتباع مذهب القائلين بالطبيعة الواحدة ولكن بدون جدوى .

وكان العرب الفاسنة الذين غادروا بلادهم اليمنية بعد خراب سد مأرب ، واتجهوا شمالاً الى سوريا ، فالتقوا باخوانهم العرب من قبيلة بنى سليم وغيرهم . واعتبروا أنفسهم خلفاء وورثة العرب الأنبياء والتدميريين بعدهما أصبحوا أكبر وأقوى قبائل بادية الشام . امتدت منازلهم من المقبة جنوباً حتى الرصافة شماليـاً فمهـد اليـهم الروـم الـبيـزنـطيـون بـهمـةـ الدـفـاعـ عنـ الـبـادـيـةـ وـنـشـرـ الـآـمـنـ فـيـهاـ وـتـأـمـنـ الـعـامـيـةـ لـهـاـ . فـعـقـقـ الـعـربـ الـفـاسـنـةـ كـلـ ذـلـكـ . وـوـجـدـواـ فيـ الـمـسـيـحـيـةـ مـاـ جـذـبـهـمـ إـلـيـهـاـ وـحـلـهـمـ عـلـىـ اـعـتـنـاقـهـاـ فـصـارـوـاـ مـنـ أـقـوـىـ الـمـؤـيـدـيـنـ لـمـذـهـبـ الطـبـيـعـةـ الـوـاحـدـةـ .

وعندما عهد الامبراطور ( جوستينيوس الأول ) الى ابن أخيه ( جوستينيان ) بمهمة حرية لقتال الساسانيين ، من الأمير ( جوستينيان ) بمدينة منبع السورية التي كان فيها رجل صالح له ابنة اسمها ( تيودورا ) تميزت بجمال الملامح ، وكثرة الذكاء ، والأخلاق الفاضلة . . . . حتى قيل عنها . . . . من المستحبيل أن يصف انسان ما جمال صورتها في كلمات ، أو يصوره في آية من آيات الفن ) . . . . مما يفسر ولع ( جوستينيان ) بها ، وطلبـهـ يـدـهاـ مـنـ أـبـيهـ الـذـيـ وـافـقـ بـشـروـطـ أـهـمـهـاـ عـاـفـظـهـاـ عـلـىـ مـذـهـبـهـاـ . . . . وـتـمـ هـذـاـ الزـوـاجـ فـعـلـاـ فـيـ عـامـ ٥٢٦ـ مـ . . . . وـوـافـقـ عـلـيـهـ أـخـرـأـ عـمـهـ الـإـمـبـاطـورـ ( جـوـسـتـيـنـيوـسـ الـأـوـلـ ) الـذـيـ مـنـحـ ( تـيـوـدـورـاـ ) لـقـبـ ( بـطـرـيـقـ ) . . . . فـانـطـلـقـتـ الـسـنـةـ الـعـاـقـدـيـنـ وـالـعـاـسـيـدـيـنـ وـالـفـاسـدـيـنـ فـيـ اـخـتـلـاقـ الـأـبـاطـيلـ الـتـيـ تـشـوـهـ سـمعـتـهاـ وـحـقـيقـةـ بـيـئـتـهاـ الصـالـحةـ . . . . فـيـ حـينـ أـنـ التـارـيخـ سـجـلـ لـهـاـ صـفـحـاتـ مـجـيدـةـ وـخـالـدـةـ تـعـدـتـ عـنـ سـمـوـ تـفـكـيرـهـاـ وـرـجـاـحـةـ عـقـلـهـاـ مـاـ جـعـلـهـاـ فـيـ طـلـيـعـةـ مـسـتـشـارـيـ زـوـجـهـاـ الـإـمـبـاطـورـ ( جـوـسـتـيـنـيانـ ) وـهـيـ الـتـيـ أـنـقـذـتـ بـشـجـاعـتـهـاـ وـجـرـأـتـهـاـ الـأـدـبـيـةـ عـرـشـهـ عـنـدـمـاـ اـنـدـلـعـتـ ثـوـرـةـ الـعـزـيـزـ ( حـزـبـ الـأـخـضـرـ ) الـذـيـ كـانـ يـضـمـ أـتـبـاعـ الـإـمـبـاطـورـ الـبـيـزنـطـيـ الـسـابـقـ ( اـنـسـطـنـاسـ ) ، وـ ( حـزـبـ الـزـرـقـ ) الـذـيـ كـانـ يـتـظـاهـرـ

باتبيده لأسرة الامبراطور ( جوستينيان ) الحاكمة . وبلغت هذه الثورة من الخطورة درجة جعلت العاشية تنصح الامبراطور (جوستينيان) بالفرار والنجاة بعدما نادى المتمردون بـ ( هيبياتيوس ) اميراطوراً . فالفتت ( تيودورا ) الى زوجها (جوستينيان) قائلة قولها المأثور : ( ٠٠٠ ان كل رجل لا بد له أن يموت ميتة واحدة . والموت للملك أفضل من العزل والنفي . . . . أيها الامبراطور : اذا أردت أن تنقذ حياتك ، فليس هناك شيء أسهل من ذلك ، فلديك سفنك ولديك البحر . أما أنا ، فاني أواقف على القول القديم : الامبراطورية أحسن كفن للموتى . . . ) فتأثر زوجها (جوستينيان) بكلماتها وعباراتها الشجاعية ، فأصدر أوامره لقائده (بليسياريوس) بالصمود والهجوم على المتمردين والقضاء عليهم . . . وكان مهتماً بتحقيق وحدة الامبراطورية الرومانية والشرقية ، وانقاد مقاطعاتها من البراءة ، وقد نجح الى حد ما في استعادة افريقيا وقسم من اسبانيا . والقضاء على عدوان ( الاوستروجوتين ) في ايطاليا . . . مما لفت نظر كسرى الذي أخذ يعد كل ما يلزم للهجوم على الامبراطورية البيزنطية وتأكيد سيادته على الشرق . وبعدما كان الهجوم الساساني الأول قد صدته قوات القائد (بليسياريوس) فان الساسانيين جددوا هجومهم عام ٥٤٠ م في عهد ( كسرى الأول انوشروان ٥٢١ - ٥٧٩ ) . وكان ( العارث الثاني بن جبلة الفساني ٥٢٩ - ٥٦٩ ) قد حارب ( المنذر الثالث ) ملك الحيرة عام ٥٢٨ م بيسالة لفت انتظار الامبراطور ، وأثارت اعجابه فمنعه لقب ( فيلارك ) و ( بطريق ) . . . وبعد ما تحمل كسرى الخسائر الكبيرة في حملته العداونية على الراها ، وافق على وضع حد للحرب عام ٥٤٥ م كما قبل (جوستينيان) بدفع مبلغ كبير من الذهب . وفي عام ٥٦٣ لبي العارث الثاني دعوة الامبراطور ( جوستينيان ) لزيارة ( القدسية ) التي استقبل فيها بحفاوة كبيرة . وظهر بين البيزنطيين بملابس الرغبية الزاهية والجميلة والمميزة ، ومظهره العربي المهيب . . . مما لفت الانتظار اليه ، وأثار الانتباه نحوه ، وترك الأثر القوي في نفوس الجميع مدة طويلة ، حتى ان موظفي البلاط كانوا يهدئون الأمير الصغير (جوستينوس) بقولهم : ( اسكت ، والا استدعينا العارث . . . )

وكانت ( تيودورا ) من أتباع ( مذهب الطبيعة الواحدة ) الذي استطاع أن يجد المطاف والراغبة والعمية طوال حياتها . وقد قابلا الملك الفساني الذي كانت زيارته للبلاط البيزنطي خير مناسبة لدعم هذا المذهب ، وتعيين ( يعقوب البرادعي ) أسقفاً لكنيسة القائلين بالطبيعة الواحدة . وكان ( جوستينيان ) أمر بإعداد مجموعة القوانين ( دايجاست الموجز ) التي اعتبرت بمثابة ( المعبد المقدس للعدالة ) .

اعتبر المؤرخون عظمة الامبراطور جوستينيان في القرن السادس مثل عظمة مبني كنيسة القديسة صوفيا ، وشبها الإزدهار في عهده بازدهار آثينا في عهد الملك بيريكليس . تميز بحسبه الامبراطوري للعظمة ، اهتم بالقرب والماضي ، وحرص على وحدة الامبراطورية الرومانية الشرقية والمغاربية ، وبدل في سبيل ذلك الجهود والأموال مما أضعف القسم العي القوي في امبراطوريته . وكانت زوجته الامبراطورة المنجية ( تيودورا ) تعتبر طموحة الكبير بمثابة ( سراب غربي Mirage occidental ) وأن المهم هو المقاطعات الشرقية ووجوب الاهتمام بها . فتوفيت متمسكة برأيها ، في حين أن زوجها ( جوستينيان ) اضطر إلى فرض الضرائب وبيع الموارد . . . ومارست سياسة العنف والحكم المطلق في سبيل فرض المعتقد الواحد . واستطاعت الدبلوماسية البيزنطية أن تدفع خطير البرابرة عن الامبراطورية . ولكن وفاته أظهرت أخطاء سياساته . لقد أثار تزايد نفوذ العرب الفسasseنة حذر البيزنطيين وتحولوا إلى جفاء وعداء . وتأثير ( المندن ابن العارث الفساني ) من سوء نوايا الامبراطور ( جوستينوس الثاني ) تجاه العرب الفسasseنة . ولكن الأخطر الخارجي حملت الطرفين على توسيعة خلافاتهما في عهد الامبراطور الجديد ( تيبريوس الثاني ٥٧٨ - ٥٨٢ ) . واستمر الفرس على شن غاراتهم المدينة منذ عام ٥٧٢ في عهد كسرى الثاني والملوك البيزنطيين (جوستينيوس الثاني) و ( تيبريوس الثاني ) و ( مورياس ٥٨٢ - ٦٠٢ ) . وقد اضطر كسرى كسرى لعقد الصلح مع الامبراطور البيزنطي (مورياس) نتيجة اندلاع حرب أهلية في بلاده وعندما اعتلى العرش البيزنطي ( فوكاس ٦٠٢ - ٦١٠ ) بدأ عهده بسلسلة من أعمال العنف والفتوك بأصدقاء أسلامه وعندما عاد ( كسرى الثاني ) إلى سياسة الهجوم مكتسحاً سورياً مخرجاً مدنها عام ٦٠٨ م

اتجه القائد ( هرقل ) الى القسطنطينية التي توج فيها امبراطوراً في ١٥ تشرين الأول ٦٦١ في فترة حرجة . وكان الساسانيون قد حكموا ( المعايرة ) بعد وفاة ( النعمان ) فثار العرب ضدّهم وضدّ عميلهم ( اياس بن قبيصة ٦٠٢ - ٦٦١ ) فكان أعظم انتصار حققه العرب على الساسانيين في معركة ( ذي قار ) الشهيرة .

اتجه القائد الساساني ( شهربرز ) الى سوريا الوسطى عام ٦١٣ فاستولى على اقاميا وهدمها كما هدم انطاكيه ، واستطاع أن يستولي على دمشق ويعتليها . ثم تابع زحفه نحو مدينة ( بيت المقدس ) التي استولى عليها ، وسلب خشبة ( الصليب المقدس ) التي كانت تعتبر أثمن شيء في هذه الحياة الدنيا .

كانت الامبراطورية البيزنطية قد أصبت بالضعف منذ عام ٥٥٦ م وقد كثرت الضرائب وحدثت الزلازل وانتشر المرض وأصبح المواطنون في حالة يأس وبوس . واعتبروا كارثة هذا العدوان والمعاناة المتعددة الميادين بمثابة دلالة على قرب انتهاء الحياة .

وجه ( كسرى ) الى الامبراطور ( هرقل ) رسالة تفاصيل بالغرة والكبراء بل والوقاحة ، مما جعل الامبراطور ( هرقل ) يقسم أن يسير الى ميدان القتال بنفسه على رأس قواته المحاربة . فاهاجم منذ عام ٦٢٢ م بقتال الساساسيين وشن ست حملات حربية دامت حتى عام ٦٢٧ م انتهت بهزيمة الساساسيين وانسحبوا للدفاع عن عاصمتهم ، في وقت استطاع فيه ( هرقل ) أن يحرق معابد النار في عاصمة ميديا ومدينة ( زردشت ) .

عاد ( هرقل ) الى سوريا وعاد اليها الحكم البيزنطي بكل مساوئه . وكانت التساؤلات تتعدد : من سيكون من جديد سيد العالم ولم يكن هناك من يتوقع بأن القبائل العربية المقاتلة فيما بينها ستتوحد لها دعوة محمد صلوات الله عليه الى الایمان بالغالق العظيم وكتبه المقدسة وأنبيائه المرسلين ، في فترة بلغ فيها استياء المواطنين درجة جعلتهم يعتبرون أعمال الساسانيين والبيزنطيين بمثابة أعمال قطاع الطرق . وقد تفتنوا في أعمال السلب والنهب ، والظلم والجور ، والقتل والفتوك . . . . فوجد السوريون في قوة أبناء عروبتهم خلاصاً من يأس نفسي ، وتحرراً من ظلم أجنبي .

لم ينتبه البيزنطيون الى أبناء العملات العربية الاسلامية ، وظنواها كالغزوات العابرة السابقة . واستطاع خالد بن الوليد أن يعتاز ارض فلسطين

متوجهًا نحو الشمال بطريق الجولان ، وحاول البيزنطيون التمركز والصمود في شمال الصنمين في مرج الصفر بدون جدوى . وعندما وصلوا إلى دمشق في محرم ١٤ هـ / ٦٣٥ م فوجئوا بالعرب المسلمين على أبواب دمشق يحاصرون المدينة ويحولون وصول الإمدادات إلى أعدائهم ، وقد نصب خالد بن الوليد معسكراً قرب الباب الشرقي وجامع الشیخ رسان حالياً . كان المواطنون ينفرون من الحكم البيزنطي ، مما يفسر دعم المواطنین السوریین لأنباء عن وباهم العرب المسلمين ، وقيام وفد من وجهاء دمشق برأسمهم الأسقف والمراقب العام للمالية ( منصور بن سرجون والد القديس يوحنا الدمشقي الشهور ) ٠٠٠ وجرت المحادثات لحماية المواطنین من آلام ومعاناة ٠٠٠ ويتحدث المؤرخون عن فتح خالد ابن الوليد مدينة دمشق ودخوله الباب الشرقي ولقائه مع أبي عبيدة الجراح في منتصف الشارع المستقيم في قصر البريص الفساني في جوار كنيسة المقلسط ٠٠٠ في شهر رجب عام ١٤ هـ / ٦٣٥ ، وانسحب البيزنطيون إلى جهة الشمال ٠٠٠ كما تحدث المؤرخون عن تفاني المقاتل العربي طالباً الاستشهاد ، في حين أن المقاتل البيزنطي كان يحارب دون حماس ، وبروح لا مبالاة ٠٠٠ وكان المقاتلون العرب في معركة اليرموك ينتصرون على خصومهم البيزنطيين بحماس لم يعرف التاريخ العربي ٠٠٠ وبعد هزائم البيزنطيين المتتابعة ، أدرك ( هرقل ) الحقيقة ، وشعر باليأس مما جعله ينسحب أخيراً من سوريا ويودعها بكلمات يأس ذكرها المؤرخون ٠ وقد علق المرحوم أغناطيوس يعقوب الثالث على موضوع تحرير سوريا من الحكم البيزنطي قائلاً: هكذا أفل نجم هرقل المضطهد من سماء سوريا غير مأسوف عليه ٠٠٠ الخ ٠٠٠ فشهدت دمشق وسوريا وأقطار الوطن العربي عهداً جديداً وحضارة جديدة تعتبر أحدى العحضرات العالمية ٠

لم نشهد في العصر البيزنطي أي تنظيم عمراني يذكر ٠ وبقيت دمشق كما كانت في العصر الروماني تضم المدينة القديمة الآرامية والعى المكدوني الجديد يحيط بهما سور تبلغ أبعاده ( ١٥٠٠ × ٧٥٠ م ) ٠ وهناك أقنية مياه ، وقصر - قلعة في الزاوية الشمالية الغربية ، وأبواب جميلة ومنيعة ، وشارعان رئيسان يجتازان المدينة من الشرق إلى الغرب ( Decumanus ) عرف باسم الشارع المستقيم ، وشارع آخر يصل المعبد بالساحة العامة ( الآجورا - الفوروم ) . وهناك الملعب هيبودروم ) مكان المرج، والسيرك ( مكان شارع بغداد ) ٠

ظهر في العصر البيزنطي عنصر معماري جديد هو ( الكنيسة ) . وإذا كانت دمشق - مثل انطاكية ودورا اوروبوس - شهدت الكنيسة السكنية عندما كان عدد المسيحيين من مواطنها قليلاً ، مساجلهم يستخدمون أحد مساكنهم ككنيسة سكنية ، فان المرحلة التالية تطلبت تحويل المآباد الوثنية ( مثل معبد جوبيتр الدمشقي ) الى كنيسة عرفت باسم ( كنيسة يوحنا المعمدان ) . وخلدوا السيدة مريم العذراء بتشييد مبني الكنيسة المريمية التي تعتبر من أقدم وأهم الكنائس الدمشقية وهناك ( كنيسة المصلبة ) . . . وغيرها . . .

كما شيد الدمشقيون في العصر البيزنطي الأديرة الضخمة والجميلة التي من أهمها ( دير مران ) في سفح جبل قاسيون ، في موقع يطل على ( الربوة ) . وقد تميز هذا الدير بعجارة الكلسيّة البيضاء التي تبدو دائمة كالضاحكة لأشعة الشمس . وكان يغطي أرضه البلاط الجميل الألوان . وكان هيكله يضم صورة دينية ذات أهمية فنية وقيمة جمالية ، مما جعلها توصف بالصورة العجائبية ، تثير في نفوس مشاهديها مشاعر وجданية وایعاءات روحية مختلفة ، وقد تغنى به أحد الشعراء قائلاً :

يا صباحاً بدير مران راقا  
وشت نسمة تؤمك حتى  
رفعت بالعتبر فيك رواقا  
ونظرنا من ربوة الشام مرأى...  
قلباً لم يزل له مشتاقاً...

كما كان هناك دير قرب الباب الشرقي عرف فيما بعد باسم ( دير خالد ) . وشيد في ضواحي دمشق أجمل الأديرة والكنائس في صيدنaya ، ومعلولا ، وبيرود والنبك ، و . . . غيرها . ويعتبر ( دير مار موسى العبشي ) قرب النبك و ( دير مار يعقوب ) في ضاحية ( قارا ) من أجمل الأديرة المتميزة برسومها الجدارية الجميلة بالألوانها وصورها والهامة بمواضعيها الدينية الوثائقية .

وهناك مبني القصور الجميلة الدمشقية التي تعود الى العصر البيزنطي وأخص بالذكر منها ( قصر هرقل ) في سفح جبل قاسيون ، في موقع يعرف باسم ( التيريين ) . وقد عرف هذا القصر في العصر السلاجوقى باسم ( قصر شمس الملوك ) .

وهناك قصر اكتشف في ( حي الحريقة ) ، تميز بجمال لوحة الفسيفساء فيه .

وكان للعرب الفاسنة في دمشق قصورهم الجميلة من أهمها ( قصر

البريق ) الذي ورد ذكره في شعر الشاعر العربي ( حسان بن ثابت ) مادحًا  
أمراء العرب الفسasseنة قائلاً :

لله در عصابة نادتهم يوماً بعلق في الزمان الأول  
يسقون من ورد البريق عليهم بردى يصفق بالريحق السلس  
وقد حدّد بعض الباحثين والمؤرخين موقع هذا القصر عند ( المسلط ) وسط  
الشارع المستقيم ، قرب الكنيسة المريمية .  
وتتميز دمشق بفعالياتها المختلفة السياسية والعلمية والاقتصادية  
والاجتماعية والثقافية وغيرها . . . تركت ذكرياتها وأثارها المختلفة .

فهناك قصة ( شاؤل / بولس ) ومطران دمشق ( حنانيا ) وموضع ( الرؤيا  
على طريق دمشق ) وقصة الفتاة القدسية ( تقلا ) التي التبّأت إلى أحد كهوف  
معلولا ، وقصة السيدة الدمشقية التي هجرت مظاهر البذخ والترف في دمشق  
لتعيش منعزلة في صيدنaya . . . الخ . . .

وهناك روائع فنون النحت ( مثل منحوتة جذع فتاة من حجر الجير ،  
اكتشفت في حي العريقة بدمشق ) وروائع فن الفسيفساء ( مثل لوحة الفسيفساء  
المكتشفة في أحد القصور في حي العريقة ، ولوحات فسيفساء اكتشفت في دير العدس  
تمثل قافلة مؤلفة من رجل يقود عدة جمال . . . الخ . . . ) وروائع فن الرسم  
الجداري المكتشفة في ( دير مار يعقوب ) قرب قارا ، و ( دير مار موسى الع بشي )  
قرب النبك .

وهناك روائع الفنون التطبيقية من العصر البيزنطي وأحسن بالذكر منها  
الأثار الفخارية والزجاجية والعلوي الذهبية التي تدل على تقاليد فن الصياغة  
الذهبية في دمشق ، وهناك بقايا خيوط ذهبية لثوب أميرة من البروكار « اكتشفت  
في منطقة بانياس . . . وهناك الأبحجار الثمينة ( مثل الياقوت واللآلل والزمرد  
واللؤلؤ . . . الخ . . . ) المكتشفة في بانياس وغيرها . . . وهناك صناعة  
الأسلحة الدمشقية منذ عصر ( ديوكليسيان ) وصناعة النسيج الدمشقي . . . وهناك  
مجموعات النقود البرونزية الدمشقية من العصر البيزنطي . على الوجه : صورة  
نصفية أمامية للأمبراطور البيزنطي ، وعلى الظهر : حرف M بحجم كبير .

وفي الأسفل العروض الأولى من اسم دمشق DAM أضاف إلى ذلك أحياناً تاريخ سك النقود وذلك بالحروف . وفي المتحف الوطني بدمشق مجموعة من هذه النقود البرونزية الدمشقية . وقد تابعت دور السك الدمشقية عملها فسكت نقوداً معدنية للدولة العربية الجديدة ، محفظة بـ تقاليدها القديمة المتعلقة بـ سك النقود، بل وبادرتها . ويعتقد أن ( سرجيوس / سركيس ) الذي كان مدير المالية الدمشقية في عهد الامبراطور البيزنطي ( هرقل ) قد تابع قيامه بـ بوظيفته نفسها في المهد العربي الإسلامي الجديد في دمشق وقد تميزت هذه النقود البرونزية الجديدة بما يلي : على وجه النقود البرونزي : صورة أمامية للخليفة بمظهر قيصر وفي يده سيف طويل مستقيم وعبارة ( أمير المؤمنين ) بالحروف العربية ، وعلى خلف هذا النقود البرونزي : حرف M بـ حجم كبير مع الكلمة ( دمشق ) بالحروف العربية ، تؤكد سلامة هذا النقد قانونياً .

وهناك فعاليات ثقافية أنتجت أعلاماً عالمين مثل ( يوحنا الدمشقي ) الذي تحدث عن الصور المقدسة قائلاً ان أيدينا عاجزة عن تغيير العدود التي رسمها آباؤنا : إنما نحن نحافظ على تقالييدنا الموروثة . ومن أجل هذا ، نسأل عباد الله المؤمنين أن يحافظوا على التقالييد الروحية . فان فقداننا ما أعطيناه بالتدریج من شأنه أن يقوض الدعائم الأساسية ، وهو آت على البناء بأكمله في وقت ليس بالقصير . . .

وكان من أقوال ( القديس باسيل ٣٢٩ - ٣٧٩ ) : ينبغي علينا أن نعاشر الشعراء والمؤرخين والخطباء وكل الرجال الذين نظرنا إليهم بأي عون لتحقيف أروااحنا . . . وكان هناك من يحدد المطالب التعليمية بما يلي : نحن في حاجة إلى نوعين من التعليم : ١ - مسيحي ٢ - وثني . فنكتسب من الأولفائدة للروح ، ونتعلم من الثاني سحر الكلمات . . . وهناك من وجد في الصور إيماءً يبعث في الذهن ذكرى أشياءً سماوية . . .

ولا بد أن يكون في كنائس دمشق وأديرتها وقصورها مخطوطات مختلفة عشر على بعضها في ( قبة الغزنة ) في الجامع الأموي بدمشق وحفظت في المتحف الوطني بدمشق تتضمن نصوصاً دينية ولি�تورجية باللغة السريانية وينحط جميل يدل على مدى الاهتمام بفن الخط .

## والخلاصة :

ما تقدم تبدو أهمية دراسة تاريخ (دمشق في العصر البيزنطي) لأن هذه الدراسة جزء من تاريخ دمشق عبر العصور ، وأن بلادنا أشهدت عصريّن في مختلف ميادين الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والدولية .

وان مبانينا التي تعود الى ذلك العصر تدل على مدى اهتمام شعبنا بالمحافظة على تراثه الحضاري من مختلف المصور . كما أن آثارنا المختلفة التي تعود الى ذلك العصر ما زالت محفوظة في متحفنا التي تبدو بمثابة منبر للحضارة ومعهد للبحوث العلمية وجامعة شعبية للجميع .

### □ المراجع العربية :

- د. سليم عبدالحق : محاضرات في (التاريخ البيزنطي) أهلية العام الجامعي ١٩٥٣ - ١٩٥٤ .
- د. نبيه عاقل : الامبراطورية البيزنطية - دمشق ١٩٦٩ .
- بشير زهدي : دمشق وأهميتها العمرانية والمعمارية عبر العصور (سلسلة محاضرات جمعية أصدقاء دمشق ١٩٨٢) .
- نورمان بيز : الامبراطورية البيزنطية . تعریف: د. حسين مؤنس و محمود يوسف زايد - القاهرة ١٩٥٧ .
- اومان : الامبراطورية البيزنطية - تعریف: د. مصطفى طه بدر - دار الفكر العربي - مطبعة الاعتماد بمصر .
- ستيفن رنسiman : الحضارة البيزنطية : ترجمة : عبدالعزيز توفيق جاويش - مسلسلة ١٠٠٠ كتاب القاهرة ١٩٦١ .
- فيليب حتي : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين - ترجمة: حداد ورافق - دار الثقافة - بيروت ١٩٥٨ .

### □ المراجع الأجنبية :

- BACHIR ZOUHDI : La Contribution de la Syrie à la Créeation de l'art chrétien 1974.
- P. LEMERLE : Le Style Byzantin, Paris 1946.
- P. LEMERLE : Histoire de Byzance, P.U.F. 1948.
- LOUIS BREHIER : La Civilisation Byzantine Ed. A. Michel 1970.
- S. RUNCIMAN : La Civilisation Byzantine, Payot. 1.
- A. DUCELLIER : Les Byzantins (Le Temps qui court) 1963.
- DAVID TALBOT RICE : Byzantine Art A. Pelican Book) 1962.

# فضل دمشق في تطور الطب

بين العصرَيْن النُّورِيِّ والمُمْلُوِّكِيِّ

د. نشأت الحمارنة

لا بد من تقسيم هذا البحث الى قسمين :

القسم الأول :

يلخص المسائل العامة التي سبق أن بيّنها بعض<sup>(١)</sup> الباحثين الذين خاضوا غمار المشكلات المتعلقة بتاريخ الطب في بلاد الشام في هذه العقبة من التاريخ . وقد اعتمد هؤلاء الباحثون على المصادر المعروفة ، فاكتفوا بعضهم<sup>(٢)</sup> بكتاب ابن أبي أصيبعة الشهير (عيون الأنباء ٠٠٠) اذ لم يتع لهم الاطلاع على غيره ، بينما توسع آخرون مستعملين عدداً من كتب التراجم أو كتب الطبقات أو التاريخ ، وحتى كتب الرحلات<sup>(٣)</sup> .

أما القسم الثاني : فسوف نعرض فيه نتائج الأبحاث المتواضعة التي قمنا بها معتمدين على دراسة المحتوى العلمي لبعض الكتب<sup>(٤)</sup> الطبية التي ظهرت في هذا العصر الذي نحن بصددده .

ونأمل أن تكون في هذه النتائج ما يزيد في معرفتنا عن مستوى الطب في هذه المرحلة من تاريخ بلادنا .

ونظراً لاتساع المادة التي جنيناها فسوف نختار منها بعض الموضوعات

الرئيسة ونعرضها باختصار شديد تاركين الى مناسبات أخرى التوسيع في عرضها  
و خاصة لأصحاب الاختصاص .

أما الأمثلة التي سنسوقها فسنحاول أن نلتقطها من حقل ( طب العيون )  
توكياً للتجانس ، وسنسمى الى تبسيطها - ما أمكن - ليسهل فهمها على غير  
المتخصصين .

\* \* \*

تهدف هذه المحاولة الى دراسة حالة الطب في بلاد الشام ، وكيفية تطوره وذلك  
في الفترة الزمنية التي تبتدئ بظهور السلطان نور الدين وتنتهي أيام المماليك  
الظام الذين قاتلوا الفرنجية ودحر المغول .

في هذه المرحلة الخامسة من تاريخ العرب عرف العالم دمشق على حقيقتها :  
مناضلة صامدة صابرية ، تدفع قطعان المغول المتوحشين القادمة من الشرق ،  
وتقاتل البربرية الفرنجية الذين احتلوا فلسطين وساحل الشام ، ودمروا الراها  
 وأنطاكية وطرابلس والقدس .

لقد تالت دمشق في هذه العقبة من تاريخها كما لم تتألق من قبل وتوهبت  
روحها العربية الأصيلة عاصمة للمقاومة العربية وحاضرة إسلامية كبرى .  
فلا عجب اذن أن تزدهر دمشق في ذلك الزمان ، وأن يعمها الرخاء وينتشر  
فيها العمارة ، وأن يؤمنها الناس للأقامة فيها )٥( .

لقد وفرت دمشق العيش الكريم لسكانها ، والسوق الرائجة لبضائع المدن  
المعاصرة . وبنت المدارس ودور المعلم تستقدم الطلبة من كل أقطار العالم  
العربي وتنفق عليهم وتنشئهم عدة للأمة وذخراً للأجيال .

\* \* \*

ولا بد - باديء ذي بدء - من توضيح مسألة منهجية ، فعدينا عن دمشق  
الشام لا يعني أننا نعزلها عن المدن العربية الأخرى ، فهي لم تعرف في تاريخها  
العزلة ، ولم تبتعد يوماً عن معطيها الطبيعي . لقد ظلت دمشق دوماً قلباً  
نابضاً للشام )٦( تسرى الحياة منه شرقاً حتى تصل الفرات والجزيرة والعراق ،

وتاتيه العيادة من الشرق لتزيده وجبياً وعروبة ، وتنطلق منه الروح غرباً الى أرض الكنانة ، وتتوغل حتى القبروان والمغرب والأندلس ، وتعود الروح اليه من الغرب مؤكدة عروبتها وأصالتها .

من كل هذه الأقطار والأمصار يأتي الطلبة الى دمشق ، ومنها يأتي المغاربون يدافعون عن أرض العرب وعن حضارة الاسلام .

من هذه الأقطارأتى العلماء الى دمشق ، وأتى الأطباء . بعضهم مرّ بها ، وبعضهم استقر فيها :

من بغداد جاء إسحق بن عمران ، مرّ بالشام وبمصر ، وألقى عصى الترحال في القبروان .

ومن الموصل جاء عمار بن عليّ وعمل في مدن شامية عديدة<sup>(٧)</sup> واستقر في القاهرة .

ومن الأندلس جاء ابن البيطار ليعمل في القاهرة وفي الشام ويموت في دمشق .

لقد كانت الشام دائمًا موئلاً للطلبة والعلماء أو مستقراً لهم<sup>(٨)</sup> ، توحد بين أقطارعروبة ، وتصل المرّاح .

ولم تكن دمشق في كل تاريخها مكاناً لالقلميين أو الانزاليين .

ظللت دمشق تحمل هموم العرب وتدافع عنهم وترفع من شأنهم . تبني صرح دولتهم وتصنع حضارتهم وتحمل رسالتهم .

وفي هذا العصر الذي نحن بصدده صارت دمشق كعبة للطلبة والعلماء والأطباء .

ولكن اذا صح انه ( لولا دمشق لما كانت حلبيطة ) ( ولا زدت بغداد ) ، فإنه لا يضر بمشق ان نبين انه في حقل تاريخ الطب : ( لولا بغداد لما كانت دمشق ) ، ولا زدت القاهرة او القبروان او قرطبة .

فالطب العربي بدأ في بغداد - العاصمة العربية الثالثة - ذلك ان الدولة

العربية لم تستطع أن تأخذ طب الأمم السالفة وأن تتمثله وترفع رايته إلا بعد فترة زمنية انتقل فيها مركز الدولة من العجاز إلى الشام ثم إلى العراق<sup>(٩)</sup> . وقد كان التأثير الأسبق – في حقل الطب – على بغداد لحاضرة الأحواز العربية « جنديسابور » في العصر العباسي الأول<sup>(١٠)</sup> . ومن بغداد انتقلت العلوم الطبية إلى الشام ومصر والمغرب في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) .

أما في مصر الذي نعم بصدره فقد جاء الطب في أرقى مستوياته إلى الشام من بغداد ، وبتعبير أدق : أثرت على الشام مدرسة بغداد الطبية التي كان على رأسها في ذلك الوقت الأستاذ البغدادي الكبير ابن التلميذ . إن النهضة الطبية التي عرفتها الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين (ق ١٢ ، ١٣ م) تعتمد على الأساتذة الذين تلهمتوا . أساساً – على أساسه مدرسة بغداد . ولعل مهتب الدين بن النقاش<sup>(١١)</sup> هو واقع مثال على ما نذهب إليه .

\* \* \*

وتحمة مسألة أخرى ، يجب أن نشير إليها : وهي : أن الباب الأخير من كتاب ابن أبي أصيبيعة : (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) هو أهم أبواب هذا الكتاب ، ذلك أن الكاتب يدّون فيه معلومات سمعها من أساتذته أو خبرها بنفسه . وأحداث هذا الباب تدور في مصر الذي ينتمي إليه المؤلف .

فالباب إذن ليس سجلاً قيماً في مجال تاريخ الطب فحسب بل هو كنز لروايات أو مشاهدات ذات أهمية سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية أو أدبية في ذلك الزمن .

ومن هذا الباب يستطيع الدارس أن يحصل على حقائق متفاوتة القيمة في كل هذه الحقول .

ومن المؤسف أن كتاب ابن أبي أصيبيعة لم يحقق بعد ، ولم ينل ما يستحقه من اهتمام ودراسة .

وعلى هذا الكتاب يعتمد الباحثون المتميزون ، فيأخذون منه المعلومات الأساسية الضرورية لكتابه تاريخ الطب في الشام وينتون حصيلتهم بما يجدونه في الكتب الأخرى التي قد تبدو لأول وهلة بعيدة عن مجال تاريخ العلم ككتب التاريخ العام أو كتب الطبقات أو تراجم الرجال أو حتى كتب الرحلات .

وقد كان كتاب (عيون الأنبياء) – كما ذكرنا – المصدر الأساسي الذي اعتمد عليه لوكلير حينما كتب كتابه الهام (الطب العربي) <sup>(١٢)</sup> .

أما معاولتنا نحن فتعتمد بالدرجة الأولى على قراءة الكتب الطبية التي ظهرت في هذا العصر الذي نحن بصدددهلكي نعرف منه المزيد عن مستوى الطب وتوجهاته وفروع التخصص فيه وأسلوب ممارسته وطريقة تدریسه .

وبذلك نستطيع إغناء المعلومات التي أوردها ابن أبي أصيبيع ، أو التي تمكنت الدارسون المتأخرن من جمعها .

وليس في علمي أن أحداً – حتى هذه الساعة – قد كتب عن هذه العقبة من تاريخ الطب العربي مستندأ إلى الحقائق التي يمكن أن تجتنى من كتب التدريس الطبية .

وبادئ ذي بدء يجب أن نقول أن ما خلصنا إليه من نتائج يؤكّد ما توصل إليه الآخرون : <sup>(١٣)</sup> ففي هذا العصر ازدهرت المؤسسات الصحية والمدارس الطبية ، وزاد عدد الأطباء الكبار زيادة ملحوظة وظهر بينهم أساتذة مجلّون .

أما مستوى الطب ومحفوأه فسيكونان موضوع دراستنا المتواضعة هذه .

\* \* \*

احتل الفرنجة القدس عام ١٠٩٩ م ولم يمض أكثر من ثلاثة عقود حتى كان عماد الدين زنكي في الموصل قد بدأ عملية المقاومة المجادة <sup>(١٤)</sup> بهدف تحرير البلادين المحتلين الغزاة .

وعلى الرغم من أن البدايات على يد عماد الدين كانت صعبية إلا أن الحظ لم يسعفه للمضي طويلاً في الشوط الذي نذر حياته لإنجازه <sup>(١٥)</sup> . فخلفه ابنته نور الدين محمود في حلب عام ١١٤٦ م .

وقد تمكن هذا القائد التاريخي من السير قديما على خطى والده فوحد مدن الشام ثم ضم مصر<sup>(١٦)</sup> ، وتوفي بدوره قبل أن يرى تبشير التعرير. وترك للقدر اختيار خليفة، فاختارت العناية الإلهية صلاح الدين الذي أنجز مهمة توحيد مصر والشام ، ومضى على الطريق الصحيح<sup>(١٧)</sup> حتى حطّن وتحرر بقيت المقدس .

وقد عرف نور الدين محمود زنكي كيف يضع أسس دولة قوية ، تقدر العلم حق قدره ، وشيد المشرف احتراماً لحق الانسان في المداواة وطلب الشفاء .

ومن المعروف أن دمشق كانت تزهو بمشفيين شهرين حتى عصر نور الدين :

أولهما : المارستان القديم<sup>(١٨)</sup> غربي الجامع ، وثانيهما : بيمارستان باب البريد<sup>(١٩)</sup> .

وقد عُرف المشفى العديث<sup>(٢٠)</sup> الذي بناه نور الدين بالبيمارستان الكبير<sup>(٢١)</sup> أو  
البيمارستان النوري<sup>(٢٢)</sup> .

أما المستشفى القديم فقد أطلق عليه فيما بعد اسم البيمارستان الصغير<sup>(٤٣)</sup>  
وقد عين الملك المادل نور الدين الطبيب الأندلسى الأصل أبو المجد محمد  
بن أبي العنك<sup>(٤٤)</sup> مديراً لهذا المشفى عند تأسيسه .

وقد قام هذا المشفى ببعض معالجة المرضى ، كما صار مدرسة للطب (٢٥) .  
لعبت ذلك الدور الهام في تاريخ العلوم الطبية الذي نحن الآن بصدد الحديث عنه .  
وفي رحاب هذا المشفى صار تدريس الطب رسالة وطنية فاتت اليه طلبة العلم  
من المدن المختلفة ، كما أتى اليه الأساتذة الكبار الذين ساهموا في التعليم معتمدين  
على المعارف التي جمعوها في بقادار ، كراسبيق وأشرنا .

ولعل أحد أهم إنجازات هذه المدرسة الطبية هو تزويد المدن السورية بالاطباء<sup>(٢٦)</sup>، وكذلك الجيوش التي قاتلت بقتال الفرنجة أولاً، ثم بمحاربة المغول.<sup>(٢٧)</sup> وإذا كنا قد ذكرنا مهذب الدين ابن النقاش<sup>(٢٨)</sup> باعتباره الأستاذ المؤسس لهذه المدرسة والذي قام بتغريج أوائل الأساتذة الدمشقيين فإنه لابد أيضاً من ذكر أستاذ آخر هام من جيل الطلبة هو :

<sup>٢٨</sup> الياس بن جرجس المطران الذي ساهم بدوره في نقل العلوم الطبية

من بغداد الى الشام ، وعليه قرأ موفق الدين عبدالعزيز بن عبدالجبار السلمي <sup>(٢٩)</sup> المتوفى عام ١٢٠٨ م = ٦٠٤ هـ .

والسلمي هذا هو مؤلف كتاب (امتحان الالباء لكافة الأطباء) الذي استعملناه في هذه الدراسة وجنينا من قراءته معلومات قيمة عن فروع التخصص ونظام الامتحان وكتب التدريس في مدرسة دمشق الطبية ، وأقدم تلامذة المدرسة الدمشقية انددين لعبوا دوراً متميزاً في تاريخ الطب بعد أن تخرجوا على مهذب الدين ابن النقاش في البيمارستان النوري اثنان :

**أولهما** : أسعد بن الياس (ابن المطران) <sup>(٣٠)</sup> الذي توفي عام ١١٩١ م = ٥٨٧ هـ . وعليه درس الدخوار <sup>(٣١)</sup> الذي صار من أهم الأساتذة .

**وثانيهما** : رضي الدين يوسف بن حيدرة الرحببي <sup>(٣٢)</sup> الذي قرأ الطب في بغداد ودمشق وعمل جزءاً من حياته في مصر ثم استقر في دمشق ونذر نفسه للتعليم والعمل في البيمارستان ؛ وقد درس عليه الدخوار وغيره .

أما الدخوار فهو مؤسس أول مدرسة طبية خاصة في دمشق <sup>(٣٣)</sup> ، وعليه قرأ بعض أهم أطباء القرن الثالث عشر الميلادي (= القرن السابع الهجري) .

ظل عبد الرحيم بن علي الذي اشتهر باسم مهذب الدين الدخوار أستاذًا في البيمارستان النوري ، ثم أسس مدرسة خاصة لتعليم الطب في منزله ، وقبل أن يوافيه الأجل أوصى بأن تظل داره مدرسة للطب ، وقام بتأمين دخل كاف لها ، ذلك أنه وقف لها أملاكه . وقد توفي عام ١٢٣٠ م ( = ٦٢٨ هـ ) ويُعتبر ابن النفيس وابن أبي أصيبيعة من أشهر تلامذة الدخوار .

وقد أحصى الأستاذ زهير البابا <sup>(٣٤)</sup> عشرة من أجل تلامذة الدخوار مارسوا المهنة في مصر أو في الشام ، وقام بعضهم بالتدريس ، أو التأليف في العلوم الطبية .

ونكتفي هنا بذكر بعضهم تاركين للراغب في معرفة المزيد المودة الى مقالة الأستاذ البابا أو الى المراجع الأخرى .

ولا شك أن أشهر هؤلاء جمیعاً هو ابن النفیس<sup>(٣٥)</sup> المتوفی سنة ١٢٨٨ م = ٦٨٧ هـ

وقد صار ابن النفیس طبیبًا للسلطان الظاهر بیبرس ، كما تبوأ منزلة رئيس الأطباء في مصر .

ويعتبر ابن النفیس من أهم شرّاح أبقراط ، لكن شروخه لقانون ابن سينا كانت أبعد أثراً فوصل صيتها في حیاة ابن النفیس الى شیراز .

ومن أهم مؤلفات ابن النفیس كتاب (موجز القانون) الذي لخص فيه قانون ابن سينا ، وقد كتب (المهدب ٠٠٠) وهو كتاب في أمراض العین ، كما شرع بكتابه موسوعة طبیة بعنوان (الشامل)، وإضافة الى ذلك فقد كان أستاذًا للفقه في المدرسة المسحوریة في القاهرة .

اما الأساتذة الذين عاشوا في الشام فنختار منهم أربعة :

- ١ - ابن أبي اصیبعة<sup>(٣٦)</sup> : المؤرخ الشهير ، وصاحب (عيون الأنباء ٠٠)
- ٢ - نجم الدين الليبي<sup>(٣٧)</sup> : الذي عمل في حمص . وصار وزيراً هناك .
- ٣ - ابن قاضي بعلبك<sup>(٣٨)</sup> : الذي صار رئيساً للأطباء . وأستاذًا في الدخوارية .  
وكان قبل ذلك قد عمل في الرقة .
- ٤ - ابن السویدي<sup>(٣٩)</sup> : وقد صار مدرسًا في الدخوارية وشيخاً لأطباء مصر والشام.

ويذكر الأستاذ البابا إضافة الى هؤلاء الأربعة ثلاثة آخرين<sup>(٤٠)</sup> يمكن العودة اليهم في مقالة الأستاذ لو في (عيون الأنباء) .

وكما أن تدريس الطب لم يقتصر على مدرسة البيمارستان التوری ، بل تجاوزها الى المدارس الخاصة - كما ذكرنا - (إذ عرف التاريخ المدرسة الدخوارية التي أشرنا اليها قبل قليل) فان عدداً من المدارس قد ظهر في هذا العصر<sup>(٤١)</sup> ، بعضها اهتم بالعلوم الدينية واللغوية ، وقام بتدريس بعض المواد الالازمة لدراسة الطب كعلوم الطبيعة ، وبعضها تخصص في التعليم الطبی النظري أو السريري .

ويلاحظ الأستاذ زهير البابا<sup>(٤٢)</sup> أن عدداً من خريجي المدرسة الطبية في البيمارستان النوري قد أوكل إليهم منصب رئاسة الأطباء في مصر أو في الشام ، وذلك منذ بداية نشاط هذه المدرسة ، ومن هؤلاء :

- ١ - جمال الدين : أبو عمرو عثمان بن أحمد القيسى<sup>(٤٣)</sup> المعروف بابن أبي المواتر المتوفي عام ١٢٢٧ م = ٦٢٥ هـ الذي قرأ على ابن النقاش والرجبي.
- ٢ - سعد الدين : أبو اسحق ابراهيم بن عبد العزيز السلمي<sup>(٤٤)</sup> المتوفي عام ١٢٤٦ م = ٦٤٤ هـ ابن الطبيب موفق الدين السلمي .
- ٣ - مهذب الدين : عبد الرحيم بن علي الدخوار – الذي سبقت الاشارة اليه . ويفضف الأستاذ البابا الى هؤلاء ثلاثة من تلامذة الدخوار سبقت الاشارة اليهم ، وهم :

- ١ - ابن قاضي بعلبك<sup>(٤٥)</sup> : المتوفي سنة ١٢٧١ م = ٦٧٠ هـ .
- ٢ - وابن النفيس<sup>(٤٦)</sup> : المتوفي سنة ١٢٨٨ م = ٦٨٧ هـ .
- ٣ - وابن السويدي<sup>(٤٧)</sup> : المتوفي سنة ١٢٩١ م = ٦٩٠ هـ .

★ ★ ★

ويتبين الأستاذ ابراهيم بن مراد<sup>(٤٨)</sup> الى ظاهرة أن الملوك اصطفوا عدداً من الأطباء ليكونوا أطباء شخصين لهم يرافقونهم في رحلاتهم وحروفهم ، وكذلك فعل الأمراء والوزراء وقادة الجيش .

- كما يشير الى أسماء الأطباء الذين وصلوا الى منصب الوزارة وهم<sup>(٤٩)</sup> :
- ١ - ابن الساعاتي<sup>(٥٠)</sup> : الذي استوزره أمير دمشق عيسى ابن الملك العادل (توفي ١٢٢٧ م = ٦٢٤ هـ) وقد قرأ على رضي الدين الرجبي .
  - ٢ - يوسف السامرائي<sup>(٥١)</sup> : الذي استوزره أمير بعلبك مجد الدين بهرام شاه (ت ١٢٣٠ م = ٦٢٨ هـ) .
  - ٣ - ابن غزال<sup>(٥٢)</sup> : الذي استوزره أمير دمشق عماد الدين اسماعيل بن أبي بكر الأيوبي (ت ١٢٥٠ م = ٦٤٨ هـ) .

٤ - نجم الدين اللبودي<sup>(٥٣)</sup> : الذي استوزره أمير حمص ابراهيم بن أسد الدين  
شيركوه ( ت ١٢٤٥ م = ٦٤٣ هـ ) وكان قد قرأ على الدخوار .

★ ★ ★

ولعله من غير الضروري المضي في استعراض مشاهير أطباء هذه العقبة وقد  
أحصى منهم (اعتماداً على ابن أبي أصبيعة) الأستاذ ابن مراد في القرن السادس الهجري  
(ق. ١٢٠، م ) عشرين طبيباً شهيراً<sup>(٥٤)</sup> ، جلهم قام بأعمال علمية أو اجتماعية هامة  
أو تبوأ منصبأً إدارياً أو ترك أثراً طبيباً مكتوباً .

أما أطباء القرن السابع الهجري (ق ١٣٢ م ) فقد أحصى منهم الأستاذ ابن مراد  
خمسة وستين علماً شهيراً<sup>(٥٥)</sup> .

ولكن ربما كان من المناسب أن نذكر هنا أسماء بعض أساتذة المدرسة الدخوارية  
من تعاقبوا على إدارتها :

- ١ - علي بن يوسف الرحبي<sup>(٥٦)</sup> .
- ٢ - ابن قاضي بعلبك<sup>(٥٧)</sup> .
- ٣ - عماد الدين الدنيسري<sup>(٥٨)</sup> .

أما الأساتذة الذين كانت لهم مجالس علمية خاصة فكثرون ، سبق أن ذكرنا  
منهم مذهب الدين ابن النقاش ، ورضي الدين الرحبي ، ومذهب الدين الدخوار  
ويضيف الأستاذ ابن مراد ثلاثة آخرين<sup>(٥٩)</sup> هم :

١ - موفق الدين عبدالعزيز بن عبد العبار السلمي<sup>(٦٠)</sup> الذي توفي عام  
١٢٠٨ م = ٦٠٤ هـ وهو مؤلف كتاب (امتحان الألباء لكافة الأطباء ) الذي  
أشرنا اليه .

وهو والد الطبيب الشهير سعيد الدين أبو اسحق ابراهيم السلمي الذي سبق  
ذكره .

٢ - رشيد الدين ابن خليفة<sup>(٦١)</sup> المتوفي ١٢١٩ م = ٦١٦ هـ وهو عم مؤرخ  
الطب الشهير ابن أبي أصبيعة .

٣ - شمس الدين اللبودي<sup>(٦٢)</sup> المتوفي ١٢٢٤ م = ٦٢١ هـ

★ ★ ★

## وزبدة القول :

فهذه المعلومات ذكرها ابن أبي أصيبيعة وعرضها لوكلير وغيره . وقد لخصنا تلخيصاً شديداً للدراستين اللتين كتبهما الزميلان الأستاذ البابا والأستاذ ابن مراد - اعترافاً بفضلهما<sup>(٦٣)</sup> - وذلك لكي نخلص إلى القول بأن الشام قدّمت في مجالى الممارسة والتعليم الطبى الشيء الكثير ، إذ تطورت فيها المشافي التعليمية وازدهرت المؤسسات الصحية ، وانتشرتلامذة دمشق وخريجو مدارسها في طول البلاد وعرضها فشغلوا أخطر المناصب الإدارية في مجال الصحة وادارة المدارس الطبية في مصر والشام .

ومن هذه المدارس تخرج مؤلفو الكتب الطبية التي قمنا بدراستها وحصلنا منها على النتائج التالية :

### أولاً : ترسّخ نظام التخصص الطبى

نعن نعلم أن نظام التخصص الطبى ظهر في بلادنا في عصر حضارة مصر الفرعونية ، وحضارة بلاد ما بين النهرين القديمة ، فقد جاء ذكر طبيب العيون مثلاً في البرديات المصرية ، كما ورد ذكره في شريعة حمورابي التي أخذت بدورها عن تقاليد سالفة<sup>(٦٤)</sup> .

وقد استمر هذا التخصص في بلادنا عبر العصور اللاحقة حتى جاء الطب اليوناني فأكّد على وجود هذا التخصص في العصر الهلنستي وما تلاه إلى أن جاء الإسلام الذي حافظ على هذا الانجاز العلمي الشرقي المتقد .

فمنذ القرن الثامن الميلادي ( القرن الثاني الهجري ) نجد شواهد عديدة على وجود أطباء العين ، ومؤلفات متخصصة<sup>(٦٥)</sup> في هذا العقل<sup>(٦٦)</sup> ، وكتبًا للتدرис وامتحانات .

وفي القرن العاشر الميلادي ( القرن الرابع الهجري ) تظهر شواهد مشابهة على وجود الجراح المتخصص ، الذي يقوم بعمليات الكيّ والفصد والتجبير إضافة إلى العمليات الجراحية الصغرى<sup>(٦٧)</sup> .

أما في مصر الذي نحن الآن بصدده فان المصادر تؤكد لنا وجود الطبيب المتخصص بالأمراض الباطنة إلى جانب الجراح والمعالج .

وإذا تعمقنا في محاولة استقراء النصوص ، فإنها تحدثنا عن الأعمال التي كان يقوم بها الطبيب الباطني ، فهو الذي ينظر في القارورة – أي هو الذي يفحص بول المريض – وهو الذي يعالج العميات ، كما أنه يشرف على أقسام المشفى التي خصصت للمرضى المصابين باضطرابات عقلية .

ونجد في الكتب الموسعة أبواباً خاصة بجبر الكسور ورد الغلوع تشير صراحة إلى بداية ظهور فرع الجراحة العظمية<sup>(٦٨)</sup> .

وثمة أبواب خصصت لوصف عمليات الفصد المختلفة التي كان الجراح أو الطبيب بحاجة إلى معرفتها لمعالجة عدد كبير من الأمراض العامة أو حتى بعض الأمراض العينية<sup>(٦٩)</sup> . وقد أتت بعض الأساتذة رسائل خاصة بالفصد .

ومن نافلة القول أن الفصد ظلّ مستعملًا لمعالجة بعض أمراض العين في عدد كبير من المدارس الطبية الأوروبية حتى منتصف هذا القرن .

وقد تبين لنا من دراسة كتاب السلمي<sup>(٧٠)</sup> ( امتحان الالباء لكافة الأطباء ) ان هذا الأستاذ يتعامل في أسئلة الامتحان مع فرعين مستقلين من فروع الجراحة : الجراحة العامة ، والجراحة العظمية<sup>(٧١)</sup> فهل يميز المؤلف بين اختصاصين ؟ أم بين مقررين في تخصص واحد ؟

أما الصيدلة فقد تطورت بدورها في اتجاه ظهور عملين متخصصين<sup>(٧٢)</sup> .

العمل الأول الذي يقوم به المشاب الذي يعرف النباتات في مواطنها فيقوم بجمعها وحفظها ووضعها في متناول زميله الآخر الذي يعمل في البيمارستان .

والعمل الثاني يتم في الصيدلية ، وثمة نوعان من الصيدليات: الأولى صيدلية، البيمارستان التي تحضر الأدوية للمرضى المقيمين وللمراجعين الذين يتربدون على العيادات المتخصصة . والثانية هي الصيدلية الخاصة التي كثيراً ما كان يقال لها : الدكان . وهي تلك التي يمتلكها طبيب و تكون تابعة لعيادته، يعمل فيها مساعدون له متخصصون ، يقومون بتحضير الأدوية البسيطة وحفظها وتركيب الأدوية

المركبة ، أو أنها تكون ملكاً لصيدلاني متخصص يأتي إليها لشراء الأدوية مرضى جاؤوا من عيادات أطباء مختلفين ٠

فإذا أردنا أن نسمى أحد أعلام المشترين في هذا العصر ، من حفظت لنا المصادر معلومات وافية عن اسلوبهم العلمي في دراسة الأعشاب الطبية ووصفها فاننا لا نجد أجدر من رشيد الدين المصوري<sup>(٢٢)</sup> ( ت ١٢٤١ م - ٦٣٩ هـ ) الذي يعود الفضل في تخليل ذكره إلى ابن أبي اصيبيعة الذي أطرب في وصف طريقة في البحث عن النباتات في مواضع نبتتها ، وتسجيل أوصافها في مختلف مراحل نموها ، والقيام برسمها بالألوان من قبل رسام متخصص ٠

ورشيد الدين المصوري هذا هو أحد تلامذة موفق الدين عبد العزيز السلمي صاحب ( امتحان الالباء ٠٠٠ )

### ثانياً : نظام الامتحان الطبي

كتب يوحنا بن ماسويه ( ت ٢٣٤ هـ = ٨٥٧ م ) في بغداد أقدم كتاب تمتلكه البشرية في هذا المعنى . ويكون ابن ماسويه بذلك رائد تأليف هذا النوع من الكتب التي تعدد سوية أسئلة الامتحان ، ليكون بمثابة تذكرة للطالب يعرف من قراءاته مستوى الأسئلة المطلوبة منه في الفحص الذي يجريه من أجل الحصول على ترخيص لممارسة المهنة ٠

وهذا الكتاب لم يكتُب للطلاب فحسب – كما ظن بعض الباحثين<sup>(٢٤)</sup> لكنه كتب للمتحن أيضاً ، يهدف إلى اطلاع الأستاذ الذي يجري الفحص على المستوى المثالى والحمد العادل الذي ينبغي أن تكون عليه الأسئلة من حيث صعوبتها أو سهولتها ، ومن حيث شمولها للمناهج واحتاطها بالمقررات ٠

وكتاب ابن ماسويه هذا متخصص في مجال امتحان أطباء العين ، وعنوانه ( معرفة محنـة الكـحالـين ) ٠ و ( المـحةـةـ ) هنا بمعنى الامتحان<sup>(٢٥)</sup> ٠

وقد ظهر في دمشق بعد ذلك بقرون كتاب آخر على درجة رفيعة من الأهمية في تاريخ الطب ، ذلك أنه يمثل الفلسفة نفسها التي يعبر عنها أستاذ بيت الحكمة ابن ماسويه . وهذا الكتاب ليس من النوع الذي يقتصر على اختصاصه بعينه ،

بل انه يشمل الأسئلة الموجهة لامتحان الأطباء الباطنيين والكعاليين والجرائين والمجررين والصيادلة والعشائين .

ومن المهم أن نقول أن هذا الكتاب لم ينل بعد ما يستحقه من اهتمام ، وبالتالي فاننا لا نعرف ما إذا كانت أقسامه تشير إلى المقررات المختلفة المطلوبة من الطبيب يوم تخرجه ، أم أنها تشير إلى مجموعة الامتحانات التي ينبغي أن يجتازها المتخصصون كل في حقله .

عنوان هذا الكتاب يشير إلى طبيعته (امتحان الأطباء لكافة الأطباء) ومؤلفه هو الأستاذ الدمشقي موفق الدين السُّلَمِي ، المتوفى عام ٦٠٤ هـ = ١٢٠٨ م .

ونحن نعرف هذا الأستاذ بفضل الترجمة المختصرة التي أوردها ابن أبي الصبيعة في عيون الأنبياء (٢٦) .

ولما كانت دراستي لهذا الموضوع حديثة ، لذلك فان المعلومات التي توفرت في هذا العقل ما تزال قليلة ، وبالتالي فان الباب ما يزال مفتوحاً للبحث عن هذه الفتنة من الكتب التي ظهرت في الزمن المنذر بين عصر ابن ماسويه وعصر السُّلَمِي .

وسوف نعرف في المستقبل القريب المزيد عن هذه المسألة الهامة في تاريخ الطب ، ذلك أن كل المؤشرات تدل على وجود نظام عريق متتطور لاعطاء الاجازة الطبية بعد اجتياز امتحان تشرف عليه المؤسسات التعليمية . وهذا بطبيعة الحال انجاز مهم في تاريخ الطب تتحقق في بلادنا .

ومن الواضح أن هذا الامتحان شيء والامتحان الذي تجريه الدولة للأطباء الممارسين شيء آخر . فالأول امتحان مدرسي [ تقوم به المؤسسات ] التعليمية ، والثاني الاجراء " تقوم به المؤسسات [ التي أنيط بها مراقبة ممارسة المهنة ] .

ومن نافلة القول أن نشير هنا إلى الامتحان الذي أجري في بغداد بطلب من الخليفة ، ذلك انه يبدو أن بعض الممارسين لم يكن قد قام بدراسة الطب أصولاً، وتجرأ على ممارسة المهنة دون أن يكون مؤهلاً لهذا العمل .

وبطبيعة الحال فان النوع الثاني من الامتحان – امتحان المارسين – كان من صلب عمل المحاسب<sup>(٢٧)</sup> .

ومن المعروف أن نظام تعليم المهن الطبية كان في الزمن السالف يقوم على حصر المهنة ضمن الأسرة الواحدة ، أوأخذها عن طبيب ممارس معروف ، دون وجود مدرسة طبية ، وبالتالي فان المارسين في المقرر العباسى كانوا على فتنين : الدارسون على الطريقة التقليدية ، والدارسون في المدارس أو المشافى .

ومن هنا صار الغضور للامتحان شيئاً مهماً قبل التخرج . ومن هنا أيضاً كان من واجب المحاسب أن يراقب أصول الممارسة وكيفيتها وذلك لأن ثمة عدداً من الأطباء المارسين ينتسبون إلى الصنف الأول الذي أشرنا إليه ، وهو الصنف الذي لم يداوم في البيمارستان ، ولم يتلق دروساً أصولية عند أستاذ معترف به ، والذي حافظ على وجوده بقوة الاستمرار ، خاصة في الزمن الذي سبق انتشار المدارس الطبية والبيمارستانات التي تقوم بمهمة تعليمية ، كالبيمارستان النوري مثلاً ، في عصرنا هذا ، أو بيمارستانات بغداد العديدة أيام الخليفة المقتدر مثلاً ، أو مشفى بغداد الذي كان يديره ابن بختيشوع والذي تعلم فيه ابن ماسويه .

### ثالثاً : كتب التدريس الطبي والمراجع

بمقارنة أسماء الكتب التي وردت في (عيون الأنبياء) بأسماء الكتب التي أوردها السلمي ، نتمكن من التعرف على عدد كبير من المؤلفات المعتمدة للتعليم في مدارس دمشق الطبية ، كما نستدل على أسماء عدد من المراجع المتوفرة في المكتبات في ذلك الزمان .

وبدراسة هذه الأسماء يمكن أن نحصل على بعض الحقائق الهامة في تاريخ الطب العربي . ونورد هنا بعضها :

١ - كان كتاباً : الملكي<sup>(٢٨)</sup> والقانون<sup>(٢٩)</sup> المرجعين الرئيسيين اللذين اعتمدما السلمي في حالاته المتعلقة بأجوبة الأسئلة المطلوبة في الامتحان ، في معظم أبواب كتابه ( امتحان الآباء ...) وذلك في مجال نظريات الأمراض وكليات

الطب بشكل خاص . وهذا يشير الى أن القانون لم يجعل معمل الملكي كما هو شأنه .

٢ - ظلت بعض كتب جالينوس مراجع هامة حتى هذا العصر ، ذلك أن الموضوعات التخصصية التي عالجتها بعض مؤلفات جالينوس جعلت من الترجمات العربية لهذه الكتب مصادر أساسية موثوقة . فمن المعروف أن كتب الطب الشاملة ذات الطابع الموسوعي كالملكي والقانون لخصت كل مؤلفات جالينوس ، إلا أن الترجمات الدقيقة لهذه الأعمال ظلت موضع اهتمام الأساتذة ، وذلك رغم الشروح العديدة التي كتبها الأساتذة العرب لهذه الكتب .

ومن الضروري أن نشير الى أن معظم أساتذة الطب لم يعودوا بحاجة الى معرفة اللغة اليونانية لفهم جالينوس ، وذلك بعد ظهور ترجمات حنين الدقيقة ، وبعد ظهور كتاب العاوی الذي جمع أهم ما كتبه الأساتذة الاغريق<sup>(٨٠)</sup> . ومع ذلك فإن بعض الأساتذة كان يتقن اليونانية .

وبإذا أردنا أن نسمى بعض كتب جالينوس التي أشار إليها السلمي فاننا نذكر:

١ - البرuran . ٢ - أيام البرuran . ٣ - كتاب النبض الكبير . ٤ - حينة البرء . ٥ - العبيات .

٣ - يشهد جميع الباحثين أن المعرفة الطبية في القرن العاشر صارت متجانسة في طول البلاد وعرضها ، وأضحى انتقال الكتب الطبية سريعاً بين أقصى الأندلس والشام أو أقصى أواسط آسيا ومصر مثلاً ، فمراكم العضارة جميعها أصبحت تمثل ثقافة موحدة ، سواء من حيث التعليم النظري أو الممارسة السريرية . وبطبيعة الحال فانتنا نجد في كتب المدرسة الطبية الدمشقية ما يؤكد هذه الحقيقة :

فإن أحد أهم المراجع في دراسة التشخيص التفريري للأمراض في دمشق هو كتاب (البول) الذي ألفه اسحق بن سليمان الاسرائيلي<sup>(٨١)</sup> (ق ٩ - ١٠ م) - (٣ - ٤ هـ) وقد جاء هنا الكتاب من القبروان .

وكذلك كان أحد أهم كتب الأدوية في دمشق كتاب ابن وافد (الأدوية المفردة) الذي يعتبر من إنجازات المدرسة الأندلسية في علم العقاقير . وقد إعتمداً في الشام أيضاً كتاباً باب أندلسيان في الطب مما كتب الزهراوي<sup>(٨٢)</sup> وكتاب ابن زهر<sup>(٨٣)</sup> .

٤ - ظل كتابا (النجة) و (الشفاء) لابن سينا مرجعين مستعملين لفهم نظريات الأطباء . هذا الموضوع المشترك بين الفلسفة والأطباء .  
و سنعود إلى تفصيل هذا الأمر .

٥ - قام بعض الأطباء في هذا العصر بالتعليق على بعض كتب أبقراط أو جاليتوس ، أو أنهم قاموا باختصارها أو شرحها ، وهذا الأسلوب في التأليف عرفه العرب منذ القرن التاسع . واستمر في أيام الرازى ، وظل ناشطا حتى هذا العصر .

ومن أهم شرحاً لأبقراط في هذا العصر ابن النفيس وابن القف<sup>(٨٤)</sup> .

#### رابعاً : تطور علم التشخيص التفريقي

من المعروف أن أول انجاز كبير حققه العرب في هذا العقل يعود إلى عصر الرازى<sup>(٨٥)</sup> الذي توصل إلى معرفة العلاقة بين الأعراض الجلدية لبعض الأمراض والأعراض العامة لهذه الأمراض نفسها، فهو الذي ربط بين الآلام والعمى باعتبار أنها أعراض متعددة وبين الأعراض الجلدية لمرض الجدري . وقد قاده ذلك إلى التفريق بين الجدري والحصبة . واضافة إلى ذلك فان الرازى - نتيجة مراقبته لسير المرض - تمكן من وصف التغيرات التي تطرأ على التظاهرات الجلدية للأمراض . ففرق بين العويسيل المائي الذي يتبدى على الجلد وبين النفايات أو التظاهرات الأخرى المشابهة . كما أنه ربط بين الظاهرة الجلدية في مرحلة البدء وبين الظاهرة نفسها في مرحلة التقيح أو التقرّر<sup>(٨٦)</sup> وأكد أنها ظاهرة لمرض واحد .

ويشهد جميع مؤرخي الطب للرازى بهذا الفضل في تاريخ الطب . ولعل هذا العمل الذي قام به الرازى قد ساهم في ذيوع صيت هذا الطبيب في أوروبا اللاتينية والحديثة .

وقد سار الأطباء العرب على نهج الرازى وتمتعوا بمعين سريرة متخصصة ونظرة ثاقبة وطول أناة في متابعة سير المرض وتطور أعراضه .  
وقد خطأ ابن الجزار القيرواني<sup>(٨٧)</sup> خطوة متقدمة على هذا السبيل إذ ألف كتاباً في ( الفرق بين الأمراض )<sup>(٨٨)</sup> يعتبر من أقدم الأعمال في علم التشخيص التفريقي .

ولم يقصر أطباء دمشق في هذا المصرف مجال هذا العلم ، فلجأوا إلى فحص بول المريض والي جس نبضه والي وصف شكل الحمى التي يعاني منها<sup>(٨٤)</sup> . واستفادوا من الفرق بين هذه التظاهرات لوضع التشخيص الدقيق<sup>(٨٥)</sup> .

كما أنهم تمكنوا من التفريق بين الأشكال السهلة للأمراض النفسية أو العصبية والأشكال الأخططر ، وعلى ذلك فان المرضى العقليين كانوا يعاملون في بيمارستانات الشام معاملة لائقة فهم مرضى في عرف المجتمع وليسوا مجانين أو أشراً أو ضحايا للأدوار الحشرية<sup>(٨٦)</sup> .

وإذا أردنا أن نعطي بعض الأمثلة على انجازات أطباء العين في هذا الحقل فاننا نذكر فضل ابن النفيسي في التفريق بين أشكال العَوَال المختلفة ، ووضع التشخيص السببي لها<sup>(٨٧)</sup> .

#### خامساً : المعجم الدوائي عديد اللغات

كانت المدارس الطبية الشرقية في بغداد ودمشق واقعة تحت نفوذ أعلام الصيدلة الشرقيين ، وظللت أعمال هؤلاء هي المراجع الرئيسية للدراسة . وأهم هذه الأعمال هي الترجمتان العربيتان لكتابي ديوسقوريدوس<sup>(٨٨)</sup> وجالينوس<sup>(٨٩)</sup> . وقد صارت هاتان الترجمتان حجري الزاوية في علمي المقابر والصيدلة عند العرب .

وقد أضيفت إلى هذا العلم الموروث عن الاغريق أدوية عديدة ذات مصدر شرقي : هندي أو فارسي ، كما أن بعض الأدوية التي كانت مستعملة في مصر أو الشام غابت عن الأساتذة الاغريق فلم يدونوها في كتبهم ، رغم انتشارها في الشرق .

وقد عالج الأساتذة العرب هذا النقص ، وأكملوا المادة العلمية المترجمة عن الاغريقية .

وعلى ذلك نستطيع أن نفهم أهمية المؤلفات العربية في هذين العلمين ، حيث تمكّن الأساتذة العرب من جمع المادة الدوائية من مصادرها المختلفة وأحسنوا تبويبها وعرضها ، فقدموها للقارئ مادة علمية أكمل .

ومن أهم هؤلاء في الشرق ابن ماسويه وعلي بن ربن الطبرى والرازى

والتميمي والبيروني وابن جزلة<sup>(٩٤)</sup> . ومن أهمهم في الأندلس ابن جلجل<sup>(٩٥)</sup> .  
ولا شك أن بعض الأعمال المتعلقة بالأدوية المفردة قد وصلت من المغرب أو  
من الأندلس إلى الشرق العربي . إلا أن العادلة الهامة في تاريخ الطب هي مجيء  
ابن البيطار إلى مصر والشام ، قادماً من الأندلس بعد رحلة طويلة عبر بها شمال  
افريقيا وبعض جزر المتوسط وبلاد الروم وأسيا الصغرى ، ذلك أنه أحضر معه  
إلى الشرق خلاصة وافية لأعمال المدرسة الأندلسية في النبات والأدوية .

وفي الحقيقة فإن التقاليد العلمية في الأندلس كانت قد عرفت منذ القديم  
ظاهرة الرحلة الشرقية ، فقد اعتاد العلماء على المجيء إلى الشرق في طريقهم  
إلى العج . وقد استفادوا من رحلة العج هذه فعرصوا على التعرف إلى زملائهم  
في المهنة ، أو أنهم سمعوا من بعض شيوخ العواضير الشرقية دروساً مختلفة قبل  
عودتهم إلى ديارهم ، وربما طلب بعضهم العيش في بعض مدن الشرق فاستقر بها  
وتوفي هناك .

وقد أحضر علماء الأندلس من الشرق إلى الأندلس أثر عودتهم الكبير من  
الكتب العلمية ، كما اصطبغ بعضهم كتب الأندلس إلى الشرق .

وهكذا فقد أتيح للطلبة والأطلاع في الشرق والغرب على السواء الاطلاع على  
الكتب الصادرة من شتى الأقطار العربية .

وقد خطأ العلم خطوتين هامتين نتيجة لجهود العلماء العرب : أولهما ان  
الصيادلة والعشائين أضافوا في كتبهم الأدوية التي لم يعرفها الأغريق فصار  
الكتاب شاملًا وافياً<sup>(٩٦)</sup> .

وثاني هذه الخطوات هو تعريف البلدان المختلفة بالنباتات الطبية التي  
لا تنبت إلا في البلدان الأخرى ، والحديث عن وصفها النباتي وتأثيرها الدوائي  
ومزاياها العلاجية .

وعلى ذلك فقد صار العلماء مضطرين إلى معرفة اسم النبات الواحد باللغات  
المديدة المستعملة في الأقطار المختلفة<sup>(٩٧)</sup> .

وقد كانت اللغة الفارسية - وأحياناً الهندية - مستعملة لدى صيادلة الشرق  
إضافة إلى السريانية والعربية والأغريقية ، وذلك لتعريف اسم النبات .

اما في المغرب والأندلس فقد كانت اللغة البربرية هي اللغة الأولى المستعملة الى جانب العربية ، ويضاف اليها الاغريقية واللاتينية . وعاصمة الأندلس .

كما اتنا نجد بعض أسماء الأدوية وقد حفظ لنا في أصله القبطي أو النبطي ، وفي ذلك دليل هام على عراقة استعمال هذا الدواء في بلادنا وانتشاره قبل الاسلام بكثير ، رغم اتنا لا نجد هذا الدواء في الكتب اليونانية .

ولعل أشهر رحلة علمية ( نباتية دوائية ) هي تلك التي قام بها المشايخ الشهير أبو العباس النباتي (٩٨) (ت ٦٣٧ هـ = ١٢٣٩ م ) الى الشرق العربي بين سنتي ١٢١٥ ، ١٢١٨ م ( = ٦١٢ - ٦١٥ هـ ) وبعدها كتب كتابه الهام ( الرحلة الشرقية ) وفيه خلاصة للخبرة والتجربة المكتسبة من هذه الجولة .

ويُعتبر أبو العباس النباتي أهم أستاذة ابن البيطار .

ويُعتبر ابن البيطار خير ممثل للمدرسة الاندلسية (٩٩) ، ذلك أنه جمع أهم منجزات علمائها في مجاله : علم النبات وعلم الأدوية ، واكتسب خبرة خاصة من أستاذته في المغرب العربي ، وفي جولته حول البحر المتوسط وصولاً الى بلاد الروم ومنها الى مصر فالشام .

وقد عارض ابن البيطار في كثير من الأحيان المدرسة الطبية البغدادية ووجه نقداً شديداً الى ابن جزلة (١٠٠) مما أتاح لطلبة الطب في دمشق الاستفادة من هاتين المدرستين : البغدادية - الدمشقية من جهة والأندلسية من جهة أخرى . وقد أدى ذلك الى تطور كبير في المؤلفات التي ظهرت بعيد ذلك .

وبكلمة أخرى : فان تعرّف أطباء دمشق على أحد أبرز ممثلي المدرسة الاندلسية أدى الى تطور علمي كبير : أحد مظاهر هذا التطور هو اكتشاف أهمية المعجم الدوائي / النباتي عديد اللغات ، ففي كتاب ابن البيطار ( الجامع لفروقات الأدوية : والأغذية ) (١٠١) وجداً لطباء دمشق متزادفات كثيرة لأسماء النبات ، كما عرّفوا اسم الدواء بلفات أخرى غير معروفة في الشرق كاللاتينية أو البربرية . فقد لهذا الكتاب مؤلف دمشقي هو ابن السويدي (١٠٢) في كتاب سماه : ( السمات في أسماء النبات ) وفي هذا الكتاب بلغ ( المعجم الطبي عديد اللغات ) ذروة تطوره ، اذ صار النبات الطبي يُذكر باسمه في عدد كبير من

اللغات : العربية والسريانية والفارسية واليونانية واللاتينية والبربرية وعامة الأندلس .

وتعد بعض الأسماء بلغات أخرى : كالسينكريتية والنبطية والقبطية .

فهذا الكتاب اذن معجم لأسماء النباتات الطبية ، ينبع في المؤلف نهج أستاذة ابن البيطار في أحد أغراض كتابه : ( الجامع ٠٠٠ ) .

وفي الحقيقة فان المعجم النباتي الدوائي ظهر أول ما ظهر في الأندلس<sup>(١٠٣)</sup> ، ووصل الى مستوى رفيع في كتاب ابن البيطار ، الا أن ابن السويدي تفوق في هذا المجال على أستاذة ابن البيطار .

★ ★ \*

#### سادساً : كتب الأدوية المقابلة للأمراض

كان لابن البيطار تأثير آخر على أطباء دمشق في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ( = ق ٧ هـ ) . فقد كتب ابن البيطار كتاباً سماه ( المغني في الأدوية المفردة )<sup>(١٠٤)</sup> .

وقد صنف المؤلف هذا الكتاب تصنيفاً مبتكرأ .

فهو يعرض فيه الأمراض بالسلسل وفق الأسلوب المتبوع في ذلك الوقت : (من الشرق الى القدم)<sup>(١٠٥)</sup> لكنه يكتفي بذكر اسم المرض دون أن يعطي تعريفاً له ، ودون أن يعدد أسبابه أو يصف أعراضه . وتكون أسماء الأمراض في هذا التصنيف بمثابة عناوين لفقرات ( أو فصول ) في الكتاب .

فاسم المرض يصبح في هذا الكتاب عنواناً أما مادة الفصل فهي تعداد أسماء الأدوية المفردة<sup>(١٠٦)</sup> المستعملة لعلاج هذا المرض ، وهي كثيرة في معظم الأحيان .

ويكون تسلسل الأدوية في كل فصل ( أو فقرة ) وفق الترتيب الهجائي .

وفي هذا الكتاب لا يفصل ابن البيطار في الحديث عن هذه الأدوية بل يكتفي بالاشارة الى فائدتها لعلاج هذا المرض . وقبل أن يكتب ابن البيطار كتابه ( المغني ) ، كان الاسلوب المتبوع هو تعداد أسماء الأدوية المفردة وفق الترتيب الهجائي أيضاً ، ولكن مع ذكر خواصها ومميزاتها وأوصافها وتأثيرها الدوائي .

أما هنا الكتاب فالأساس فيه هو عرض الأمراض حسب الأعضاء الأولية وذكر أسماء الأدوية المستعملة لعلاج هذه الأمراض بشكل مقتضب .

وقد اهتم ابن السويدي بهذه الأسلوب فاتبعه في كتابة كتاب ضخم سماه :

( التذكرة الهدية والذخيرة الكافية )<sup>(١٠٧)</sup> لكن ابن السويدي في هذا الكتاب قد أيضًا كتاب ( الجامع ٠٠٠ ) لابن البيطار في أحد مزاياه الهامة ، ذلك أنه اختار فيه مجموعة كبيرة من المقتبسات<sup>(١٠٨)</sup>أخذها من أهم المؤلفين في هذا العقل ، ومن هنا جاء حجم الكتاب الضخم .

فتقى ذكرة ابن السويدي إذن تجمع ميزتين هامتين من كتابيَّ ابن البيطار ( المغني ٠٠ ) و ( الجامع ٠٠ ) : من ( المغني ٠٠ ) أخذ أسلوب ( الأدوية المفردة المقابلة للأمراض ) ، ومن ( الجامع ٠٠ ) أخذ أسلوب الاكتثار من الاقتباسات .

وهذا يفسر لنا الشهرة التي تتمتع بها هذا الكتاب لعدة قرون .

ويبدو أن أسلوب تعدد الأدوية المفردة المستعملة لعلاج الأمراض مرضًا مرضًا كان شائعاً في هذا العصر ، ولعل هذا التقليد بشكله البسط يعود إلى أيام ابن بطلان<sup>(١١٠)</sup> وابن جزلة<sup>(١١١)</sup> أي إلى القرن العادي عشر الميلادي – ( القرن الخامس الهجري ) ، حيث ظهر أسلوب ( الجداول ) في الكتاب الطبي .

فإذا نظرنا في كتاب ابن جزلة ( تقويم الأبدان ٠٠ ) واخترنا الأقسام المتعلقة بأمراض العين على سبيل المثال : وجدناه يعدَّ أولاًً أمراض المجن، وبعدها أمراض الملق ، ثم أمراض الملتحمة ، ثم أمراض القرنية ، وهكذا . وينذكر إلى جانب كل مرض اسم الدواء المتوفَّر المناسب له ، أي الدواء المتوفِّر في كل زمان ومكان والذي يمكن الحصول عليه بشمن زهيد . ثم يذكر الأدوية الأخرى . وبعدها يذكر ما يسميه ( التدبير الملوكى ) وهو الدواء الذي لا يكون له مذاق مرّ ، والذي لا يزعج المريض فيوصف للملوك أو للأطفال .

وقد اعتمد هذا الأسلوب البسيط على شكل الجدول الذي يحتوي على خانات أحدها تذكر الفصل الذي يكثر فيه انتشار المرض ، وأحدها يعين السن الذي يشاهد فيه المرض ، وأحدها يجيب: هل يستفيد المريض في المعالجة من أسلوب الفصد أو لا يستفيد ، وفي خانة أخرى يذكر أشكال التدبير الذي يلْجأ اليه في

المعالجة اضافة الى المداواة كاللجموء الى العمام أو العمبة أو الجراحة الخ .  
ويبدو أن ظاهرة ( تعداد ) الأدوية المختلفة المناسبة لكل مرض من الأمراض  
هي التي تطورت ووصلت الى ما نحن بصدده في هذا العصر ..  
ومن المؤلفين الذين اعتمدوا هذا الأسلوب في التأليف كحال أندلسى جاء  
إلى ينداد ، وكتب فيها كتاباً سماه ( النهاية في علم العين )<sup>(١١٢)</sup> وفي أحد أقسام  
الكتاب يعدد المؤلف أمراض العين مبوبةً حسب التقسيم المتبع في ذلك المصر ، ثم  
يذكر إلى جانب كل مرض أسماء الأدوية المفردة المختلفة التي تستعمل لعلاجه .  
وهذا الكحال هو عبد الله بن قاسم الحريري الاشبيلي المتوفى قبل انتصاف القرن  
الثالث عشر الميلادي .

ولعله من المهم في تاريخ الطب العربي أن نحاول التعرف ما إذا كان  
ابن البيطار والحريري الاشبيلي قد تأثراً بم مؤلف لا نعرفه نسجاً على منواله في  
هذا الأسلوب الجديد في التأليف .

أما ابن السويدي فلا شك أنه تأثر بابن البيطار وسلك سلوك أحد تلامذته .

#### سابعاً : المؤلفات الجراحية :

في السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر الميلادي ، ( وربما في السنوات  
الأولى من القرن الرابع عشر ) كتب يحيى بن أبي الرجاء العموي كتاباً في  
طب العين سماه ( نور العيون وجامع الفنون ) . وقد أشتهر هذا المؤلف في  
أوساط الاستشراق ومؤرخى الطب في مصر العديث باسم صلاح الدين بن  
يوسف<sup>(١١٣)</sup> ، ولعل هذا الكتاب أحد أهم كتب الكحل المتأخرة التي كتبها العرب .  
وفي مقدمة الكتاب يذكر المؤلف انه اعتمد في جمع المادة العلمية لهذا الكتاب  
بشكل رئيس على بعض الكتب ، أحدها هو كتاب الزهراوى<sup>(١١٤)</sup> ( التصريف لـ  
عجز عن لتأليف ) ولكنه في متن الكتاب يستشهد بأكثر من ستين مؤلفاً في الطب .  
وفي هذا الكتاب ( نور العيون ... ) نجد تأثير الزهراوى واضحاً في الجراحة  
العينية ، كما نجد أيضاً تأثيراً لابن زهر<sup>(١١٥)</sup> .

وفي الحقيقة فإن مؤلفنا العموي لم يكن وحده الذي استعان بهذين الأستاذين  
الأندلسيين ، بل استعان بهما أيضاً زميله العلبي : خليفة بن أبي المعاسن ، في كتابه  
( الكافي في الكحل )<sup>(١١٦)</sup> الذي ظهر في الربع الثالث من القرن الثالث عشر .

ومن نافلة القول أن نشير إلى أن اعتماد هذين المؤلفين الكبيرين كان بالدرجة الأولى على الكعاليين الكباريين علي بن عيسى البغدادي<sup>(١١٧)</sup> وعمار بن علي الموصلي<sup>(١١٨)</sup> .

وفي العقيقة فان جراحة العين لم تكن هي وحدها التي أحرزت ذلك التقدم الكبير في هذا المصر ، بل تقدمت الجراحة العامة أيضاً .

ولعل أبرز الوثائق الباقية عن تطور علم الجراحة ، وتقديم فن التأليف فيه هو كتاب ( العمدة في صناعة الجراحة )<sup>(١١٩)</sup> الذي كتبه ابن القف الكركي ، المتوفى عام ١٢٨٦ م = ٦٨٥ هـ .

وابن القف أحد تلامذة مدرسة الطب الشامية ، رافق الجندي في عجلون ، واكتسب خبرة كبيرة في مجال الجراحة .

ويكاد كل فصل من فصول ( العمدة ) ينطق بمعنى التجربة الشخصية للمسؤول ..

ولم يكن ابن القف الطبيب الوحيد الذي رافق الجنود ، بل ذكرت لنا كتب المصادر أسماء الأطباء الذين اختارهم أمراء الأيوبيين لرافقتهم في مختلف المدن السورية .

ولعل خليفة بن أبي المعاس قد عمل أيضاً في مجال الطب العسكري<sup>(١٢٠)</sup> .

#### ثامناً : نظرية الأ بصار

حينما أخذ العرب الطب الأغريقي تبنوا أيضاً التقسيم المعتمد لدى الأساتذة اليونان : فالطب في عرفهم ينقسم إلى قسمين : العلم والعمل أو النظر والعمل<sup>(١٢١)</sup> .

أما العلم فهو ( العلوم النظرية ) أو ( كليات الطب ) : علم التشريح ، وعلم وظائف الأعضاء ، ونظريات الأمراض الخ .

وأما العمل فهو علم أيضاً ولكنه علم يُعني بالمارسة الطبية العملية ، أو السريرية ، ويشمل علم الأعراض والتشخيص وعلم الأدوية وفن المداواة الخ .

وعند الكعاليين تشتمل ( الكليات ) على علم تشريح العين وكان يسمى

( خلقة العين ) أو ( تركيب العين ) وعلم وظائف العين وكان يسمى ( فعل العين ) أو ( الأ بصار ) .

وتحت باب ( الأ بصار ) عرَض المؤلفون العرب نظرية الأ بصار التي تبناها جالينوس ، فعل ذلك ابن ماسويه<sup>(١٢٢)</sup> في كتابه ( دغل العين ) ، وفعل ذلك أيضاً حنين ابن إسحق<sup>(١٢٣)</sup> في كتابه ( الشر مقلات في العين ) وهكذا .

لكن علي بن عيسى<sup>(١٢٤)</sup> عرض هذه النظرية باختصار شديد في كتابه ( تذكرة الكحالين ) . وابن سينا لم يتطرق إلى ذلك في القسم المتعلق بالعين من كتابه ( القانون ) ، ذلك أن مفكري تلك الحقبة ( نهاية القرن العاشر الميلادي وبداية القرن العادى عشر ) اعتبروا أن الاشتغال بنظرية الأ بصار هو شأن فلسفى<sup>(١٢٥)</sup> يُعنى به الفيلسوف أو الطبيب-الفيلسوف ( العكيم ) ، ولا ينبغي أن يتسع الطبيب الممارس ( المتطلب ) في معرفته أو الاهتمام به .

وعلى ذلك قاتل ابن سينا الذي لم يعرض ( نظرية الأ بصار ) في ( القانون ) عرضها في كتابه الفلسفى ( الشفاء )<sup>(١٢٦)</sup> .

وبعد ابن سينا صارت ( نظرية الأ بصار ) موضوعاً بعيداً عن اهتمام المؤلفين ، وبخاصة مؤلفي كتب الكلع . وقد ظل الأمر على هذه الحال طوال القرنين العادى عشر والثانى عشر الميلاديين ( ق ١١ - ١٢ م = ق ٥ - ٦ هـ ) في مطلع القرن الثالث عشر أشار العريسي في ب Freddie اشارة سريعة إلى نظريات الأ بصار التي تبناها الأساتذة الاغريق ، وكذلك فعل خليفة بن أبي المعansen في حلب في الرابع الثالث من هذا القرن ، رغم أن خليفة عبر صراحة عن رأي ابن سينا في أن هذه المسألة ليست من اختصاص الكحال .

أما صلاح الدين ( يحيى بن أبي الرجاء ) ، فقد تمرد على هذا الرأي وخصص في كتابه ( نور العيون ٠٠ ) مقالة كاملة لنظريات الأ بصار<sup>(١٢٧)</sup> .

عرض يحيى بن أبي الرجاء ( صلاح الدين ) نظريات أصحاب الشعاع المختلفة وسمى من الأساتذة الاغريق هيبارخوس وابنادوقلس وديموقريطس وابيقرسوس ( ابيقر ) واقليدس ، وعرض نظرية الانطباع وفصل في شرح رأي أرسطوطاليس وابن سينا ثم عرض نظرية أفلاطون ( نظرية اجتماع الضياء ) .

ويتضح للقارئ المدقق تأثير صلاح الدين بما سبق أن كتبه فلوترخس حول هذه النظريات<sup>(١٢٨)</sup> . وقد ألغى صلاح الدين كتابه بأشكال فيزيائية وضَّحَ فيها نظريات الابصار المختلفة هذه تذكرنا بالأشكال الواردة في كتاب اقليدس (المناظر) وأضاف أشكالاً أخرى الى الموروث اليوناني .

أما ابن النفيس - الذي عرض هذه النظريات في كتابه (المهذب ٠٠٠) - فقد أثر أن يشرح نظريته الخاصة .

خصص ابن النفيس في (المهذب ٠٠٠) عشرة فصول لدراسة ( فعل العين ) ، فعرض الآراء القديمة وفندَها ، وبين كيف يتتصَّر أصحاب هذه النظريات لأرائهم ، وردَ عليهم، ثم بين رأيه الخاص وشرحه ، وذكر ما يمكن أن يسوقه الآخرون من اعتراضات على نظريته ، ورد على هذه الاعتراضات .

والفرق بين ابن النفيس وصلاح الدين أن صلاح الدين عرض نظريات الآخرين عرضاً حيادياً ، فلم ينتصر لأي منها . أما ابن النفيس فقد عرضها ورفضها ، ووضع نظرية خاصة به .

و هنا يتبيَّن لنا أن هذين الطبيبين كانوا من طبقة ( الطبيب - الفيلسوف)<sup>(١٢٩)</sup> وليس المطبع البسيط .

#### تاسعاً : الموقف من النظريات الطبيعية

تميزت بعض المؤلفات الطبية العربية باحتواها على أقسام مفصلة مخصصة للطب النظري ، وأقسام أخرى مكرَّسة للطب العملي<sup>(١٣٠)</sup> .

ولكن بعض الكتب الأخرى لم تخصص أي جزء للطب النظري ، واعتبرت بمثابة كناثات أو كتب سهلة العمل غرضها الأساسي أن تكون بمتناول الطبيب دوماً لصغر حجمها ووضوح تبويبها .

ولعل كتاب ابن جزلة<sup>(١٣١)</sup> ( تقويم الأبدان في تدبير الإنسان ) هو أحد أهم هذه الكتب التي صدرت في القرن العادي عشر الميلادي ( ق ٥ هـ ) .

وليس من السهل - في حدود ما وصل اليه البحث العلمي اليوم - أن نجيب عن التساؤل التالي :

هل نجد في هذا النوع من الكتب نوعاً من التخلّي عن نظريات الطب التقليدية؟ وهل يمكن أن نرى في هذه الكتب شيئاً ينمّ على أن مؤلفيها ضاقوا ذرعاً بنظريات الطب الموروثة؟

لكننا نعرف في المقابل ظاهرة أخرى: وهي أن بعض المؤلفين الذين شرحوا المؤلفات المدرسية اتفقوا من هذا (الشرح) وسيلة لمعارضة آراء الأساتذة والرد عليهما ونقدّها، وكل ذلك تحت (غطاء) شرح هذه الآراء.

لذلك فاننا لا نستبعد امكانية العثور على مؤشرات أخرى تدل على معارضة الأطباء العرب لنظريات الطب المدرسية.

ونحن نعرف أن ابن النفيس حينما عارض جالينوس وابن سينا في مسألة (الدوران الرئوي) كان يفعل ذلك تحت ستار شرح القسم المتعلق بتشريح القلب والرئة من كتاب ابن سينا (القانون)، ولذلك أسمى كتابه (شرح تشريح القانون).

ونحن نرى في كتاب القيسي<sup>(١٢٢)</sup> (نتيجة الفكر في علاج أمراض البصر)، ظاهرة من ظواهر التخلّي عن واجب عرض (كتّابات الطب) في المؤلفات الموجهة للمارسين.

والمؤلف في هذا الكتاب يقتصر على عرض الطب السريري ويدقق في مسألة الاعراض والتشخيص، ويختار ما يراه مناسباً من الأدوية ويتخلّي عن الوصفات الملاجية التي لا تعجبه، ولا يورد من تشريح العين إلا فصلاً مختصراً واضحاً.

وقد عبر المؤلف صراحة عن دوره الانتقائي الفعال في اختيار الأدوية التي يدونها في كتابه، فهي أدوية (صحت تجرّبها، واتضحت معرفتها).

وهو يتبع في هذا النهج الطبيب القاهري عمار بن علي الموصلي صاحب (الم منتخب في علاج أمراض العين).

#### عاشرًا : بعض الأمثلة على المساهمات الأصلية في اغناء المعرفة

نقتصر هنا على إعطاء مثيلين اثنين يسهل فهمهما على غير الأطباء، ونختارهما من حقل طب العيون<sup>(١٢٣)</sup>.

فقد حاول ابن النفيس تفسير ظاهرة الشفافع (وهي رؤية الشيء شيئاً

وربط بين الشفط وشلل إحدى عضلات العين ، وقد عرف كثيرون العلاقة بين (الماء) وبين القثيان والقيء ، معتبرين عن قدرة علىربط الأعراض العينية بالأعراض العامة، وأهم الأعراض العينية هنا هي (أن يبصر المريض وكأنه في ضباب ) ، كما أنهم تمكنوا من معالجة هذه الحالة المرضية باعطاء المسهلات .

ومن الواضح هنا أن (الماء) يعني ارتفاع توتر باطن العين في هذه الحالة ، وليس تقدر البليورة . وعلى ذلك فالماء عند الأطباء العرب قد يكون السادس<sup>(١٢٤)</sup> وقد يكون الترقيق<sup>(١٢٥)</sup> .

★ ★ ★

### □ العواشي :

المرسي ، الذي مر ، يbeschق في طريقه من العراق الى الاندلس ، فاعجب بهم فيها رخاؤها ، فاختار الإقامة فيها ، وذلك بعد عام ١١٧٧ م = ٥٦١ هـ وفيها توفي سنة ١١٦٤ م = ٥٤٩ هـ .

انظر: القسطنطيني ، ص ٤٠٥ (بخارى لبيت) ، ابن العبرى ، مفتصر ، ص ٢١١ . ابن مراد ، ٩٦ .

وحوال هذا الطبيب : انظر اضافة الى هذه المراجع : ابن أبي الصبيحة ١٤٦٢:٢ .

٦ - جادها أطباء من مختلف المدن طلبا للدراسة او استقروا فيها : من قلعة جمير ، ومن حلب وحماء والرجبة والقدس والكرك ، وبعلبك وصور وغيرها .

٧ - ومنها طبريا ، حول عمار بن علي : انظر : ثبات العمارنة (دور العرب في تطور طب العين) الجزء ١ ، ص ١٣٥ ، و (تاريخ اطباء العيون العرب) الجزء ١ ، ص ٦٢-٦٤ ، و (مقتبسة حول طب العيون العربي) ص ١٦٨ .

٨ - من بها ايضاً : ابن بطلان في طريقه من بغداد ، وعبداللطيف البغدادى في طريق عودته من القاهرة الى بغداد ، وغيرهما كثيرون .

فقد أحصى الاستاذ ابراهيم بن مراد أحد عشر طبيباً استقروا في دمشق جاءوا اليها من العراق أو المغرب أو الاندلس (انظر : ابن مراد ، ص ٩٧-٩٦) وذلك استناداً الى ترجماتهم في (عيون الأنباء) .

٩ - صحيح ان عملية ترجمة الطب من اليونانية او السريانية الى العربية بذلت في الشام أيام الامويين ، الا ان القاهرة لم تنسع وتصبح تياراً حضارياً ذائلاً الا في بغداد أيام العباسيين .

١ - التم هذه الإبعاث قام بها المستشرق الفرنسي الطبيب الشهير لوسيان لوكلير الذي كتب عام ١٨٧٦ (الطب العربي) في جزئين . وآخر هذه الدراسات الهامة هي ما كتبه التزيل الاستاذ الدكتور ابن مراد (تونس) بعنوان : (من مظاهر تطور الطب في بلاد الشام في القرنين السادس والسابع المجريين) ، (انظر : قائمة المراجع) .

ومن أهم هذه الدراسات تلك التي كتبها الاستاذ الدكتور زهير الباشا (دمشق) بعنوان : (المدرسة الطبية الدمشقية في ظل البيمارستان النوري) ، (انظر : المراجع) .

٢ - لوكلير اعتمد على ابن أبي الصبيحة بينما استعمل آخرون بالقربيزي او القلقشندي او ابن كثيرون او ابن العدام او غيرهم .

٣ - مثلاً : رحلة ابن جبير .

٤ - واهم هذه الكتب : نبيحة الفكر : للقسيسي . - المهلب : لابن النفيس .

- الكافي في الكعمل : لخلفية . - نور العيون : لصلاح الدين . - النهاية في الكعمل : للعزيري .

وهذه كتب في (طب العين) .

انظر عنوانين هذه الكتب واسماء مؤلفيها بشكل مفصل في قائمة (المصادر) .

وتحتها كتاب هام آخر :

- امتحان الابتسام ... للسلمي ، وهو كتاب مخصص لامتحان الأطباء (انظر : المصادر) .

٥ - يتبه الاستاذ ابراهيم بن مراد في مقالته (ص ٩٦) الى القصة التي رواها القسطنطيني (جمال الدين / ابو الحسن / علي بن يوسف) في كتابه (أخبار العلماء بأخبار الحكماء) حول الطبيب الاندلسي ابن الحكم عبد الله بن المظفر

- ١٠- حلت بضداد حلو جنديسبور في بناء القسم مشافتها ، وجعله مركزاً لاستئنافه ودراسة لتعليم الطبلة للقلادة ، وللتوصي في موضوع انتقال الطب من الأهم أساليفة إلى العرب انظر : مقالة كاتب هذه السطور :
- (مقدمة حول طب العيون العربي - الكحالا ) في مجلة التراث العربي - دمشق ، العدد ١٢ (١٩٨٦) ، من ١٤٢ - ١٦٦ .
- ١١- مهذب الدين أبو الحسن علي بن عبد الله النقاش المتولى سنة ١١٧٨ م = ٥٧٤ هـ .
- ابن مراد ، ٩٧ ، ١٠٣ ، البابا ٧٧ ، ابن أبي أصيبيع ١٦٣-١٦٢:٢★
- ١٢- وحيثما درس ابن مراد هذا الباب يعمق تبيان له بعض نواحي النقص في كتاب لوكليج فاستدرك ذلك .
- انظر مثلاً : ابن مراد ، من ١٠٩ ، الهاشمية رقم ٢٣ .
- ١٣- شخص بالذكر الاستاذين : محمد ذهري البابا - من دمشق وأبراهيم بن مراد - من توتن .
- وكان كاتب هذه السطور قد تعرض للدراسة هذه الموضوعات في حفل طب العيون ، ولخص النتائج في كتاب (دور العرب في تطور طب العين) الجزء الأول . تطور التعليم الطبي : من ٢٢ . تطوير الممارسة الطبية والؤسسات الصحية : من ٢٣ . والتالي والابداع : من ٢٣-٢٤ . الاكتشافات العلمية : من ٢٥-٢٦ .
- انظر كذلك : ثنا العمارة : (مقدمة حول طب العيون العربي) ص ١٧٦-١٧٠ .
- ١٤- في عام ١١٤٨ وحشد حلب والموصل ، وفي عام ١١٤٤ حرر الراها .
- ١٥- قتل عماد الدين غيرا عام ١١٤٦ .
- ١٦- ضم حصن عام ١١٤٩ ، و دمشق عام ١١٥٤ ، ومصر عام ١١٧٤ ، وتوفي عام ١١٧٤ (١٥ أيام) .
- ١٧- اعاد صلاح الدين توحيد البلاد فضم الى مصر ودمشق وحلب ١١٨٣ ، والموصل عام ١١٨٦ ، وانتصر في حطين عام ١١٨٧ ، واسترد القدس عام ١١٨٨ (٥٨٣=) .
- ١٨- ابن العماد : شذرات الذهب . ابن جبير : الرحالة .
- ١٩- ابن جبير : الرحالة . ابن أبي أصيبيع : العيون .
- ٢٠- ابن أبي أصيبيع : عيون الأنفاس . ابن جبير : الرحالة .
- ٢١- ابن أبي أصيبيع : العيون . ٠٠٠ ابن تقرى يربى : النجوم الظاهرة .
- ٢٢- ابن كثير : البداية والنهاية . ابن تقرى يربى : النجوم الظاهرة .
- ٢٣- ابن العماد : شذرات . ٠٠٠
- اختار الاستاذ البابا هؤلاء الأطباء وأعطي نبذة عن كل واحد منهم ، وذلك للتدليل على أهمية تلامذة الاستاذ المختار ، وعلى الدور البارز الذي لعبوه في الحياة العلمية والاجتماعية ، وخاصة في ممارسة المهنة الطبية والتدريس .
- لقي مصر : أشهر ابن النفيس ، ورشيد الدين أبو حليقة ، ورشيد الدين أبو سعيد .
- ويتمكن المودة التي تراجمهم في (عيون الأنفاس) او في كتاب لوكليج (الطب العربي) وقد أخذ عن ابن أبي أصيبيع كما يبينا . أما في الشام : فأن الحديث عن طبلتها سيأتي .

- ٥٢ - أبو العسن ابن عزاز بن أبي سعيد المتوفى ١٢٥٠ م = ٦٤٨ هـ ، انظر : ١١١: ٢٢٦: ٢ .
- ٥٣ - نجم الدين أبو ذكريا يحيى اللبناني المتوفى بعد ١٢٦٨ م = بعد ٦٦٦ هـ ، انظر : ١١١: ١٨٩: ٢ .
- ٥٤ - ابن مراد ٩٩-٩٨ م = ٩٩ هـ .
- ٥٥ - ابن مراد ٩٩ م = ٩٩ هـ .
- ٥٦ - شرف الدين أبو العسن علي بن يوسف الرحمن المتوفى حسولاني ١٢٦٩ م = ٦٦٧ هـ .
- ٥٧ - يدرالدين المظفر المتوفى عام ١٢٧١ م = ٦٧٠ هـ .
- ٥٨ - ابن مراد ١٠٢ م ، البابا ٨٩ .
- ٥٩ - الدانسي المتوفى ١٢٧٧ م = ٦٨٦ هـ .
- ٦٠ - ابن مراد ١٠٤ م ، يروكلمان (تاريخ ٤٠٠) الذيل ٨٩٤: ١ .
- ٦١ - ابن مراد ١٠٤ م ، البابا ٨٨ ، ١١١: ٢٤٦: ٢ .
- ٦٢ - شمس الدين أبو عبيدة محمد بن عبد الله اللبناني ، ابن مراد ١٠٤ م ، ١١١: ٢٤٦: ٢ .
- ٦٣ - والتراستان اعطتنا الموضوع حقه وبيتنا فضل المدرسة الطيبة المشتقة ، ودور بلاد الشام في تطور الطب وأهمية هذا العصر الذي تعم صدنه .
- ٦٤ - والجزء الثاني من هذه الدراسة ميتعرض إلى المعلومات الحديثة المأخوذة من الدراسة الموضوعية للمحتوى العلمي لكتاب الترسيس التي ظهرت في هذا العصر .
- ٦٥ - وهذه الدراسة إن تكمل يعني الاستاذين الكريمين .
- ٦٦ - ويدون معرفة ما أورده هذان الباحثان لا يمكن أن تعرضنتائج بعثنا . وهذا يفسر حرصي على عرض محتوى هاتين القاتلين الفيتين .
- ٦٧ - للاستزادة في هذا الموضوع :
- ٦٨ - انظر: مقالتنا (مكتبة الكلجالي في مصر الرازي) ص ١١-١٠ .
- ٦٩ - او: مقالتنا (تاريخ طب العيون في بلاد الشام) من ٨-٥ .
- ٦٥ - نذكر هنا عشرة من كتبوا في طب العين من أهل القرن الثامن الميلادي : ماسجوه البصري ، ماسجوه الجنديسايوري ، نيلاقوق ، أبو جرير الراهب ، جورجيوس ابن جبريل بن يقشيوس ، يقشيوس بن جورجيوس ، جبرائيل بن يقشيوس بن جورجيوس ، يحيى بن البطريرق ، عيسى بن حكم المشقني ، جبرائيل كمال المأمون .
- ٦٧ - وعشرون آخرين من أهل القرن التاسع الميلادي (= ١٣٠) .
- ٦٨ - يوحنا بن ماصوبيه - حنين بن اسحق - علي بن دين الطيري - حبيش بن الحصن الأصم المشقني - قسطنطين لوقا - اسحق بن سليمان الاسرائيلي - خلف الطولوني .
- ٦٩ - يوحنا بن سرابيون - سايبور بن سهل - عيسى بن ابراهيم بن يعيي .
- ٧٠ - حسول ابن النفيس : انظر : البابا ٧٨ ، ٨٥ ، ٨٩ .
- ٧١ - وكذلك : (وصف العول عند ابن النفيس) لكاتب هذه المقالة في مجلة تاريخ العلوم العربية ، المجلد ٨ (١٩٨٦) ص ٣-٦ .
- ٧٢ - وكذلك : كاتب هذه المقالة في (المهند في الكحل) في مجلة التراث العربي ، دمشق ، العدد ٢٠ (١٩٨٥) ، ص ١٦٦-١٦٩ .
- ٧٣ - أحمد بن القاسم بن خليفة السعدي الغزوي المتوفى عام ١٢٧٠ م = ٦٦٨ هـ .
- ٧٤ - انظر: ١١١: ١٩٨: ٢ ، ٢٢٢: ٢١١: ٢ .
- ٧٥ - (ابو ذكريا يحيى بن محمد) ت بعد ١٢٦٨ م = ٦٦٦ هـ .
- ٧٦ - ابن قاضي يعلبك : يدرالدين المظفر المتوفى عام ١٢٧١ م = ٦٧٠ هـ .
- ٧٧ - عزالدين أبو اسحق ابراهيم ، المتوفى عام ١٢٩١ م = ٦٩٠ هـ .
- ٧٨ - وهو ابن المفاج ، شمس الدين الكلبي ، موقف الدين عبد السلام .
- ٧٩ - انظر: البابا ٧٩ .
- ٨٠ - يسمى الاستاذ البابا (ص ٨٠) ملدا من المدارس كانت تقع الى جانب البيمارستان السوري او يقرب البيمارستان القميри في الصالحية .
- ٨١ - وقد فصل الاستاذ ابن مراد في موضوع المدارس الطيبة في مقالته التي نشير هنا اليها .
- ٨٢ - ابن مراد ، ص ١٠١-١٠٢ .
- ٨٣ - ولم يدع هذان الاستاذان المحترمان مجالا مستزيد .
- ٨٤ - البابا ٨٦-٨٤ .
- ٨٥ - البابا ٨٤ .
- ٨٦ - البابا ١١١: ٢١٢: ٢ .
- ٨٧ - البابا ٧٩ ، ٨٥ .
- ٨٨ - البابا ٨٥ .
- ٨٩ - البابا ٨٦ .
- ٩٠ - ابن مراد ٩٧ .
- ٩١ - انظر: ابن مراد ٩٨ .
- ٩٢ - فخر الدين رضوان ابن الساعي المتوفى في التصف الاول من القرن السابع الهجري (= القرن ١٣ م) .
- ٩٣ - ١٨٤: ١٨٣: ٢ .
- ٩٤ - مهبل الدين يوسف بن أبي سعيد السامرائي المتوفى ١٢٧٧ م = ٦٦٤ هـ ، انظر: ١١١: ٢٢٣: ٢ .

- انتر : نشات العمارة (دور العرب ٢٠٠٠) ص ٤١-٤٥ .
- ٦٦- ابن أبي الصبيحة (١٩١-١٩٢) ، وقد تتلذم موقف الدين عبد العزيز بن عبد العباري على الياس بن جرجس المطران (والد ابن المطران الاستاذ الشهير) وعمل في البيمارستان النوروي ، ثم صار استاذًا في الطب (٢٠٠) وكان له مجلس عام للمتشتتين عليه بالطبع (١١١-١٤٢) .
- ٦٧- وشهر جراحي هذا القرن هو الزهراوي الذي عاش في الاندلس في نهاية القرن العاشر وتوفي في أوائل القرن العاشر . وكتابه (التصريف ٢٠٠٠) يحتوى على مقالة مخصصة للجراحة تشمل لثة مادة الكتاب وهي المقالة الشلالون (الأخيرة) ، وتعتبر اهم ما كتب في العصور الوسطى في مادة الجراحة ، وعنها نقل جراحو اوروبا .
- ومن اساتذة بغداد الذين كتبوا في الجراحة يعقوب الكشكري الذي كتب كتابه بين عامي ٩٣٢ ، ٩٣٣ م .
- ٦٨- انتر : نشات العمارة (دور العرب ٢٠٠٠) ص ٢٢ .
- ٦٩- و خاصة في كتاب (المعدة) لابن القت وستفروز لابن القت فصلًا خاصًا فيما يeda .
- ٦٧- مثلاً في كتاب (الكلال) لغليفة ابن أبي المحاسن .
- ٦٨- توفى المسلمي عام ١٢٧ م = ٦٠٤ م .
- ٦٩- وحول المسلمين : انتر : ابن مراد ١٠٤ ، ١١١ .١ .١ ، انتر : ابن القت ١٩٢-١٩١ ، بروكلمان (تاريخ ٢٠٠٠) الدين ، لوكلير ٨٩٦:١ ، ٤٧-٤٦:٢ .
- ٦١- يشير المؤلف الى : العبراني في باب ، والجبر في باب آخر ، تماماً كما يشير الى الكحال في باب مستقل ، مما يمكن ان يشير الى استقلال هذه الفروع التخصصية عن بعضها البعض .
- ٦٢- انتر : ابن مراد ، من ١٠٥-١٠٨ .
- ٦٣- البابا ، ٨٨ ، ابن مراد ١٠٤ ، ١١١٠٢-١٠٦ ، ٢١٩-٢٢٦:٢ ، وكاتب هذه المقالة في (تاريخ طب العيون في بلاد الشام) ص ٢٤ .
- ٦٤- هدان الباحثان مما : مايرهوف وبروفر ، ولتوسيع في هذه المسألة يمكن العودة الى الاملية الجامعية التي كتبها مؤلف هذا البحث لطلاب الدراسات العليا (فرع تاريخ العلوم الطبية) في مهد التراث العلمي العربي في جامعة حلب .
- ٦٥- حول هذا الكتاب : انتر : مقالتنا (مكتبة الكحال في عصر الرازي) عام ١٩٩١ ، من ٤٤ .
- ومن المعروف ان نمة مخطوطين من هذا الكتاب : الاولى في بطرسبرغ ، والثانية في القاهرة .
- ولقد عثرنا على مخطوطة ثالثة لم يتمتعن عليها احد من قبل في استانبول .

- ٤٧- كتاب جالينوس (في الأدوية المفردة) ، ترجمة حبيش بن الحسن إلى العربية ، ونمة ترجمة قديمة استعملها جابر بن حيان لعلها من وضع يحيى بن البطريق .
- ٤٨- كتاب ميدوسقوريس: هيولى الطب (Materia Medica) نقله حنين بن اسحق من اليونانية إلى السريانية، ونقله اصسطون بن ياسيل من اليونانية إلى العربية ، وقد راجع حنين هذه الترجمة واجازها . وقد تمت هذه الترجمة البغدادية في القرن ٩ م = (ق ٢ هـ) قبل عام ٨٦١ م = ٢٤٢ هـ . وقد أبقيت هذه الترجمة على كثير من أسماء النباتات باليونانية لأن اسمها العربي لم يكن معروفاً . أو أنها عربت أسماء يونانية باسم آخر فارسي معروف في بغداد ومتداول بين الأطباء . وقد جرت في قرطبة في القرن العاشر م (ق ٤ هـ) مراجعة لهذه الترجمة عربت فيها معظم الأسماء اليونانية بغيري بيريزية أو فرت بعämية الإندالس التي هي لاتينية في أصلها .
- ٤٩- ومن مؤلاء المؤلفين الشرقيين ذكر على سبيل المثال :
- ١- ابن ماسويه : ت ٨٥٧ م = ٢٣٤ هـ .
  - ٢- حنين بن اسحق : ت ٨٧٣ م = ٢٦٠ هـ .
  - ٣- علي بن دين الطبراني : ت بعد ٨٥٥ م = بعد ٢٤٦ هـ .
  - ٤- حوالى ٨٦٤ م = حوالى ٢٥٠ هـ .
  - ٥- اسحق بن حنين : ت ٩١٠ م = ٢٩٨ هـ .
  - ٦- حبيش بن الحسن : توفي في مطلع القرن العاشر ٩٢٤ م = ٣٢٣ هـ .
  - ٧- محمد بن ذكريا الرازى : ت ٩٢٥ م = ٣٢١ هـ .
  - ٨- البالىسى : من أهل القرن العاشر م (٤ هـ) .
  - ٩- ابن أبي الأشعث: من أهل القرن العاشر م (٤ هـ) .
  - ١٠- علي بن العباس الجوسي: من أهل القرن العاشر م (٤ هـ) .
  - ١١- التيمىي: ت ٩٨٠ م = ٣٢٠ هـ .
  - ١٢- البيرونى: ت ١٠٦٨ م = ٤٤٠ هـ .
  - ١٣- ابن رضوان: ت ١٠٦٨ م = ٤٦٠ هـ .
  - ١٤- ابن جزلة: ت ١١٠٠ م = ٤٩٣ هـ .
  - ١٥- أبو الحسن صاعد بن هبة الله: ت ١١٠١ م = ٤٩٥ هـ .
  - ١٦- الف ابن جلجل (ت بعد ٩٩٤ م = ٣٨٤ هـ) . مقالة في ذكر الأدوية التي لم يذكرها (ديوسقوريدس في كتابه) .
  - ١٧- الف ابن جلجل (ت بعد ٩٩٤ م = ٣٨٤ هـ) . كتاباً في هذا الفرض سماه : (تفسير أسماء الأدوية المفردة) من كتاب ديوسقوريدس .
- ٤٩- تتملأ اسحق بن سليمان الإسرائيلى على اسحق بن همان .
- ٥٠- كتاب الزهراوى (التصريف لمن عجز عن النايف) ظهر في الإندالس في أواخر القرن العاشر الميلادى وهو موسوعة طبية امتازت بمعوضون ، اولهما : علوم الأدوية والثقافى والصيدلة . والثانى : العلوم الجراحية .
- ٥١- انظر : نشأت العمارنة (طب العيون العربى حتى نهاية ٢٠٠٠) ص ٣٩ .
- ٥٢- كتاب ابن ذهر (التيسير في المداواة والتدبیر) من اهم كتب الطب السريري العربية ظهر في الإندالس في القرن الثاني عشر الميلادى .
- ٥٣- ويقتصر هذا الكتاب بimately الجزء الثاني من موسوعة طبية إنديسلية . وهذاالجزء مخصص للطب العملي . أما الجزء الأول فمن تأليف ابن رشد وهو مخصص للطب النظري ، لذلك سماه مؤلفه (الكتلتين في الطب) . والكتلتين هنا بمعنى العلوم الكلية او الأساسية .
- ٥٤- ابن القفق الكركي (ت ١٢٨٦ م = ٦٨٥ هـ) العراج الشهير ، مؤلف كتاب (العلمه) .
- ٥٥- توفي الرازى ٩٢٥ م = ٣٢٣ هـ ، حشو الرازى : انظر مقالتنا التي اعدت (اسبوع العلم العادى والثلاثون /الاذقية ١٩٩١) وستظهر اعمال (اسبوع العلم) هذا قريباً من (المجلس الاعلى للعلوم - دمشق) .
- ٥٦- للتوضيح في هذا الموضوع انظر مقالة : الدكتورة سحر بعاصي عن امراض الاطفال عند الرازى . ومقالة : الدكتور محسن الغيثى عن الجنري والعصبة عند الرازى في اعمال (اسبوع العلم العادى والثلاثون) المشار اليه .
- ٥٧- ابن الجزار : توفي عام ٩٨٠ م = ٣٦٩ هـ .
- ٥٨- انظر : نشأت العمارنة (طب العيون العربى حتى نهاية القرن العاشر الميلادى) ص ٧٧ .
- ٥٩- اغلبظن ان ابن الجزار هو مؤلف هذا الكتاب . وليس الرازى كما قال الزميل الكريم الاستاذ الدكتور سلمان قطانة ، الذي عمق الكتاب ونشره .
- ٦٠- خصم المسلمين في (امتحان الاباه) :
- ٦١- الباب الاول - للنبيض . والباب الثاني - للبيسو .
  - ٦٢- الباب الثالث - للعجيات والبعارين .
  - ٦٣- اشارت سيرريد هوتكه في كتابها (شمس العرب ٢٠٠٠) الى هذه المسألة بشيء من التفصيل .
- ٦٤- انظر مقالتنا : (وصف العول عند ابن النفيس) في مجلة تاريخ العلوم العربية - حلب ، المجلد ٨ (١٩٨٦) ، ص ٢٩-٢٣ .

- ١٠٠ - كتب ابن البيطار كتاباً يعارض فيه ابن جزلة في كتابه «نهج البيان في ما يستعمله الإنسان» وقد سمي هذا الكتاب «البيان والاعلام بما في النهاج من الغلل والواهوم». وهذا تقليد عريق في المدرسة الاندلسية في الأدوية. فابن الهيثم (عبدالرحمن بن الهيثم) من أهل القرن ١٠ م كتب كتاباً سماه «الاقتصاد والاجداد في خطأ ابن الجزار في الاعتماد» ينتقد فيه ما ورد في كتاب «الاعتماد» الشهير. والافتراضي تقدّم في مقدمة كتابه «الأدوية الفردية».
- وأبو العباس النباتي تقدّم الفاضي في كتاب خاص سماه «التنبيه على إغاظات الفاضي».
- ١٠١ - ظهر هذا الكتاب بعد عام ١٤٤٢ م (= ٦٤٠ هـ) وتوفي المؤلف عام ١٤٨٤ م (= ٥٦٦ هـ) ويتميز هذا الكتاب بضخامة حجمه إذ جمع فيه المؤلف كمية ضخمة من القتبسات التي اخترها بعناية.
- ١٠٢ - تولى ابن السويني في دمشق عام ١٩٢ م (= ٦٩٠ هـ) بعده الفضل في جمل كتاب «الأدوية الفردية» معجماً ثانائياً اللغة إلى ابن ججل، الذي كان أول مؤلف عربي يورد أسماء النباتات الطبية والمتقدّم اليونانية والمرية بشكل منهجي. وفي هذا سبق هام في عالم الأدوية، كما أنه فتح جديداً في التأليف المعجمي العلمي. وكتاب ابن ججل هو (تفسير أسماء الأدوية الفردية من كتاب ديوسقوريدوس). أما ظهور الأسماء العربية للنبات الواحد (الترادفات) فهو تقليد يعود إلى أيام ابن الجزار في كتابه «الاعتماد».
- وأما الاهتمام بالجانب النسووي الاصطلاحي في كتب الأدوية فقد جاء في مرحلة متاخرة، على يد الأدريسي والافتراضي (ونحن لا نعرف من متى كان سباقاً إلى تأليف كتابه). فقد كتب الأدريسي (الجامع لصفات اشتقات النبات) بينما كتب الفاضي «الأدوية الفردية» وقد توفيا في العام نفسه ١١٦٥ م = ٥٦٠ هـ. ومكذا فقد صار لكتاب الأدوية أهمية في عالم النسوين.
- ١٠٤ - كتب ابن البيطار هذا الكتاب في ذمن يقع بين عامي ١٢٣٨-١٢٤٠ م (= ٦٣٥-٦٣٧ هـ). وهذا يعني أنه كتبه بعد كتابيه: (تفسير كتاب ديوسقوريدوس) الذي ظهر بعد عام ١٢٤٢ م وقبل عام ١٢٣٦ م (البيان والاعلام بما في النهاج من الغلل والواهوم) الذي ظهر بعد ظهور (تفسير ...) الكتاب (المختصر) (٢٠٠٠). إن هو ثالث كتاب ابن البيطار الهامة من حيث ذمن ظهوره. وهذا يعني أن (المختصر) ظهر قبل ظهور

- كما الف أبو العباس النباتي (ت ١٦٣٩ م = ٦٣٧ هـ) كتاباً سماه «شرح أدوية ديوسقوريدوس وجاليتوس» والتبيّه على (وهام مترجميها).
- وآخر الف ابن البيطار (ت ١٦٤٨ م = ٥٦٤ هـ) كتاباً سماه (تفسير كتاب ديوسقوريدوس).
- ٩٧ - بذات ظاهرة إضافة الأدوية المفردة التي لم يذكرها ديوسقوريدوس ياسق بن عمران. وبعده جاء ابن ججل في ابن الجزار. وقد سبق أن ذكرنا أن ابن ججل كتب مقالة يستدرك فيها الأدوية التي أهملها ديوسقوريدوس، وكذلك كان بالبايس (ق ١٠ م = ٦٤٦ هـ) ذكر في كتابه (التكامل في الأدوية المفردة) عدداً من الأدوية البوتنية التي لم يعرّفها الأفريقي. وقد استمر هذا التقليد أيام الفاضي والشريف الأدريسي، واستمرت مع أبي العباس النباتي وأبن البيطار.
- ٩٨ - يدعى أبو العباس النباتي أيضاً باسم (ابن الرومية).
- ٩٩ - تعتبر المدرسة الاندلسية في علم الأدوية المفردة استمراً للمدرسة التي ظهرت في التبرون على يد اسحق بن عمران أولاً ثم ابن الجزار ثانياً، هذه المدرسة التي اعتمدت على تقليد المدرسة البغدادية الشرقية. وعلى ذلك فإننا تستطيع الكلام عن مدرسة مغربية-أندلسية.
- أهم أساتذتها هم :
- ١ - اسحق بن عمران : ت ٨٩٢ م = ٢٧٩ هـ
  - ٢ - ابن سجون : ت في النصف الثاني من القرن ١٠ م (= ق ٤ هـ).
  - ٣ - ابن الجزار : ت ٩٨٠ م = ٣٦٩ هـ
  - ٤ - ابن ججل : ت بعد ٩٤٤ م = ٢٨٤ هـ
  - ٥ - عبد الرحمن بن الهيثم : ت في أواخر القرن ١٠ م (= ق ٤ هـ).
  - ٦ - الزهراوي : ت حوالي ١٠١٣ م = ٤٠٤ هـ
  - ٧ - مروان بن جناح : ت بعد ١٤٦٠ م = ٤٦٠ هـ
  - ٨ - ابن والد : ت بعد ١٠٦٨ م = ٤٨٧ هـ
  - ٩ - أبو بيدر الباركي : ت ١٠٩٤ م = ٤٨٧ هـ
  - ١٠ - محمد بن عبدون : توفي في نهاية القرن ١١ م أو مطلع القرن ١٢ م (ق ٦٥ هـ).
  - ١١ - ابن يكلارش : عاش في النصف الثاني للقرن ٥ هـ والنصف الأول للقرن ٦ هـ (= ق ١٢-١١ م).
  - ١٢ - أمية بن أبي الصلت : ت ١١٣٤ م = ٥٢٩ هـ
  - ١٣ - ابن باجه : ت ١١٣٣ م = ٥٢٣ هـ
  - ١٤ - الشريف الأدريسي : ت ١١٦٥ م = ٥٦٠ هـ أو ١١٦٦ هـ
  - ١٥ - الفاضي : ت ١١٦٥ م = ٥٦٠ هـ.

- والنسختان الثانية والثالثة كان لنا شرف اكتشافهما : واحدة في طهران والآخر في استانبول . ونسخة طهران متحولة لابن القيس ، أما نسخة استانبول فلم يتمترف علماء استانبول على مؤلفها : (شنين وذيله على سبيل المثال) وقد وجدنا الجزء الآخر من هذا الكتاب (التي هو اقرایا زیدن الكتاب) في مخطوط مستقل في دبلن ، وأهلنا من ذلك ، لم كتب عنه الزميلة هيا الوصي . وأثنا مدين للزميل عبد العصرين حاتمي - طهران ، التي اهداه صورة عن مخطوط طهران من هذا الكتاب .
- ١١٣ - أول من قال عن المؤلف أنه (صلاح الدين بن يوسف) هو توكيل ، اعتماداً على مخطوطة الكتاب الموجودة في المكتبة الوطنية في باريس . ومن توكيل أحد هيشربغ (عام ١٩٥٠) هذا الاسم . أما التنقيق في قراءة خلية الكتاب فإنه يؤكد أن المؤلف نفسه كتب اسمه على الشكل التالي : (يعين بن أبي الرجاء) . وقد رجعنا إلى مخطوطات الكتاب المعروفة في الاستثنائية وغوتا وبارييس ثم اكتشفنا سنتين جديدين : وأهلنا في استانبول والأخر في دبلن . للتوسيع في معرفة المزيد عن هذا الكتاب انظر : كاتب هذه السطور في (تاریخ طب العيون ٢٠٠٠) ص ٢٩ .
- ١١٤ - انتثر نشأت العمارة (دور العرب ٢٠٠٠) من ١٢٦-١٣٣ ، وكذلك ثبات العمارة (طب العيون العربي ٢٠٠٠) ص ٣٩ .
- ١١٥ - ذكر يحيى بن أبي الرجاء (صلاح الدين ٢٠٠٠) في مقدمة كتابه أيضاً اعتماده على ابن ذهر .
- ١١٦ - حول خلية انظر : ثبات العمارة (تاریخ طب العيون ٢٠٠٠) من ٢٧-٢٦ . وحسوب (الكان ٢٠٠٠) نشأت العمارة : (الكان في الكل ٢٠٠٠) في مجلة التراث العربي ، العدد ٢٩ من ١٢٦-١٢٧ .
- ١١٧ - علي بن عيسى الكحال البغدادي : عاش بين القرنين العاشر والعطاني عشر . وظهور كتابه (تذكرة الكحالين) حوالي عام ٤٠٠ م = ١٠٠ م . وهذا الكتاب هو قانون اطباء العيون العرب . انظر : نشأت العمارة (مقدمة ٢٠٠٠) ص ١٦٩ . وكذلك (تاریخ اطباء العيون ٢٠٠٠) الجزء ١ ، ص ٦٤-٦٥ .
- ١١٨ - عمار بن علي الموصلي كتب (المتنبِّح في علاج أمراض العين) في نفس الوقت الذي كتب فيه علي بن عيسى كتابه ، انظر : نشأت العمارة (دور العرب ٢٠٠٠) من ١٢٥-١٢٤ . اصدار خاص من مجلة الكحال - دمشق ١٩٨٠ ص ٣٥-٣٢ .

- (الجامع ٢٠٠٠) . وتحمل أحدهي مخطوطات هذا الكتاب اسم (المفني في فن الطب) .
- ١٠٥ - وهو أسلوب قديم معروف بهذا يامراض الرأس (الجملة العصبية المركزية) ثم أمراض فروة الرأس ، فأمراض العين فالآن فالآن فالاستناد وهكذا .
- ١٠٦ - وليس الأدوية المركبة .
- ١٠٧ - بعض مخطوطات هذا الكتاب تحمل عنوان : (الذكرة المقيدة والذئبة الحميدة) .
- ١٠٨ - لا يوجد احصاء دقيق لهذه المقتبسات الا انه قبل انها اخذت من حوالي ٤٠٠ كتاب .
- ١٠٩ - توفي ابن السويدي عام ١٢٩٢ (= ٥٦٩٠ هـ) وقام الامام الشعراوي ( المتوفى عام ١٥٦٥ م = ٩٣٣ هـ ) باختصار الذكرة . وكان يدرالدين التوسوبي ( المتوفى بعد عام ١٥٢٥ م = ٩٣١ هـ ) قد اختصرها من قبل ولكن توفى قبل ان ينجز عمله هذا ، فقام ابن شائم المقدس ( المتوفى عام ١٥٩٦ م = ١٠٠٤ هـ ) باتمام هذا العمل وفرغ منه عام ١٥٥٥ م = ٩٦٣ هـ وكذلك الامام مؤلف مجہول باختصار تذكرة ابن السويدي في زمن لا تعرفه على وجه الملة .
- ١١٠ - تذكرة ابن السويدي اذ شغلت الناس حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادي على الاقل ، اي ان صداتها ظل يتربّد ثلاثة قرون .
- ١١١ - ابن بطلان : (من اهل القرن ١١ م = ٣٥ هـ) . في كتابه (تقويم الصحة) حيث يعدد في جداول واسعة الادوية المختلفة المستعملة لعلاج الامراض . ويبوّب هذه الامراض حسب الاضمام الالهة .
- ١١٢ - ابن جزلة في كتابه (تقويم الابدان ٢٠٠٠) وهو كتاب تالٍ مؤلفه فيه كثيرة يكتاب ابن بطلان فاعتبره اسلوب العداول . انظر : ثبات العمارة - المخطوطات العربية في طب العيون . اصدار خاص من مجلة الكحال - دمشق ١٩٨٠ ص ٣٢-٣٥ .
- ١١٣ - ويسمى الكتاب ايضاً : (نهاية الالكار ونزهة الابصار) وقد يدق من هذا الكتاب ثلاث نسخ كاملة : الاولى في المتعف العراقي في بغداد حققها الزميلان مصطفى شريف العاني واحازم البكري وظنانها فريدة .

- ١١٩- ظهر هذا الكتاب محققاً بفضل دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد الدكن ، الهند ، ولعل أهم ما كتب عن ابن النفيس يمثل شخصية (الطيب-الفقيه) وذلك اعتماداً على مجل شاطئه ومؤلفاته . ولا يسعنا هنا الا ان نتوقف عند هذا الرأي الذي يغيل علينا انه بعاجة الى تلقيق . فابن النفيس في شرحه للنور العموية الصغرى ، وفي عرضه لنظريات الابصار ومنافذها لاصحابها والرد عليهم ، وفي كتابه (فضل ابن تاقون) يبيو فيلسوفاً من درجة رفيعة ، وهو ايضاً فقيه . وقد قام ابن النفيس بتدريس الفقه في المدرسة المسرووية في القاهرة . أما عرض يحيى بن أبي الرجال (صلاح الدين) لنظريات الابصار فيدل ايضاً على انه طبيب - فيلسوف ، وليس مجرد كحال بسيط ممارس .
- ١٢٠- واهم هذه الكتب : قانون ابن سينا . وكمال الصناعة الطبية لعلى بن العباس ، وقد سبقت الاشارة اليهما . وقد كان كل منهما بمثابة موسوعة طبية شاملة . اي ان الكتاب كان يحيى بين ذيقيه المعرفة الطبية الازمة .
- ١٢١- توفي ابن جزلة عام ١١٠٠ م = ٤٩٣ هـ .
- ١٢٢- التقى : فتح الدين احمد بن عثمان ويسمى ايضاً ابن ابي العوارف وهو ابن الطبيب الذي سبق الحديث عنه . جمال الدين عثمان بن هبة الله التقى المتوفى عام ١١٩٧ م = ٥٩٥ هـ . وقد كان اباً ورئيساً للأطباء في مصر ، بينما عمل ابنه في مصر والشام . وقد ظهر كتاب (تنبيه الفكر) (٢٠٠) بين عامي ١٢٤٠ - ١٢٤٩ م = (٦٦٢ - ٦٦٧ هـ) . انظر : نشرات العمارة : تاريخ طب العيون في بلاد الشام من ٢٥-٢٤ .
- ١٢٣- للتوضيح في هذا الموضوع . انظر : نشرات العمارة : (مقتبنة حول طب العيون العربي) ، ص ١٧٤-١٧٥ .
- ١٢٤- تكتف البلاوره او تكريها او نقصان شفوفها Cataract .
- ١٢٥- البرق : ارتفاع توتر باطن العين Glaucoma .
- ١٢٦- تردد في كتابة عبارات يمكن ان تشير الى كثرة تنقله : (٢٠٠ في العول والتقالد) .
- ١٢٧- انظر : نشرات العمارة : دور العرب في تطور طب العين - الجزء ١ - على بن العباس ، ص ٣٤ - ٣٦ .
- ١٢٨- انظر : نشرات العمارة (تاريخ اطباء العيون العرب) الجزء ١ - من ٤٤-٤٨ .
- ١٢٩- المرجع السابق - من ٥٦-٥٣ .
- ١٣٠- المرجع السابق - من ٦٦-٦٠ .
- ١٣١- اعتبرت (نظريات الابصار) جزءاً من (العلوم الطبيعية) ، فهي ادنى من اختصاص (الفلسفة) . انظر : نشرات العمارة (دور العرب) (٢٠٠) ص ١٩ .
- ١٣٢- انظر : نشرات العمارة (المهد) (٢٠٠) من ١٥١ ، وكتاب الشفاء يكتون من عدة اجزاء : (الطباطبات ، الطبيعتان ، الرياضيات) (فنون) منها :
- العلوم والاسلام ، الكون والفساد ، المعاذر والاذار
  - العلوية ، الفنس . الخ . والنفس هو الفن السادس من طبيعتيات الشفاء . ويكون كتاب (النفس) من خمس مقالات ، المقالة الثالثة منها (في الابصار) .
  - وكتاب الشفاء محقق : حقته ابى قنواتي وسعيد زايد ، وراجعه ابراهيم مذكور عام ١٩٧٥ . وكان يان باكوش قد نشره محققاً عام ١٩٥٦ .
  - انظر : نشرات العمارة (٢٠٠) من ٢٩ .
  - انظر : ترجمة عبد الرحمن بيدوي (في الاراء الطبيعية التي يقبل بها الفلسفة) .

## اولاً - المراجع :

محمد زهير البابا :

المدرسة الطبية المشتقة في ظل البيمارستان التورى .

في مجلة : المتأصل - دمشق - العدد (١٢١) عام ١٩٧٩ .

(تشرين الاول) الصفحات : (٨٩-٩٤) .

وكان المؤلف قد اتقى هذا البحث على شكل معاشرة في

حفل اليم بمناسبة تعيينه مديراً للبيمارستان التورى الى

منتصف لعام ١٩٨٤ . وذلك في دمشق بتاريخ ٢٨/١١/٢١ .

ابراهيم بن مراد :

من مظاهر تطور الطب في بلاد الشام في القرنين السادس

والسابع الهجريين .

في مجلة : التراث العربي - دمشق - العدد (١٩) عام

١٩٨٥ ، الصفحات : ١١-٩٥ .

وكان المؤلف قد اتقى هذا البحث على شكل معاشرة في

دمشـق - تشـرين الأول (الكتـور) عام ١٩٨٤ .

في تنوـعـ السـماتـ الـاتـسـانـيـةـ لـللـنـعـمـ وـانـعـمـ فيـ بلـادـ الشـامـ .

نشرـاتـ العمـارـةـ :

تـارـيـخـ اـطـبـاءـ العـيـونـ العـربـ - الـجزـءـ ١ـ - طـ ٢ـ - دـمـشـقـ

١٩٨٥ (٨٠ صـفـحةـ) .

### ثالثاً - المصادر المخطوطة :

ابن الأكفاني :

- شمس الدين محمد بن ابراهيم الانصاري السعراوي .  
كشف الرين في احوال الدين . مخطوط القاهرة (الإسكندرية) .  
(وثمة نسخ أخرى عديدة يبعضها في القاهرة - دار الكتب) .  
أشرنا إلى هذا الكتاب هكذا : (الكشف...) .  
العرسري :  
هدى الله بن قاسم العزيري الاشبيلي - نهاية الأفكار  
ونزهة الأنصار (النهاية في الكلع) .

- مخطوط يقدّم - المتفق العراقي . (وثمة نسختان  
مخطوطتان كاملتان : واحدة في طهران ، وال الأخرى في إسطنبول ،  
وهناك نسخة ثالثة ناقصة في دبلن) . (والكتاب مطبوع في  
معلينين ، بتحقيق : مصطفى شريف العاتي وحازم البكري -  
يقدّم ١٩٧٩ - ١٩٨٠) .

أشرنا إلى هذا الكتاب هكذا : (النهاية للعزيري) .  
خليفة :

خليفة بن أبي الحسن العلبي - الكافي في الكلع .  
- مخطوط إسطنبولي (بني جامع) . (وهناك نسخة أخرى من  
الكتاب في باريس) . (الكتاب مطبوع : بتحقيق الزميلين :  
محمد ظافر الوافلي ، ومحمد رواس للطهري) .  
أشرنا إلى هذا الكتاب هكذا (الكافى / ٢٠٠٠) .

السلمي :

موافق الدين عبد العزيز بن عبد الجبار السلمي .  
امتحان الآباء لكتافة الأطباء . مخطوط فينا (مطبوع) .  
أشرنا إلى هذا الكتاب هكذا (امتحان / ٢٠٠٠) .  
صلاح الدين :

صلاح الدين بن يوسف (يعني بن أبي الرجاء) .  
نور العيون وجامع الفتوح . مخطوط إسطنبولي (عيديبة)  
(وثمة مخطوطات أخرى من هذا الكتاب في باريس ، دبلن ،  
غوتا ، الاستثنائية) . الكتاب مطبوع بتحقيق الدكتور محمد  
ظافر الوافلي ، الاستاذ الدكتور محمد رواس للطهري  
(الرياض ١٩٨٧) .

أشرنا إلى هذا الكتاب هكذا (نور العيون / ٢٠٠٠) .  
الصوري :

رشيد الدين ، الكافي في طب العين ، مخطوط متحقّق (الظاهرة) .  
القيسي :

أبو الباس . فتح الدين . أحمد بن عثمان .

نتيجـة الشـفـرـةـ في علاج أمراض البصـرـ . مـوـخـطـوـتـ غـوـتاـ .

(وثمة نسخ عديدة مقطورة من الكتاب : يبعضها في  
إسطنبول ، دبلن ، دمشق) . (والكتاب مترجم إلى الألمانية  
في أطروحة جامعية) .

أشرنا إلى هذا الكتاب هكذا : (النتيجـةـ / ٢٠٠٠) .  
ابن النقيس :

علام الدين أبو العلاء على بن أبي العزم القرشي .

المهدى في الكلع . مخطوط دمشق (الظاهرة) .

(وتحاتـشـ آخرـ في بـرـيـدـ وـاسـتـانـبولـ وـالـقاـهـرـةـ وـالـاظـاهـرـةـ) .

(الكتاب مطبوع بتحقيق الزميلين : محمد ظافر الوافلي ،  
ومحمد رواس للطهري) .

أشرنا إلى هذا الكتاب هكذا : المهدى / ٢٠٠٠) .

نشـاتـ العـمارـةـ :

تـارـيـخـ طـبـ العـيـونـ فـيـ بـلـادـ الشـامـ ، صـ ٣٦١ـ ٣٦٥ـ .  
فـيـ كـاتـبـ بـعـداـنـ : روـادـ طـبـ العـيـونـ فـيـ سـورـيـاـ ، أـصـدـرـهـ  
الـدـكـتـورـ سـعـيـرـ اـنـطـاكـيـ - دـارـ الدـاـكـرـ - حـمـصـ ١٩٩٣ـ .  
(٣١٦ـ صـفـحةـ) .

نشـاتـ العـمارـةـ :

دورـ العـربـ فـيـ تـطـوـرـ طـبـ العـيـونـ - الـزـوـرـ ١ـ .  
اصـدـارـ خـاصـ مـنـ مجلـةـ الـكـعـالـ - دمشقـ ١٩٨٥ـ .  
الـثـالـثـ لـهـدـ الثـالـثـ ، (١٦٨ـ صـفـحةـ) .

نشـاتـ العـمارـةـ :

طبـ العـيـونـ فـيـ نـهاـيـةـ الـقـرـنـ الـعاـشـرـ الـمـيـلـادـيـ .  
(الـرـابـعـ الـهـيـرـيـ) . اـصـدـارـ خـاصـ مـنـ مجلـةـ الـكـعـالـ - دمشقـ  
١٩٨٤ـ (الـجـلـدـ الـشـانـيـ) . (الـمـدـدـ الـشـانـيـ) ، ٧٧ـ .  
(٣ـ صـفـحةـ) .

نشـاتـ العـمارـةـ :

الـكـالـيـ فـيـ الـكـعـالـ لـخـلـيـفـةـ بـنـ اـبـيـ الـعـاصـمـ الـعـلـيـ .  
فـيـ مجلـةـ : التـرـاثـ الـعـربـيـ - دمشقـ - المـدـدـ الـشـانـيـ) ،  
١٩٨٧ـ . (١٥٩ـ ١٦٦ـ) .

نشـاتـ العـمارـةـ :

المـفـطـوـطـاتـ الـعـرـبـيـةـ فـيـ طـبـ العـيـونـ - اـصـدـارـ خـاصـ مـنـ  
مـجلـةـ الـكـعـالـ - دمشقـ - ١٩٨٠ـ - (الـجـلـدـ الـأـوـلـ) .  
(٦٤ـ صـفـحةـ) .

نشـاتـ العـمارـةـ :

مـقـمـةـ حـوـلـ طـبـ العـيـونـ الـعـرـبـيـ (الـكـعـالـ) .  
فـيـ مجلـةـ : التـرـاثـ الـعـربـيـ - دمشقـ - المـدـدـ الـشـانـيـ) ،  
الـأـوـلـ ١٩٨٦ـ . (١٤٥ـ ١٤٦ـ) .

نشـاتـ العـمارـةـ :

مـكـتـبـ الـكـعـالـ فـيـ عـصـرـ الـرـازـيـ - المـلـيـلـ الـأـعـلـىـ لـلـلـعـلـومـ .  
 دمشـقـ ١٩٩١ـ .

بنـسـاخـةـ اـسـبـوـعـ الـلـعـلـومـ الـعـادـيـ وـالـثـالـثـلـوـنـ فـيـ جـامـعـةـ تـشـيرـنـ.

الـلـاذـقـيـ ١٩٩١ـ . (٦٤ـ صـفـحةـ) .

نشـاتـ العـمارـةـ :

الـمـهـدـىـ فـيـ الـكـعـالـ لـابـنـ النـقـيـسـ .  
فـيـ مجلـةـ : التـرـاثـ الـعـربـيـ - دمشقـ - المـدـدـ (٢٠ـ) .  
تموزـ ١٩٨٥ـ . (١٧١ـ ١٤٤ـ) .

نشـاتـ العـمارـةـ :

وصـفـ العـولـ هـدـ ابنـ النـقـيـسـ .  
فـيـ مجلـةـ : تـارـيـخـ الـلـعـلـومـ الـعـرـبـيـ - حـلـبـ - المـلـدـ (٤ـ) .  
١٩٨٤ـ . (٥٧ـ ٥٢ـ) .

ثـانـيـاـ - المصـادـرـ المـطـبـوـعـةـ :

ابـنـ اـبـيـ اـسـيـبـيـةـ :

عيـونـ الـأـبـيـاءـ فـيـ طـبـاتـ الـأـطـبـاءـ - تـحـقـيقـ : اوـفـسـتـ موـلـ،  
الـقـاهـرـةـ ١٨٨٢ـ مـ (١٢٩ـ) . جـ ٦ـ .

ابـنـ العـبـرـىـ :

غـرـفـوـرـيوـسـ، اـبـوـ الفـرجـ بـنـ اـهـرـونـ، تـارـيـخـ مـخـتـصـرـ الـبـولـ.  
تـحـقـيقـ : اـبـ اـنـطـاطـونـ صـالـعـانـيـ الـيـسـوعـيـ - طـ ٢ـ .

الـطـبـيـةـ الـكـاثـولـيـكـيـةـ :

بيـرـسـ ١٩٥٨ـ .

الـقـطـنـيـ :

إـثـيـارـ الـعـلـمـاءـ بـيـخـارـ الـعـكـمـاءـ .

بـاعـتـنـاءـ : ليـبـرـتـ - لاـبـيـزـغـ ١٩٠٢ـ .

# الحياة العمانيّة في دمشق في العهد العثماني

م. نزيه الكواكبي

● تمييز :

يلاحظ الباحث في تاريخ العمارة والعمارة ، ندرة ما كتب من أبعاد عن الفترة العثمانية ، وأن ما كتب عن الفترات التاريخية الأخرى ، أكثر بكثير مما كتب عنها . وليس السبب في ذلك ندرة المخطوطات والوثائق بل فتور الهمة ، والغوف من الكتابة عن هذه الفترة ، إذ أن الوثائق متوافرة بكثرة ، وثمة مخطوطات عربية كتبها شهود عيان حاصروا ما حدث أو عاصروا فترة قريبة مما حدث . هذه الوثائق مبعثرة في شتى أرجاء المعمورة ، أضف إلى ذلك أن الوثائق العثمانية التي بدأ الاهتمام بها مؤخرًا ، إلى جانب رسائل القنصلين الفرنسيين والإنجليز والروس ... تشكل بمجملها مصدراً هاماً لتكون فكرة صحيحة عن تاريخ تلك الفترة بعد متابعة جميع هذه الوثائق وقراءتها بدقة وروية وحياد .

المدن العربية والاساءة الأوروبية المتعتمدة للتاريخ العثماني :

يقول الأستاذ أندريل ريمون : « انقلة معلوماتنا عن تاريخ المدن العربية تبدو واضحة بصفة خاصة بالنسبة للمفتررة « الحديثة » التي نهتم بها هنا ، أي خلال القرون العثمانية الأربع ( ق ١٦ - ق ١٩ ) . وأسباب هذا النقص في المعلومات عديدة : في البداية أود الاشارة الى فقدان الاعتبار تجاه الفترة العثمانية التي بدأت في أوائل القرن السادس عشر وانتهت بتفكك الدولة وسط أعمال عنف

أدت إلى تعميم صورة القرون العثمانية السابقة . ويعق جزء من المسؤولية أيضاً على عاتق الغربيين الذين أدى نفورهم من الفترة العثمانية السابقة للاستعمار إلى الإساءة بوعي إلى حد ما ، إلى ما كان قائماً قبل سيطرتهم ، وهي سيطرة يهدفون منها إلى « تحدث » البلاد التي يغزوونها .

ومع ذلك ، فإن العقبة العثمانية توفر مزايا ضخمة للباحث في المجال العمراني . إن المدن القديمة التي نعرفها هي أولاً وقبل كل شيء ميراث مباشر لعصر كان طويلاً للغاية ( أربعة قرون في سوريا وفلسطين ) وبالتالي فإن هذا العصر لا بد أنه قد أثر بعمق في البيئة العمرانية . وبالرغم من التدمير الذي حدث بسبب الانفجارات المدينية وبسبب تحدث هذه المدن في الفترة الأخيرة ، إلا أن المراكز القديمة قد حافظت على ثروة وفيرة من الروائع التاريخية والأشكال المدنية التي يمكن بدها استئناف توضيح البحوث الخاصة بالبنية وبالوظائف العمرانية » .

« ويمكن أن نتوقع من الأعمال البارزة الآن ، تجديداً شاملًا لمعارفنا عن المدن العربية » ، « إن هذا التقدم يجعلنا نتوقع حدوث انقلاب خلال بضع سنوات في معارفنا عن المدن العربية الكبرى » .

أقول : إن من يتفحص اليوم شوارع دمشق القديمة وامتداداتها الطبيعية : العقبة ، ساروجة ، القنوات ، باب سريجة – قصر حجاج – باب مصلى ، الميدان ، الصالحية مع متابعتها في كتاب القلائد أو الماكحة أو البداية والنهاية أو الروضتين أو خلاصة الأثر أو سلك الدرر أو حوادث دمشق اليومية أو دمشق المدينة الإسلامية ، ويقارنها بما ورد في النصوص يرى في ذلك متعة كبيرة ويشدّه ذلك ، ذلك لأن المدينة ما زالت محافظة على حالها رغم ما تعرضت له من التغييرات السريعة التي تتم الآن بشكل لا يمكن وصفه ، والتي تقضي على معالم دمشق العمرانية قضاء مبرراً وتغيرها تغيراً جذرياً .

وهكذا نرى أن الإساءة متعمدة وأن التعميم مهياً له ، ومن المؤسف تبني كثير منا لما كتبه الغرب ، إن لم يكتب أحدهم ما يمكن للغرب معه أن يتبيّنه ويتبنّاه لذلك علينا من خلال دراسة سجلات الإدارة العثمانية المحفوظة في إستانبول وفي عواصم الولايات وفي وثائق الأوقاف وسجلات المحاكم الشرعية أن نوضح الصورة

وأن نكتب بهدوء وحياد عن هذه الفترة دون أية خلفية مسبقة ، وما هذه الأوراق إلا البداية عن عمران وعمارة دمشق في تلك الفترة العثمانية ٠

### حال دمشق قبل الفتح العثماني :

كان وضع دمشق بائساً للغاية ، إذ كان تيمورلنك على أبواب دمشق وكانت الخلافات والصراعات والاغتيالات بين الأمراء في القاهرة خلال الفترة التي كانوا يتهيؤون فيها للتوسّع إلى نجدة دمشق على أشدها ٠ أخيراً ، دخل السلطان دمشق في يوم الخميس ٢٣ كانون الأول ١٤٠٠ م / سادس جمادي الأولى ٨٠٣ هـ وضرب خيامه في قبة يلبغا جنوبى دمشق، في الوقت الذي كانت فيه جيوش تيمورلنك قد وصلت إلى البقاع ، ونزل تيمورلنك في قطنا إلى الغرب من جيش السلطان ، ثم تحول إلى سطح قاسيون وتمرّك في قبة سيار يرافق السلطان ، والسلطان يرافقه ، وبدأ الجيشان يحفرون الخنادق ، أما أولى المناوشات فقد بدأت يوم السبت ٢٥ كانون الأول ١٤٠٠ م / ٨ جمادي الأولى ٨٠٣ هـ حيث ملأت جيوش تيمورلنك الأفق ، وجيش السلطان يستعد للقتال ٠ ٠ وفي الخامس من كانون الثاني ١٤٠١ م / ١٩ جمادي الأولى ٨٠٣ هـ ، رحل تيمورلنك إلى شقحب قرب الكسوة في محاولة لجمع الميرة والأعلاف ، وفي اليوم التالي الخميس ٦ كانون الثاني ١٤٠١ م / ٢٠ جمادي الأولى ٨٠٣ هـ ، عبأ تيمورلنك قواته بطريقته المعهودة ، وهي عبارة عن صفوف طويلة من المشاة ، ووصلت إلى أكثر من سبعين صفًا ، يراوح طول الصف الواحد بين ١٢ - ١٦ كيلومتراً تقدمها الفيلة ٠ أما الغريب في الأمر فهو الانسحاب الفاجيء للسلطان والجيش المصري من دمشق تحت جنح الظلام بسبب خلافات داخلية في القاهرة وتركها بمفردها أمام تيمورلنك وجهاً لوجه ، وتم الانسحاب مساء يوم الخميس ٦ كانون الثاني ١٤٠١ م / ٢٠ جمادي الأولى ٨٠٣ هـ ، حيث سمعت في معسكر المصريين جلة وضوّاء وشاحنات ، ووصلت إلى سمع تيمورلنك ، بل إنه رأها بيته ، واستنتج ببساطة أن المصريين على وشك الفرار ، فعاد إلى معسكره وقضى الليل فيه آمناً مطمئناً ، وهاجم تيمورلنك مدينة دمشق يوم الجمعة بعد رحيل السلطان ، فتصدى له عوام دمشق وغلّمانها ، ومن بقي فيها من المعاليك وقاتلوه ببراءة ٠

طبعاً ، دخل السلطان القاهرة يوم الخميس ٢٢ كانون الثاني ١٤٠١ م / ٥ جمادى الآخرة ٨٠٣ هـ وبينما القتال يدور كان تيمورلنك يزور أضرحة آل البيت في مقبرة باب الصغير ويناظر علماء دمشق ، ويأمر بناء قبتين على ضريحي أم سلمة وأم حبيبة رضي الله عنهما ، ونم يستفرق بناؤهما مما أكثر من خمسة وعشرين يوماً ، مع ما كان يعانيه أهل دمشق آنذاك من الفتنة والمصادرات ، ثم زار ضريح بلاط الع بشي ، وعاد إلى مقره في القصر الأيلق .

أما الكارثة الفعلية ، فلم تبدأ إلا بعد سقوط القلعة ، رغم أن بطولات المدافعين عنها تفوق الوصف ، فقد استمات المدافعون عنها إلى درجة اعجزت تيمورلنك وخيته . واستمر القتال الضاري زهاء الشهرين ، ثلاثة وأربعين رجلاً معظمهم من الأحداث يواجهون تيمور لنك وجنته ، وما اعيام العال وكثرة الجراح وإنعدام الأمل لم يجعلوا بدا من طلب الأمان ، فاقنهم تيمورلنك ، ونزلوا إليه يوم الجمعة ٨ آذار ١٤٠١ م / ٢١٧٩ جمادى الأولى ٨٠٣ هـ ، وكان أول ما فعله أن هدم القلعة وسواها بالأرض .

وإثر سقوط القلعة ، لم يعد يمنع دمشق من تيمورلنك مانع ، ذلك أن تيمورلنك ، ما إن استحوذ على كل شيء في دمشق ، حتى قبض على ابن مفencion المفاوض وألزمته وأعوانه بأن يكتبوا له أوراقاً بجميع خطط دمشق وحاراتها ودروتها ودورها ، ثم وزع هذه الأوراق على أمرائه وقسم المدينة بينهم ، ودخل الأمراء المدينة ، وسار كل منهم إلى العارة التي أقطعها له . . . وبعد أن أتى الأمراء على المدينة ولم تعد لهم بها رغبة ، أصدر تيمورلنك أمره للجنود بالنهب العام ، فدخلوا المدينة يوم الأربعاء ١٦ آذار ١٤٠١ م / آخر رجب ٨٠٣ هـ وبأيديهم السيوف مشهورة ، فقاموا بما قاما به ، ثم أضرموا النار في المنازل ، وكان يوماً شديداً في الريح ، فعم الحرائق المدينة بأسرها ، واستمرت النار متقدة مدة ثلاثة أيام يلياليها ، وأتت النار على الجامع الأموي فأزاله النار محاسنه ولم يبق منه إلا جدره وقد تفترط منها الرخام الذي كان يغطيها . . . ويقول المؤرخ الفارسي يزدي : أن تيمور حاول إنقاذه المسجد من العريق ، فأرسل قائده شاه ملك لهذه الغاية ، ولكن سقف المسجد كان قد انهار قبل وصوله ، ويشير المؤرخ متعجبًا إلى أن النيران قد حولت العجارة إلى رماد في ذلك المسجد لكنها لم تصل إلى مئذنة عيسى . . . ويقول المقريزي : «أن المدينة أصبحت أطلالاً بالية ورسوماً خالية قد أفترت من الساكن وأمتلأت أرضها بجثث القتلى . ولم يبق بها دابة

تدب الا الأطفال لا يتجاوز عددهم الآلاف » . وكان الذي أضرم النار في الجامع الأموي الفرق الغراسانية في جيش تيمورلنك . وقد استمر النهب العام ثلاثة أيام كان آخرها يوم الجمعة ١٨٠١ م / الثاني من شعبان ٨٠٣ هـ .

ويقول المؤرخ المشقى ابن عربشاه : « فاقسم بالله ، لقد كانت الأيام حلامة من علامات يوم القيمة » . ولقد كان أشد شيء على دمشق حريقها ، لا ما أخذه تيمورلنك . وأخيراً ، وبعد ثمانين يوماً من المغانة والدمار ، لم يبق من دمشق غير الأطلال ، غادر تيمورلنك دمشق يوم السبت ١٩ آذار ١٤٠١ م / الثالث من شعبان عام ٨٠٣ هـ ، بعد أن هدم القصر الأبلق .

### دمشق بعد رحيل تيمورلنك :

بعد رحيل تيمورلنك بيومين ، تحركت القوات المصرية لنجد الشام ، لا أنها عادت أدراجها بعدها وصلت الأخبار بعودة تيمورلنك إلى بلاده . أما دمشق فقد هاجمها الجناد بشكل لم تهدأ منهرون ، وأتى على كل شيء ، فتاه أهالي دمشق في البراري يجمعون الجناد ومخلفات تيمورلنك ، يبيعونها ليقتاتوا بشمنها ، وأصبح الجناد طعام غالبية من يقتلونه . ثم انتشر اللصوص والأذل فهمجوا على الناس وصاروا ينهبون ويقتلون واستمر الحال حتى عودة نائب الشام « تغري برجي » إليها بعد أكثر من شهرين من رحيل تيمورلنك في أيار ١٤٠١ م / الخامس من شوال ٨٠٣ هـ .

استمر الخراب في دمشق ، بعد رحيل تيمورلنك ، مدة طويلة ، وفي الشواهد التالية ما يعطي فكرة : ففي آذار ١٤٠٢ م / شعبان ٨٠٤ هـ أقيمت الجمعة في الجامع الأموي وهو خراب ، كما كانت المدينة كلها خراب لا أتيس بها ولا سakan . وأخذ الناس يبنون في الفوطة خارج الأسوار ، واستولوا على معظم أراضي الأوقاف ، فنودي في البلد بالعودة إليها ، وهدمت البيوت التي بنت خارجها .

وبعد سبع سنوات أي سنة ١٤٠٨ م / ٨١١ هـ أمر نائب الشام أهل المدينة بعمارة مساكنهم والأوقاف التي في البلد .

ثم قرئ كتاب الناصر محمد بن قلاوون ، بالزمام الناس بعمارة ما خرب من المدارس في دمشق . ويقول العلموي عن المدرسة القليجية : « احترقت في فتنة

اللنك سنة ٨٠٣ هـ واستمرت كوم تراب إلى حدود سنة ٩٦٤ هـ / ١٥٥٦ م حيث أعيد بناؤها .

ويقول ابن قاضي شهبة في حوادث دمشق سنة ١٤١١ م / ٨١٤ هـ : « وفي يوم الجمعة ثاني رمضان ، رأيت المؤذنين يسلمون ويؤذنون في المنارة الغربية ، وأظنه أول يوم أذن فيها بعد عمارتها من فتنة تيمورلنك » .

ويذكر العلموي : أن المدرسة الجقمقية شمالي الجامع الأموي بقيت خراباً حتى أعيد بناؤها سنة ١٤١٨ م / ٨٢١ هـ .

أما القلقشندي فقد ذكر أن حارات دمشق وبيوتها كانت ما تزال مدمرة حتى عهده سنة ١٤١٦ م / ٨١٩ هـ ، ولم يعرفي دمشق إلا القلعة لضرورات الحكم .

لقد أسفرا اجتياح تيمورلنك لبلاد الشام عن تتابع باللغة الأهمية : فمن الناحية العمرانية تعرضت المدن لما يشبه التدمير التام ، ومن الناحية الاقتصادية تدهورت الزراعة لسنوات طويلة نتيجة الإبادة الجماعية التي قام بها تيمورلنك للإنسان والأرض ، كذلك تدهورت الصناعة للسبب نفسه ، ونقص المال لما جمعه تيمورلنك من الأموال ، ويوضح ذلك من عجز الناس عن بناء بيوتهم المهدمة لما هم فيه ضائقة مالية .

ومن العجيب أن تيمورلنك بعد ذلك ، استطاع أن يقيم علاقات ود وصفاء ومودة مع الناصر فرج ، ووقع معه « معاهدة سلام » ختمت بقول الناصر « يا أول المصفو ، هذا آخر الكدر » .

إذن هذا باختصار وضع دمشق قبل دخول العثمانيين ، لقد تسلم العثمانيون مدينة شبه مدمرة لما تنهض من دماراً بعد ، فبذلوا جهدهم في ترميم ما تهدم وقاموا بالبناء والتشييد لدرجة تضاعفت منها مساحة دمشق في عهدهم كما سرى فيبلغت مساحة دمشق ٢١٣ هكتاراً بعد أن كانت حوالي ١٥٠ هكتاراً .

### دمشق في الفترة العثمانية :

في ٢٤ آب ١٥١٦ م / ٢٥ رجب ٩٢٢ هـ ؛ هُزمت القوات المملوكية في معركة مرج دابق قرب حلب ، مما مكن السلطان سليم الأول من فتح بلاد الشام ، ودخول دمشق دون أي مقاومة في ٢٨ أيلول ١٥١٦ م / ١ رمضان ٩٢٢ هـ . ثم غادرها إلى مصر للقضاء على دولة المماليك ، حيث هُزمت قواتها التي كانت

تعيي مصر قرب غزة ٠٠٠ ثم عاد الى دمشق في ٢٧ أيلول ١٥١٧ م / ١١ رمضان ٩٢٣ هـ ومكث فيها حتى ٢٢ شباط ١٥١٨ م / ١٠ صفر ٩٢٤ هـ . أي مدة أربعة أشهر ، أمر خلالها ببناء قبة على ضريح الشيخ الصوفي الشهير معي الدين بن عربي ، والى جانبها جامع بخطبة سمي : بالجامع السليمي ؛ وفي ١ شباط ١٥١٨ م / ٢٠ محرم هـ رسم ببناء تكية شمالي الجامع دعية بالتكية السليمية ، تولى نظارتها تقى الدين باكين الرومي ، وكذلك جدد ناعورة لذلك ، كما سنتحدث مفصلاً عن أول مبنى عثماني في ضاحية الصالحية في دمشق . ومن الجدير بالذكر أن نائب الشام جانبردي الغزالى الذى رشحه السلطان قانصوه الغوري لهذا المنصب ، قد انضم للجيش العثمانى ، لذلك عينه السلطان سليم نائباً على الشام ، إذ لم يُجر في تلك الفترة أية تغييرات إدارية .

بما وصول العثمانيين للدمشقين مجرد حادث محلى ، لا مناسبة ملحوظة ستفتح عهداً جديداً ، فقد كانت بالنسبة لهم مجرد تغيير حكام ، إذ خلف المالىك مجموعة أخرى أصبحت ذات امتياز هي الانكشارية . على أي حال ، كان هناك رد فعل الأمراء ، ظهرت بأن أحاط نائب الشام جانبردي الغزالى نفسه بجميع العناصر المناوئة للعثمانيين ، وما لبث إثر وفاة السلطان سليم الأول عام ١٥٢١ م / ٩٢٧ هـ الذي عينه ، أن رفض الاعتراف بسلطة السلطان سليمان ، وقام بثورته للاحتجاز عن الدولة العثمانية ، فحاصر القلعة ، وأقفل الجامع السليمي وكذلك التكية السليمية وصادر ما فيها من مؤن وأدوات طبخ ، ثم أعاد الجامع وأبقى التكية مقفلة . وسرعان ما أصبح الثائر سيد طرابلس وحمص وحماة ومحاصراً حلب دون نجاح ، ثم عاد الى دمشق ليواجه القوات التي أرسلها السلطان سليمان ، وفي معركة القابون ، شمالي دمشق في ٢٧ كانون الثاني ١٥٢١ م / ١٧ صفر ٩٢٧ هـ هُزم جانبردي الغزالى وقتل .

وتحت حكم السلطان سليمان ، تغيرت القوى السياسية ، وتوطدت الدولة ، وأظهرت الإدارة العثمانية بعض ملامح التنظيم . ففي عام ١٥٢٥ م - ٢٦ / ٩٢٢ هـ قام العثمانيون بأول مسح للأراضي والسكان ولضرائب دمشق ؛ دمشق التي لم تعد سوى باشوية متوسطة في رحاب الامبراطورية الكبيرة ؛ لقد كرس العثمانيون دولة جديدة تتميز بازدهارريف والمدن نتيجة للاهتمام بالفلاحين

من ناحية وانطلاق التجارة من ناحية أخرى ، سواء ضمن المناطق الواسعة التي أصبحت تمتد فيها الدولة العثمانية أوسع الدول المجاورة . إن الفتح العثماني لبلاد الشام بشكل عام ولبلاد الشام الجنوبي بشكل خاص ، قد فتح صفحة جديدة من الازدهار في تاريخ المنطقة . والوثائق العثمانية تبرز بوضوح الاستقرار في الريف والازدهار في المدن خلال السنوات الخمسين الأولى للحكم العثماني ، إذ نمت القرى وتوسعت المدن بعد أن كانت تندثر أثر سقوط الحكم المملوكي . وهكذا أخذت تظهر الآن قرى جديدة وأخذت القرى القديمة تنتعش وتتطور ، مما أدى إلى زيادة كبيرة لعدد السكان في العقود الأولى للحكم العثماني في بلاد الشام . ففي لواء دمشق على سبيل المثال ، استناداً للسجلات العثمانية زاد عدد القرى من ٨٤٤ قرية سنة ١٥٢١ م / ٩٢٧ هـ إلى ١١٢٩ قرية في سنة ١٥٦٩ م / ٩٧٦ هـ بينما ازداد عدد بيوت الفلاحين من ٧٠٦٩١ في عام ١٥٢٨ م / ٩٣٤ هـ إلى ١٠٧٦٠١ في عام ١٥٤٨ م / ٩٥٤ هـ إلى ٥٥ هـ أي بزيادة قدرها ٥٤٪ .

إن هذا الازدهار الكبير للريف يبدو موازياً للازدهار العمراني الكبير للمدن في بلاد الشام في مطلع العصر العثماني . وفي الحقيقة ، كما رأينا ، عانت المدن الشامية كثيراً في القرن الأخير للحكم المملوكي ، فدمشق نهبت في فتنة تيمورلنك ، ثم عانت دمشق من أزمة اقتصادية كبيرة تحت ظل المماليك لدرجة أن السلطان سليم الأول حين دخل دمشق لم يدخل سوى مدينة أكثر من نصفها أطلال .

وفي أوائل القرن ١٧ م / ١٢١ هـ وفي أواخر القرن ١٦ م / ١١١ هـ ، ضعف نفوذ السلاطين واضطربت العصوب العثمانية ، لأن الإمبراطورية بقيت واسعة للدرجة تعني معها دمشق التي تقع في موقع متوسط من الإمبراطورية والتي كانت على شيء من الرخاء بسبب التجارة والمعجم إلى مكة ، فشهدت دمشق على امتداد طريق العجم باتجاه الجنوب توسيعاً عمرانياً كبيراً على مسافة تندكيلو مترين وهو يمثل أعلى السمات الأساسية لتاريخ المدينة العمراني في العصر العثماني .

ويتجلى النشاط التجاري في بناء أسواق وخانات ومجمعات عمرانية مختلفة في عام ١٥٢٥ م / ٩٣٢ هـ قرر قاضي القضاةولي الدين بن الفرفور وشرع في بناء سوق يقع قبالة باب جبرون وغطاء بقباب مبنية من الأجر المشوي ،

محمولة على أقواس وتعلل السوق في منأى عن خطر الحرائق ، ولم يسبقه أحد كما يقول المؤرخ ابن طولون بمثل هذا النموذج من الأسواق في دمشق .

كذلك بنيت بعض الزوايا والتراب والجوانع الى جانب المباني التجارية كالأسواق والخانات . ففي عام ١٥٢٥ م / ٩٢٢ هـ بنيت الزاوية الصمادية داخل الشاغور قرب الباب الصغير ، وفي عام ١٥٣٣ م / ٩٤٠ هـ بنيت تربة لطفي باشا شرقي جامع دنكر لتضم جثمان الوالي لطفي باشا .

ويزداد النشاط التجاري اثر توقيع اتفاقية المرافق بين فرنسا والدولة العثمانية في أوائل عام ١٥٣٥ م / ٩٤٢ هـ حيث فتحت المرافق العثمانية أمام تجار فرنسا مما أمكنهم من العمل عبر شرق المتوسط لدرجة أصبح منها في نهاية القرن الثامن عشر ثلاثة أخماس التجار الأوروبيين من الفرنسيين ، حيث قاموا باستيراد البضائع المصنعة ، وصدر روا المواد الأولية والتوابل . وهكذا رأينا بناء سوق الغياطين عام ١٥٤٣ م / ٩٥٠ هـ ولاحظنا بناء خان الجوخية أو ما عرف فيما بعد بخان الغياطين من قبل أحمد شمسى باشا . أما جامع عيسى باشا الذي توفي عام ١٥٤٣ م / ٩٥٠ هـ فكان قد بني خارج الأسوار تجاه باب النصر . أما المبنى المميز الذي شيد خارج الأسوار فهو التكية السليمانية التي بنيت كمجمع عمراني يضم جامعاً ومدرسة وتكية وسوقاً وسبلاً في عام ١٥٥٤ - ٦٦ م / ٩٦٢ - ٧٤ هـ ، وفق الطراز العثماني البحث بمثنتين رشيقتين وبهندسة من المعمار سنان . وفي عام ١٥٥٤ م / ٩٦٢ هـ بنيت الزاوية السعودية البرانية على طريق العج في منطقة الميدان . وفي عام ١٥٥٥ م / ٥٦ - ٩٦٣ هـ بني أحمد شمسى باشا التكية الأحمدية داخل سور ، وفي عام ١٥٦١ م / ٩٦٩ هـ بني مسجد القرمانى . أما الوزير لا مصطفى باشا ، الذي ولد على دمشق في الفترة بين ١٥٦٣ - ٦٩ م / ٩٧١ - ٧٦ هـ فقد بني الخان المعروف باسمه تحت قلعة دمشق عام ١٥٦٣ م / ٩٧١ هـ ، ثم بنى حماماً في سوق السروجية عام ١٥٦٣ م / ٩٧١ هـ وبنى جامعاً قرب الغان عام ١٥٦٤ م / ٩٧٢ هـ ، أما سنان آغا الانكشارية فقد بني جامعاً قرب باب الفرج سنة ١٥٦٥ م / ٩٧٢ هـ بالقرب من القلعة أيضاً ، مجاوراً لسوق المناخية .

لقد بقيت التجارة الخارجية نشطة جداً، ولم تتمكن العوائد السياسية من إيقاف نشاط التجارة الواسع والكثيف مما أدى إلى بناء عديد من الغابات خدمت كفنادق للتجار إلى جانب التبادل التجاري وحفظ المواد فيها. كذلك لاحظنا تعرض بعض الأسواق للغرق كسوية الميدان المعروفة ، والتي بني فيها مارد باشا مكان خان من الغابات تكريته الشهيرة بتكريته مراد باشا النقشبندى عام ٩٧٦ هـ / ١٥٦٨ م والتى تضم مسجداً وغراً وبسبيلين قبلي وشرقي وترية دفن فيها اثر وفاته عام ١٥٧٤ م / ٩٨٢ هـ .

أما الوالى درويش باشا ، ففي واحد من أهم وأقدم الغابات التي بناها كخان الحرير عام ١٥٧٣ م / ٩٨١ هـ في المدينة القديمة ضمن الأسوار ، رأينا في سقطه الترتيب الشامى المعتاد : باحة سماوية كبيرة مربعة الشكل ، محاطة برواق ذي أقواس ، تنفتح برواق ذي أقواس ، تنفتح عليه المحلات والاسطبلات ، بينما يخصص الطابق الذى يعلوه للنوم، كذلك قام الوالى درويش باشا أيضاً ، ببناء حمام داخل السور عرف بحمام القيشانى عام ١٥٧٣ م / ٧٤ هـ وبنى خارج السور مجمعاً عمرانياً وجاماً ضخماً يتميز بقاشانى الجميل في بداية حي القنوات ، مع تربة له ومدرسة فوق السا باط وسبيل ينهل منه الناس والحجاج وميساة ، إن هذا النمط من التزيين أتى مع العثمانيين ، حيث زرع فن من فنون مدينة استانبول في دمشق . وهكذا أخذ يتتأكد ظهور طراز معماري جديد في نسيج دمشق العثماني ، إذ أن المسجد العثماني مصمم من حرم مربع تعلوه قبة نصف كروية محمولة على مثلثات كروية ، مع رواق واحد مغطى في الأمام أو أكثر ، مع مئذنة واحدة يتم الدخول إلى المسجد من تعلتها ، أو أكثر ، تتميز بجذع متعدد الأضلاع كالدائرة ورأس مخروطي ، فلاحظنا إضافة لما سبق مسجد باب الكيسة ومئذنته الشهيرة التي بناها التاجر علاء الدين بن العجيج قبل عام ١٥٨٢ م / ٩٩٠ هـ . أما التكية المولوية فقد بنيت إلى الغرب من جامع دنكر عام ١٥٨٥ م / ٩٩٣ هـ والى الشرق من التكية السليمانية .

ومما يجدر ذكره ، أن السلطان العثماني أصبح حامي العرميين الشريفين ، لذلك فقد أبدى اهتماماً خاصاً بالحج إلى مكة نتيجة الدور المتزايد الذي أخذ يلعبه طريق العج الشامى منذ بداية العصر العثماني . فمع ضم بلاد الشام للأمبراطورية العثمانية ومع توسعها في جنوب شرق أوروبا وانتشار الإسلام فيها، أصبحت قافلة العج الشامى واحدة من أهم قافتلتين للحج في ذلك الوقت، وأضحت

تضم العجاج من الشام والأناضول والبلقان بالإضافة إلى حجاج العراق وأسيا الوسطى ، مما كان يعني عملياً تجمع حوالي ٢٠ - ٦٠ ألف حاج سنوياً في دمشق . وقد كان عبور هذا العدد الضخم خلال بلاد الشام من أقصاهما إلى أقصاهما . والإقامة في المدن الواقعة على الطريق وخاصة دمشق التي كان يتجمع فيها جموع هؤلاء ومن ثم ينطلقون معاً ، يؤدي إلى تشويط الحياة التجارية خلال عدة شهور في كل عام . وبالفعل فإن قافلة الحج الشامي كانت قافلة للتجارة أيضاً ، إذ كان بعض العجاج يعمدون إلى ممارسة التجارة في الطريق لتغطية نفقاته ، وهكذا وجدنا أن بضائع البلقان والأناضول وأسيا الوسطى تجتمع في دمشق ، حيث يتم تداول بعضها ، بينما يتبع بعضها الآخر طريقه إلى العجاز ، ويكرر الأمر مع بضائع العجاج والشام في طريق العودة إلى الأناضول والبلقان وأسيا الوسطى . ومن الطبيعي أن تستفيد جميع المدن الواقعة على هذا الطريق من قافلة الحج الشامي ، وبشكل خاص دمشق ، فقد تأثرت البنية العمرانية لدمشق كثيراً باتجاه طريق الحج الذي سلكه القافلة بالتوسيع المستمر نحو الجنوب . إن هذا السيل المتدفق السنوي المتكرر جنب نشاطاً تجارياً كثيفاً ، وكان العجاج ينتهزون فرصة بقائهم في هذه المخطة العمرانية للتهيؤ لعبور الصحراء ، لذلك كانوا بحاجة لشراء الدواب من سوق الغيل وكذلك مواد التخييم ، وعليهم أن يتمونوا بما يبقى لديهم لثلاثة أشهر من الزاد . وفي اللحظة الحاسمة كان على باشا دمشق ، أي الوالي الذي حمل لقب أمير الحج ترؤس قافلة الحج الرسمية مرفقاً المحمل الشريف ، وعليه أن يعبر طريقه إلى المدن المقدسة بحماسة الجيش . وفي طريق العودة كانت دمشق أيضاً أول مركز عراقي هام يستريحون فيه مطولاً ، فكان العجاج يبيعون فيه كما أسلفناهما اشتراكه من الجزيرة العربية سواء القهوة أم العبيد .

وكان لدمشق أيضاً دور كبير في إغاثة العجاج ومساعدته عندما يتعرض للسيل الشديد أو الفرق أو عندما يتعرض لأية أزمات أخرى .

إن هذا السير إلى الجنوب والعودة منه إلى الشمال ، ساعد في تطور حي جديد قرب السهول خارج باب العالية . هنا العي كان هي القوافل ، حيث تجد هناك مختلف أنواع الأدوات ، إلى جانب التموين اللازم في الأسواق ، جنباً إلى

جنب مع الباعة المتوجلين والعدادين وبائعي الجلود . لقد أصبح اسم هذه المنطقة بل الحي : السنانية ، نسبة للجامع الكبير والمجمع العماني الذي بناء الوزير العظيم سنان باشا والي الشام بين سنة ١٥٨٦ - ٩١ م / ٩٩٤ هـ . يتميز هذا الجامع بمعناصره المعمارية وبوابته المقرنصة ومنارة المنطقة بالقاشاني المزج الأخضر والتي يمكن رؤيتها وتميزها من مسافة بعيدة جداً . أما المجمع فقد ضم حمام السنانية ومكتب سنان باشا لتعليم القرآن الكريم ، وسبيلاً ، إلى جانب خان / قيسارية تحتوي على ٣٩ مخزن علوي وسفلي وأصطبل كبير في السوق المعروف بالبزورية ، إلى جانب سوق كبير يحتوي على ٧٤ دكاناً بطاقة عاليات مع ٣٤ حجرة من العجرات العاديات ، بالإضافة إلى دكاكين أخرى ومخزن وأرض ( حوش ) إلى جنوب الجامع أصبحت تعرف لاحقاً : سوق السنانية .

لقد كان هذا السوق منشأة جريئة التصميم ، بدعة الشكل ، تمتد نحو الجنوب ١٠٥ أمتار وتقوم على ثمانية عشر قوساً مدببة ومنخفضة .

لقد أخذ أهم تطور عمراني لدمشق في العصر العثماني يتضور : ألا وهو الامتداد الخطي لدمشق عبر ما دعي بالميدان ، بأقسامه الثلاثة : التحتاني والوسطاني والفقولي ، الذي جعل دمشق تمتد حتى بوابة الله والتي حدّدت أقصى العدود الجنوبيّة للمدينة حيث تتناوب سلسلة من المستودعات عرفت بالبوابيك والأوابد المملوكيّة والعثمانيّة دون أي انفصال بينها لمسافة ثلاثة كيلومترات . نلاحظ في هذه الفترة انتهاء بناء سوق المرادية سنة ١٥٩٧ م / ١٠٠٥ هـ ، وبناء مكتب الحاج حسن التذكريجي عام ١٥٩٧ م / ١٠٠٥ هـ أيضاً ، وبناء جامع سياغوش باشا عام ١٦١٧ م / ١٠٢٧ هـ في منطقة الشاغور ، وبناء حمام البكري عام ١٦١٧ - ١٨ م / ١٠٢٧ هـ في منطقة القimirية ، ولاحظنا بناء مسجد أبي بن كعب خارج باب شرقى عام ١٦٢٠ م / ١٠٣٠ هـ أما تكية المسالى التي بناها الوالي كوجك أحمد باشا في فترة ولايته الثالثة للشام عام ١٦٣٥ م / ١٠٤٥ هـ ، فكانت خارج بوابة الله على طريق الحج . ومن الجدير أن

نلاحظ تجديد مئذنة جامع المعلق بمدانهدم ثلثا من الصاعقة الربانية عام ١٦٤٨ م / ١٠٥٨ هـ أيام محمد باشا كافل الملك الشامية ، وكذلك تجديد جامع نبرويز بن عبدالله عام ١٦٥٩ م / ١٠٦٩ هـ ، وتجديد مئذنة جامع الجوزة في المقيبة عام ١٦٧٦ م / ١٠٨٧ هـ كذلك بناء خان الخضيرية في محله القطاين قبل عام ١٦٨٢ م / ١٠٩٣ هـ ولاحظنا في سوق ساروجة ، بناء جامع محمد بندق عام ١٦٨٩ م / ١١٠٠ هـ ، أما الشيخ مراد بن علي البخاري النقشبendi ، فقد بني عام ١٦٩٦ - ١٦٩٧ م / ١١٠٨ - ٩٧ هـ المدرسة المرادية الجوانية الكبرى وكانت بالقرب من سوق المردية الذي بناه الوزير مراد باشا في باب البريد ، وكانت المدرسة تشتمل على ٥٢ غرفة ومكتبة عظيمة . كذلك بني الشيخ المدرسة المرادية البارانية التي في بيته في سوق ساروجة وبني معها مسجداً، وتتألف من باحة سماوية مستطيلة تعطي بها ثلاثون غرفة ، وهكذا نلاحظ أهمية حي سوق ساروجة الذي تكاملت بنائه العمرانية وسكنه كبار القوم والرسميين الآتراك لدرجة دعي معها باستانبول الصغيرة وأصبح حياً متميزاً . كذلك أخذ حي القنوات بتاكيد شخصيته العمرانية المتميزة ، فأصبح حي الذوات وبني فيه حمام ملكة الشهير عام ١٧٢٢ م / ١١٣٦ هـ وكذلك جامع العجلوني وجامع العدادس . إن هذه المنشآت الكبيرة الدينية منها والمدنية للفترة العثمانية، بنيت خارج الأسوار مما يؤكد انتشار المدينة خارج أسوار دمشق القديمة، وهكذا يمكننا أن نستنتج أن الجامع الأموي الكبير لم يعد المركز الوحيد للتجمع المجتمع الإسلامي في المدينة ، رغم أنه مركزاً الأساسي التقليدي :

ومع تقديم المدفعية ، أصبحت التحصينات القديمة لدمشق بالية ، وبدأت قلعة دمشق تفقد أهميتها . وقلل السلام الذي ساد أرجاء الامبراطورية من قيمة الأسوار المحيطة بالمدينة ، فبدأ الناس بعزوها وتشييد المساكن فوقها ، بينما أصبح الخندق مقلباً للقمامرة ، مما استدعى ردمه فيما بعد ونشوء أسواق فوقه . كذلك ظهرت أعمال الناس الخيرية في إنشاء السبلان والمدارس والزوايا .

وفي أوائل آذار عام ١٧٢٥ م / ١١٣٨ هـ عين اسماعيل باشا العظم والي على دمشق ، وكان أول والي من آل العظم يعين على دمشق ، تلاه ولة آخرون من الأسرة نفسها في دمشق وغيرها . كان ظهور آل العظم في هذه الفترة كولاً ، جزءاً من ظاهرة هامة عمت كثيراً من الولايات العربية في القرن الثامن عشر

كذلك شهدت بلاد الشام في هذه الأثناء ، تطوراً هاماً يتعلّق بانتقال أمارة الحج إلى دمشق ، وتعيين ولاة الشام باستمرار لهذا المنصب منذ عام ١٧٠٨ - ١١٢٠ هـ حتى نهاية القرن الثامن عشر ٩

وقد نتج عن نقل مركز أمارة الحج إلى دمشق ، وعن تكليف ولاة الشام بهذا الأمر باستمرار ، تطورات هامة ، تركت أثراًها على تاريخ بلاد الشام باكمالها ، إن أعيانهم مسؤولة أمارة الحج بسبب كثرة اعتداء البيلو على العجاج ، وذلك للرتبة لأن سمعة السلطان كعام للمرمرين الشرقيين وبالتالي لقافلة العج ستتأثر نتيجة لذلك ٠ ولقد نتج عن تعيين ولاة الشام منصب أمير الحج الشامي تعينهم عن دمشق لفترة طويلة سواء في الدورة أم في العبرة ٠ وكانت العادة أن يأتي أمير الحج ، حاكم الصنفون مع قواته إلى قبة العج ، الواقعة جنوبى حي الميدان بدمشق ، خارج باب الله لتسلم قيادة قافلة العج ٠

وأهم أعمال اسماعيل باشا العظم العثماني ، بناؤه المدرسة التي في سوق الغياطين والتي تعرف بمدرسة اسماعيل باشا العظم عام ١٧٢٨ م / ١١٤١ هـ إلى جانب حمام في سوق الغياطين ، وبنى أيضاً عام ١٧٢٨ م / ١١٤١ هـ حماماً في الشارع المستقيم عرف فيما بعد بحمام حمي الغراب ٠

أما سليمان باشا العظم فقد بني خلال فترة ولايته الأولى خانة شهيراً عرف باسم خان سليمان باشا أو خان العماضنة في سوق العبي سنة ١٧٣٢ م / ١١٤٥ هـ وذلك بمسقط أفقى معدل ، إذ أصبح الفراغ المركزي أصفر وتمت تغطيته بقبتين كبيرتين محولتين على مثلثات كروية ، وأصبحت البضائع محمية من تقلب عوامل الطقس ٠ كان هذا نمطاً جديداً من البناء ، ودمشقياً بشكل خاص. كذلك بني مدرسة عرفت باسم مدرسة سليمان باشا العظم أو السليمانية الجوانية سنة ١٧٣٧ ٠ أما في ضاحية الصالحية في هذه الفترة فقد بني جامع الشيخ عبد الغني النابلسي المتوفى الشهير ، مكان بيته ، الذي يعود قاعته الشهيرة وقصره والحمام ، عام ١٧٣٣ م / ١١٤٦ هـ ، أضف إلى ذلك أن فتحي أفندي الدفترى ، أبي الدفتردار ، المشرف على حسابات الولاية أمر في عام ١٧٤٢ م / ١١٥٥ هـ في تعمير طريق الصالحية ، فقلب بلاطه وعمر صفتة وأصلح حاله مع الناس ورمم الجامع الأموي عام ١٧٤٣ - ٤٤ م / ١١٥٦ هـ ، وبنى مدرسة في القimirية عرفت باسم المدرسة الفتية عام ١٧٤٣ م / ١١٥٦ هـ ، ثم تلاها ببناء حمام في الميدان باسم حمام فتحي عام ١٧٤٥ م / ١١٥٨ هـ ، وكذلك القهوة ٠ ومن أعظم أعماله

تجديده لمنارتي التكية السليمانية التي في المرجة ، وذلك بعد سقوطهما أيام الزلزلة فأعيدتا أحسن مما كانتا ، ولو غير ذلك .

أما سليمان باشا في ولايته الثانية ، ففي أوائل شهر صفر الغير من عام ١٧٤٣ م / ١١٥٦ هـ جاء خبر عن العج الشريف ، بأنه عرق في الحسا قرب القطرانة ٠٠ فاستفأوا بحضوره سليمان باشا العظم والي الشام وأمير العج ، فحالا نهض وأخذ معه جماعة وذهب نحو مرحلة ، وقد خاطر هو وجماعته ، ثم غاب يوماً وليلة بعدهما جداً في طلبه ، وإذا هو قادم ومعه الأحصال لم تتفق ولا نزرة ثم ناداهم وسلمهم إلى أصحابهم ، ولم يدنس حجه بشيء . وقد عدوا هذه المنقبة مثلك ، من الهم العالية والمروءة السامية .

وفي يوم الأحد غرة جمادى الأولى عام ١٧٤٣ م / ١١٥٦ هـ شرع حضرة سليمان باشا العظم في تعمير وترميم نهر القنوات ، وجعل جميع المصارف من ماله ، فأمر بقطع بعض الصغر عن طريقها ، وبتشييد أركانها ، وإصلاح ما فسد منها ورفع جدرانها وبضبطها ضبطاً جيداً ، وباصلاح فروض مستحقتها على وجه الحق ، فكانت هذه العمارة والضبط لما سبقه اليه أحد مند عهد إصلاحها من أيام التيمور لما أصلحت بعده ، وقد تمت عماراته في برهة خمسة عشر يوماً أول مربعانية الصيف ، ولما تم ، من باطلاق النهر فكان إطلاقه على أهل دمشق فرحة من أبيح الفرج ، ويوم مثل يوم الزحام .

بعد ذلك ، تولى أسعد باشا العظم ولإلاية الشام في ظروف صعبة ، فبسط النظام والأمن في ادمينة والقفار حتى هابته العشائر البدية فلم تجرؤ على الاعتداء على قافلة العج الشامي طوال عهده ، الذي بدأ باحتلال قلعة دمشق من البرينة في ١٧ آذار ١٧٤٦ م / ٢٢ صفر ١١٥٩ هـ وكانت قوة البريلية الرئيسية في الميدان ، وبعضاها في سوق ساروجة ، فخدعهم أسعد باشا بمحاجمة ساروجة والتفت بعد ذلك إلى إخضاع الميدان حيث يوجد زعيم الزرب ، وهكذا أصاب الذعر بريلية هذا الحي بعد نجاح أسعد باشا في هجومه على ساروجة ، فهرب الأشتياق قبل احتدام القتال ، ونهب عسكر أسعد باشا حوالى خمسين دار وهدموا بعضها ، ورغم الفوضى خلال هذه العملية فقد سر الدمشقيون من عمله .

ثم التفت إلى البناء ، فبني أول الأمر في عام ١٧٤٩ - ١١٦٣ هـ قصره الشهير في البزورية ، وفي ١٤ شوال قبل رحيله إلى العج بثلاثة أيام من هذه

السنة انتهت عمارة دار الباثا، التي هي لعنة ونقل حرمها إليها. ولم يكن قصره مجرد بناء عادي ، قام به أحد الولاة العاديين .إذ لم تشهد الشام في العهد العثماني قصرأ لوالٍ محلي بمثل هذه الضخامة ، حتى حسين ناظم باشا ، وبقي قصر أسد باشا بدون مثيل بين أبنية الولاة العثمانين .ويidel بناؤه على مقدار النفوذ الذي بلغه أسد باشا مع أسرته في الشام بعد أن أمضى في حكمها حوالي أربع عشرة سنة .

ثم أمر في عام ١٧٤٩ م / ١٦٦٣ هـ حضرة الوزير أسد باشا العظم ، متولى الجامع الأموي الشیخ ابراهيم الجیاوي السعیدی بأن يصلح أحوال الجامع المذکور ويتفقد مصالحه ، فحالاً باشروا بترمیم المئذنة الفربیة وأزالوا ما فيها من الأحجار العاطلة ، وأزالوا ما منحصر والتنافس العتق ، وفرشوہ فرشاً جديداً بهمة حضرة الباشا . ثم جدد ووسع عام ١٧٥٠ م / ١٦٦٣ هـ مدرسة أبيه اسماعيل باشا التي في سوق الغیاطین العجرات الفرقانیة ، وجعل في قبليها جاماً وخطبة، ورتب أجزاء من القرآن وشوربة وزيتاً وغيرها ذلك ؛ ثم بدأ بعدها ببناء قیساریته الشهیرة التي تعرف بخان أسد باشا في سوق البزورین سنّة ١٧٥٢ - ٥٣ م / ١٦٦٦ هـ وهو من أهم خانات دمشق ، نموذج معماري مسقطه الأنفقي مربع الشكل ، منقطی بشماںی قباب متوسطة العجم تعلمه أربعة أعمدة حجرية بواسطه مثلاٹ کرویہ . ثم التفت ثانية الى ترمیم الجامع الأموي عام ١٧٥٤ م / ١٦٨٩ هـ واشتري طنافس بأربعة أکیاس . وتابع عام ١٧٥٥ م / ١٦٩٩ هـ ترمیمات أخرى فامر بترمیم وإصلاح جامع الیاغوشیة الذي تحت القلعة . ومن الجدير بالذكر أن المقاھی قد ازداد عددها في المدينة بشكل ملحوظ ، فلاحظنا عام ١٧٥٤ م / ١٦٨ هـ قهوة سوق الخیل التي صاحبها درویش آغا ، وفي أول رجب عام ١٧٥٥ م / ١٦٩ هـ تمت قهوة الشاغور التي هي مقابلة للشيخ السروجي . وفي العام نفسه عمرت أيضاً قهوتین بباب السریعة وقهوة أمام باب المصلى . كذلك لاحظنا قبل عام ١٧٥٦ م / ١٧٠ هـ خان السيد ، قبالة جامع المعلق خارج سور وخان بنی الناشف قرب جامع درویش باشا ، وكذلك قبل عام ١٧٥٧ م / ١٧١ هـ خان الدقاقدن جنوب البزوریة .

وهنا لا بد لنا من وقفة مطولة أمام أهم الأعمال التي قام بها العثمانيون قاطبة في دمشق ألا وهو إعادة بناء الجامع الأموي بالذات ، إثر زلزال دمشق المروع

عام ١٧٠٨ م / ١١٧٢ ه الذي بدأ في ليلة الثلاثاء ثامن ربيع الأول الموافق شهر تشرين الثاني من هذه السنة في الثالث الأخير من الليل والمؤذنون في المآذن يشتغلون المراسلة ، صارت زلزلة خفيفة ، وتبعها ثانية ثم ثالثة زلزلت منها دمشق زلزالاً شديداً حسبت أهل دمشق أن القيامة قد قاتم ، فتهدمت رؤوس غالبية مآذن دمشق ودور كثيرة وجوانب وأماكن لا تتعصى ، حتى قبة النصر التي بأعلى جبل قاسيون زلزلتها وأرمي نصفها ٠٠٠ واستمرت إلى سبع وعشرين ليلة . وفي ليلة الاثنين رابع ربيع الثاني ، خامس كانون الأول في الساعة الخامسة ( عربي ) صارت زلزلة عظيمة أعظم من الأولى بدرجات ، وقد صارت معها رجة مهولة أسقطت بقية المآذن وأرمي قبة الجامع الأموي الكبيرة والرواق الشمالي جميعه والواميتسكرت ، والعائط الشرقي سقط إلى الأرض والمنارة الشرقية هدمت ثلث العرم ، مع مدرسة الكلافة وباب البريد وأبراج القلعة ، وغالب دور دمشق ٠٠٠ ولقد حصل هذا الزلزال في عهد الوالي عبد الله باشا الشتبجي ؛ وفي عهد الوالي محمد باشا الشالك ، يوم السبت ٢٢ رجب ١٧٥٨ م / ١١٧٢ ه جاء قبجي الدولة العلوية سبانخ زاده لأجل الكشف على الجامع الأموي وعمارة قبة وجهته الشمالية ومآذنه المهدومة في الزلزال ومعه باش معماري وفعلاً لأجل مباشرة تعمير الجامع المذكور .

وفي عهد العالي عثمان باشا ١٥٧٩ م / ١١٧٣ ه بوشر بعمارة الجامع الأموي ، فدخلته العمارية والنبارون والدهانون والعباراء ، وبذلوا الجهد بتهيئ القبة والجهة الشرقية وما سقط من المآذن وبتحسين جميعه . وكان الجامع لا يفتح إلا في وقت الصلاة فقط ، والعمارة أيضاً مشتملة في القلعة وترميمها . وقد تمت عمارة القلعة في شهر رجب عام ١٦٠٩ م / ١١٧٣ ه ، وتم تعمير الجامع الأموي والجهة الشمالية والقبة وترميم المنائر وتحسينه في شهر رمضان سنة ١٥٥٩ م / ١١٧٣ ه .

وفي سنة ١٧٦٣ - ٦٤ م / ١١٧٧ ه بنيت المدرسة المرادية الجوانية الصفرى في منطقة باب البريد . وفي سنة ١٧٦٤ - ٦٥ م / ١١٧٨ في عهد الوالي الوزير المعلم الحاج صادق عثمان باشا ، تم تجديد قاعة الشيخ عبدالغنى النابسي بعد انهدامها ، كذلك في عام ١٧٦٥ - ٦٦ م / ١١٧٩ ه تم إعادة بناء منارة المدرسة المرادية البرانية وتم تجديد جامع وسبيل محمد بن دق عام ١٧٦٨ م

١١٨٢ هـ . وفي عام ١٧٦٩ م / ١١٨٣ هـ اشتري عثمان باشا والي الشام ماءً من القنوات وقام ببناء قنطرة داخل صحن الجامع الشريف الأموي وجلب لها الماء من نهر القنوات ، وعمر البحرة التي في وسط الجامع في شهر رمضان وصرف في ذلك أموالاً كثيرة ، وصار بها فرج للناس عند انقطاع نهر بانياس ، كذلك صنع كسوة جديدة للمحل .

أما آل العظم الذين خبا دورهم لفترة ما ، فقد استفادوه مرة أخرى أيام ولاية محمد باشا العظم ، حفيد اسماعيل باشا ، حين عينته الدولة العلية والياً على الشام ١٧٧١ م / ١١٨٥ هـ ، فكان أول من تولىها مرة أخرى من آل العظم بعد نقله ١٧٧١ م / ١١٨٥ هـ ، فأقام بها والياً حتى وفاته عام ١٧٨٢ م / ٨٣ - ١١٩٧ هـ . لقد كانت أيامه مواسم أفراح ، وقد عمر في دمشق أبنية كثيرة وقرب إليه العلماء والأدباء وراجت في أيامه سوق الشعر . وخلال الفترة الثانية من ولايته ، ساعد في بناء مئذنة جامع الشيخ عبد الفتاح النابلسي عام ١٧٧٣ م / ٧٤ - ١٧٧٣ هـ ، وفي عام ١٧٧٦ م / ١١٩٠ هـ بنى حافظ العظم غربي قصر أسعد باشا وشرقي بيت عبدالله باشا العظم بيته . أما مدرسته التي بدأ ببنائها عام ١٧٧٩ م / ١١٩٣ هـ فسيزيد فيها ابنه عبدالله باشا وستشهد باسمه فيما بعد . إذ أوقف هذه المدرسة عبدالله بك ابن الوزير محمد باشا العظم والي الشام وأمير العجاب . ابن مصطفى بك العظم؛ أوقفها عن والده بالوكالة عنه ، وكانت قبل ذلك قاعة غريبة من دار الواقف الوكيل التي تحمل بعض زخارفها كتابة تورخ عام ١٧٨٠ م / ٨١ - ١١٩٥ هـ ، مع مساكن تابعة لها داخلها وخارجها ، فهدم تلك المساكن وبنى المدرسة المذكورة من ماله ، وجعل لها باباً خاصاً بها قنطرة من حجر ، وجعل الباب مفصعاً بالنحاس، وجعل لها شبابيك مطلة على الزقاق وجعل في الأسفل حجرات وجاماً وبنى فوقه أيضاً حجرات يقبو، وجعل في الأعلى حجرات أيضاً ، وجعل القصر الذي بين الطبقتين الثانية والثالثة الراكب على الطريق خاصاً بالمدرس الذي يكون في المدرسة .

وفي عام ١٧٨٠ م / ٨١ - ١١٩٥ هـ عمر محمد باشا العظم سوقاً في باب القلعة من عند سوق الأزواب إلى فرن الكعك والقناية ، أكثر من مائة وعشرين دكاناً ، وأمر التجار والبازركان ، أن يأخذ كل واحد منهم دكاناً ويضع فيها البضائع

الحسنة ، وصار سوقاً ماله مثيل ، وعمرله في قنا السوق سرايا ما بني في الشام أحسن منها ، هذا السوق هو السوق الجديد الذي سيعرف فيما بعد بسوق الحميدية .

أما في عام ١٧٩٤ م / ١٢٠٨ ه فقد أنشئ سبيل على الجهة الشرقية من جدار جامع الورد القبلي في سوق ساروجة .

وفي عام ١٧٩٦ م / ١٢١١ ه خلال فترة الولاية الأولى لعبد الله باشا العظم بنيت الزاوية السعودية الجوانية شرقى القimirية ، تضم جامعاً بمنارة وزاوية .

وفي عام ١٧٩٧ م / ١٢١٢ ه بني بيت سعيد أفندى القوتلى ، شمالى الجامع الأموي ، والذى يصبح مقر القنصلية البريطانية فيما بعد ، أما بيت مراد أفندى القوتلى فلقد بني في نفس الفترة فى زقاق العواميد .

وفي عام ١٨٠٢ م / ١٢١٧ ه بني بيت نظام فى منطقة مئذنة الشعم .



# أضْرَابُ الْمَسَاجِدِ

## عَلَى مَسَاجِدِ دَمْشَقِ

عَلَيِ القيَّمَ \*

### ١ - ترميمات الجامع الأموي الكبير :

يعذر

الجامع الأموي الكبير بدمشق من أهم المنشآت المعمارية والدينية الهامة في الوطن العربي والعالم الإسلامي ، فبناء هذا الجامع في بيته العربية التي اخترن العمارنة الكلاسيكية لالف عام هو أول تشخيص للعقيدة الإسلامية، تمثل في فن العمارة والتصوير الوليدين ، وهو بداية ناضجة لفن تلمس أبعاده أولاً من القيم الثقافية والأدبية للعقيدة الجديدة ، وتحقق بفضل فنانين وعماريين عرب ، دخل الآیمان الى قلوبهم وفتحت نزعة الاصالة في اعمالهم ، والضئيل ذلك التشكيل الكاذب لفن غريب ، كان قد ظهر قبراً بأمر السلطة البيزنطية المحتلة .

بعد تحرير دمشق من الحكم البيزنطي سنة ١٤ هـ / ٦٣٥ مـ . وقع اختيار المسلمين على البقعة التي يعتليها الجامع الأموي اليوم ليقيموا فيها صلواتهم ، وهي أرض مقدسة ، كرست للعبادة منذ آلاف السنين ، أقيم فيها معبد للاله « حدد » الآرامي ، في مطلع الألف الأول قبل الميلاد ، ثم شيد في المعهد الروماني معبد الاله « جوبيتور » ويبعدو من آثار هذا المعبد الباقية إلى الآن ، إنه يحتل مساحة واسعة ، وكان له سور خارجي تبلغ أطواله ( ٣٨٠ × ٣٠٠ ) متراً ، وكان المعبد الحقيقي مشيداً داخل هذا السور حيث أقيم الجامع الأموي فيما بعد .

\* باحث في أعمال التنقيب والآثار والمتاحف - عضو اللجنة العليا لصلاح وتطوير الجامع الأموي بدمشق . معاون وزير الثقافة .

## ● المسجد الفريد :

و بعد انتصار المسيحية على الوثنية أنشأ الامبراطور « تيودوسيوس » كنيسة داخل المعبد على اسم القديس يوحنا المعمدان ، وبعد الفتح الإسلامي اقتسم المسلمون هذا المعبد الكبير مع المسيحيين ليعيّمو الصلوّات فيه ، وبقي المسلمين والسيّاحون يؤدون فرائض دينهم متجاورين حوالي سبعين عاماً ، حتى عام ٨٦ هـ - ٧٠٥ م حين تسلّم سدة الخلافة الأموية الوليد بن عبد الملك حيث جرت مفاوضات مع الرعاعيّا المسيحيّين لكي يتّنازلوا عن نصف المعبد الذي أقاموا عليه كنيستهم ، وتم ذلك مقابل بناء كنائس جديدة في أماكن مختلفة من مدينة دمشق . و تم للوليد ما أراد ، وهدم ما كان داخل جدران المعبد من منشآت رومانية وبيزنطية ، ثم شيد الجامع وفق مخطط جديد مبتكر يتجاوز مع شعائر الدين الإسلامي ، وأغراض الحياة العامة ، فجاء فريداً في هندسته ، لم يبن على نسقه في المهد السابقة أي بناء آخر ووضعت باشادته مبادئ هندسة الجوامع الكبّرى التي شيدت بعده في العالم الإسلامي ، وظلّ المعماريون عدة قرون يستوحون منه وينسجون على متواله .

لقد استغرق بناء الجامع الأموي قرابة عشر سنوات ( ٧٠٥ - ٧١٥ ) م وقد وصف الجامع عدد كبير من المؤرخين والعلماء العرب والأجانب ، فكان في غاية الابداع والروعـة والجمال وعـدـّ بين أـعـاجـيبـ الدـنـيـاـ ، وقد وضع الفن الإسلامي والعمارة الإسلامية مبادئها الأولى فيه ، يقول عنه الفرنسي سوفاجيه « أول نجاح معماري في الإسلام » وقد حافظ على عظمة بنائه وروعة زخارفه قرابة ثلاثة قرون ونصف ، ثم تعرض بعد ذلك للحرائق والزلزال ، وكان في كل مرة يصاب فيها بجهة من جهاته يفقد شيئاً من بهائه ورونقه حتى وصل إلى ما هو عليه الآن .

## ● نزهة الناظرين :

إن حجم الجهد والتکاليف التي أنفقها الوليد في بناء الجامع الأموي الكبير والتي ذكرها المؤرخون تؤكّد أن هذا الجهد لا يمكن أن يقتصر على تزيين الجامع ، بل على إنشائه أيضاً بحلة جديدة مستفيدةً من بعض جدران وأروقة

العبد فقط . . . لقد استعمل الوليد في إنشاءاته الجديدة العجر المنحوت الذي كان قائماً في سور المعبد الغارجي ، ويؤكد ذلك العلامات الاغريقية التي كانت على بعض الأبحار والمتراكمه في البرجين إلى يومنا هذا .

يقول المؤرخون : لقد أنفق الوليد على بناء الجامع الأموال الطائلة حتى جعله نزهة للناظرين ، وأنفق عليه أربعمائة صندوق ، كل صندوق أربعة عشر ألف دينار ، ويقال إن الوليد أنفق عليه خراج المملكة سبع سنين ، وحملت إليه المسابات بما أنفق عليه على شانية عشر بعيرا ، فامر باحراقها ولم ينظر فيها ، وقال : هو شيء آخر جناه الله فلم نتبعه .

وقال الباحث : « قال أهل السلف : ما يجوز أن يكون أحد أشد شوقاً إلى الجنة من أهل دمشق ، لما يرونـه من حسن مسجدهم » . وقال في كتابه الحيوان : « وقول الدمشقيـن ما تأملنا قط مسجداً ، وتركيب محرابـنا ، وقبة مصلانا إلا أثارـنا التأمل ، واستخرجـ لنا التفـرس بين غـرائب حـسن لم نـعرفـها ، وعـجائب صـنـعة لم نـقـفـ عليها ، وما نـدرـي أجـواهرـ مـقطـعـاتـهـ أـكـرمـ منـ الجوـاهـرـ ، أمـ تـنـضـيـدـ أـجزـاءـ في تـنـضـيـدـ الأـجزـاءـ » .

ويصف ابن عساكر الجامع بقوله : « وأفضـتـ إلى جـامـعـهـ فـشـاهـدـتـ ماـ لـيـسـ فيـ اـسـتـطـاعـةـ الـواـصـفـ أـنـ يـصـفـهـ ، وـلـاـ الرـائـيـ أـنـ يـعـرـفـهـ . وـجـمـلـتـهـ أـنـ بـكـرـ الـدـهـرـ ، وـنـادـرـ الـوقـتـ ، وـأـعـجـوبـةـ الـزـمـانـ ، وـغـرـبـيـةـ الـأـوـقـاتـ ، وـلـقـدـ أـبـقـتـ بـهـ بـنـوـ أـمـيـةـ ذـكـرـأـ يـدـرـسـ ، وـخـلـفـتـ بـهـ أـثـرـأـ لـاـ يـخـفـيـ وـلـاـ يـدـرـسـ » .

### ● أشهرـهاـ حـسـنـاـ :

ويصف ابن جبير زينةـ الجـامـعـ الـأـمـوـيـ فيـقـولـ : « هوـ منـ أـشـهـرـ جـوـامـعـ الـاسـلـامـ حـسـنـاـ وـاتـقـانـ بـنـاءـ ، وـغـرـابـةـ صـنـعـةـ وـاحـتـفـالـ تـنـمـيقـ وـتـزيـينـ ، وـشـهـرـهـ الـمـتـعـافـةـ فيـ ذـلـكـ تـفـنـيـ عنـ اـسـتـفـرـاقـ الـوـصـفـ فـيـهـ ، وـمـنـ عـجـيبـ شـائـهـ أـنـ لـاـ تـنـسـجـ بـهـ الـعـنـكـبـوتـ وـلـاـ تـدـخـلـهـ وـلـاـ تـلـمـ بـهـ الطـيرـ الـمـعـرـوفـةـ بـالـخـطـافـ » .

ويضيفـ : « وـكـانـ هـذـاـ الـجـامـعـ الـمـبـارـكـ ظـاهـرـاـ وـبـاطـنـاـ مـنـزـلاـ كـلـهـ بـالـفـصـوصـ الـمـذـهـبـةـ مـزـخـرـفـاـ بـأـبـدـعـ زـخـارـيفـ الـبـنـاءـ الـمـعـزـ الصـنـعـةـ ، فـادـرـكـ الـعـرـيقـ مـرـتـينـ ،

فتهدم وجدد وذهب أكثر رخامه ، فاستحال رونقه ، فأسلم ما فيهاليوم قبلته مع  
ثلاث قباب المتصلة بها ، ومعراها من أعجب المغاريب الإسلامية حسناً وغرابة  
صنة ، يتقد ذهباً كله » .

ولم يكن الجامع الأموي الكبير مصلى فحسب ، بل كان بجلال بنائه وأهميته  
في دمشق عاصمة الامبراطورية الأموية الغربية ، مركزاً لفعاليات مختلفة ، ومن  
أهم هذه الفعاليات ، الفعاليات السياسية، ففي هذا الصرح التيف والرائع بزخارفه  
كان الخليفة يستقبل عماله ورسله ويقاضي الناس ويفصل في الأمور الجلل .

ويتحدث ابن جبير عن الجامع في أنه كان أيضاً مجتمعًا للناس يتعدشون  
ويتسامرون في صحنه فيقول « ومنظر هذا الصحن من أجمل المناظر وأحسنها ،  
وفيه مجتمع أهل البلد ، من باب جبون إلى باب البريد ، فمنهم من يتحدث مع  
صاحبه ، ومنهم من يقرأ ، ولا يزالون على هذه الحال من ذهاب ورجوع إلى  
انقضاء صلاة العشاء ثم ينصرفون ولبعضهم بالفداء مثل ذلك ، وأكثر  
الاحتفال إنما هو بالعشى ، فيغيل لمبصر ذلك أنها ليلة سبع وعشرون من رمضان  
العظيم لما يرى من احتفال الناس واجتماعهم » .

وكان المسجد الأموي الكبير بمثابة مدرسة علم وتدرس ، وفيه اعتكف  
الإمام الفزالي وكتب بعض كتبه وقام بالتدرис ، ولا زالت هذه الرواية موجودة  
حتى اليوم ويقوم شيخ الجامع باعطاء الدروس الدينية فيها .

### ● المخطط والأقسام :

شكل الجامع الأموي مستطيل الشكل بأبعاده ( ١٥٦ × ٩٧ ) مترآ ، يحتل جانبه  
الشمالي صحن مكشوف تعطيه أروقة مسقوفة ، ويعتل قسمه الجنوبي الحرم  
أو المصلى ، وللجامع ثلاثة أبواب رئيسية تؤدي إلى الصحن ، تصله بجهات المدينة  
الثلاث ، الشرقية والغربية والشمالية . أما أقسامه وعناصره المعمارية فتتألف من :

١ - **السور والأبواب** : سور الجامع مبني بالحجارة الكلسية ، مداميك كبيرة  
الحجم ، مزودة بدعامات جدارية ، وهو من العهد الروماني ، إلا أن أكثر  
أقسامه جددت في العهود المربيبة .

**٢ - الصحن والأروقة :** الصحن مستطيل مبليط بالجعير ، وقد جدد بلاطه في عهود متعددة وارتقت سويته ، ثم أعيد مؤخرًا إلى مستوى الأصلي ، بناء على دراسات دقيقة أجريت عليه .

**٣ - العرم :** يتالف من ثلاثة أروقة للقبلة ، محمولة على صفين من الأعمدة العجرية مؤلفة من طابقين : السفلي مؤلف من قناطر كبيرة نصف دائريّة والثاني يتالف من عدد مضاعف من المقناطر، كما هي الحال في الأروقة المحيطة بالصحن ، ويفتح العرم سقوف ستامية الشكل ( جمالونات ) صنعت من الخشب وصفحت من الخارج بالرصاص .

**٤ - المآذن :** كان للمعبد أربعة أبراج لم يبق منها حين تشييد الجامع سوى البرجين الجنوبيين فاتخذا مئذنتين ، ثم شيدت مئذنة ثالثة إلى جانب الباب الشمالي على هيئة برج مربع وهي التي عرفت فيما بعد بمئذنة العروس ، وشيدت المئذنة الشرقية فوق برج المعبد ودعّيت مئذنة عيسى . أما المئذنة الغربية فهي أجمل المآذن ، شيدت أيضًا فوق برج المعبّد .

أما فسيفساء الجامع الأموي التي غطت جميع سقوف وجداران الأروقة ، وبطون الأقواس والدهاليز والأقسام العليا من العرم بعد ارتفاع سبعة أمتار.. فتعتبر على الرغم من زوال أكثرها ثروة فنية إسلامية لا تقدر بثمن ، وتحمي هذه الفسيفساء بمواضيعها الخيالية من الصور فهي تقتصر على مشاهد الطبيعة والعماير والزخارف النباتية وال الهندسية ، ويعتقد بأن لوحات الرواق الغربي تمثل نهر بردى وعلى ضفافه القصور والدارات والبسور ، التي تمثل قرى جميلة تتخللها الأشجار المختلفة الأنواع ، ويعطيها إطار من الزخارف الهندسية .

### ● ترميمات جديدة :

ان جامعبني أمية الكبير كما ذكرنا سابقاً ، لم ينج من مصائب الرمان ، فتعرض للحرائق والزلزال أكثر من عشر مرات خلال تاريخه الطويل ، وكان أول حريق سنة ٤٦٠ هـ / ١٦٠٧ م ودمّر العرم بكامله . فرمم في بضع سنين ، ووفغ العريق الأخير سنة ١٨٩٣ م ودمّر العرم أيضًا ، ورمم أيضًا حسب الظروف والإمكانات الفنية المتاحة ، ولكن مما يؤسف له أن حاولات إعادة البناء والزخارف

في كثير من الأحيان لم تكن مدروسة بشكل كاف ، لذلك جاءت بعض أعمال الاعادة والترميم لا تتناسب مطلقاً مع قيمة هذا الأثر الغالد من آثار الحضارة العربية الإسلامية ، فكان القرار الجمهوري رقم /٣٦/ تاريخ ١٠/١٩٩١ الصادر عن السيد الرئيس حافظ الأسد بتشكيل لجنة مؤلفة من كبار المؤرخين والاختصاصيين والمعماريين ، أنيطت بهامهمة اصلاح وتطوير الجامع الأموي الكبير حتى يعود إلى سابق عهده ، كما كان أيام الخليفة الوليد بن عبد الملك . وزوّدت هذه اللجنة بامكانيات مادية وفنية كبيرة حتى تستطيع انجاز عملها على أكمل وجه في مدة زمنية لا تتجاوز سنتين من تاريخ صدور القرار .

ان هذه اللجنة تتبع أعمالها بسرعة كبيرة فمن يزور الجامع الأموي بدمشق في هذه الأيام يشاهد ورشات العمل الفنية والهندسية والمعمارية تقوم بأعمالها على قدم وساق وتصل الليل بالنهار وبخاصة انجاز الأعمال العاجلة، مثل ترميم المئذنة الغربية بشكل كامل وازالة العظر عنها ، وأكمال ترميم ميسنة الجامع وجعلها قيد الاشغال بصورة لائقة ، واتمام الاكساءات الرخامية والعمل بالسرعة الكلية على ترميم الأسقف والجمالونات وترميم قبة النسر وفق التشققات العاصلة ، واصلاح فرن تدويب الرصاص ، وترميم المظلة الواقية في المسكية ، واعادة احياء ورشة الفسيفساء التابعة للجامع . دعمها بكل ادواتها جيد ، ودراسة مشروع انارة جديدة للجامع وفق الطرق الحديثة ، وترميم وتزيين صالة الاستقبال ، وترميم واصلاح الآيات القرآنية والجداريات الموجودة في أقسام الجامع كافة ، وترميم اللوحات الفسيفاسائية ، وترويبي واصلاح أرضيات الجامع بما فيها أرضيات الصحن ومشاهده ، وترميم مشهد الحسين ترميمًا شاملًا بقسميه الداخلي والخارجي وفق دراسة تاريخية وفنية دقيقة ، وتم ترميم صالة الرواق الغربي وجدران أسفل قبة النسر بمادة الفسيفساء حسب الرسومات القديمة وبالطرق المتتبعة أصولاً .

ان هذه الأعمال الهمة سوف يكون لها انعكاساتها الكبيرة في اعادة المجد والرونق والحضارة والجمال الكامل الى آبادنا دينية وعمارية نادرة الوجود في تاريخ العرب والاسلام ، وفق أسس علمية ووثائق تاريخية ودراسات مستفيضة دقيقة .

## ٢ - مآذن دمشق : تاريخ وطراز :

تنتشر في دمشق اليوم أعداد كبيرة من المآذن القديمة والمعاصرة والحديثة ، وتتنوع أساليب عمارتها في اتجاهات شتى ، فمنها ما حافظت على الطابع الأصيل لخصائص العهد الذي أقيمت فيه ، ومنها ما تعرضت للتجديد أو حتى البناء ، الأمر الذي أدى إلى تغيير معالمها التاريخية . كلية أو جزئياً نتيجة تهجين عناصرها المعمارية ، ومنها أيضاً ما شيد في الأصل بعمارة لا تلتزم بنهج معين مما أفقدها هويتها الطرازية المحددة . وقد تعرضت بعض المآذن الدمشقية ذات الجذور التاريخية من المهدود المتلاحمـة إلى كثير من عمليات الترميم في حقب مختلفة ، وفي كل مرة تجري عليها مثل هذه العمليات ، كانت معالمها الطرازية تتبدل بحيث يصبح الناتج خليطاً مهجنـاً يعكس فوضوية ذلك العمل .

حول « مآذن دمشق » صدر حديثاً بدمشق دراسة ميدانية مصورة تقع في (٦٤٧) صفحة من القطع الكبير للدكتور قتيبة الشهابي ، وقد قام بعمله الهام بتوزيع مآذن دمشق وفق مظهرها الخارجي (أطربـة واشتقـاقـات ومجـمـوعـات ) ، ونتـيـجة لـتـحلـيلـ مـخـلـفـ الأـسـالـيـبـ المـطـبـقـةـ فيـ عـمـارـةـ المـآـذـنـ الدـمـشـقـيـةـ ،ـ اـسـطـاعـ التـوـصـلـ إـلـىـ تـرـيـبـهاـ وـفـقـ الـمـهـودـ وـالـطـرـازـ مـسـلـسـلـةـ حـسـبـ الـقـدـمـ مـنـدـ الـمـهـدـ الـأـمـوـيـ وـحتـىـ الـمـهـدـ الـحـدـيـثـ ،ـ وـقدـ أحـصـىـ مـنـهـاتـسـعـةـ عـشـرـ طـرـازـ أـعـمـانـيـاـ شـيـدـ بـهـاـ مـآـذـنـ دـمـشـقـ .

ـ لقد تميزت جذوع المآذن في المهد الأموي بالشكل الرابع البسيط الغالبي من العناصر التزيينية أو الزخرفية ، وكانت هذه الجذوع استمراراً شكلياً لطراز الأبراج الرومانية ثم الكنسية المربيعة ، ومن المؤسف لا يبقى في دمشق أي مئذنة أمومية واحدة ، لم ت تعرض إلى عوامل الترميم أو التجديد أو إعادة الاعمار في عهود مختلفة ، نتيجة تعرضها للحـائقـ والـزلـازـ وـالـعـرـوبـ وـالـغـزوـاتـ .ـ الـأـمـرـ الذيـ بدـأـ كـثـيرـاـ مـنـ مـعـالـمـهـ الـأـصـلـيـةـ ،ـ أوـ جـزـئـيـاـ ،ـ وأـضـفـىـ عـلـيـهـاـ مـزـيجـاـ مـنـ الـطـرـزـ الـعـمـارـيـةـ ،ـ كـانـتـ تـخـتـلـفـ بـاـخـتـلـافـ خـصـائـصـ تـلـكـ الـمـهـودـ ،ـ غـيرـ أنـ بـعـضـ المـآـذـنـ الـأـمـوـيـةـ الـقـلـيلـةـ خـارـجـ دـمـشـقـ لـاـنـاـلـتـ تـحـفـظـ بـشـكـلـهـاـ الـقـدـيمـ تـقـرـيـباـ رـغـمـ تـعـرـضـهـاـ لـلـتـجـدـيدـ ،ـ مـثـلـ مـئـذـنـةـ الـجـامـعـ الـعـمـريـ فيـ مـدـيـنـةـ بـصـرـىـ الشـامـ .ـ وـفـيـ دـمـشـقـ لـمـ يـبـقـ فـيـهـاـ سـوـىـ مـئـذـنـتـيـنـ أـمـوـيـتـيـنـ فـيـ الـجـامـعـ الـأـمـوـيـ الـكـبـيرـ هـماـ مـئـذـنـةـ

(العروض) ومئذنة (عيسى) ، أما الثالثة المعروفة بمئذنة (قابيبي) فمن العهد المملوكي وعلى طرازه .

- لم تترك المهدود التي مرت على دمشق ، منذ سقوطها في أيدي العباسين سنة ١٣٢ هـ - ٧٥٠ ميلادية ، إلى نشوء الدولة التورية سنة ٩٤٥ هـ / ١١٥٤ م من البصمات العمرانية إلا قلة محدودة ، وفي بعض الأحيان لم تترك شيئاً على الاطلاق ، فالعهد العباسي لم يختلف في دمشق ولا مئذنة واحدة تتسبّب إليه ، وكذا الأمر بالنسبة للدولة الطولونية ، والدولة الأشخيدية والدولة الفاطمية ، والمرحلة السلجوقية ، ومن العهد النوري ، هناك مئذنة الباب الشرقي التي تعود إلى القرن السادس للهجرة - الثاني عشر للميلاد ، وهي مشيدة فوق الباب الشرقي نفسه ، وحالتها الراهنة تعكس خصائص الجند الأيوبي الرابع ، المتخفف ، الحالي من العناصر التزيينية أو الزخرفية ، وكذلك الشرفة البسيطة ، وهناك مئذنة جامع حسان التي بحالها الراهنة مزيج من أطراز متعددة نتيجة أعمال الترميم التي جرت عليها .

- وبحلول عام (٥٦٩ هـ - ١١٧٤ م) استولى صلاح الدين الأيوبي على دمشق ، فانتهت بذلك العهد النوري ، وبدأ عهد الدولة الأيوبية التي خلفت وراءها تراثاً عمرانياً لا زال الكثير من آثاره قائماً إلى اليوم في المدينة ، وقد تميزت عمارة المآذن خلال تلك الفترة بخصائص هي أقرب إلى التقشف منها إلى البذخ ، فالجندع مربع أموي الطراز ، بسيط البناء ، خال من الزخارف والتزيينات ، ويدل على ذلك المآذن العديدة التي تركت في دمشق وغيرها ، ويظهر أن انتقال الدولة الأيوبية بالعروب الصليبية وتحرير أجزاء البلاد من آثارها دفعها إلى اتباع سياسة التقشف العماني في بناء المساجد ، ومثال ذلك مئذنة المدرسة الشامية البرانية ومئذنة المدرسة الأتابكية والماردانية ، وتتميز مآذن العهد الأيوبي بأنها : .

- ١ - ذات جندع مربع بسيط ومتخفف في عمارته .
- ٢ - شرفتها وحيدة ومربعة .
- ٣ - مظلتها مربعة أيضاً .

## ٤ - خالية من المقرنصات وبقية العناصر التزيينية والزخرفية .

### ٥ - ينتهي رأسها غالباً بخوذة .

- في عام ( ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م ) صارت دمشق ولاية مملوكية ، وبدأ فيها المهد المملوكي الذي استمر ما ينوف عن قرنين من الزمن ، كانت البلاد خلالها مسرحاً للغزوارات الصليبية والمغولية ، وعلى الرغم من الصراع الذي دار بين المالكين والغزاة ، وبين المالكين أنفسهم ، تميز ذلك المهد بالبصمات العمانيّة الكبيرة التي خلتها لتعكس لنا أقاصيص تناسف سلاطينهم بالبناء والانشاء والتشييد إشباعاً لرغبتهم و هو اياتهم العمانيّة ، وتعبيرأ عن عظمة إمكانياتهم ، فكثرت إقامة المآذن في العاصمة الثانية لدولتهم دمشق وفي حلب وغيرها من الديار الشامية ، وحدث في هذا العهد تطور حقيقى وهام لأشكال المآذن وعناصرها العمارة ، والزخرفية ، فبعد أن كان الجندع الأيوبي المرربع سائداً لفتره طويلاً من الزمن ، بقي في هذا العهد مستمراً ، ( مئذنة جامع مسجد الأقصاب وجامع برسبياى ) جنباً إلى جنب مع أطرزة مغايرة ، كطراز الجندع المثمن ( مئذنة قايتباى ) والجندع المتنوع الأضلاع ( مئذنة جامع تنكر ) ، كما عاد الجندع الاسطوانى إلى الظهور ، كذلك تعددت الشرفات في المئذنة الواحدة ، وشائع استعمال الزخارف والمقرنصات والشرفات والمشواط الهندسية والأشرطة التزيينية والكتابية والنقوش ، كما ظهرت الدروزة الصنوبرية لأول مرة في دمشق ( مئذنة قايتباى ) .

وقد استمر التأثير المملوكي في بناء المآذن في الطراز المعاصر ، وسار جنباً إلى جنب مع بقية الطرز الأخرى ، وكانت مئذنة جامع ( لا باشا ) هي المئذنة الأولى ، وهي محاكاة لمآذن مملوكية في القاهرة ، وتفرع عن الطراز المملوكي مجموعات كثيرة نجدها في كثير من مساجد دمشق المعاصرة .

- وفي عام ( ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م ) احتل السلطان سليم الأول دمشق ، فانتهى بذلك العهد المملوكي ، وبدأ العهد العثماني ، فنشأت خلاله مشيدات عمارة المآذن في ذلك العهد بطابع فريد متطور، عن أسلوب عمارة المآذن السلجوقية فاتسست المئذنة وليس دائماً بنحو الجندع والرشاقة والارتفاع ، كما اتسمت

بالشكل الاسطواني ، أو الشكل كثير الاطلاع الذي يجعلها أقرب الى الاسطوانة، وظهرت القلنسوة المخروطية المصفحة بالرصاص في أعلى المذنة بديلة عن الذروة الصنوبرية التي شاعت في العهد المملوكي ، ويشبه الباحثون هذه القلنسوة برأس قلم الرصاص (الميري جيداً) أو المخروط المدبب ، كما تناقص استعمال الزخارف والعناصر التزيينية الأخرى الى حد كبير إلا في بعض المآذن التي شيدت بالعجز الأبلق (ويسمونه في مصر العجر المشهر) وهو المداميك العبرية ذات اللونين المتناوبين (مئذنة جامع فتحي . ومئذنة مسجد الرفاعي ) . أما المقرنصات فبقيت شائعة على نطاق واسع في عدد كبير من مآذن تلك الفترة ، وقد شيدت ابان ذلك المهد بضعة مآذن على طراز العمارة المملوكية ذات الجذوع المثمنة والذروة الصنوبرية ، ( مئذنة جامع مراد باشا ) وقد استمر هذا الطراز في المهد العثماني أكثر بكثير من استمرار الجذوع الأيوبي المرتبعة فيه ، كذلك لم يكن عدد الشرفات في المآذن العثمانية ثابتاً ، فهي مفردة ( مئذنة التكية السليمانية ، ومئذنة سنان باشا وثنائية ( مئذنة عيسى ) في الجامع الأموي ، ولكن لم تشيَد في دمشق خلال ذلك المهد ولا مئذنة بثلاثة شرفات على غرار مثيلاتها في استانبول وبقية المدن التركية ، ( ص ٣٢٥ ) وهذا ما أدى الى ما يعرف بالطراز الشامي بتأثير عثماني ، مما أعطى للمئذنة شكلاً خاصاً محدداً يميزها عن بقية المآذن المشيدة بطرز أخرى ، وترك التغيير في الجذوع المشيدة بالداميك العبرية ذات اللونين المتناوبين ( المعروفة بالأبلق) مما أعطاها هوية تختلف عن هوية بقية المآذن المقامة في تلك الفترة ، وقد استمر هذا الطراز حتى الخمسينيات من قرنا الحالى .

وفي حي « الأكراد » أقيمت مآذن بطبع شامي ونفس عثماني ، جذوعها صماء كثيرة الأضلاع يزخرفها شريط بسيط أو أكثر بلونبني أو ترابي داكن ، وينتهي جذع كل مئذنة في أعلى بشرفة كثيرة الأضلاع تستقر فوق أفاريز بديلة عن المقرنصات ويحيطها درايزين من العديد المشغول كما تعطيها مظلة على غرارها وفوق الجميع « جوسق » كثيرة الأضلاع أيضاً في أعلى القلنسوة مخروطية بنفس شكله ، وتمثل مئذنة جامع سعيد باشا شمدين ، بدمان في المهد العثماني المتأخر ، خصائص عمارة هذا الطراز .

وهكذا – كما نرى – أصبحت ماذن دمشق متباعدة ومختلفة ومتعددة الطراز والخصائص ، وهذا حصيلة المراحل التاريخية التي مررت على دمشق منذ العهد الأموي ، مما خلق تكوينات معمارية ، وأفقدوا المذنة الدمشقية في كثير من المراحل شخصيتها المميزة وهيئتها المحددة وطابعها المعين ، وكان هذا بداية لظهور الطراز الهجين ثم الطراز العديث الذي أخذ مجراه في عمارة ماذن دمشق ، منذ بداية السبعينيات من قرتنا العالى ، (مذنة الجامع الحمدى ، ومذنة جامع عمر بن عبد العزيز ) في حي المزة ، والطراز العديث في العمارة هو أسلوب يعتمد على تشكيل تكوينات وعلاقات حجمية ومساحية يبدعها المصمم ويبتعد بها عن الأساليب العادلة بحيث تبدو الكتلة المعمارية بمظهر جديد وفريد لا يمت إلى الطرز المألوفة بصلة ، أو قد يستفيد أحياناً من بعض عناصر تلك الطرز فيستغلها بشكل محدود أو يطورها كي تبدو معها المشيدة ذات لمسات تراثية ضمن الهيكل المعماري المسطور .

ومن غير الممكن اضفاء تحديد طرازي فردي على هذه الماذن العديدة ، لأن كل واحدة منها تمثل طرازاً قائماً بذاته ولكنها جميعاً تنطوي تحت لواء فكر معطاء وتفكير خلاق لا يخضعان لضوابط معينة ولا لأسس تراثية ولا لمنهجية تاريخية ثابتة تحد من الانطلاق نحو عالم الابداع والتتطور ، وبذلك يرسم لنا الدكتور قبيبة الشهابي الركائز الأساسية لبناء الماذن في دمشق عبر التاريخ ، ويلقي الضوء على شريعة عمرانية جميلة في تراثنا العربي الاسلامي لم تتوافر لها في السابق ظروف البحث بالشكل الجدي والموثق والعلمي الذي قام به .

### دمشق : على القيم



# الزَّوْلُ الْمِسْكِي

## شِعْرٌ نُظِّمَ فِي دِمْشَقَ قَدِيمًا وَهَدِيَّا

عبداللطيف أرناووط

**وخَصَّ** وهو من تأليف الأستاذ « محمد المصري » وقال في مقدمة كتابه : « الذي  
حتى ودفعني إلى لوج هذا المضمار والعربي فيه كثرة ما قرأت في كتب  
التراث وغيرها من قصائد وأشعار نظمت في دمشق ، ولم أعثر على ديوان جامع  
لذلك ، إلا ينبغي – والعال كذلك – أن ينظم شعرها في ديوان يكون عقداً يعلني  
صلحها ، وقلادة تتلاها على نعمرها ؟ » .

لذا فقد حرص المؤلف على ضبط النصوص ضبطاً وافياً ، وأضاف إلى  
المختارات ملاحق تضمنت كشافاً للأعلام والأماكن ، عرف بكل علم تعريفاً موجزاً  
يقف فيه القارئ على ما يفيده . فكان دقيقاً في عمله ، وأميناً في جمعه ، مثمناً  
ظهرت موضوعاته فلم يتوان بالرغم من محبته لدمشق ، وهي وطنه ومسقط  
رأسه ، عن ذكر مقطوعات قيلت في ذم دمشق أو القرى التي تحيط بها ، مع  
أن المرأة يتعصب لوطنه ، وهي نزعة فطرية في الإنسان .

إنها خطوة حميدة جميلة ، وفكراً رائعاً عذبة مبتكرة ، ذلك أن جمجمة  
التراث الأدبي في موضوع معين عمل مفيدين للدارسين ، وعشاق الأدب ، والقاد .  
وبخاصة ما قيل في البلدان . . . وصدرمنذ مدة وجيبة عمل ممائلاً للأديب

١ - يقع « الديوان المشتق » في ٥٩٠ صفحة من القطع الكبير ، وقد طبع بتعاون بين دار الفكر بدمشق ودار الفكر  
المالكي بيروت ، بحلة آنيقة وورق سميكة وخط واضح .

الباحث السعودي « خالد المتنين »<sup>(٢)</sup> جع فيه ما قيل في « نجد » من أشعار سلك في ترتيبه مسلكاً آخر ، إذ رب مادته وفق أغراض تلك الأشعار ٠٠ إلا أن الأستاذ « محمد المصري » آثر أن يسلك مسلكاً آخر ، فنسق قصائد الديوان وفق قوافيه ، وهو أسلوب اعتمد السلف غابي تبويب الدواوين الشعرية ٠ ولكل من الأسلوبين ميزات ، فمن حسنت تبويب الشعر وفق قوافيه سهولة الرجوع اليه ، وضم القصيدة إلى قافية تماثلها يُشيع جواً من التناسق والسلامة ٠

وثمة ترتيب ثالث يمكن أن يُتبع ، هو الترتيب الزمني للقصائد ٠ إن كان تاريخ نظمها معروفاً ، أو حسب تواريخ وفيات شعرائها الأقدم فأقدم ، أو وفق بعور القصائد ٠

وما قام به الأستاذ « محمد المصري » ليس بالأمر اليسير ، إذ قد يغيل إلينا أن جمع التراث أسهل من دراسته ، ولكن المستعرض للفسحة الزمنية الشاسعة التي شغلها شعرنا العربي من العاهليات إلى العصر الحديث ، ومقدار التراث الشعري الذي خلقه السلف في الدواوين المطبوعة أو المخطوطة ، وكتب الأدب الجامعية على مختلف صنوفها ، يدرك مدى الجهود المعانة التي تفترض المتضي لمثل ذلك العمل الجليل في التنقيب والجمع ، ناهيك عن ضبط كل هذا الذي ضمه هذا الديوان ، وشرح مفرداته والتعريف بالأماكن ، وترجمة الشعراء من مصادرها ، وذكر مناسبات تلك القصائد والمقطوعات الكثيرة ، والإشارة إلى تباين الروايات ، والعواشي المتفرقة على الآثار الشعرية ، مما لا يقدر عليه إلا المتدرس بالتحقيق ، وما ساعده الأستاذ « محمد المصري » على النهوض بهذا العمل على طوله الطويل في مجال التحقيق ودراسة كتب التراث ، وأطلاعه الواسع على المراجع والمصادر ٠

وقد اعترضت المؤلف مشكلة فصل ما قيل في الشام عامة عمّا قيل في دمشق من شعر ، وليس الفصل بينهما بالأمر اليسير ، فاللهفظان تتماواران الدلالة حيناً ، وقد آثر حلّ للمشكلة أن يختار من الشعر ما قيل في دمشق المدينة وضواحيها ، وهو ما يُعرف اليوم بمحافظة دمشق وريفها ٠

ودفعاً لاتساع الأمر وتشتت القارئ وتضخيم الديوان ، لجأ إلى اجتزاء أبيات من بعض القصائد تتصل بهذا الفرض وترك ما عداها ، وأخرى فيما اختاره بين المقطوعات التي لا تعدد البيتين أو الثلاثة ، والقصائد الطويلة التي تتجاوز أبياتها صفحة أو أكثر ، مثلما فرض عليه الترتيب الهجائي للقصائد أن يجمع قديم الشعر إلى حديثه إذا اتفقت القوافي ، وهو جمع من حسناته دفع الرتابة عن القارئ ، لكنه لا يسمح بتقديم فكرة عن التطور الذي طرأ على معاني الشعر وأساليبه واتجاهاته في موضوع القصائد .

\* \* \*

### موقف بعض الشعراء من دمشق :

ومما جاء في الديوان من تعريف بعض الشعراء بقلة وفاء أهل دمشق قول « محمد رحمة الله الأيوبي »

قالوا دمشق حوت كل المني وزهرت على البلاد ، بها من كل مرغوب  
فقلت : لكن بها قلة الوفاء فلا يُرى بها ذو وفاء غير مغلوب  
ومما ورد في ذم هواء دمشق ومانها ، قول الشاعر « الحسن بن صافي عبدالله  
ابن نزار البغدادي في الشكوى من دمشق :

ولأرحلنَّ مطيري عن بلدة شئاء يُكرَّه ماؤها ومواؤها  
ولأزجرنَّ العيس عنها مُعْرِضاً إنْ أقدرتنى دولته ولواؤها  
والحق أنَّ موقف بعض الشعراء من دمشق وأهلها هو نتيجة عوامل ذاتية  
بحتة كقول « فتيان الشاغوري » :

أراني غريباً عن دمشق وأهلها بصيرون لكن قد عموا عن محاسني  
فيما ضيعتي فيهم وفضلي ظاهر" كانى لديهم مصحف عند باطنني

وهذا الشاعر سليم اللسان لا يتورع حتى عن ذمّ قومه أهل الشاغور  
ويتهمهم بكل نقيبة :

يرون الفخر كونهم لصوصا  
تحوال شوحة تفتال صوصا  
فليتهم بها طبخوا مصوصا  
لسّلوا من خواتمنا الفصوصا  
وبين نهيرَي الشاغور قوم  
فكّلهم متى يظفر بشاة  
وما طبخت قدُورْهُمْ حلالاً  
ولو أثنا ناصح خيرِيْهم  
وقد نجد في الديوان ما يُشير إلى ما يمترض زائر دمشق من خسارة مادية  
بسبب براعة تجارها ، أو مرض قد يسببه بردّها أو تلوث خضرها كقول  
الشاعر « ابن العجاري » :

دمشق قد غدا بها حالٍ عسيراً وفيها ضاع مالي مع قماشي  
وقد يتناول الهجاء أهل القرى المجاورة لدمشق كقول « فتيان الشاغوري »  
يهجو أهل الزبداني ، وينعمتهم بالبغل :  
أتغلبون بالخيار خستة على أناس نزلوا بداركم  
وهذه الأبيات هي كل ما جاء في هذا الديوان من ذم .

### دمشق وفضيلتها على البلدان :

فإذا تجاوزنا هذه الأبيات القليلة والتي ليست سوى أبيات متفرقات  
تعارض إجماع الشعراء على معبة دمشق وفضيلتها على البلدان الأخرى ، وتجيد  
شيم أهلها في الكرم والوفاء والتي تبلغ آلاف الأبيات ، طالعتنا في هذا الديوان  
قصائد رائعة صدرت عن مشاعر صادقة ، وتسلّيم بفضل دمشق وأهلها جاءت نمرة  
زيارة الشعراء لها وإقامتهم فيها ومعاشرتهم الطويلة لأهلها ، والإشارة إلى  
تاريخها القومي المجيد ، ودفاعها عن حياض العروبة والدين ، واسهام علمائها  
وأدبائها في حركة الفكر والإبداع ، وشجاعتها أهلها وجمال طبيعتها .. من ذلك قول  
بعضهم في اعتدال هوانها وروعتها أرضها :

أنهارها فضة والمسك تربتها  
والخز روضتها والدر حصبة  
منْ لم يرِقْ وتبُدو منه أهواه  
وكيف لا تبهج الأ بصار رؤيتها  
وكل روض بها في الوشي صناء  
ومما يتبيّن لنا ٠٠ أن في «المريوة» ناعورة تنضح الماء من نهر بردى ٠٠ وذلك  
في قول «مجير الدين بن تميم» :

ناعورة مذ ضاع عنها قلبها دارت عليه بأدمعه وبكاء  
وتغلت بلقائه فلأجل ذا جعلت تدبر عيونها في الماء  
ويتابع الشعراء طوافهم في متنزهات دمشق العديدة كالصالعية والشاذروان  
كقول الأمير منجك :

نزلنا الصالعية في العشايا فأغنانا الضياء عن الضياء  
وابواب القصور لها صرير الذي لسمعي من صوت نائي  
أو قول الشيخ «أيوب الخلوتي» يذكر ليلة أمضاهما في روضة من قاسيون :  
وليلتنا على قاسون لئا خرجنا من منازلنا ذهابا  
وسرنا والفالزل لنا دليل ووجه غزال الأفلak غابا  
وغمى والظلام لنا رضيع وقمت و كان رأس الليل شابا  
ونادى بالأذان فقلت أهل لأن الصبح أشهر سيف حرب  
وجنح الليل كان له قرابا  
ولا يقل إعجاب الشعراء بطبيعة دمشق وغوطتها وقراءها المنثورة كاللآلئ  
في بحر الخضراء الدائمة عن إعجابهم بغير ذلك من محاسنها يقول الشاعر أنور العطار  
في النوطة :

عالم من نضارة واخضرار فاتن الوشي عبقرى الاطمار  
ضم دنيا من البشاشة والبشر وما تشتهي من الأوطار  
من فراش على الغمائل حوا م وطيب مع النواسم سار  
وينابيع حفَّل بالاغاريض تاجي بالساكب المدار  
وأقصاص من تُسْكِر القلب والروح روطها قيشار الأطيوار

فأنت سالت من الأوكار  
وأنشيد ردتها السوافي  
والغلاف الأنهر بالأنهار  
من أقاح ونرجس وبهار  
وتحاسين تأسر الطرف أسرًا  
ونسيم ينشي النفوس ندياً  
أرج نافع الشذا معطار  
وثمار كأنها عبق الخلد عذابٍ أحبابٍ بها من ثمار  
وصبايا من الفراس ندياً قد نتها عجائز الأشجار

\* \* \*

مبد للجمال أبدعه السحر ودشتْه قدرة الأقدار  
هو دنيا الفتون ملء حوافيه رُواءً مجددًّا الأعمار  
سلوة الهائين ، نجوى المعبيين ، مراح الأرواح والأبصار  
تتفنن العقول نشوئ من العطر وتهتز عن ندى مخمار

\* \* \*

يا نعيمي ويَا مطافِ ادَّكاري  
نهلتْ من جمالك السمح نفسي  
وتفذتْ من وحيه أفكارِي  
عقبت من شذاك هذا السماوا  
أنت ريحانة من الخلد فاحت  
في نعيم حُلُوِ الرؤى سحّار

\* \* \*

وفي الديوان ذكر لعادات أهل دمشق فعنها : أنهم كانوا ينصرفون في يوم  
السبت إلى الراحة والتنزه في المرج الغربي - حيث يقوم الآن معرض دمشق  
الدولي - قال الشاعر عبد الرحيم بن علي البيساني ( القاضي الفاضل ) :

أما دمشق فجنة ينسى بها الوطن الغريب  
له أيام السبو ت بها ومنظرها العجيب  
انظر بعينك هل ترى إلا معيناً أو حبيب

كُل يُبلغ نفَسَه ما شتهي مرحًا وطيبٌ  
 أرض خلت ممن ينفَسُون أو يراقبُ أو يعيَّبُ  
 في موطن غنَى العَمَّامَ به على رقص القصيبِ  
 وغدت أزاهِرُ روضه تختال في فرحٍ وطيبٍ

★ ★

ويشيع في الديوان ذكر أديرة دمشق، وما كان يتمتع بها زائروها من اللهو  
 وحسن الوفادة ، ومنها : دير حنا - دير قانون - دير المصافير - دير قبيس - دير  
 معلولا - دير النواطير - دير مران - دير صليبا ، وفيه يقول الشاعر محمد بن  
 علي المؤمل :

جَنَّةً لَقْبَتْ بَدِيرْ صَلِيبَا	مَبْدِعْ حَسْنَه جَمَالًا وَطَيْبَا
شَجَرٌ مَحْدَقٌ بَهْ وَمِيَاهْ	جَارِيَاتْ وَالرُّوْضَ يَبْدِي ضَرُوبَاهْ
جَئَنَّه لِلْمَقَامِ يَوْمًا فَظَلَّنَا	فِيهِ شَهْرًا ، فَكَانَ أَمْرًا عَجِيبًا

★ ★

وتحتل «الربوة» التي ما تزال تحفظ بشرتها حتى يومنا هذا بحظوظه  
 الشعراء الذين زاروها ، مثلما تشير «المزة» إلهام من زارها أو قطنها من  
 الشعراء وفي ذلك يقول الشيخ عبد الغني النابسي :

قَدْ دَعَانَا دَاعِيُ الْهَوَى نَعْوَ مِرْزَةً	قرِيَةٌ تَيْنَهَا حَلَّا وَهِيَ مَرَزَةٌ
كَلَمَا هَبَتْ النَّسَائِمُ فِيهَا	أَخَذَتْ مَعْطَفَ الْعَدَائِقِ هَرَزَةً
قَدْ أَتَيْنَا مَعَ الصَّحَابَ إِلَيْهَا	بِقُلُوبِ مِنَ الْهَوَى مُسْتَفْزَةً
وَسَعْنَا الطَّيُورَ فِي الدَّوْحِ غَنَّتْ	فَازْلَتْ دَمْعَ الْعَيْنَ الْأَعْزَةَ
وَصَفَا فِي الرِّيَاضِ جَدَولُ مَاءٍ	وَنَسِيمُ الصَّبَا يَجْعَدُ خَرَزَةً

★ ★

وتروع نهر «بردى» شرایین تبعث في دمشق الغصب والحياة والجمال، فليس  
 عجبًا أن تشير إعجاب الشعراء ، فينظمون في التفنّي به وبفروعه أروع قصائدتهم

وأحلى ذكرياتهم .. قال الأخطل الصغير من قصيدة بعنوان : « ضفاف بردی » :

هل كان يتحقق فيه غير فوادي  
أنا مذ أتيتُ النهرَ آخر ليلة  
كانت لنا ذكرٌ تُه إنشادي  
سألته عن ضفتيه : الم ينزلْ

لي فيما أرجوحتي ووسادي  
فيكى لي النهر العنون توجها  
لما رأى هذا الشعوب البداي  
للشعر منطلق الجوانح هائما

لما رأى هذا الشعوب البداي  
بردي هل الغلد الذي وُعدوا به  
إلاكَ بين شوادن وشوابي  
قالوا : تُعب الشام ؟ قلت : جوانبي

\*     \*

وفي الديوان أيضاً ، مقطوعات فريدة نالت شهرة في عالم الفناء والطرب ،  
كأبي فراس طراد على السلمي الدمشقي المعروف بالبديع » تُبرز حنينه  
إلى دمشق وأحبته فيها :

هذه أنفاسِ ريا جلقا  
بردُّ أنفاسك إلا حرقا  
يا حبيب النفس ذاك الموثقا  
بسهام أرسلوها حَدَقا  
وهو لا يشرب إلا الأرقا  
عارضًا من سُحب عيني غدقًا  
كان منظوماً بأيام اللقاء  
بأببي ذاك الأسيرِ الموثقا  
بالفتى أو ليته ما خلقًا

\*     \*

يا نسيماً هبَ مِسْكاً عَبِقا  
كَفَّ عَنِي والهوى ما زادني  
ليت شعرى نقضوا أحبابنا  
يا لصبَّ أسرروا مهجته  
وأداروا بعده كأس الكرى  
يا رياح الشوق سوقي نحوهم  
وانثري عقد دموع طالما  
أسرروا قلبي جميماً عندهم  
ليت أيام التصابي ثبتت

ويعقد الشاعر « فتيان الشاغوري » مفارقة غريبة ، فيدفعه حبه الى نهر « بردى » أن يجعل نهر « النيل » جدواً بالقياس له ٠٠ يقول في وادي بردى :

إذا فاض في مصر كبعض الجداول  
هنا للكما نهر يُرى النيل عنده  
سمت في سماء الماء غير أوائل  
يغالب به النيلوفر الفضّ أَنْجِمَا<sup>أَنْجِمَا</sup>  
كأن طيور الماء فيه عرائس  
جلَّيْنَ على شطئيه خضر الفلائل  
إذا قابل النهر الدجي بنجومه  
أَرَانَا بقعر الماء ضوء المشاكل

★ ★

وأما أهل دمشق فقد تغنى الشعراء بعروبتهم وباعتزاهم وبلغتهم وإيمائهم ،  
قال معروف الرصافي :

يا أم لا تخشىْ فان الله يا أمي مجيري  
ودعى البكاء فان قلبي من بكائك في سعير  
أعلمت أنني في دمشق أجرأْ أذيال السرور  
بين الفطارفة الذين تخافهم غير الدهور  
من كل وضاح العجين أغراً كالبدر المنير  
حُسر الشمائل والمقائل والظواهر والضمير

★ ★

ويشير الأخطل الصغير « بشارة الحوري » الى عروبة دمشق ، فيقول :  
في فتية شم الأنوف صباح  
باكرتها والزهر يشرق بالندى  
أهل الندى والباس إن تنزل بهم  
تنزل على عربٍ هناك فصالح  
الشام منبthem وكـم من كوكـب  
هادٍ وكـم من بلـل صـدـاحـ  
وـطنـ " أـعـارـ الـخـلـدـ بـعـضـ فـتوـنـهـ

★ ★

وينتزع العلامة الشيخ محمد المسيري المقدسي أهل دمشق بالعلم والصلاح  
وطيب الخلق ، والترفع عن العيوب ٠٠ فيقول :

وكم ماجد فيها ، وكم عالم بها  
تجـرـ بـهـ ذـيلـاـ على رـبـةـ القرـاطـ  
وـكـمـ صـالـحـ قـدـ حلـ فيـ فـيـعـ سـوـحـهاـ

بهم سارت الركبان في كل وجهة  
نواديهم بالعلم والذكر حية

★ ★

وأما تاريخ دمشق فتتحدث عنه آثارها وأوابدها . وبطلات أهلها ، كانت محطة تقدير الشعراً والتلفي بها ، قد يهم وحديثهم ، فهم يربطون تاريخ مدينة دمشق بتاريخبني أمية وأمجادهم وبطلات « صلاح الدين الأيوبي » من ذلك قول الشاعر خليل مردم بك :

كانت قواعدَها سِيوف بنيكِ  
من عبد شمس ضمئها ناديكِ  
لولا مشاعر مكة حجُّوكِ  
حسنت عواقبها فما يسلوكِ  
نفساً يُضَنْ بِمثلاً ليقيكِ  
أَخِذت بنوكِ بمعنٰة التترٰيكِ

رفعت أمية فيك أعظم دولة  
كم من شموس ليس يقرب نورها  
تهوي قلوبهم إليك صباية  
ورمت بصر قريش عنك نوى وإن  
وقد صلاح الدين دونك باذلاً  
وظلت خالصة العروبة حينما

★ ★

ويجعل الشاعر « نزار قباني » من دمشق بداية التاريخ ، منها كتب ،  
وبعزمٍ أهلها تصنع قدرها ٠٠ يقول :

كتب الله أن تكوني دمشقًا  
علينا فقه العروبة ياشا  
إن نهر التاريخ ينبع في الشا

★ ★

ويمكننا القول ٠٠ إن « الديوان الدمشقي » باقة جميلة من الشعر ، جادت بها قرائع المبدعين من أبناء الأمة العربية ٠٠ يمتلك القاريء بما فيها من ثمار الأدب وكأنه – وهو يتتصفح قصائدها – يتتجول في أحد بساتين الغوطة الفなاء حيث تقع عينه على صنوف الأشجار والأزهار ٠٠ إذ تائف كل طاقات الفن ، لتخلق من تلك الفرائد سيمفونية عذبة يمتزج فيها سحر الفن بسرع دمشق الخالدة ٠

دمشق : عبد اللطيف الأرناؤوط

# اتساع دمشق في القرن العشرين

الاستشارة لفرنسية: آن ماري بيانكي

ترجمة: خليل فريجات

يُجهد عالم العفافيا نفسه ، في وصف وتفسير العلاقة ، التي تربط الإنسان بوطنه وب بيته . ومن خلال هذا الواقع أريد أن أبين وبخطوطة عريضة واضحة ، الأحداث التي تتبع خلال هذا القرن ، في العلاقات بين المدينة وما يحيط بها ، وبخاصة مراحل اتساع دمشق ، نحو ضاحية الغوطة ، التي كانت ولا تزال على ارتباط وثيق بالمدينة .

أنشئت دمشق ، وتطورت في موقع له أهميته وببيته المرموقان ، اللتان أعاد تدبيهما وترتيبهما الإنسان الدمشقي . إن هذا الموقع الخاص ، يفرض نفسه ضمن تضاريس ومنحدرات في الغرب والشمال ، واختار الإنسان الدمشقي إقامة له في مجالات ثلاثة :

الغوطة والوديان الكائنة خلال الجبال ، وضواحي السهب ، والمنطقة التي تدعى المرج .

لم تصل دمشق ، المحاطة بالعدائق الغناء ، خلال حقبة تاريخها الطويل ، حتى في فترات عظمتها ، سعة المدن الكبرى في المنطقة ، نظير القاهرة وبغداد ، وبقيت دمشق مدينة متوسطة ، تنعم بارتباط كامل وانسجام مع غوطتها . والقرى العديدة التي كانت تعطيها ، وتسير على هذه الغوطة ، بمالكيها الكبار

\* باحثة في التاريخ والأثار والتراث من جامعة ليون - فرنسا .

وتجارها ، كانت هي بدورها تمدّها بما تحتاج إليه من حاجات وغذاء ، وكان هذا الانسجام والتوازن يبعث فتنـة لدمشق وجمالها ، بالإضافة إلى أصالتها ، وأعطنـا تاريخها استمراراً وكـمالاً تستحقـها .

حصل بعض التصدع في هذا الانسجام في القرن العشرين . وأصبحت دمشق حاضرة عصرية ، العـلتـ بها جميع الضواحي المحيطة بها ، والتي كانت تشكل قرى الفوطة ، وأصبحت شـبه محلـقات تحيـطـ بها ، وتـكـاثـرتـ معـ الزـمـنـ . ولـاتـمـكـنـ منـ إـعـطـاءـ فـكـرـةـ صـحـيـحةـ عـنـ ذـلـكـ ، أـسـتـطـيعـ القـولـ : إنـ سـكـانـ دـمـشـقـ كـانـواـ نـحوـ ١٧٠٠٠ـ فـقـطـ مـائـةـ وـسـبـعـونـ آـلـفـ سـاـكـنـ عـامـ ١٩٢٠ـ ، وأـصـبـحـواـ ١١٢٠٠٠ـ مـلـيـونـاـ وـمـائـةـ وـاثـنيـ عـشـرـ أـلـفـ سـاـكـنـ ، بـمـوجـبـ إـحـصـاءـ عـامـ ١٩٨١ـ ، ولـمـ دـمـشـقـ إـحـصـاءـ ، مـنـذـ هـذـاـ التـارـيخـ ، يـصـبـعـ عـلـيـ أـنـ أـضـعـ أـرـقـامـ جـديـدةـ ، لـسـكـانـ دـمـشـقـ الـعـالـيـينـ ، نـسـبـةـ لـلـمـدـنـ وـالـقـرـىـ الـعـادـيـةـ ، وـلـكـنـيـ أـعـتـقـدـ أـنـ مـجـمـوعـ السـكـانـ الـعـالـيـ ، رـبـماـ يـصـلـ إـلـىـ أـرـبـعـةـ مـلـاـيـنـ .

★ ★ ★

١ - إن عوامل اتساع دمشق عديدة ، ولا أقدر على تبيان سوى ما هو كثـيرـ الأـهـمـيـةـ . كـانـتـ دـمـشـقـ خـلـالـ الـأـعـوـامـ / ٦٦٠ـ إـلـىـ ٧٥٠ـ / عـاصـمةـ اـمـبـاطـورـيـةـ عـظـيمـةـ ، وـفـقـدـ هـذـهـ الـمـكـانـةـ ، وـمـرـأـتـ بـصـعـوبـاتـ جـمـةـ . لـكـنـهاـ اـسـتـعـادـتـ حـيـوـيـةـ وـتـطـورـهاـ ، فـيـ عـهـدـ نـورـ الدـيـنـ ، وـخـلـفـهـ صـلـاحـ الدـيـنـ ، عـنـدـمـ اـحـتـلـتـ مـجـدـداـ مـكـانـةـ أـوـلـىـ وـعـظـيمـةـ ، فـيـ مـعـارـبةـ الـصـلـيـبيـيـنـ . هـذـاـ وـلـمـ تـكـنـ فـيـ عـهـدـ الـعـثـمـانـيـيـنـ سـوـىـ الـلـكـنـ فـيـصـلـ ، فـيـ نـهاـيـةـ الـعـرـبـ الـعـالـيـةـ الـأـوـلـيـ .

ركـزـتـ سـلـطـاتـ الـانـتـدـابـ الـفـرـنـسـيـ ثـقـلـهاـ فـيـ لـبـنـانـ ، وـجـعـلـتـ مـرـكـزـ مـفـوضـهاـ السـامـيـ فـيـ بـيـرـوـتـ ، وـلـيـسـ فـيـ دـمـشـقـ ، وـكـمـ حـاـوـلـتـ تـقـسـيمـ سـوـرـيـةـ ، لـكـنـ دـمـشـقـ الـتـيـ لـاـ تـصـبـرـ عـلـىـ ضـيـمـ ، اـسـتـعـادـتـ مـكـانـتـهاـ الطـبـيـعـيـةـ ، وـأـصـبـحـتـ وـبـصـورـةـ نـهـائـيـةـ ، بـدـءـاـ مـنـ الـاسـتـقـلالـ ، عـاصـمـةـ دـوـلـةـ ذاتـ حدـودـ جـديـدةـ ، فـيـ حـيـزـ أـخـذـ يـسـتعـيدـ شـيـئـاـ فـشـيـئـاـ حـضـارـةـ سـوـرـيـةـ الـحـدـيـثـةـ ، وـهـذـهـ دـوـلـةـ هـيـ سـوـرـيـةـ ، الـمـتـمـكـنـةـ مـنـ نـفـسـهاـ ، الـوـاـقـةـ بـذـاـتـهاـ ، وـقـدـ أـصـبـحـتـ دـمـشـقـ الـخـالـدـةـ ، عـاصـمـتـهاـ ، وـهـاـ هـيـ تـقـومـ الـآنـ بـدـورـ أـسـاسـيـ فـعـالـ ، مـنـ الـطـرـازـ الـأـوـلـ .

في نهاية القرن التاسع عشر ، كان افتتاح الطرق ، وسكة حديد – دمشق – بيروت – سبباً لادخال دمشق في عالم المواصلات الحديثة ، وبعد عام ١٩١٨ تغلى الانسان وبسرعة ، عن العربة التي يجرها الحصان في المدينة ، وعن تحمل الأشياء على ظهور الدواب ، وأخذ يستخدم السيارة والشاحنة ، وأضحت من واجبه ، تبني شبكة طرق بدائية ، تتمكن من تحمل نوع المواصلات المدنية والمسكرية ورأى وجوب تجديد مداخل المدن وتعريفها ، لافساح المجال أمام المواصلات الآتية من فلسطين وبيروت ، والطرق الخاصة والهامة ، بالنسبة للسلطة المنتدبة ، ولعبت الضرورات الأمنية دورها أيضاً ، فأخذت قسمًا من مخطط دمشق العتيقة ، فرسمت الأجزاء الأولى لأول معلق ، خلال بضعة أسابيع ، في بدء الثورة السورية عامي ١٩٢٥ – ١٩٢٦ ، لحماية المدينة وسلطات الانتداب المقيمة فيها ، من الثوار الذين كانوا يتخدون من الفوطة مقراً لهم . وللتتمكن من السيطرة على أوضاع الفوطة ، وجب القيام بشق طرق صفيرة ، تُستبدل بالطرق القديمة ، التي كان يعدّ جانبيها حواجز ترابية ، اندثرت غالبيتها .

إن سياسة التعريف بهذه ، للمداخل وإحاطة المدينة بنموذج من الطرق المعلقة سوف يتتابع ويترافق بازدياد الأبنية على حساب الفوطة . وشهدت السنتين تدشين أول طرق ، بشبكات حديثة ، كطريق المطار و او توستراد المزة . إن مخطط الاتساع الذي نظمه السيد المهندس ايكونشار ، سيكون موضع الاعتناء ، من حيث انشاء طرق حديثة ومعلق جديد .

وانشئت صناعات عصرية ، هي بعاجة ماسة لمساحات واسعة ، ومام كثير تركزت جميعها منذ الثلاثينات حول المدينة : من الجهة الغربية في وادي بردى ، تبعها غيرها في الجنوب على طريق درعا وفي الشمال الشرقي على امتداد طريق حلب ، بالإضافة الى الجهة الشرقية من الفوطة ، ولعقتها صناعات كيميائية، وجميعها تصب فضلاتها في بردى وروادنه . كما أن وجود منطقة الدباغات في شرق المدينة، يزيد في خطورة تلوث روافد بردى السبعة .

هناك مشاريع لترحيل هذه الدباغات، الى أبعد من المنطقة المروية ، كمعمل الاسمنت الذي أنشأ في عدرا . لكن هذه المشاريع ، بعيد تحقيقها ، بينما أن المصانع الصغيرة المتصلة بالسكن ، كانت تكتسح الأماكنة المتصلة بالمدينة مباشرة . لقد لعب النمو السكاني ، دوراً رئيسياً وأساسياً . غير أن سورية تعلم

أسوة بغيرها من المدن ، التي هي في طريق التطوير ، ان هناك تسرعاً في النمو السكاني ، في النصف الثاني من هذا القرن . ولا يزال معدل النمو مرتفعاً حتى اليوم .

إن تطوير الزراعة والاصلاح الزراعي ، واستثمار الأموال في مشاريع الري الكبرى ، لم تتمكن بعد من الحفاظ على الريف . وهذا الفيض السكاني المتزايد ، شاركت به هجرة الريف ، نحو المدن الكبرى في سوريا ، ولا سيما نحو العاصمة وصناعاتها ، ووظائف موظفيها ، وجماعاتها .

إنهم كثر اللاجئون ، الذين أسموا في هذا النمو السكاني ، وقد وفدوا من سنجق الاسكندرية منذ عام ١٩٣٩ ، وتبعدوا في ذلك الفلسطينيون بدءاً من عام ١٩٤٨ ، وتلامهم أهل الجولان ، الذين هجرتهم اسرائيل عن ديارهم عام ١٩٦٧ ، ولا معالة فإن هؤلاء النازحين ، تركز ووثبتو أقدامهم حول المدينة أو في الغوطة .

أخيراً إن النمو السكاني في دمشق ، ناتج عن تطور ظروف إقليمية ودولية ، لقد عززت العرب مع اسرائيل وضع دمشق الاستراتيجي ، وكانت سبباً في تكثيف المراكز المسكنية في المنطقة ، وازدياد في عائلات الجنود . وفي السبعينيات ، فإن فيضاً من الأموال ، مصدره النفط ، بالإضافة إلى انفراج اقتصادي ، جلب نمواً حضارياً إلى سوريا بآجمتها . وانطلاقاً من عام ١٩٧٥ ، سببت حرب لبنان دوراً إقليمياً ، ذا مستوى رفيع . فأخذت أثمان المقارنات ، بالارتفاع خلال الثمانينيات ، غالبة انفراجاً للمدينة ، ونماءً متزايداً في مدن الغوطة الصغيرة ، والضواحي المجاورة ، فيما كانت السلطة تظهر اهتماماً بالغاً باعطاء المدينة طابعاً ذا شأن ، وتتجدد في محاورها .

## ٢ - يمكن إيضاح نمو التوسيع السكاني بيانياً ، ضمن بعض المراحل :

في نهاية حقبة الحكم العثماني ، وفي بداية الانتداب الفرنسي ، أنشئت مدينة عصرية مشابهة تماماً للقديمة ، في الجهة الغربية من دمشق ، وامتدت نحو الشمال الغربي ، باتجاه حي الصالحية على الجبل ، وفي بدء هذا القرن ، أطلق على وسط هذه المدينة ، اسم « المرجة » تعني بها الأبنية الحكومية الهامة ، بالإضافة إلى



بناء العايد . وعند مدخل هذه المدينة ، وأنت قادم من الجهة الغربية ، أعني من بيروت ، يواجهك فندق فكتوريا الكبير ، أول فندق بني للسياحة . وإذا نظرت إلى الغرب ، على امتداد نهر بردى ، فانك بلا شك واجد خيالة ، يروضون خيولهم في السهل القريب . وتلك هي فسحة تقدوك وإياهم إلى مقهى الربوة ، الكائن في أعلى منعطف نهر بردى .

إن دليل بيديكر الصادر في نهاية القرن التاسع عشر ، وبالأحرى في السنوات الأولى لهذا القرن ، يعطي فكرة صحيحة واقعية ، عن دمشق هذه قبل عام ١٩١٤ . فعلى سفوح جبل قاسيون في الجهة الغربية من الصالعية ، أنشئ حي المهاجرين ، وكان من قبل سكاناً ، لم قدم من جزيرة كريت ( وتلك شيمة وصفت بها دمشق على مر العصور ، من حيث استقبال المبعدين ، على الرغم من أن وفادتهم تدعوا إلى إحداث أحياء جديدة حول المدينة ) .

وفي ظل السنوات الأولى ، للانتداب الفرنسي ، بدأ يتسع المحور الذي يوصل المرجة بالصالعية ، وأخذ يمتد قليلاً قليلاً . كما أحدثت شوارع جديدة مناسبة ومتناسبة ، وفي أواخر العشرينات ، كثرت طلبات الترخيص بالبناء ، وأصبحت عديدة جداً ، وخاصة في حي الصالعية ، أكثر من الأحياء الأخرى .

أما الأوروبيون فقد رغبوا في الإقامة ، حول دير الفرنسيسكان والمشفى الإيطالي . وهناك عائلات دمشقية ، استغفت عن سكنها في المدينة القديمة ، وأقامت مباني في المرتفعات ، بين حدائق دمشق الغناء .

لقد فصلت حدائق ( أبو رمانة ) ، عن حدائق المزرعة ، بسبب إنشاء هذا الحي الجديد . كما أنشئت حول حي باب توما ، ضاحية جديدة دُعيت القصاع . أما بربة والمزة فهما ضاحيتان بعيدتان كثيراً عن المدينة .

في أواسط الثلاثينيات ، قام مكتب دانجييه للهندسة المعمارية ، وتنظيم المدن ، بالتعاون مع مهندس محلي معماري أيضاً يدعى ميشيل ايكو شار ، بتنظيم مخطط اتساع لدمشق ، جديد ودقيق . وقد واصفو المخطط مستندات إثباتية ، لها علاقة بالأمنة ، المراد تنظيمها ، ونقاط التقاء السير فيها ، والتي تدعو الضرورة لصيانتها ووجوب التقيد بها .

لقد ثبت لواضعي المخطط ، أن هناك ميلاً لتوسيع المدينة نحو الغرب . فيما ان السكان يتطلعون الى الاقامة في المرتفعات . فناشوا المسؤولين بوضع مخطط امتداد ، يأخذ هذه التوصيات بعين الاعتبار . وكان الاهتمام الأول متهاً ، نحو مداخل ومخارج المدينة ، وبخاصة للطريق الآتي من بيروت ، والتي يجب أن تكون مظللة ، تهدى جانبها حدائق غناء ، من الريوة حتى جسر فكتوريا . أكمل أول معلق ، وأصبح من الممكن ضم استادارة الأمويين بالعنوب ، ببوار كفرسوسة ، وباب المصلى ، وبشارع ابن عساكر ، وباب شرقى ، عند نقطة الانطلاق الى حمص وبنداد في الشمال الشرقي .

خطط لحيٍ جديد أيضاً ، بين المهاجرين وطريق بيروت ، وتابعت المدينة امتدادها نحو الغرب ، وأصبحت جميع البساتين الكائنة في مثلث المهاجرين ، والصالحية ، وطريق بيروت مهيأة للزوال . وخطط أيضاً لحيٍ آخر في الجهة الشرقية من الصالحية ، وهو حي المزرعة ، ويعد المدينة في الشمال شارع بغداد ، ولسوء حظ دانجه أنه رأى إبنيه غير منتظمة ، تتکاثر في العدائق المتراصة الأطراف حول هذا الشارع .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد ارتاح أن يرى شبكات طرق ، تتلاقى بشوارع منتظمة ، كشارع أبو رمانة ، وتنظم أحيا سكنية ، حول ساحات صغيرة ، مريحة جداً وشوارع عريضة متنوعة ، تكون على الفالب مظللة، بأشجار متقاربة من خط السير العام .

ويثبت المخطط انموذجاً جديداً للسكن ، إذ تصبح البناءات الجديدة ذات طابقين ، فوق طبقة سفلية ، وستكون متبااعدة عن الطريق ، ولن تشغل سوى قسم بسيط من الأرض ، تشتراك فيه مواقف للسيارات .

ولكن ليس هناك أي بناء جديد ، مخصص للتجارة، إلا وله وجائب تُستخدم من ثم موقفاً للسيارات . يسعى واضعو المخطط إذاً ، الى الحفاظ على أن تظل دمشق مدينة حدائقية ، على الرغم من تعديتها . وللأسف فانتا نرى الان العدائق ، وقد أصبحت حول البيوت ، وفي ساحات من الشوارع والساحات العامة ، بدل أن تكون في ساحة خاصة مقلقة قرب المسكن . ولبناء هذا النموذج، طلب أن تبني في دمشق في الأربعينات والستينات .

وفي السبعينات عهدت السلطات السورية ، الى المهندس المعماري ، ميشيل ايكون شار بالاهتمام بوضع مخطط ، تكون عليه دمشق في نهاية القرن العشرين .

إذ يجب أن تنظم المدينة ، ضمن شروط سياسية جديدة ، سكانياً واقتصادياً .  
 صُمِّمت الدراسات المبدئية ، بدءاً من العام ١٩٦٤، وقدم المخطط عام ١٩٦٨  
 واتخذ واضح المخطط على عاته ، عدداً من المعطيات ، أصبحت الآن قيد التنفيذ .  
 وضمَّت المجموعة الأولى من القرى إلى المدينة . وهذه القرى هي السُّلُك التالية :  
 المزة - كفرسوسة - القدم - القابون - بربة ، بالإضافة إلى دمر في ضاحية  
 بردى .

يوجد في الجنوب الشرقي من الميدان ، حي كبير للنازحين ، دُعِي مخيماً  
 البرموك .

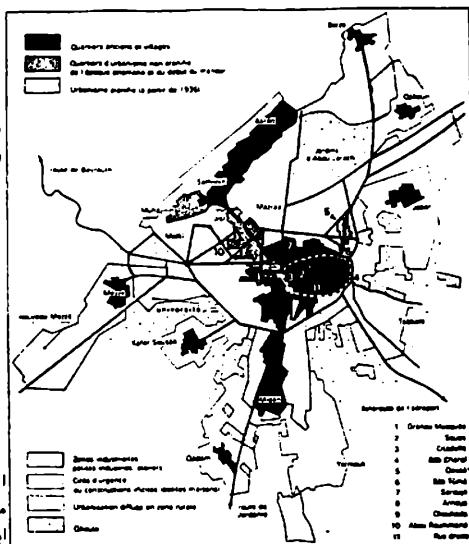
أما حي مساكن بربة ، فهو في طريقه إلى التنفيذ ، ولا تزال المباني تتضاعف  
 على سفح قاسيون ، وتُرى البيوت وكأنها معلقة على جانبيه ، وكثيرة منها  
 مبنية في فرجته التي تمتد على امتداده ، وللأسف فإن أرض بعضها ، قد خُسفت  
 واختفت في المقلع المحفور قرب فرجته ، وكثيرون هم الذين ماتوا بسبب ذلك .

يواجه السيد ايكلو شار ثلاثة فرضيات ، بالنسبة لسكنى دمشق ، في عام ١٩٨٤  
 حسب معدل النمو المثبت فيما يلي :

السكان عام ١٩٨٤	السكان عام ١٩٦٠	معدل النمو	
١,١٥٢,٠٠٠	٥٢٩,٠٠٠	٣,٥٪ حتى عام ١٩٧٤ ٣٪ حتى عام ١٩٨٤	فرضية ضعيفة
١,٢٦٧,٠٠٠	٥٢٩,٠٠٠	٣,٧٪	فرضية متوسطة
١,٣١٩,٠٠٠	٥٢٩,٠٠٠	٤٪ حتى عام ١٩٧٤ ٣,٧٪ حتى عام ١٩٨٤	فرضية مرتفعة

إن السيد ايكلو شار عازم أيضاً ، على اتخاذ طريقة أكثر ثقة وأماناً ، مستنداً  
 إلى اعتبار معدل النمو ٤٪ والذى يعطى وبالحالة هذه ، عدداً سكانياً يمكن  
 تقديره (١٥٤٠٠٠) عام ١٩٨٤ ، إن هذه الأرقام ، وهذه الفرضيات ،  
 تُظهر مدى الصعوبات الممكن تداركهافي الموضوع السكاني .

الخريطة ١ :  
توسيع دمشق خلال القرن العشرين -  
وضع المدينة في عام ١٩٧٨



الخريطة ٢ :  
مأشردة من المخطط التنظيمي  
لبيكشار - بانشوريما ١٩٦٨

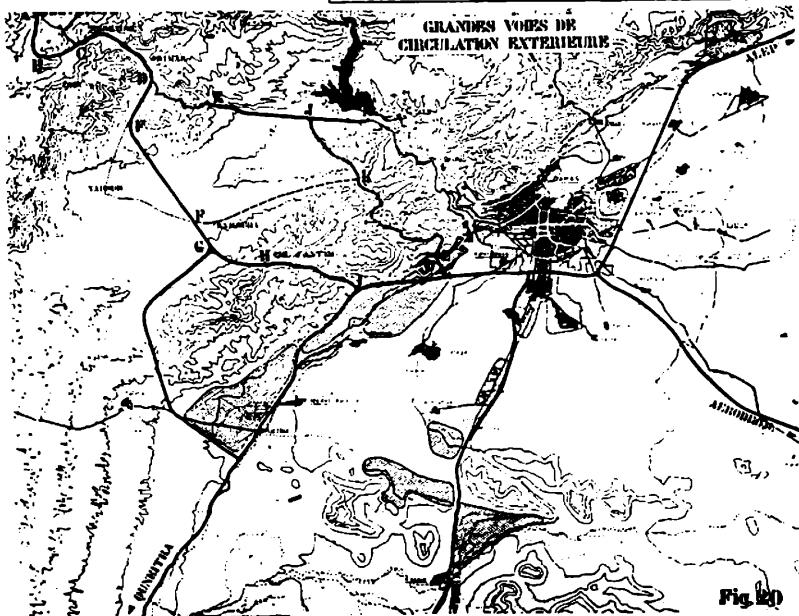


Fig. 20

### للسيد ايکو شار أهداف ثلاثة :

- ١ - يجب ايواء السكان ، الذين لا يزالون في تزايد كبير ، بالإضافة الى أولئك الذين هاجروا من الجولان ، وتوافدوا الى المدينة قبل الاعلان عن المخطط .
- ٢ - يجب الاهتمام بشبكة الطرق ، وضم الاحياء والضواحي الجديدة ، كما يحسن ربط دمشق ، بالمدن الأخرى في المنطقة .
- ٣ - وأخيرا يجب العناية على الغوط ، وعدم انشاء اي حي ، على حساب البساتين والعدائق ، كما يوصي بتعطيل حركة البناء غير المنظم في الغوطة .

فيجب والحاله هذه ، جعل امتدادالمدينة ، نحو السهول الواقعة قرب سفوح الجبال ، ومدتها الى أبعد حدود الأرض المسقية ، أعني على بعد ما يقرب من عشرين كيلو متراً ، وأبعد من ذلك فيالمستقبل ، إذا اقتضت الحال .

لقد اقترح أيضاً ، طرقاً عريضة لسير السيارات بسهولة ، وبخاصة نحو بيروت ، مارة بالجبل في الجنوب العربي ، ونحو حلب أيضاً ، ونحو الأردن ، وأخيرا نحو المطار الجديد الذي دشن عام ١٩٦٩ .

وهناك ملحق خطط ليوصل المدينة والقرى ، المنوي ضمها في حلقة مغلقة في الغرب ، قرب الجبل . وخطط آخر يصون الاخضرار في داخل الملحق ، يسمح للدمشقيين القيام بنزهات في العدائق القرية . والسكن المتوقع هذه المرة ، هو أكثر اكتظاظاً ، ويشمل هنا المخطط أحياء بكاملها وبنيات مرتفعة .

إن شكل المدينة ، الذي سوف ينتج عن هذا المخطط ، يوجب أن يتم الامتداد ، نحو الشمال الشرقي ، نحو بربة حتى عدرا ، ونحو الجنوب العربي ، باتجاه مطار المزة والمعضمية ، وسفوح الجبال ، حتى قطنا . ويوصي أيضاً أن تكون الأحياء الموجودة في الجنوب ، محاطة بالملحق ، ويتوقع أن يصل الامتداد ، حتى الكسوة . وبهذا يُحفظ شكل المدينة القديمة ، حيث أن ضاحية الميدان ، هي في امتداد نحو الجنوب ، في وسطالبساتين . وللتتمكن من إيصال سكن المزة الى بربة ، يقترح ايکو شار إنشاء طريق على سفح قاسيون ، أملاً تدعيم فرجته ، وحينئذ يمكن الاستفادة منها .

اما في الغوطة والمرج ، فان عدداً من القرى ، كان مقررأ تطويرها الى بلدات ريفية .

إن الفوطة وقرها، متغيرة وبعمق، حتى في علاقاتها مع المدينة . ولذا مطلوب التغيير في البنية الزراعية . لذلك فقد بدأ بالاصلاح الزراعي ، من عامي ١٩٥٨ و ١٩٦٣ ، فوضع نهاية للملكيات الكبيرة ، ووزعت الأراضي على صغار الفلاحين ، وكان المرج هو المنطقة ، التي تأثرت كثيراً بهذه التدابير ، لأن مالكين دشقيين ، كانوا يملكون قرى بكمالها . لكن الأثر العاسم لهذا الاصلاح ، كانت له أهميته ، في كافة أنحاء الفوطة . إذ أن تلك العلاقة الوثيقة ، بين البرجوازية الدمشقية وفلاحي الفوطة ، قد بُترت ، وأنشئت تعاونيات زراعية ، تسمح للفلاحين بالحصول على قروض ، وتتيح لهم الاستغناء عن تجار المدينة ، وتدبرت الفوطة والمرج أمرهما ، بالنسبة للمدينة .

وحدث تغيير آخر ، له تأثير ملحوظ على أحوال المدينة ، وحياة القرى . ففي السبعينيات جرى تخطيط جديد ، لتنظيم جميع القرى الكبرى المحطة بدمشق . يتضمن هذا المخطط ، تهيئة إعداد شبكة طرق جديدة وتعريف الشوارع ، وفتح جميع عوائق السير ، والمسماح بين بنايات كبرى ، على الشوارع الجديدة . وتحتفظ هذه المخططات ، بعدم هدم البيوت القديمة ، ذات المساحات الواسعة واللواءين . فأخذ هذا التغيير يجري قليلاً فقليلاً بفعل ذاته .

أنشئ ، أيضاً شارع كبير ، يتبعه نحو جرمانا ، مخترقاً قرى قديمة ، مبنية بيوتها باللبن والقصب . ثم فتح طريق إلى المليحة ، وأقيمت على جانبيه بيوت بنيت بالأسمنت والعديد ، مع شرفات ظاهرة . وفي دوماً وداريا وعربي وسقباً ، فتحت أيضاً شوارع عريضة ومستقيمة ، ضمن القسم القديم من هذه القرى . ومن حين لآخر ، تظهر غالباً لواوين ، ونوافذ مزخرفة جميلة ، في تلك البيوت ، التي شطرها الشارع بالتلطيط الجديد . وأقيمت على جانبيه ، بنايات حديثة ذات طوابق وأقبية جُهزت بحوائط ، كما نظمت مصانع حديثة على طول الشارع ، وظهرت شؤون تجارية ، لم تكن موجودة قبل ، إلا في المدن ، ومنها العطورات ، وتحضير العلوى ، والكهربائيات ، وتجهيز الأثاث . كما أخذ أطباء وصيادلة ، يقيمون في هذه القرى ، وبأعداد أقل مما هي عليه الحال في المدينة . تتوقع هذه المخططات أيضاً مناطق امتداد سكني ، وبعض مناطق صنفية صناعية ، على حساب أراضٍ زراعية تحيط بالقرى . وعلى مناطق هذا

الامتداد ، تکثر مشاريع تعاونيات سكنية ، تسعى الى تأمين قطع أرض لأعضائها ، وجُلُّهم موظفون . ويلاؤن صعوبات كثيرة تمنعهم عن السكن بدمشق .

### ٣ - الوضع في بداية الثمانينات :

لقد حقق قسم مخطط ايوكشار ، وامتدت أحيا المزة وبرزة ، وتكشفت وتقدم البناء ، حتى الى ما وراء المناطق المرسومة في المخطط . وحدث هذا في المزة - جبل ، وعش الورور ، وقلما نجدا هتماماً كبيراً بالتنظيم المتوقع في الشمال الشرقي وغرب قاسيون . غير أن مدينة جديدة أنشئت في الشمال من عدرا ، دعيت «مدينة العمال» وأخذت تؤهل وتنمو .

كما حقق القسم الكبير ، من تعبيد الطرق المرسومة في المخطط ، وأصبح طريق حلب ، يسمح بسفر سهل وسريع، حتى قلب المدينة ، ويتواصل بطريق مدينة الثورة . وكذلك الأمر فان طريق بيروت، التي لها اتصال باوتستراد المزة، خف عن السير ، الذي كان يتکاثف عند نهر بردى ، بين الربوة والهامة ، وجعل المدينة باتصال وثيق ، بسهل الصبور والديماس ، في الجهة التي أخذت دمشق الجديدة بالامتداد إليها .

لكن المعلم الذي كان عليه، أن يصل بين هذين الخطين الكبيرين ، لم يتحقق منه سوى قسم بسيط . وقد وقف العمل به ، في الجنوب الشرقي ، قرب اتصاله بطريق المطار . أما بالنسبة للطريق المترقب تنفيذه الى الأردن ، فانها لم تصل بالحقيقة ، إلا الى حدود صحنايا ، أي على بعد بعض كيلو مترات ، جنوب المدينة .

نُفذت عدة طرق على الجبل ، وستنفذ طرق عاجلة ، لترتبط طريق بيروت ، بطريق حلب ، بفضل جسرين لهما أهميتها : يختار الأول وادي بردى عند الهمة ، فيما أن الثاني هو في طريقه الى الانجاز . تأخر العمل قليلاً ، بانشاء المعلم بالنسبة لوصيات المخطط المرسوم ، ولا يزال قيد الانجاز ، لكنه لن يستطيع إحاطة المدينة ، لأن التقدم في البناء غير الشرعي ، يجعل من الصعوبة بمكان ، تحقيق تنفيذه في الشرق ، وكذلك الأمر يحول دون إكمال طريق الأردن .

إن المدينة وللأسف ، تُكمل اتساعها . دافعة بينائها باتجاه قرى الغوطة ، ويتقدم هذا البناء ، أكثر فأكثر نحو سفح قاسيون ، ضمن ظروف خطيرة على الغالب إن فرز وتخفيض هذه الأراضي بنوع غير قانوني ، يتبع على حساب البساتين القريبة من المدينة ، وأتمكن من تقدير عدد سكان هذه المناطق ، بأكثر من مليون نسمة ، وأقاموا أبنية غير منتظمة حول المدينة ( جبل وغروطة ) .

لقد كبرت القرى وامتالت واتصلت ببعضها ، وتتوزع الصناعات الصغرى في البساتين ، ومقالع العجارة ، وتناثر مشاغل الميكانيك ، على شبه نصف حلقة ، لعدة كيلو مترات حول المدينة ، مستخدمة المياه الكثيرة ، مجففة البساتين ، مانعة وجاعلة عوانق ، أمام طرق الغوطة ، وقطعت الأشجار ، وبخاصة أشجار الجوز الجميلة ، وتضاعفت غرس أشجار العور ، ولم يبق دور للزراعة في وسط الغوطة ، الا القليل ، في هذه المنطقة التي كانت أبهى منقلاً وأفني موسمًا .

لوثرت المدينة وصناعاتها ، شبكة السقاية ، حتى حقول المياه الجوفية . وللأسف فإن نهر بردى وروافده ، تجفف ماء أسود كثيفاً ، ينشر رائحة جد كريهة ، ولا كفاءة المدينة بماء شرب نقى ، جرت أعمال كبيرة في نهاية السبعينيات ، فقد أنشئ سد تحت الأرض ، بالقرب من نبع عين الفيجة ، سمح بارتفاع منسوب المياه المتداخنة من النبع . وسوى مجرى جديد ، بمنسوب مياه كبير ، خلال الجبل لا يصل الماء إلى دمشق . والضخ قائم حول نبع بردى ، في سهل الزبداني ، في سبيل زيادة منسوب نبع عين الفيجة .

إن مدينة دمشق ، تستهلك كمية كبيرة ، كان يستخدم سابقاً قسم منها لسقاية الأراضي ، وتستقي مياهاً جوفية عميقه ، موجودة في قلب السهول المحاطة بها . والماء الذي كان غزيراً ، نظيفاً ، نقى ، أصبح الآن نادراً ، وهذا طعم غير مقبول . أما المدن الأخرى فتسقى من المياه الجوفية . وبعض سكان محيط دمشق ينقلون ماء شربهم منها .

يتراافق النمو السريع غير المنتظم ، باصابات خطيرة في البيئة وأذى لا يمكن رده . وهذه حالة ربما تحدث في غير أماكن . كما حدث في القاهرة مثلاً ، إذ أن اتساعها مختلف ومكلف حول المدينة ، هناك أراضي الدلتا الفنية، التي لا تصلها بعد مياه النيل ، لذا فقد اقتلعت أشجار الليمون ، وجففت الأرض ، لتفسح مجالاً لتقدم البناء غير المنظم .

إذا كان هذا التنظيم وللأسف ، خاص بدمشق ، فقد يبدو هذا خطيراً ، لأنه يُضيّب وسطاً ضعيفاً حيث يندر الماء . وهذا أمر مأسوي جداً ، لأنه يهدم إرثاً تاريخياً ، لأن الغوطة تحفة الباقة ، وسبب لتشغيل الناس ، وهي خاصة برغبة الدمشقيين اللغة ، والجبل الحاضر شاهد على التقهقر، ولا تزال حاضرة في ذاكرته، حياة دمشق القديمة الهدائة ، التي تعطيها الغصنة وتزيّنها . والذين يعيشون عن هذه المدينة ويتعرّضون لها ، لا بد أن يتعرّك ضميرهم ، عند خسارة إرثٍ وحيد ، تشهد به آلاف السنين ، وكان له رباط وثيق بين المدينة وريفها .

لنحو دمشق الحالي ، صفات أصلية ، تهيب بنا إلى التناضي عن هذا الوضع ، والبقاء في النفس على أمل يبشر بمستقبل حسن .

لا يزال قسم من الغوطة ، بحالة جيدة ويمكن زراعتها ، وبخاصة في القسم الشرقي منها . فتجب العناية به ، والمحافظة عليه ، ضد البناء غير الشرعي ، وغير المنظم . وكان كما يؤمل ويرجى فإن الزراعة في تقدم حتى خارج الغوطة . أما المرج فقد تغير وضعه ، وجفت مياهه بصورة طبيعية ، في سنوات الجفاف ، وانخفاض منسوب المياه الجوفية ، حتى أن الضخ لم يبق له مفعول . ونبحث عن منابع العدائق ، وجرى توظيف واستثمار أموال ، بصورة جادة بمشاريع حشول الغوطة . وهناك أيضاً قرى تتتطور وتدب فيها الحياة .

إن البناء حول مجمع مياه ، يجمع فضلات مياه المدينة والمصانع ، وقد أنشئ مؤخراً معمل لمعالجة هذه المياه في منطقة عدرا . هنا وإننا نوصي بانقصاص تلوث شبكة الستانية ، وحقول المياه الجوفية . وحينئذ يمكن تمديد ماء نظيف للزراعة ، ضمن شبكات سقاية جديدة . وإذا تذررت رؤية هذه المعطيات ، ولم تتمكن من إصلاحها وتنويعها ، تكون قد خسرنا وتأثرت نفوتنا عند قيامها بنزهة في تلك القرى المعطرة بدمشق ، التي فقت مناظرها التقليدية الخلابة ، ولم يبق أمامنا سوى أحياء عادلة بسيطة لا يؤبه بها وعلى الرغم من أن هذه الضواحي ، أصبحت الآن مستقلة إدارياً ، بعد إلحاقها بمحافظة ريف دمشق ، وقد جعلت فيها بلدات ، تتجه في تنظيم نوها ونشاطها ، وتعيد إليها دورها التليد .

الغالد .  
ألا يجدر بنا هنا ، أن نعكس السؤال ، ونطرحه على الوجه التالي : ماذا

كان يحدث لدمشق ، منذ عشرين عاماً ، لو لم يظهر هذا النمو المتسارع في القرى . ولم تتحول إلى مدن ولو بسيطة تابعتها ؟ إن هذا التطور بمحاور حضارية مستقلة ، في إطار يمكن تقديره بعشرين كيلو متراً ، منتشر حول دمشق ، وقدر على حفظ قسم من المدينة من الاتساع ، يتجاوز قدراتها ، ويكون سبباً لتقويض الغوطة .

إن إنشاء مدينة من لا شيء ، أمر على جانب عظيم من الصعوبة ، والقدرة على إعطائها حياة أصعب ، وبكلمة موجزة ، إن بلداناً عدة ، حاولت جادة لتصبح مدناً جديدة فلم تفلح . وهذا المنظور المرتقب ، على العموم بطيء ، ونجاهه غير مضمون . إن كل قرية من التي تعوط بدمشق ، يمكنها الاعتماد على هوية خاصة ، وتاريخ مشابه لتاريخ دمشق القديم المعبد . ولذلك فإن دوماً ودارياً ، كانتا في المصور الوسطى ، عاصمتين الغوطة ، كما يوجد أيضاً تاريخ لداريا ، يبدأ من القرن العادي عشر . إن حقيقة هذه الهوية ، التي تتأكد بالنسبة للمدينة ، وقرى أخرى ، هي مبعث فعالية . ولا نغفل عن ذكر التل والقائمين على إعادة تاريخها ، وعربين وضامني العمل فيها ، ومكاتب مهندسيها . إنها جميعها تستحق وبحق الاهتمام بها والبقاء على عظمتها تاريخها .

أما دمشق الغالدة ، التي تجهز مخططات واسعة ، في سبيل تنفيذها ، عدا ما كان منها في الجبل ، خلف قاسيون ، حيث بوشر بمشروع كبير . ألا يجب وال غالدة هذه ، الاستناد إلى محاور موجودة سابقاً ، والتخفيف من تطوير مدن جديدة ، التي يجب الا تؤثر على المنطقة القابلة للري ، والتي وهبها الطبيعة نشاطات مختلفة ، وسوف تشكل بدورها مراكز تعزب إليها الأربياض الكائنة حولها ، تعادل الفتنة التي تبعثها دمشق .

#### □ الحواشي :

- ١ - جامات دمشق الكاتبة الفرنسية Harry Myriam عام ١٩٢٠ م ، ولها مؤلفها كتاب : دمشق جنة الاسلام برفقة حاشية الملك فيصل لدى عودته من فرنسا . وكتبت تقول: ان الاذوايد الشابة كانت ظاهرة في تكية السلطان سليم ، وساحة المرجة ، وضفة بريدي ، وقد بدأه بإنشاء الصالحة والمهاجرين وما تبعهما من زحف نحو قاسيون .
- ٢ - من ذار دمشق عام ١٩٣٤ م وأحب التعرف على شارع بغداد العالي فإنه غير واحد فيه سوى جامع عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق الذي لا يزال قائماً حتى الآن متاخماً لمديرية تربية دمشق حديثة البناء . وإلى الغرب منه انشئ بيت لقائد الثورة سلطان ياشا الاطرش ، هذا وكانت البساتين تحيط به من الشعل حتى الصالحة ، ولا انسى ان المستشفى الفرنسي العالي كان معموراً ايضاً بالحدائق والبساتين .
- ٣ - اتساع مدينة دمشق ظاهر ، وازنة وما تحتوي من بنايات حديثة ضخمة شاهد على ذلك .
- ٤ - كان الريف ولا سيما من حوران يصل الى بوابة حيوب بباب المصلى فانتظر امتداد دمشق الى الجنوب وعلى الجانبين .
- ٥ - هجوم الريف الى دمشق والتلل اشجار الغوطة ، وتعزز جوّها من جماله ونضارته وروبوته ، تشهد ايضاً بذلك .

# دمشق أقدم مدينة في العالم

## تحقيق أثري تاريخي

د. عفيف البهنسى

حدود مدينة دمشق اليوم تبتلىء من سفوح قاسيون حتى الباذية يفصلها شريط أحضر يسمى (الفوطة) ، ويروي هذه المدينة نهر بردى (قرقر) باقنيته التي توزعت على مصاطب المدينة من الغرب الى الشرق لتروي المدينة بجميع مناسباتها ، ولتروي الفوطة المحيطة بها ، ثم يصب ببحيرة الهيجانة في أقصى الفوطة . وأقدم ما ورد من حديث عن هذا النهر يعود الى الألف الأول قبل الميلاد(١) .

ولكن ليس من السهل وضع حدود ثابتة لمدينة دمشق قبل التاريخ ، ذلك أنه ليس من أثر لأي أسرار تساعدنا على ذلك .

هناك رأي سائد عند المؤرخين(٢) هو أن دمشق هي أقدم مدينة مازالت موجودة في العالم . ويرجح المؤرخ القديم يوسفوس تاريخ إنشائها الى عهد عن ابن ارمن ابن سام ابن نوح ، وهو افتراض توراطي ، ولكن البحث الأثري لا يخضع لتاريخ الأنسب .

إن أقدم ما تؤكده الدراسات التاريخية ، إن دمشق في العهد الآرامي (الألف الأول قبل الميلاد) كانت متوضعة في شرقى المدينة . وأن المعبد الآرامي (معبد حدد) كان في موقع الجامع الأموي اليوم، هذا الموقع الذي احتل مكان المعبد الروماني (معبد جوبيترا)(٣) .

والله حدد رامان هو إله الرعد والخصب ، ومن المعتقد أنه كان يعبد في هذا

المكان المقدس ، بدلالة العثور على لوح بازلتى ( سنة ١٩٤٠ ) عليه نقش بارز يمثل أبا الهول ، لعله يعود الى القرن التاسع قبل الميلاد . وهذا اللوح محفوظ في المتحف الوطنى بدمشق .

لقد توقع الباحثون وجود آثار أرامية في منطقة ( السماكة ) قرب الباب الشرقي للمدينة ، ولكن لم تجر تنقيبات أثرية بعد هناك . على أن الآثار الرومانية لا تخفي نفسها<sup>(٤)</sup> . ويرى سوفاجيه أن المنطقة التي تسمى البريص أي الحصن ، تحوى آثار قصر انطوخيوس الرابع الذي حكم دمشق في نهاية القرن الثاني ق.م ، بل انه يعتقد أن هذا القصر ، أنشيء على أنقاض قصر آرامي .

وهكذا فإن المور الأأساسي للمدينة كان في ذلك الوقت وحتى المهد الروماني يمتد من القصر في تل السماكة وحتى المعبد في موقع الجامع الأموي . يبىد أن الوثائق المكتوبة لم تتحدث عن مدينة دمشق في منتصف عصر البرونز ، وفي القرن التاسع والثامن قبل الميلاد ابتدأ اسم دمشق بالظهور . ولكن هذا لا يعني أن دمشق ابتدأت منذ ذلك التاريخ ، إذ ورد اسمها ( دامسكي ) في وثائق ابيلا التي تعود الى عام ١٢٣٠ ق.م .

واثمة دراسات استقرائية تم اليوم للبحث عن تاريخ دمشق قبل المهد الآرامي ، من خلال اسم آخر يعتقد أنه كان يطلق على هذه المدينة هو (آبوم)<sup>(٥)</sup> .

لقد ورد اسم دمشق في الواح تعودت الثالث ، فرعون مصر بلفظ ، تيماسك مع أسماء المدن التي احتلها ، ونقش ذلك على جدران معبد الكرنك في الأقصر ( القرن ١٤ ق.م ) . وورد هذا الاسم ذاته في الواح تل العمارة التي كانت تردد من دمشق ، لقد قرئت هكذا : دمشق ، أو دومشقا أو تيماشكى . وفي حفريات كميد اللوز في لبنان ، عشر على رسالة موجهة الى ملك تامشقا واسمها ( زالايا ) . وفي التوراة ورد الاسم هكذا داميسيك و دوميسيك و دارميسيك وفي نصوص آشورية حدثة ورد الاسم ، دمشق أو دمشقي أو دمشقو . وفي الكتابات الآرامية القديمة ورد الاسم كما نعرفه اليوم ( دمشق )<sup>(٦)</sup> وفي وثائق ابيلا ورد الاسم ( دامسكي ) كما يقول بيتسيناتو .

( إن هذا الاسم ، كما يبدو ، مؤلف من مقطعين الأول ( دو ) أو ( دا ) وهي تعني اسم الاشارة ذو أو ذا ، أو دار وتعني موقعه حصيناً . والمقطع الثاني ( ميسيك ) وهي كما يبدو مشتقة من ( سقي ) كما يقول هو بت<sup>(٧)</sup> وهكذا تعني التسمية دار ميسيك الأرض المائية .

ويرى أولبرايت<sup>(٨)</sup> إن الكلمة ميسيك هي أصل الكلمة العربية ( الشق ) وتعني الحجر الجصي ، وأن التسمية دمشق تعني ( ذو الحجر الجصي ) ، ويؤكد سو فاجيه هذا الرأي .

لقد أبانت الدراسات أن مملكة آبوم كانت قائمة في الألف الثاني قبل الميلاد ، وتلتها مملكة آرام في الألف الأول . ولقد ظهر اسم آبوم لأول مرة في وثائق سقاره في مصر ، وكان أولبرايت أول من حدد موقع آبوم في دمشق<sup>(٩)</sup> . ولقد ظهر هذا الاسم أيضاً في الواح تل العمارنة في شكلين ( آ بي ) و ( أو بي ) و ( بي ) كما ظهر في النصوص العثية ( آ بي ) أو ( آبا ) . ويرى هذه التعولات اللفظية ، اختلاف اللهجات والألسنة والقراءات ، ولكن أولبرايت يفضل استعمال اسم آبوم ويعني ( القصب الكثيف ) وهذا الاسم ينسجم مع هذا النبات المعروف في غوطة دمشق .

وخلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد ، انتشر اسم ( آرام ) أو مملكة آرام وعاصمتها دمشق ، وتعني كلمة آرام ( الأعلى ) ، ولقد أطلق على مناطق أخرى مثل آرام صوبا وآرام بيت رحوب وآرام النهرين وهي ممالك آرامية ، ولكن اسم آرام كما ورد في النصوص يعني فقط دمشق . وعند الدلالة على جميع المالك الآرامية فكان يطلق اسم ( كل آرام ) ، كما هو الأمر في لوح سفيه ، وعندما يطلق اسم ملك آرام فان هذا يعني ملك دمشق كما ورد في نقش يعود إلى القرن التاسع ق.م .

ولم يستعمل الآشوريون كلمة دمشق ، بل استعملوا اسم ( ايميرى شو ) أو ( شا ايميرى شو ) أي مدينة الآله حدديميرى ، أو تعني دمشق باللهجة الآشورية .

لقد ورد اسم اي يوم مقترباً بكلمة ( الحك ) وتعني حاكم اي يوم ، ( حك اي يوم ) وكان اسمه ( آحو كبكابو ) .

وهناك احتمال كبير أن مركز هذه المدينة هو تل الصالعية الذي أجريت فيه تنقيبات<sup>(١٠)</sup> وتم العثور على آثار أسوار محيطة تعود إلى منتصف عصر البرونز، ترتفع أكثر من ثلاثة أمتار وهي مبنية من الطين .

وتميز الصالعية بموقعها المشرف على ضفاف فروع بردى وهي مركز استطلاعي هام يساعد على مراقبة المواصلات باتجاه تدمر وقطنه .

وبحسب رأي العالمة الأنثوية جارودأن دمشق تعود إلى العصر الآشولي المجريي الذي يعود إلى مئات ألف السنين ، وكانت مأهولة جداً بالسكان ، وبخاصة في المرتفعات المحيطة بها وعلى شطتان نهري بردى والأعوج ، ذلك أن حوض دمشق ، كان بحيرة كبيرة كما تأكّد للعالم فان ليره .

وفي الواقع ، لقد عثر عام ١٩٣٠ على بقايا عظام وظران تعود إلى العصر الآشولي في موقعي وادي شركس والأشرفية . كما عثر على أدوات حجرية في حوض نهر بردى وفي بربه حول دمشق ، وهي تعود إلى هذا العصر . كما عثر على أدوات تعود إلى العصر اللالفالوازي واللوستري في المزة والهامة<sup>(١١)</sup> وهي عصور حجرية قديمة تعود إلى آلاف السنين .

على أن العصر العجري الحديث *التي ينتهي* من الألف التاسع قبل الميلاد هو أكثر وضوحاً في مدينة دمشق وضواحيها . فلقى دقام العالم دوكونتسانسون بالتعاون مع مديرية الآثار بإجراء تنقيبات وأبعاث بين عامي ١٩٦٠ - ١٩٧٥ في تلل محبيطة بدمشق ، اثنان منها في شرق المدينة جنوب بحيرة العقبة وهما تل أسود ، وتل الفريقة ، وتل ثالث في غربي المدينة ( طريق سعسع ) هو تل الرماد ، وتعود هذه التلال الثلاثة إلى بداية العصر العجري الحديث أي إلى الألف الثامن ق.م . أو الألف السابع ق.م .

لقد قدمت لنا مكتشفات تل أسود شواهد هامة رغم ضالتها ، فلقد تبين شكل العمارة في العصر العجري الحديث ، والمُؤلفة من بيوت من القصب والأغصان والطين ، كما عثر على تماثيل طينية صغيرة لأشكال آدمية أو حيوانية ، وعلى عدد من الجمامجم ، وثمة هيكل عظمي لطفل صغير .

وفي موقع الفريقة ، عثر عام ١٩٧٤ على آثار جدار مبني من الطين ، وتأكد أن المنشآت كانت مدعاة أيضاً بقضبان القصب ، وثمة إماء طيني وتماثيل أثبت الفحص بالفحم ١٤ ، أن هذا الموقع يعود إلى منتصف الألف السابعة .

أما موقع تل الرماد ، فلقد استمرت التنقيبات فيه زمناً أطولاً بلغ عشر سنوات أي من عام ١٩٦٣ - ١٩٧٣ ، وفيه تم اكتشاف آثار مستوطنة سكنية ، وكانت المنازل ببعاد  $4 \times 3$  م ، وكانت الجدران مرفوعة من الطين المدكوك . كما عثر على أفران وعناير أنشئت أيضاً من الطين وطلبت بالجص . ومن أهم المكتشفات جمام مطلية ومزخرفة بالجص ، تشابه تلك التي عثر عليها في أريحا ( فلسطين ) ، وتماثيل طينية صغيرة ، وحوامل طينية للجامجم التي كانت تعرض في البيوت تكريماً لأصحابها ، وهذا يدل على سريان عادة عبادة الأجداد ، وعلى الأقل احترامهم وتكريهم ، كما عثر على أواني فخارية مصنوعة ومحزرّة .

وتأكد للمكتشفين<sup>(١٢)</sup> أن الإنسان القديم في هذا الموقع ، كان يمارس الزراعة ، فلقد عثر على حبوب متعددة متنوعة . وكان يمارس القنص للحصول على اللحوم ، وكان يربى الحيوانات كالابقار والماعز . ولقد عثر على أدوات حجرية على شكل فأس ومنجل وحربة سهم .

ويرجع تل الرماد - بحسب تحديد الفحص - إلى منتصف الألف السابع أيضاً . وهذا يعني أن هذه التلال الثلاثة ، كانت تشكل موقع سكنية متكاملة حول البيرة، مبنية من الطين المدكوك نظراً لندرة العجر والصلعور ، مما يجعلها مختلفة عن موقع أريحا المبني من العجر والذي يعود إلى زمن معاصر ، ومما يجعل هذا المستوطن الذي كان يشكل دمشق القديمة قديماً قدم أريحا ، ولكنه استمر مأهولاً حتى الألف الرابعة ق.م .

اما تل حزامي ( ويقع حيث مطار دمشق اليوم ) القريب من تل أسود فإنه يعود إلى الألف الرابعة ، وفيه عثر على آثار بيوت مستطيلة مبنية من الطين تضم عدداً من الغرف تنتفتح الأبواب بينها .

وهذا يفسر تحول المدينة القديمة باتجاه موقع المدينة العالية ولا ندري أين كان موقع مركز هذه المدينة وذلك بسبب التحولات التي تحدثها البحيرات وتشكيقاتها .

ولكن فإن ليه ومن خلال كشفه في تل الصالعية ( في سفح جبل قاسيون ) ،

وفي موقع الدرجية على نهر الأوج أكادستمار وجود المدينة في بداية منتصف عصر البرونز ، ثم تضاؤل هذه المدينة في نهاية عصر البرونز . وذلك بسبب عدم إرواء غوطة دمشق إرواءً مستقرًا . وفي منتصف عصر البرونز تحمل اسم دمشق اسم مملكة آبوم التي تحدثنا عنها وكانت مسوّرة تضم مواقع متعددة ، إذ كانت مدن أخرى قد أحياطت بالأسوار قبل ذلك العصر ، مثل ماري ( تل العريبي – على الفرات ) ومثل يماعض ( حلب ) وقطنه ( الشرفة – حمص ) .

ومن المحتمل أن مركز هذه المملكة كان تل الصالحة المحاط بالأسوار كما ذكرناه . وكان هنا الموقع يسمح بربط مواقع أخرى مثل تل أسود والرماد والفريقه والتي تقع بين بعيرتي الهيجانة والعتيبة . هذه المواقع التي كانت ضواحي المدينة القديمة كما يبدو .

وهذا يعني أن دمشق اليوم كانت هي مركز هذه المملكة التي تحمل اسم آبوم أي الدغل أو القصب ، هذا النبات المنتشر في الغوطة .

ويتحدث العالم دوسان الذي نشر ألواح ماري ، عن ورود اسم آبوم في الواح قصر زيميري ليم في ماري<sup>(١٢)</sup> وعن ورود أسماء ملكوكها ( هايا يوم شار ) و ( زوزو شار معان ) كما وردت كلمات ( شار آبوم ) و ( إوييل آبوم ) وأوويل ، وكلمة ( شار ) أو ( أوويل ) تعني الملك أو المحاكم أو الرجل . كما عرفنا اسمين آخرين للملك آبوم هما اريوانا و زالايا .

ويظهر اسم دمشق كدلالة على مركز آبوم بشكل ( تيمشك ) و ( تامسکو ) في نقوش معبد آمون في الكرنك خلال عهد تحتمس الثالث . ثم يظهر مرة ثانية في نقائش معبد طيبة خلال حكم أمينوفيس الثالث . وفي رسائل تل العمارنة مقتطفات من معلومات تبين إن دمشق وأرض أو بي ( أي آبوم ) كانتا معاً تابعتن لمصر في عهد آخناتون .

وبعد عهد رمسيس الثالث ( ١١٦٦ ق.م ) استقلت دمشق عن أي تأثير مصرى ، وبرزت إلى الوجود كشخصية دولية متميزة ثم انتشرت منها الثقافة واللغة الآرامية .

وأول ظهور للآراميين كان فيما ورد في نقوش طيبة عند ذكر العرب بينهم وبين الآشوريين بقيادة الملك تغلات بلاصر (١١٦٠ - ١٠٧٦ ق.م) في منطقة الفرات الأعلى والأوسط .

ظهرت مملكة دمشق الآرامية في القرن الحادي عشر ق.م ، ثم أصبحت المملكة الأكثر قوة في الشرق في منتصف القرن التاسع ق.م وجاءت الآشوريين وصدتهم وكانت تمتد حدودها من بحيرة قطينة شماليًّاً حتى بحيرة طبرية جنوبًا . ولقد ورد اسم دمشق – آرام لأول مرة في عهد شلمنصر الثالث (٨٥٣ ق.م) الذي حاول الاستيلاء عليها ، وكان ملكها حداديداري الذي صد المدوان وجعل مملكته في قمة الازدهار . وتتابع ذلك الملك حزائيل الذي استولى على الملك ودافع عن بلاده في معركة جلعاد (٨٤١ ق.م)<sup>(١٤)</sup> .

لقد كان عصر حزائيل زاهراً، يلتفت دمشق ذروة قمتها ونفوذها ، ثم تراجعت في عهد بير حدد الثالث ثم في عهد الملك مرعي أبي في الربع الثاني من القرن الثامن ق.م . وفي عهد ملك آشور تغلات بلاصر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م) ثم الاستيلاء على المالك الآرامية وعلى رأسها دمشق التي كانت تحت حكم الملك رصين (أوريدن) سنة ٧٣٢ منه وتمكن أحد العلماء<sup>(١٥)</sup> أن يستقرء قطعاً من الألواح الآشورية التي تتحدث عن هذا الاستيلاء ليحدد أبعاد هذه المملكة، مملكة دمشق فذكر مضمونها كما يلي « أناضمت إلى آشور ، الأرض الواسعة التي تخص مملكة حزائيل والتي تمتد من مرتفع لبنان قريباً من مدينة جلعاد إلى مدينة بيت ملكا والتي تقع عند حدود بيت عمرى . ونصبت عليها حكاماً وقادة ».

ولكن يبدو أن دمشق عادت إلى الظهور فلقد ذكرت النصوص أن جلعاد أصبحت آخر حدود دمشق – آرام . وفي عام ٧٣٢ ق.م تصبح دمشق عاصمة مقاطعة آشورية أطلق عليها ( مربانه آسورا عربايا ) .

ولا تزال آثار دمشق الآرامية مخفية تحت الأرض . ولقد استطاع العالم سوفاجيه . أن يتصور أبعاد هذه المدينة الآرامية التي تقع تحت المدينة العالية . وضمن حدود السور . وكانت شوارعها مشابهة للوضع الراهن . ويعتقد أن معبد حدد الآرامي كان أول معبد يقع في مكان الجامع الأموي الكبير ، ويفك ذلك

الثور عام ١٩٦٥ على أحجار كبيرة تعود إلى العصر الآرامي وعلى تمثال بارز من البازلت يمثلأسداً مجيناً يعتقد أنه يعود إلى العهد الآرامي ، وذلك لشبهه بالأسود والأشكال الحيوانية التي تزين السرير العاجي الملكي الخاص بالملك حزائل ملك دمشق الآرامي والذي عثر عليه في (أرسلان طاش) قرب عين العرب في شمالي سوريا ، وكان للمعبد مذبح شهر في اتقانه ودقة صنعه حاول تقليله الملوك الذين زاروا دمشق .

ومن المعتقد أيضاً أن القصر الملكي الآرامي يقع في تل السماكة الذي يرتفع عما حوله بمقدار خمسة عشر متراً . ولقد تحدثت الروايات التاريخية عن هذه القصر حيث اعتصمت فيه ملك دمشق ضد غزوات الآشوريين وكان منها ترفة المذخرة وقد أوردت الوثائق التاريخية وصفاً لبعض التحف النبوية التي كان يحتويها مما غنمته ملك الآشور بعد حصاره دمشق عام ٨٠٥ ق.م وما غنمته فرعون مصر تحوت المس الثالث الذي غزى دمشق .

والآراميون هم من العرب الشماليين يتكلمون اللغة العربية الشمالية التي تسمى اليوم السريانية ، وهي لهجة قديمة عاشت في وقت واحد من لهجتين آخرين واحدة في العراق وهي الكلدانية وأخرى في الساحل وهي الفينيقية . والآراميون هم سكان دمشق الأصليين الذين استقبلوا الفتح الإسلامي بالفرح والدعم تخلصاً من سلطنة الروم . وما زالت أسماء القرى المجاورة للمدينة وأسماء أنهار آرامية معروفة حتى اليوم .

وبعد انتصار الإسكندر المقدوني على دارا الثاني ملك الفرس وامتداد سلطاته على بلاد الشام ومنها دمشق ابتدأ عهده الحضارة الكلاسيكية منذ عام ٣٢٢ ق.م وحتى عام ٦٣٠ م .

الف عام تقرباً ودمشق تعيش تحت السيطرة السياسية الاغريقية السلوقية، والرومانية ، ثم البيزنطية ، ورغم قوتها تأثير الثقافة الهلنستية، فإن دمشق وباقى المدن الشامية ، لم تفقد شخصيتها القومية الثقافية ، بل كان من رجالها قواد وشيوخ وحكماء وشعراء لعبوا دوراً في مراكز الامبراطورية الرومانية أو في الامبراطورية البيزنطية . ولم تكن دمشق عاصمة في ذلك الوقت ، إلا لمدة عددة ١١٤ - ٩٥ ق.م في العهد السلوقى ثم تصبح في العهد الرومانى أيام الامبراطور ديوクليسيان مركزاً لجيوش الرومان ، وأصبحت في عهد أدريان من

أمهات المدن . وحصلت على لقب ميتروبول أي مدينة رئيسية . وفي أيام الأسرة السوروية من عائلة سيفيروس حصلت على لقب مستعمرة رومانية مما أكسبها بعض الامتيازات .

وكان دمشق إحدى المدن العشرة (الديكابوليس ) الأكثر أهمية في العالم الروماني ، ومن آثار دمشق في المعهد الروماني ، معبد جوبيرت الذي ما زالت آثاره واضحة حول الجامع الأموي الكبير، وبعض أبواب دمشق وأجزاء من سورها، وحسب تصور العالم سوفاجيه فإن المدينة محاطة بسور مستطيل الشكل طوله ألف وخمسمائة مترأً وعرضه سبعمائة وخمسون متراً تخترقه أبواب سبعة لكل باب اسم بحسب الكواكب السبعة ، ولقد أطلق عليها فيما بعد اسم الباب الشرقي وباب الجاوية وباب كيسان (أو بوابة سان بول) وباب الصغير وباب توما وباب الجنيني وكان في الغرب ، وباب الفراديس .

ويغترق المدينة من الباب الشرقي إلى باب الجاوية الغربي طريق مستقيم ، وإلى طرفه أروقة محمولة على أعمدة كرونية جميلة ، وكانت المخازن التجارية موزعة على طول هذا الشارع ، الذي تم اكتشافه وتحديد أقسامه كما تم اكتشاف قوس النصر في منتصفه .

وفي شرقى المدينة يقع المعبد في مكان الجامع الأموي ، وكان من أشهر معابد العالم القديمة ، ولقد صمم ونفذ من قبل الدمشقيين ، وما زالت أسوار المعبد الخارجية والداخلية وبعض الأروقة واضحة حتى يومنا هذا .

وتقوم ساحة الأغورا شرقى المسجد فوق حي القيمرية اليوم (ساحة المدواينة) أما قصر العاكم فيقع جنوبى المعبد وإلى غربه المسرح ، وهي كلها مخفية تحت الأرض يدل عليها الشكل العماراتى للمنطقة .

ولقد أنشئت في عهد الرومان - القنطر المائية وتسمى اليوم القنوات ، ويطلق على العي والنهر الماء عليها اسم القنوات .

وفي المعهد البيزنطي حول هيكل معبد جوبيرت إلى كنيسة القديس يوحنا المعمدان وذلك في أواخر القرن الرابع الميلادي ، كما نشأت كنيسة المصلبة في حي باب توما، وكنيسة المسلط وكنيسة مريم في باب شرقى حيث تقوم الكنيسة

المريمية ، التي وصفها ابن جبير ، ومن الأدبية دير مران في سفح قاسيون ودير سمعان ودير النساء في منطقة الفراديس ، وتذكر المصادر وجود قصر هرقل أو فصر شمس الملوك . ووجود قصر جلق ذكره البلاذري ويقع في منتصف الشارع المستقيم . وفي عهد الغساسنة كان في دمشق قصر كبير ذو البريص الذي تعدد عنه الشاعر حسان بن ثابت ، وكان العرب ينزلون فيه ضيوفاً على أمراء غسان .

استلم الأمويون الخلافة الإسلامية عام ٦٦١ م . وكان عليهم أن يجربوا عالماً مهزوحاً كان العرب قد انتصروا عليه . وأن يتذمروا مستواه الحضاري فيقفزوا بسرعة من ظروفهم البدائية التي كانوا عليها في البذرة العربية إلى ظروف حضارية راقية . ولقد أثبت العرب من خلال تقدمهم أنهم أمة سريعة التطور والنمو ، شديدة الطموح واسعة المقدرة، فلم يستريحوا ويقنعوا بالحياة الرخيبة التي كانت عليها بلاد الشام وسواد العراق ، بل أخذوا يضاudون الواقع بمنجزات أفضل ، ثم انطلقوا خارج هذه العدود التي لم تكن سياستها وادارتها بالأمر السهل ، ومع ذلك استطاع معاوية أن يديرون شؤون خلافة امتدت فشملت العراق والجزيرة والشام ومصر ، هذه الأمصار التي ما زال العرب اليوم ، وبعد أكثر من ألف ومائة سنة يطمحون إلى إعادة وحدتها ، فوطد الحكم ووضع له مبادئ راسخة سار عليها من خلفه من قادة الفُرُّ ، حتى إذا جاء عبد الملك بن مروان ٦٨٥ - ٧٠٥ م ببلغة دولة الشام أوج عزها ومجدها في عهده وعهد أبنائه الخلفاء الأربع ، فقد وصلت الدولة الإسلامية في عهد الوليد وہشام أقصى اتساعها ، فامتدت من شواطئ الأطلسي وجبال البرنے غرباً ، إلى نهر الأندلس وتخوم الصين شرقاً ( وهو اتساع قل أن تجد له مثيلاً في العصور القديمة ولم تبلغ في العصور الحديثة إلا الإمبراطوريتان البريطانية والروسية ) .

ولقد كان على خلقاء بني أمية الذين حكموا هذه الإمبراطورية الواسعة التي تكونت خلال خمسين سنة من الدعوة المحمدية . ومن انطلاق العرب من جزيرتهم ، أن يعززوا سلطانهم في بلاد الشام ، فقاموا بالمنشآت التي تدل على عظمة الحكم المسيطر على هذه الرقعة الواسعة الإرجاء ، مثل مسجد قبة الصخرة في بيت المقدس الذي أنشأه عبد الملك بن مروان يعلوه في ذلك رغبة إقامة مسجد ضخم يليق باهامية الإسلام وعظمة دولة العرب ويضاهي في بهائه وفخامة الكنائس التي كانت قائمة في سوريا وفلسطين .

كذلك أراد الوليد بن عبد الملك ( ٧٠٥ - ٧١٥ م ) أن يخص المسلمين بمسجد كبير في دمشق وهو الجامع الأموي ، الذي أصبح الأبدة الأكثر تعبيراً عن عظمة العرب وروعة الإسلام واتساع سلطاته .

كانت دمشق العاصمة في عهد الأمويين مؤلفة من أحيا وحارات تضم بيوتاً مغلقة يتوسطها فناء فيه حوض ماء ذو نافورة وفيه أشجار البرتقال والنارنج وأزهار الياسمين والورد ، وحول الفناء غرف ينفتح أمامها رواق في المنازل الكبرى .

وقد نظم الأمويون في دمشق طريقة إروائها من نهر بردى ، وما زال اسم يزيد بن معاوية مرتبطاً بأحد الأقنية وهي فرع من فروع بردى السبعة . ولكن مما لا شك فيه أن الخلفاء الأوائل الذين تربعوا على عرش هذه الامبراطورية الواسعة كانوا قد حملوا معهم عاداتهم البدوية وحنينهم إلى الصحراء ، فكانت أكبر منازلهم وقصورهم تقع بعيداً عن العاصمة ، تأخذ أشكالاً بسيطة أو متطرفة بحسب الظروف الجغرافية للمنطقة أو الظروف السياسية التي خضع لها الخليفة .

ويعدنا المؤرخون عن السقيايات الجارية وعدّ منها ابن عساكر عشرين يرجع أكثرها إلى العهد الأموي ، ولقد شيدت الحمامات والفنادق . والقيساريات . وهي أبنية تضم المهن بحسب اختصاصها .

وفي عهد الوليد أنشئت المشافي ودار الغيل وكان موقعها قرب قصر الغضرة . ولقد توسيع المدينة فنشأت مراكز سكنية عرفت باسم منازل القبائل ، والأرباض ، ومن المنازل : الشاغور والميدان وقصر حاجاج وعالية وقوافل والمؤلّة الكبرى ، والصغرى ، وصنائع ، والنيربان ، وبيت لهيا ، وبيت أبيات وأرزوه ومقرى وحور تعلا والفردوس والسمم الأعلى والسمم الأدنى ، والشرف الأعلى والشرف الأدنى . هذه المناطق التي أصبح بعضها بساتين ، ثم لم تثبت أن أصبحت حديثاً ، أحياه جديدة معمورة تدخل في أقسام مدينة دمشق الحديثة .

وكان في طرق المدينة ميدانان كبيران الحصى في الجنوب والمرج الأخضر في الغرب .

وأنشأ في دمشق منذ عهد عبد الملك دار للبريد ودار لضرب النقود  
تسمى دار السكة وثكنات للجيش ودار لللامازة .

وفي عهد الفاطميين مع ذلك كانت دمشق جنة الدنيا وكان يظاهر دمشق ، كما يقول المهلبي البهنسى المتوفى عام ٩٠ للميلاد « وادى البنفسج تكسيره نحو أربعة أميال ونهر بربى يشقه والوادى كله مملوء بشجر السرو، لا تصل الشمس الى اكتر أرضه . وارضه كلها بنفسج متسلق بعضه يبعض في نهاية الحسن ، وبدمشق عدّة من ألوان الورد فعنها أصفر ابريز وأسود وسماقى وورد موجـلـورقة لونان من خارجهما وداخلها ، وليس للزهـر على وجه الأرض ببلد أكثر منه بدمشق » .

وشيء دار عبد العزيز بن مروان وابنه الخليفة عمر ، كانت قائمة مكان بناء المدرسة الشميساطية لصف الجدار الشمالي للمسجد الكبير . وقصر لهشام في مكان المدرسة المجاهدية .

وتفقد دمشق أهميتها في العصر العباسي بعد أن تنقل العاصمة الى بغداد وتعرضت المدينة للاهـمـال ، بل للدمـار والعـائقـ عام ١٠٦٥ م .

وفي عهد الفاطميين تظهر بعض المنشآت التي ما تزال آثارها باقية منها محراب جامع فلوس وضريح السيدة فاطمة وضريح السيدة سكينة ، وزال نهائياً قصر الولاة الذي أنشأه خارج الأسوار ، وكان كحصن للوالى وحاميته هدم بعد أن قضى سكان دمشق على الأمير الفاطمي بدر الجمالى .

وتهفو قلوب الخلفاء العباسيين أحياناً الى دمشق . يقول ابن عساكر : « لم يزل ملوكبني العباس تخف الى دمشق طلباً للصحة وحب المنظر ، أقام بها المأمون وأجرى اليـهاـ قـناـةـ منـ نـهـرـ مـنـيـنـ الىـ مـعـسـكـرـهـ بـدـيرـ مـرـانـ وـبـنـىـ القـمـةـ فيـ أـعـلـىـ جـبـلـ دـيرـ مـرـانـ . »

وازداد نسيج مدينة دمشق العماني تکاثفاً ، وظهرت الأحياء المستقلة المكتفية بسوقها وجامعها وبابها تغلقها العمـاـيةـ سـكـانـهاـ . وبـقـيـ السـوـرـ مـتـهـداـ فيـهاـ الىـ عـهـدـ نـورـ الدـيـنـ ، حيث تنفسـتـ دـمـشـقـ الصـعـدـاءـ وـاتـجـهـتـ اليـهاـ عـنـاـيةـ السـلـطـةـ .

لقد كان نور الدين مصلحاً معبأً للعمـانـ فـأـنـشـأـ كـثـيرـاـ منـ المـنـشـآـتـ التيـ ماـ تـزالـ باـقـيـةـ حـتـىـ الـآنـ ، مثلـ الـبـيـمارـسـتـانـ وـالـمـدـرـسـةـ وـالـعـمـامـ وـدارـ الـحـدـيثـ

وأصلح السور والأبراج وفتح باب السلام وباب الفرج ، وخارج سور أنشأ قصر شمس الملك وخانقاه الطواويش وخانقاه خاتون . وفي عهده ظهرت الصالعية ضاحية مستقلة ، أول من سكنها المقاصدة المهاجرن دعاء المذهب الحنبلي . وفيها أنشئت مدارس ما زالت باقية كالجهازكسيه والصاحبية والأشبيلية والركنية والشامية ، التي أنشئت في العهد الأيوبي المتم لعهد نور الدين .

كما ظهرت أرباض أخرى خارج سور كمنطقة حكر السماق ( شارع النصر ) وأنشئت مساجد في الصالعية كجامع العنابلة والماردانية في السفح ، وجامع الجراح في الشاغور والتوبة في العقبة والمصلى في الميدان ، وأنشئ في الصالعية بيمارستان القيمي .

وأهم المنشآت الأيوبية ، قلعة دمشق التي ستتوسع في الحديث عنها وعدد من المدارس ، العادلية الصغرى والعادلية الكبرى ، والباردائية والناصرية والقلجية والعزيزية والاقباليتان الحنفية الشافعية ، وكان في دمشق مئة حمام وأربعين داراً للوضوء وقياسارية ماتحدث عنه الرحالة في عهد صلاح الدين . ولقد بلغت دمشق أقصى توسعها في عهد المماليك ، إلى أن جاء تيمورلنك وحزن بها الخراب الكامل .

وكان في دمشق قصر السعادة الذي كان أولاً لنور الدين واتخذه المماليك مقرًا لأمرائهم ، كما ازداد عدد المدارس في عهدهم ومنها دار الحديث التي بناها تنكز والمدرسة الغيضرية والمدرسة الجوهرية كما أنشئت الجوامع ومنها جامع هشام والقلعى . كما اتسعت الضواحي ونمّت واتصلت بالأسوار فتتسع الصالعية وينشا في سفحها محلتان الميظور وحمام النحاس والجسر الأبيض وأرزه . وفي شمالي سور تظهر محلة السبع أنايب والأقصاب والعقبة وتحت القلعة ، وفي الجنوب الشاغور وباب السريجة والشوكة والميدان .

ومن أهم المنشآت ، القصر الأبلق الذي أنشأ الملك الظاهر بيبرس ، ( مكان التكية ) وفي جنوب القصر ظهرت أحيا المنبع والخلخال . وجامع الأمير تنكز ( شارع النصر ) وجامع الأمير يلبغا ( المرجة ) وحوله ساحة مزدحمة بالنشاط

التجاري . كانت دمشق في ذلك الوقت من أجمل مدن العالم نضارة ونظافة ومن أكثرها نشاطاً وازدهاراً .

ولقد اقتدى العثمانيون الأوائل بالمماليك في حب العمran فأنشأوا السلطان سليم التكية لاطعام الفقراء في الصالعية والجامع وفيه ضريح الصوفي معي الدين بن عرببي . كما أنشأ أبنه سليمان الثانواني التكية والمدرسة المجاورة لها في مكان القصر الأبلق الظاهري ، وفي عام ١٥٧٤ شيد الوالي درويش باشا الجامع والمكتب والمدفن والسبيل هذه المجموعة المعرفة اليوم بالدرويشية كما أنشأ هذا الوالي سوقاً وفيه خان وحمام ( سوق الحرير والقيشاني ) ، كما أنشأ مسجد سنان آغا ( ١٥٦٢ ) وأنشأ مراد باشا مسجداً وتكميلاً ( ١٥٨١ ) .

وأنشأ الولاة من أسرة العظم كثيرةً من المباني التي ما زالت بعضها قائماً حتى الآن وبخاصة قصر العظم والغان ، والمدرسة ، وسوق الحميدية الشهير .

ولعل عهد الوالي ناظم باشا كان من أكثر العهود العثمانية ازدهاراً فقد أنشأ في بداية هذا القرن القصر في المهاجرين ، المستشفى الوطني ودار المعلمين ، والسريري ودار البلدية والشرطة وجر مياه عين الفيجة إلى دمشق ومد خط البرق إلى المدينة المنورة وأقام النصب الضخم في ساحة المرجة وبإشرافه إنشاء سكة حديد تربط دمشق بيروت من الغرب وبالجazz من الجنوب . وابتداً في أواخر دمشق بالكهرباء منذ عام ١٩٠٥ وسارت الحالات الكهربائية منذ ذلك الوقت من العسر الأبيض إلى الميدان . وبني ناظم باشا حي المهاجرين وسوق دمشق .

ومنذ ما بعد الاستقلال ١٩١٨ تبدأ دمشق بالانقسام إلى مدينة قديمة ضمن الأسوار وحديثة تزداد التحاماً وانتظاماً خارج الأسوار ، ويبلغ التناقض أوجه بين المدينتين في أيامنا هذه .

★ ★ ★

### □ العواشي :

1 — S. Sauvaget 427-28 .

2 — F. Unger 1857. Porter 1855. Thubron 1969.

3 — Greenfield 1976, PP. 195-198.

4 — C. Watzinger and K. Waizinger 1921, PP. 44-46.

5 — J. Sauvaget.

6 — Porpola (1970) P. 103-4 .

7 — Hawpt (1909) P. 528.

8 — Albright (1931) PP. 48-53 .

9 — Albright (1941) PP. 34-35 .

10 — Van der Osten 1950, P. 37-39 .

١١— يعود العصر الاشوري الى العصر الجليدي الرابع والى مرحلة العصر العجري المتوسطة ويعود العصر اللافلاواني الى نفس العصر وكذلك الموسيري وكلها تعود الى مرحلة العصر العجري المتوسط .

12— De Contenson (1875) P. 184 .

13— Dossin (1939) PP. 97-113 .

14— Thureau - Dangin (1931) PP. 16-61 .

١٥— عبد الهادي نصري ، شمس آرام شمس العرب ١٩٨٦ حلب .

□ مراجع البحث :

**BIBLIOGRAPHY :**

- S. Sauvaget : Esquisse d'une histoire de la ville de Damas. Revue des etudes Islamiques, p. 427-28.
- E. Unger : 1957 — Porter 1855 — Thubron 1969.
- J. C. Greenfield : The Aramean God Roman IEJ 195-98.
- C. Watzinger and K. Watzinger : Damaskus H. 4 Berlin 1921, p. 44-46.
- S. Parpola : New Assyrians Toponyms. Neukichen Vluyn 1970, p. 103-4.
- P. Haupt : Midian and Sinai ZDMG 1909, p. 528 .
- W. F. Albright : A New Archaeological Interpretation BASOR 1961, p. 46-53 .
- W. F. : The Land of Damascus between 1950 and 1750 B.C. - BASOR 1941, p. 34.
- D. A. E. Garrod : An Outline of Pleistocene Prehistory in Palestine — Lebanon — Syria; Quatrenaria 6 - 6, 541 - 46.
- H. De Contenson : Ghoraife et la chronologie du Néolithique Damascenien A.A.S, p. 18425.
- G. P. Pettinato : The Archive of Ebla - An Empire inscribed in cuneiform - Doubleday 1981, p. 226.
- W. J. Van Lire : A Note on Five Early Neolithic Sites in Inland Syria A.A.A. 13, p. 117-7 .
- H. Von Der Osten : Tell es Salihieh - Lund : C. W. K. Gleerup 1066, p. 37-39.
- G. Dossin : Les Archives économiques de Mari ! Syria 1939, p. 97-113.
- W. Helk : Die Ägyptische Verwaltung in den Syrischen Besitzungen - MDOG - 92 - 1960, p. 6-7 .
- F. Thureau Dangin : Arslan Tash - Paris - P. Geuthner 1933, pp. 16-61 .
- H. Tadmor : The southern Border of Aram - IEJ 12, p. 118 - 1962.
- N. Ellisheff : Dimashk : in Encyclopaedia of Islam, pp. 277 - 8 - London - Luzac.



# دمشق

من ٥٣٨ قبل الميلاد إلى آخر القرن الثالث الميلادي

د. عدنان البني

**ف** ذلك الزمن الطويل توالى على سوريا<sup>(١)</sup> قوى من خارج المنطقة العربية : فارسية ( أخمينية ٥٣٨ - ٣٣٣ ق.م ) ثم يونانية ( هيلينستية ٣٣٢ - ٦٤ ق.م ) ورومانية ( ٦٤ ق.م - ٣٩٥ م ) تولت هذه القوى شؤون البلاد وأمور العرب والسلم . لكن أهل البلاد استمروا في تطوير ممالكهم وأماراتهم ومشيخاتهم في عدد المناطق مثل تدمر وحمص وأدراود وصور ، وفي متابعة تطوير ثقافتهم الوطنية ولهجاتهم . وكانت المراكز المدنية الهامة العاملة في البلاد تصيرها دمشق التي كانت منذ نشاتها مدينة متميزة ب موقعها الجميل المنبع وقيسيتها وبسمعة طيبة بقيت لها من أيام زعامتها للملك في معارضتها اسرائيل والاشوريين .

كانت بلاد الشام الولاية الخامسة في الامبراطورية الفارسية الأخمينية . وفي المصطلح الأوروبي تسمى الولاية « سترابية » والوالي ستراب<sup>(٢)</sup> وكانت المسترابية السورية مقسمة ادارياً الى المقاطعات نفسها التي عرفت في مصر السابق ( اي الكلداني ) وهي مقاطعة دمشق ، مقاطعة حماه ، ومقاطعة حوران الخ . وكانت مدينة دمشق وكذلك أرداد وصیدا وحتى طرابلس تصبح بدورها عاصمة للولاية<sup>(٣)</sup> . وقد ذكر سترابون أن دمشق كانت أهم مدينة في سوريا ومركزاً للقوات الفارسية<sup>(٤)</sup> . وثمة حدثان تاريخيتان تؤيدان القول بأن دمشق كانت هي المركز الاداري الأكثر أهمية ومقر الوالي . فقد ذكر يوسيفوس<sup>(٥)</sup> أن الملك الفارسي قمبيز الثاني ( ٥٢٩ - ٥٢٢ ق.م ) ابن كورش الثاني ، الذي احتل

مصر بمساعدة أشمون عزر ملك صيدا ، مات في دمشق حيث كان مقيناً عند عودته من مصر . أما العادلة الثانية فهي ما رواه أريانوس<sup>(٦)</sup> من أن دارا الثالث بينما كان يتجه للمعركة مع الاسكندر المقدوني أرسل رياشه ومتاعه وكنوزه ومؤونته وخليفه ورجله وحاشيته إلى دمشق دون غيرها ولم يبق معه إلا أهل بيته وخاصةه .

وفي اعتقادنا أن اختيار دمشق لم يكنصادفة أو للأسباب التي يقدمها بعض المؤرخين<sup>(٧)</sup> . فعین يقرأ المرء أنه بعد هزيمة الملك الفارسي دارا الثالث أرسل الاسكندر المقدوني قائده بارمينيون إلى دمشق لوضع اليد على ما خزنه هناك دارا استلم من العرس ٢٦٠٠ تالانت من النقود و ٥٠٠ باونداً من الفضة غير المضروبة<sup>(٨)</sup> ، وضع اليد على ٧٠٠ من دواب الحمل الشمينة ، كما حاز على ٣١٩ قينة و ١٢٦ من الطباخين و ١٣ حلوانياً و ٧٠ ساقياً و ٤٠ من صنائع المطهور<sup>(٩)</sup> . عندما يقرأ المرء ذلك كله يتساءل أين كانت تقييم هذه الحاشية الهائلة وما يتبعها من رياش ومتاع وأدوات ومواد ومؤنة إن لم يكن هناك في دمشق أو في غوطتها وجبلها قصور منيعة ومخازن فسيحة ومؤن وفيه ، الامر الذي لا يتوفّر إلا في مركز له الوزن السياسي والإداري والاقتصادي اللازم وبالتالي المركز الذي هو العاصمة أصلاً .

لم يترك الفرس الأخميين أي أثر معماري في دمشق اللهم إلا تاجي عمود من الطراز الفارسي مما تبقى من قاعدة على الطراز الفارسي (أبادانا)<sup>(١٠)</sup> ، ولم تسعننا أعمال التنقيب في دمشق ومنطقتها بدلالٍ أثريٍ أكثر من هذا عن ذلك الزمن رغم استمراره أكثر من قرنين ! ٥٣٨ - ٣٢٣ ) ولم يعش على شيء من آثار عبادات الفرس مع ما ذكر من أنهم أدخلوا عبادة ربهم « اناهيت » إلى المدينة<sup>(١١)</sup> ، ويدرك أيضاً جليهم لدمشق نوعين من العنبر . ولم تصل إلينا وثائق مكتوبة تتعلق بدمشق من هذا الزمن . وقد يعزى نقص النصوص إلى أن اللغة الآرامية المستخدمة في الادارة الفارسية كانت تكتب على ورق البردي رذيره من المواد السريعة البلي التي لا تدوم دوام رقم الصين فبادت خلال القرن و لا يبعد أن نقع على بعضها يوماً ما .

ونعرف بصورة غير مباشرة أن معبد دمشق الكبير ظل خلال ذلك العصر موضعاً

للتقدير والاحترام ومركزأ يقصد إليه بالقربانين والهبات والتقدمات ومن ذلك ما رواه المؤرخ البابلي بربوشة عن إهداء تمثال لأفرو狄ت آنايتسن للمعبد المذكور في تلك الفترة<sup>(١٢)</sup> .

\* \* \*

وفي تشرين الأول ٣٣٣ ق.م اثر هزيمة جيوش الفرس أمام الاسكندر المقدوني في معركة ايسوس ، وبعد مقاومة محلية شديدة للاسكندر دامت سبعة أشهر في صور وشهرن في غزة ، واستيلائه في دمشق على كنوز الملك الفارسي المهزوم دارا الثالث وريشه وخيله ورجله ، أصبحت الولاية السورية خاضعة كلها للتفاقرين العجم . لكن الأمر كان مختلفاً في بعض المناطق التي لم تخضع في الأصل تماماً للفرس ، أو غلت مستقلة ، كأننباط الذين حاول انتيفونوس الأعور أحد فواد الاسكندر الاستيلاء على بلادهم فقصدهو . وعاود الكرة ابنه ديمتريوس فإباء بالاحتفاق أيضاً . واستطاع الأنبطاط في ظل خفاء الاسكندر من سلوقيين وبطالمة أن يمدوا تغومهم إلى دمشق نفسها كما سوف نرى .

إن التاريخ الرسمي للدولة السلوقيه يبدأ في عام ٣١٢ ق.م ولكن هذه الدولة التي امتدت من المتوسط إلى نهر السندي ، وكانت سلالتها تعرف باسم السلالة السورية ، لم يبدأ حكمها رسميأ في سوريا إلا في ٣٠١ ق.م ، بعد جلاء البطالمه وتخلיהם عن احتلالهم المؤقت لسوريا . ومؤسس السلالة هو سلوقيس نيكاتور (أي الطافر) . وقد جعل عاصمتها أنطاكية التي أسسها على اسم أبيه انطوخيوس . وتقلب على الحكم من هذه السلالة ١٨ ملكاً دام حكمهم أكثر من قرنين انقضيا تقريباً في الحروب مع البطالمه في مصر الطامعين بالسيطرة على سوريا بسبب أهمية موقعها ، وبخاصة موانئها الاستراتيجية والتجارية التي تؤمن السيطرة على العوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط . وعدد هذه الحروب خمسة وعرفت باسم « الحروب السورية » .

سيطرة البطالمه عملياً وفي غالب الأحيان على سوريا الجنوبيه ، وكانت دمشق هدفاً من أهدافهم الأساسية ، لأن من يسيطر عليها عملياً يؤمن السيطرة على المنفذ إلى فلسطين ومنافئ البحر المتوسط وبلاد الأنبطاط وبادية الشام .

واستطاع الملك البطلمي بطليموس الثاني (فيلاطفوس) الاستيلاء على دمشق في عام ٢٧٦ ق.م وأقام فيها معمرة بطنمية أطلق عليها اسم « ارسينوه »

وهذا الاسم شمل المدينة أو بعضاً منها<sup>(١٣)</sup> . ثم استعادها انطوخيوس من سلوقيس . وكان الاستيلاء على دمشق أهم أحداث العرب السورية الكبرى .

ومن الأحداث التي لها علاقة بدمشق أيام السلوقيين أن الملك السلوقي انطوخيوس التاسع السيفيكي ( ١١٢ - ٩٦ ق.م ) وقد عانى من الثورات والفتنة في أنطاكية ، اتخذ دمشق عاصمة له ثم عاد إلى أنطاكية فيما بعد . وحوالي ٩٠ ق.م أقام الملك السلوقي ديميتريوس الثاني معمراً يونانيّاً جديداً في دمشق سميت ديميترياس . وانسحب آخر ملوك السلوقيين انطوخيوس الثاني عشر إلى دمشق أيضاً<sup>(١٤)</sup> . وعلى أحد نقوذه من الدراهم المربعة نرى على الوجه الثاني من النقد صورة الرب حدد ( رب معبد دمشق ) وهو ملتحٌ واقف يكتسي بثوب طويل محاط بأسدين ويحمل ، مثل بعل البقاع ، سنبلة في اليد اليسرى باعتباره رب الخصب<sup>(١٥)</sup> . وفي متحف دمشق مجموعة هامة من النقود المضروبة بدمشق في العصر السلوقي<sup>(١٦)</sup> ، وفيما ذكرنا دلائل واضحة على أن دمشق كانت بمثابة عاصمة ثانية للدولة السلوقية .

دخلت دمشق في دولة الأنطاكطية حوالي ثلاثة عشر عاماً ( ٨٥ - ٧٢ ق.م ) . فقد استفاد الملك العارث الثالث<sup>(١٧)</sup> من ظروف الدولة السلوقية وتفككها التدريجي فاستولى على دمشق وأقلّيمها وعلى سهل البقاع عام ٨٥ ق.م . وقد رحب به الدمشقيون وقلدوه الملكية عليهم وضرروا النقود باسمه . ونجد على هذه النقود التي اتخذت الشكل السلوقي صورته وأسمه على وجه النقد وصورة الربة تيكيه حامية المدينة أو صورة ربة النصر على وجه الآخر . وقد بقيت دمشق في ممتلكات الأنطاكط . كما ذكرنا حتى العام ٧٢ ق.م حيث توقف ضرب النقود النبطية . ثم استولى على دمشق تيغران ملك Армениա الذي توسع في سوريا مستفيداً أيضاً من ضعف الدولة السلوقية . وضرب تيغران النقود على الشكل السلوقي أيضاً ، وظلت هذه الحال حتى ترك تيغران سوريا عندما علم أن لوکولوس الروماني احتل بلاده Армениا .

ويُنسب للأنطاكط إنشاء حي جديد أو منطقة يسمى بها مؤرخو العرب «النبايطون» . كما أن هناك من يجعل في مكان نهر يزيد الأموى نهرًا سابقاً

شقة الأنباط<sup>(١٨)</sup> إلا أن نسبة هذا «النبيطون» إلى الأنباط القدامى أمر لا يتعذر المبالغة في النسبة للنبيط أكثر صواباً في رأينا<sup>(١٩)</sup> .

ويبدو أن العرب الأبطوريين هاجموا دمشق بعد ذلك كما حاولت الكسندرا أرملة اسكندر جانوس استغلال الفرصة وأرسلت حملة عسكرية مدعاية حماية دمشق لكنها فشلت . وظل وضع مدينة دمشق غامضاً حتى مجيء بومبي الرومانى . ويدرك أن الدمشقيين أصدروا في ٦٩ ق.م نقوداً باسمهم محاولين توكيد استقلالهم<sup>(٢٠)</sup> . واستعاد الأنباط دمشق في أيام العاشر الرابع (٩ ق.م - ٤١ م) . وقصر المدة يسوّغ البعض بعدم المثور على نقود نبطية مضروبة بدمشق من تلك الفترة<sup>(٢١)</sup> .

وخلال حكم تيغزان كان العرب الأبطوريون في البقاع من القوة بحيث كانوا يسيطرون ، فضلاً عن البقاع ، على طرابلس وعرقا وجبيل ويهددون دمشق كما ذكرنا من قبل الأمر الذي اضطر تيغزان إلى الاعتراف بamarتهم التي كان مركزها كالسيس (مجدل عنجر) كما سمح لهم بضرب النقود التي تحمل لقباً بهم بصفتهم «تراتكين» وكهاناً عظاماً في معبد بعلبك<sup>(٢٢)</sup> .

في هذه الفترة التي نحن بصددها كانت دمشق مدينة مزدهرة وبمثابة عاصمة ثانية . وغدت أحياناً عاصمة أولى كما مر بنا من قبل . وفيها طبقات عديدة من السكان أساسها آرامي / عربي توضّع منها فئات من اليونانيين المستشرقين (أي هلينستيون) وأقليات أخرى من الفئات العرقية والمذهبية التي تتشتّت عادة بالعواصم والملائكة الكبارى طمعاً في الكسب والمغارمة والفنى . وقد امتدت دمشق في أيام السلوقيين في كل الاتجاهات ، وبخاصة إلى شرق المركز الآرامي القديم الذي كان يشكل مرتفعاً يتسمّه معبد حدد الذي أصبح يسمى معبد زفس في هذا الزمن الهلينستي . ومن المتافق عليه أن تنظيم عمران المدينة بشكل مقاس مستطيل يتخللها طرق متضادّة حصل في ذلك الزمن<sup>(٢٣)</sup> وقد زودت بأغورا (سوق عامة ومكان اجتماع المواطنين) شرقي المعبد ، يرى البعض أن مكانها في زقاق الصحة ، أو في ساحة الدواومة<sup>(٢٤)</sup> . كما زودت بمسرح ، وفي دراسة حديثة اتضح أن المناطق الزراعية في شمال وشمال شرق دمشق الهلينستية

كانت مقسمة تقسيمات مستطيلة ومماثلة لتقسيمات المدينة . على ان كل هذه الامور لم تزل موضع جدل بين مختصي العمران القديم . كما ان مساحة دمشق القديمة غير محددة حتى الان<sup>(٢٥)</sup> .

وفي ذلك العين على الراجح اتخذ نهر بردى مع اسمه القديم «ابانا» او بده عنه نهر الذهب (كريزورواس) وأخذت «الفيجة» اسمها الباقي حتى الان ومنعاه في اليونانية النبع . ولا شك في أنها ترجمة لكلمة آرامية مماثلة مثل «أفقا» او «عينا»<sup>(٢٦)</sup> على ان استجرار المياه منه في أطراف الجبل غير محدد الزمن وقد يكون من أيام حكم الرومان .

حصلت منازعات عنيفة حول وراثة العرش السلوقي أدت الى انحلال نهائي للدولة السلوقية . وكان الرومان منذ القرن الثاني قبل الميلاد يطمحون للاستيلاء على شرق البحر المتوسط والبلاد المحاذية به . وفي بداية القرن الأول قبل الميلاد أصبحت سوريا ثمرة يانعة . لكن روما كانت مشغولة داخلياً وخارجياً وكان الخطر الكبير الذي يهددها هو القراصرنة في المتوسط الذين هددوا تجاراتها وامداداتها ومشاريعها بشكل عام . وعُهد الى بومبي بمهمة التخلص من القراصرنة وأنهى هذه المهمة بشكل فعال ومن ثم احتل سوريا في ٦٢/٦٣ ق م وأعلنها ولادة رومانية ممتدة من جبال طوروس الى غزة .

وكانت سوريا آئنـد أشـهـى بـمـوزـاـيـثـكـ من الدـوـيـلـاتـ وـكـانـ فيـ جـنـوـبـهـ نـزـاعـ دـائـمـ بـيـنـ الـأـنـبـاطـ وـالـيـهـودـ وـبـيـنـ الـيـهـودـ أـنـفـسـهـمـ .

★ ★ ★

دخل بومبي دمشق في ربيع ٦٣ ق م ومن الامور التي اهتم بها أنه أضاف الى الولاية الرومانية هذه المدينة التي كانت تشكل حلفاً تجارياً مع عشرة مدن منها عمان وجرش وجدرة (أم قيس) وديون في الجولان وغيرها . ويعرف هذا الحلف باسم الديكابوليسيس (أي المدن العشر) وأصبحت دمشق ترجع في شؤونها الى الوالي الروماني . وقد ولّى بومبي على سوريا سكوروس وكان مقره دمشق<sup>(٢٧)</sup> لن تخوض في تفاصيل الأحداث الدامية التي جرت بين القادة الرومان حتى قيام الامبراطوري في روما واعتلاء اوكتافيوس اوغست العرش الروماني . لكننا نود أن نذكر أن قوات عرب سوريا من آل شمسيفرام ومن الایطوريين والأنباط والايودوميين هي التي أنجدت يوليروس قيصر عندما حوصل ووقع في مأذق قاتل وكاد أن يفرق في ميناء الاسكندرية !

وفي مطلع زمن الولاية الرومانية كان التأثير النبطي باقياً في دمشق . ومن شواهد ذلك عبادة الرب ذو الشرى فيها<sup>(٢٨)</sup> . على أن العبادة المركزية في دمشق ظلت للرب حدد الذي توحد معه زفس في الزمن السلوقي ومع جوبيتير في الزمن الروماني . وكان أمراء دمشق وسراطها يعتبرون أنفسهم كهان حدد / زفس / جوبيتير . وسارع الأباطرة الرومان الأول في الاهتمام بتوسيع المعبود القديم الذي كرس باسم « جوبيتير الدمشقي »<sup>(٢٩)</sup> كما فعلوا في معبود بعل البقاع ( بعلبك ) . كما شجعوا تأسيس معابد جديدة تتوحد فيها العبادات ويوحد فيها الأرباب ( نبو = أبولون ، اللات = أثينا الخ ) وكان هدفهم في رأي البعض رومنة المعتقدات السورية<sup>(٣٠)</sup> . على أن الدمشقيين أسهموا اسهاماً كبيراً في بناء المعايد ، خلال أكثر من قرنين كما يظهر من الكتابات التي عشر عليها في بقايا حجارة المعبود القديم<sup>(٣١)</sup> . وطراز المعبود نفسه سوري بجماع الباحثين في تاريخ العمارة القديمة<sup>(٣٢)</sup> .

وكان معبود جوبيتير آنذاك محور الحياة الدينية والاقتصادية لمدينة دمشق . وحتى عشية انتهاء الوثنية في القرن الرابع الميلادي نجد من يصف دمشق بالمدينة المقدسة والجليلة وأنها مدينة جوبيتير الحقيقة التي تستند تفوقها من جمال احتفالاتها وعظمتها معايدتها<sup>(٣٣)</sup> .

وفي حوالي منتصف القرن الأول الميلادي تعود دمشق للأنباط مرة ثانية وذلك في عهد العارث الرابع كما ذكرنا من قبل<sup>(٣٤)</sup> وكان ذلك في أيام الامبراطور كاليفولا وبالاتفاق مع روما . ثم تعود إلى ولاية سورية في أيام نيرون ( ٥٤ - ٦٨ م ) . خلال الفترة الفلافية ( ٦٩ - ٩٦ م ) تعمت سورية بمزايا السلم . وفي أيام السلالة التالية ، السلالة الانطونية كان والد الامبراطور تراجان واليها على سورية . كما كان تراجان نفسه محاماً عسكرياً فيها قبل أن يصل الى العرش ( ٨٩ - ١١٧ م ) . وفي عهده حدثت أحداث هامة في سورية وفي مقدمتها إنشاء دولة الأنبار وانشاء ولاية في مكانها أطلق عليها اسم « الولاية العربية » ( برو فانسيا آرابيا ) جعلت عاصمتها بصرى . وعين تراجان المهندس السوري المعمار ابو لودور الدمشقي وزيراً للأشغال العامة فبني روما الجديدة وأروع مبنائهما فضلاً عن المرافئ الرومانية والجسور . ويرى بعض الباحثين في المنجزات التي

أداها هذا المهندس العبري أنها في جمالها ورحايتها تأثرت بما كان عرفه مبدعها في  
مدينة دمشق<sup>(٣٥)</sup> .

وفي عهد تراجان أنشئت بين دمشق والبحر الأحمر طريق استراتيجية تمر  
ببصري وعمان ومادبا وقد عرفت بالطريق الجديدة ( فيانوفا ) . وعندما خلفه  
هادريان على عرش روما ( ١١٧ - ١٢٨ م ) رفع مدينة دمشق إلى مرتبة أم المدن  
( ميتروبول ) . وكانت هذه المدينة قد اشتهرت بصناعة السلاح ، ويشيد بليني  
من أهل القرن الأول بخصب ريف دمشق وبغوها المتاز . ولدمشق مزايا كثيرة  
منها الموقع التجاري الفريد بين الجنوب والبحر والبادية وفي قلبها تدمر .  
وتمتعت بمزيد من السلام بعد أن أخمد هادرadian ثورة باركوخيا اليهودي وتحول  
القدس إلى معمرة رومانية<sup>(٣٦)</sup> . ومن أجل اضطراف سلطة الولاية قسم سبتيموس  
سيفiroس ١٩٤ - ٢١١ م سوريا إلى سورية المجوفة مع فرقتين عسكريتين ،  
وسورية الفينيقية التي جعلها ولاية بريتورية مع فرقة واحدة . وضم دمشق  
إلى هذه الولاية فكانت بئابة عاصمتها وفي عهد هذا الامبراطور البرقاوي وزوجته  
المحصية جوليا دومنا وسلطته عرفت دمشق نهضة معمارية باهرة وتنظيمها  
عقارياً وتقسيماً منرياً لحقولها وبساتينها . وكان معبدها العظيم قد اكتمل هيكله  
المركزي وأسواره وبخاصة تزييناته في عهد هذه السلالة<sup>(٣٧)</sup> . وفي عهد اسكندر  
سيفير أحد أفراد هذه السلالة منحت دمشق لقب المعمرة الرومانية الذي  
يسويها بروما في الحقوق والواجبات . وتقدمت سوريا بشكل عام وقبلها دمشق  
على جميع الولايات في تلك الفترة ، ففي غضون ثلاثين عاماً صعد إلى عرش روما  
ثلاثة إباطرة سوريين الأول إيلاغبال ( الله الجبل ) كاهن معبد الشمس الأكبر  
في حمص ( ٢١٨ - ٢٢٢ ) والثاني ابن خالته الاسكندر سيفير ( ٢٢٥ - ٢٢٢ )  
والثالث فيليب العربي ابن شهبا ( ٢٤٤ - ٢٤٩ ) . وفي السنتين من هذا القرن  
الثالث كان أذينة العربي التدمري حاكماً للسورية . وفي السبعينات منه كانت الملكة  
زينب تؤسس امبراطورية قلبها بلاد الشام وفيها مصر والأناضول .

ويتعدد المؤرخ اميانيوس في القرن الرابع وملاس في القرن السادس عن  
أهمية دمشق السياسية وال العربية خاصة في أيام الامبراطور ديوقلسيان الذي

أسس فيها معامل أسلحة ومستودعات للمهام العربية<sup>(٢٨)</sup> في نهاية القرن الثالث الميلادي وبداية القرن الرابع الميلادي . ونترك أحداث القرن الرابع الميلادي لبحث آخر .

\* \* \*

اتسعت دمشق وتتدفق عليها الناس من كل حدب وصوب منذ القرن الأول الميلادي مع اتساع معبدها القديم وازدهار تجاراتها . وكانت فيها حركة تنصر حول القديس حنانيا . وفي دمشق نفسها ، أيام حكم الأنباط الثاني<sup>(٢٩)</sup> ، تنصر شاول اليهودي القادم إليها لقمع المسيحيين فسمى القديس بولس ، ولذلك أصبح مصطلح طريق دمشق يعني لدى المسيحيين طريق الإيمان والهدایة .

ويسبّب اكتظاظ دمشق بالسكان وتدخل القسم الآرامي بالأمتداد الهيلنستي ، كان لا بد من وضع مخطط جديد أيام الرومان . اكتمل هذا المخطط أيام الأسرة السيفيرية كما ذكرنا من قبل . وكان التخطيط العجيب دشترنجيا يقوم على محورين متعمدين هما شارعان رئيسيان ، شرقي غربي يسمى عادة باسم الدوكومانوس ماكسيموس ، والثاني شمالي جنوبي يعرف باسم كارددوما ماكسيموس . واقامت شوالع وطرقات موازية لهما طولاً وعرضًا ، عرضها يتراوح في دمشق بين ثلاثة وخمسة أمتار . وهذه المسالك تعصر بينها جزيرات سكنية مقاييس كل منها حوالي ١٠٠ م × ٤١ م . وما زالت الشوارع والطرقات المتفرعة يمنة ويسرة من الشارع المستقيم (مدحت ياشا) موجودة ، وهذا الشارع هو الدوكومانوس ماكسيموس بطول حوالي ١٥٠٠ م . وكان يعرف في دمشق قديماً باسم فياريكتا (أي الطريق أو الشارع المستقيم) . وكان مبلطاً ومؤلفاً من جادة وسطي ورصيفين لل المشاة وفوقه مصلبات وأقواس . وكان هناك شارع مواز له من الناحية الشمالية يربط بين الآغور (الفوروم) والمعبد من جهة باب جiron .

وأحيطت دمشق بالأسوار الجديدة<sup>(٤٠)</sup> التي تضم مساحة تنوّف قليلاً عن مائة هكتار لا نعرف إن كانت مسكونة كلها أم كانت فيها بعض المساحات الخضراء . ومد إلى المدينة من نهر بردى فرعان مما نهر قنوات ونهر بانياس<sup>(٤١)</sup> . وبقيت في المصادر العربية الإسلامية آسماء بعض الأحياء التي كانت أيام الرومان ، كحي الديماس وهي الفرات وحي الفسقار والأخير في الشارع الطويل<sup>(٤٢)</sup> .

وثمة نقاط كثيرة يحتاج الباحث لجلائها حول دمشق القديمة وبخاصة أيام الرومان ، وفيما عدا موقع المعبد القديم ليس لدينا يقين عن مكان المعالم الرئيسية

لتلك المدينة . والسؤال يتردد دوماً حول وجود قلعة سابقة أم لا ، وحول مسقطر السور أينطبق على سور نور الدين أم يختلف عنه . ومن الصعب أن تجري أعمال التنقيب وبخاصة في مدينة مكتظة بالبناء والسكان والأسواق مثل دمشق . ولا بد من انتظار فرصة سانحة كحفر يات أو أعمال عامة وخاصة ، ومن ذلك عملية اكتشاف قوس الغراب ورفعه إلى المنسوب العالى .

أما العملية الثانية فكانت أيضاً في حي الغراب<sup>(٤٢)</sup> شمال القوس أمام بطريكة الروم والأرثوذكس في مكان استملكته أمانة العاصمة لفتح شارع يصل القimirية بالشارع المستقيم وبدأت بهدميه في ١٩٦٦ ، ظهرت معالم أثرية ورغبت المديرية العامة للآثار والمتاحف في استجلائها وقام بالمهام الأستاذ نسيب صليبي .

ظهرت أربعة قواعد مرتفعة فوقها أعمدة أربعة وبين العمودين الأوسطين انفراج أوسع ، الأمر الذي يستدل منه أننا إزاء مدخل لبناء هام له ثلاثة مداخل وهو ذو طبيعة عامة والأرجح أنه معبد له اتجاه معبد جوبير نفسه ومنفتح على الجهة الشرقية . وهو مبني وثنى وليس من منشآت الفترة المسيحية ويطل على الشارع العرضاني (الكادر ماكسيموس) من الجهة الغربية . والتاريخ المقترن له هو أواخر القرن الثاني الميلادي ومطلع الثالث أي في أيام السلالة السيفيرية السورية<sup>(٤٣)</sup> ، وقد اتفق من أعمال التنقيب أن الكنيسة المريمية قامت على أنقاض كنيسة أقدم دلت عليها بقاياها المعمارية وبخاصة بقايا الفسيفساء الأرضية . على أن العمليات في تلك الأرجاء لم تظهر أي كسر فخارية أو دلائل أخرى تعود لزمن أقدم من أيام الرومان ، ومن المؤكد أن دمشق الaramية لم تمتد إلى تلك التواحي<sup>(٤٤)</sup> .

ومن المعالم التي تذكر من الفترة الرومانية ملعب ( سيرك ) في جهات شارع بغداد ، وكذلك مقبرة بعيدة عن المدينة إلى الشمال والشرق . وعلى الرغم من أن القانون كان يمنع قيام المقابر على بعد أقل من ميلين عن المدينة ، فإن مقبرة ضخمة كانت تمتد لصف سور الغربي وتنتشر جنوباً حتى باب السريجة ، ووجدنا مداجن منها في منطقة القصر العدلي وعلى طول شارع النصر . ويظهر أنها امتدت

خلال العصر البيزنطي الى الغرب . وبلغ اوسع امتداد لها في مصر العربي الاسلامي ووصلت لما بعد ثكنا العميدية (الباب المركزي للجامعة السورية ) وبين وقت وآخر يعيش فيها على عدد من المدافن وآخرها في منطقة المتحف أمام دار التوليد .

★ ★ ★

### □ العواشي :

- ١ - أيام الفرس الأخمينيين كان يطلق على بلاد الشام اسم « هير النهر » أما اسم سوريا فهو لفظ متطور من « السورا » الأخمينية .
- ٢ - وهي معروفة عن « خشاتر ايان » وتعني « ملك » في الفارسية القديمة وهي معادلة لمزيدانة الفارسية المallowa في الماوراء العربية .
- ٣ - كانت مداشر الساحل الكنعانية (الفيينيقية) لها أهمية استثنائية لدى الفرس بسبب اساطيلها وخبراتها بالبحار وذلك ضروري لمشاريع الفرس في اليونان ومصر والبحر المتوسط بشكل عام .
- ٤ - ٦٠ ، ٢٠ ، ٢٠ ، ٢٠ .
- ٥ - الانصار ١١ ، ٢٠ ، ٢٠ .
- ٦ - ٦٠ ، ٢٠ ، ٦٠ ، ٣٠ .
- ٧ - يرى المؤلف فوكس في كتابه الهام عن الاستكبار - ص ١٩٥ - أن الأمر يعيش لكنه يرجع أن السبب هو التقارب من طرابلس التي رست عندها مراكب المرتزقة الولية بالنقل . (مفصل عنوان الكتاب في ثبت المراجع) .
- ٨ - كل تالت يساوي ٦٢ كغ وكانت النقود المصادرية وحدها تعادل دخل مملكة مكدونيا سنة كاملة .
- ٩ - المرجع السابق ، ص ١٧٦ .
- ١٠ - أورد ذلك وتزويره ولزيزير في كتابهما الشهير (دمشق، المدينة القديمة) ص ٤١ (العنوان في ثبت المراجع) واحد هلين التاجين على الأقل معروف في دمشق وهو مزين في كل ذاوية من قواهير برايس ثور .
- ١١ - ذكر ذلك ج.م. كوك في كتابه عن الامبراطورية الفارسية ص ١٥٠ (العنوان الكامل في ثبت المراجع) .
- ١٢ - عن رينيه دوسو ، معبد جوبير الممشقي ، سوريا ، ٣ ، ١٩٢٢ ، صفتة ٢٢١ ، حاشية ٥ . (راجعي ثبت المراجع) .
- ١٣ - سليم عبدالحق ، الفن الاغريقي وآثاره المشهورة في الشرق ، مطبوعات المديرية العامة للآثار والمتاحف ، دمشق ١٩٥٠ ، ص ١٨٣ .
- ١٤ - دام حكمه في دمشق من ٨٨ إلى ٩٤ ق.م وكان يتهيأ لحملة على الأنطاكى عندما اغتنم أخوه فيليب الفرصة فهاجم دمشق واستولى عليها مؤقتاً بمساعدة قائد حاميتها ثم دب الخلاف بينهما ، وعندما خرج فيليب لحضور سباق الغيل أغلقت الأبواب في وجهه وعاد أخوه للحكم .
- ١٥ - رينيه دوسو ، معبد جوبير الممشقي ، مجلة سوريا ، العدد ٣ ، ١٩٢٢ ، ص ٢٢١ (العنوان الأصلي في ثبت المراجع) .
- ١٦ - نشرها الاستاذ بشير زهبي في العوليات الأثرية العربية السورية عام ١٩٧٦ ، ص ٧٣ وما يعلمه .

- ١٧- العاشر (او حارث) الثالث اشهر ملوك الانباط هو ابن عبادة (او عبيدة الاول) خامس ملوك الانباط المعروفة حكم بين ٨٥ - ٦٢ او ٦٣ على الراجح ويكتب بلقب فيلوهيلين (اي معب اليونان) وكان والده حق نصر على السلوقيين في النصب كما حقق العاشر بدوره نصرًا على اليهود الماكبيين وحاصر القدس حصارا شديداً وكانت تسقط لولا توسط الرومان (راجع بعثتنا عن العاشر الثالث في الموسوعة الفلسطينية) . ويستفج وجود الانباط بدمشق قبل هذه الفترة ، في ایام العاشر الاول من نص في « جامع الكتابات السامية » الجزء ٢ ، رقم ٣٤٩ (عن كارلوس شد ، ص ٨٣) .
- ١٨- نيكتا البيسيف ، الموسوعة العربية ، مادة دمشق ، من ٢٨٧ . وذكر الدكتور شفيق الصيفي ان شهر المنسوب ليزيد وسعت وملأ في عهد الخليفة يزيد (راجع مقالته في النية الري المتفرعة من شهر بردى في مؤلف دمشق ، دراسات تاريخية وأثرية ، دمشق ١٩٨٠ ، ص ٤٦ . واستشهد الدكتور قتيبة الشهابي بابن طولون ، العلاقة الجوهريه ، ص ٦٦٣ ، في توكيده ذلك (راجع دمشق تاريخ وصور ، ص ٩) .
- ١٩- هناك فرق بين الانباط والشبيط فالاخرون متاخرون عن الاولين ستة قرون ، وتبين اهل الشام هم العاملون في الزراعة (راجع مقالتنا عن الانباط في الموسوعة الفلسطينية) .
- ٢٠- راجع ح ٩٠ بورسوك ، الولاية العربية الرومانية ، ص ٦٢ (يت المراجع) .
- ٢١- المرجع السابق ، ص ٦٩ .
- ٢٢- كارلوس شد ، سلالات حمص ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ٢٣ (يت المراجع) .
- ٢٣- ان هذا التنظيم لا يستبعى بالضرورة ان الشوارع كلها كانت محفورة بالأروقة المعلونة على اعمدة ، فهذا الشكل متاخر يعود لزمن الرومان وبالاخرى لزمن الاباطرة البيزنطيين السوريين .
- ٢٤- ن. البيسيف ، مادة دمشق في الموسوعة الاسلامية ، من ٢٨٧ . ويدرك الاستاذ بشير ذهلي ان مكانها في ساحة الدوامة دون ان يذكر المصدر . راجع شلوة دمشق القديمة ١٩٨٢ ، ص ٢١ .
- ٢٥- وبصورة خاصة سفاجيه ، سوريا ١٩٤٩ ودورى ذاك ، دمشق ، مياسن ١٩٩١ والمناقشة في مقال دودينو ، لوبلان غاليه وفينتون عن مشهد سورية القديم (مثل دمشق) سوريا ٢/٦٧ (١٩٩٠) ص ٣٤٩ وما يليها (راجع بيت المراجع) .
- ٢٦- هذا النبع كل البنائي تقريرا في الارض الكنعانية كان مقتسما . وكان يعتبر معبداً بذاته وقام فوقه معبد لربات اماه في الصحر الكلاسيكي .
- ٢٧- كارلوس شد ، ص ٤٠ .
- ٢٨- عن بيفانيول ، تاريخ روما ، من ٣٧٣-٣٧٤ ، عن كارلوس شد ، ص ١١٠ (راجع بيت المراجع) .
- ٢٩- اطلق في القرن الثاني على جويستي اسم (اوبيموس ماكسيموس جويستي المشتق) عن د. دوسو ، معبد جويستي المشتق ، مجلة سوريا ، ٣ (١٩٢٢) ص ٢٢٢ (يت المراجع) .
- ٣٠- هنري سينغ ، الآثار السورية ، الجزء ٤ ، ص ١٠١ ، (يت المراجع) .
- ٣١- من هذه الكتابات كتابة طرقية منتقلة غالباً في باب الفزانية في الجامع الاموي . يشير فيها الكاهن الاعظم للمعبد على المشققين الذين دلوا بافضل الاريات الجليلة عن نفس تفاصيل التقوى . ويدعو لهم بطول العمر . نشر هذه الكتابة وادينقون في مؤلفه عن الكتابات اليونانية واللاتينية في سوريا برقم ٢٩٤٥ وراجحها لنا الصديق كرايزامر من المعهد الفرنسي للآثار بدمشق (راجع بيت المراجع) .
- ٣٢- هذه الشخصيات تتمثل بخصائص في فخامة البناء والابعاد الداخلية الرحيبة والبوابات الفخمة والعجرة المخصصة للعمود داخل الهيكل الرئيسي والنواخذة والشرفات . راجع على سبيل المثال مؤلفنا عن معبد نبو في تمر والمراجع الواردة فيه (يت المراجع) .

- ٣٣- ر. دوسو ، معبد جوبير المذكور سابقاً ، من ٢٧٤ (للت المراجع) .
- ٣٤- راجع مقالتنا تيكيتا اليسييف في الموسوعة الاسلامية المذكورة سابقاً ، من ٢٢٤ .
- ٣٥- راجع كتابنا عن ابوالودور الممتشى من منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٠ ، وبخاصة من ١٨/١٧ .
- ٣٦- سمعت آيلاكا بيتوينا وشيد مكان هيكل اليهود معبداً لجوبير .
- ٣٧- ويحمل الباب القبلي للمعبد القديم نماذج بدائية لهذه التزيينات والتي اختلفت سابقاً على تاريخها وارخت اخراً بالمقارنة مع العابد السورية المؤرخة ، راجع بحث فرايرغر المغرب من قبل قاسم طوير (للت المراجع) .
- ٣٨- عن جورج حداد ، العوليات الازية السورية ، المجلد ١ ، الجزء ٢ (١٩٥١) من ٢٧٣ .
- ٣٩- راجع ما قبله .
- ٤٠- تقول الاسوار الجديدة لانه لا بد ان تكون لها اسوار النم من ذمن السور الروماني . ويتبع الباحثون نظرية جان سوفاجيه عن الشكل المستطيل لاسوار دمشق دون يزهان الري او نص كتابي ويعارض ذلك شيفيدين من جامعة كاليفورنيا الذي يقول ان الاسوار تتبع تضاريس المدينة التي تساعده على الدفاع . وهذا هو الحال في اسوار دمشق التي لم يكن مستطاعها مستطلاً بل اشبه باليضيق . وهنهم العباسيون هدا السور وجدهم نور الدين زنكي في القرن الثاني عشر الميلادي (راجع دمشق دراسات تاريخية المذكورة سابقاً ، من ١٧٠) .
- ٤١- قد يكون نهر النوات قد شق ايام الانطاب اذا صحت احاديث عن حيهم في شرق المدينة . وفي اعتقادنا اسم قنوات جمع قناء /قناة/ كان وليس ملتبس الاصل . وفي داي ايكوشار ان اسم نهر قنوات القديم قينية (راجع د. صنفون خـ ، تطور توزيع المياه في مدينة دمشق ، العوليات الازية العربية السورية ٣٥ (١٩٨٥) من ٢ ٢٢٧ اما بانياس الذي يتصور البعض انه تعرف بوناتي باسم ايانا (بردي او فرع منه) فاننا نعتقد ان الاسم اتنى من الخامات كما هي الحال في اسم بانياس الساحل .
- ٤٢- يشق تيكيتا اليسييف ديماس من ديموسيون ومعنى النهرين والواقع ان ديماس في الازامية تعنى السرداً ببساطة . ومعنى الثنائي الفواخير والثالث مكان صنع وبيع الفوسكار وهي نوع من الادوات الزراعية (او العربية) بثلاثة رؤوس راجع مقالة دمشق في الموسوعة الاسلامية ، من ٢٨٧ .
- ٤٣- سمي بني الغراب من جراء خراب هذه الناحية من المدينة خلال محلة المغول في القرن الرابع عشر الميلادي ، ومن الزلزال الذي أصاب دمشق عام ١٧٥٩ ، راجع تبيب صليبي ، تقبيلات هي الغراب في دمشق في العاشية ٣ و ٤ ، العوليات الازية العربية السورية ، العدد ٣٥ (١٩٨٥) من ١١٩ وما بعدها . عن دهمان و محمد كرد علي .
- ٤٤- راجع تبيب صليبي ، المقال المذكور آنفاً ، من ١٢٢ .
- ٤٥- المرجع السابق ، من ١٢٢ .



□ العنوان المفصلة لبعض المراجع المذكورة في النص :

- SAUVAGET, J. Esquisse d'une histoire de la ville de Damas, Revue des Etudes Islamiques, VIII, 1934, PP. 422-480.
- WATZINGER, C. & WULZINGER, K. DAMASCUS Die Antike Stadt. Berlin, Leipzig, 1921.
- CHAD, Carlos, Les dynastes d'Emèse, Beyrouth, 1972.
- ELISSEEFF, Nikita, Damas, Encyclopédie de l'Islam.
- BOWERSOCK, G. W. Roman Arabia, Cambridge Mas, London 1983.
- SEYRIG, Henri, Antiquités Syriennes IV.
- BOUNNI, Adnan, Le sanctuaire de Nabu à Palmyre, thèse de Doctorat d'État, Paris, 1987.
- DUSSAUD, René, Temple de Jupiter Damascenien, Syria 3, 1922.
- Corpus Inscriptorum Semiticarum, Pars Secunda.
- JOUGUET, Pierre, L'imperialisme macédonien et l'hellénisation de l'Orient, Paris, (1972).
- FOX, L. F. Alexander the Great, London, 1974.
- COOK, J. M., The Persian Empire, London, 1983.
- SAUVAGET, J. Plan antique de Damas, Syrie. T. XXVI, 1949, p. 314 ss.
- DODINET, M. LEBLANC, J. B., VALLAT, J. P. & VILLENEUVE, F. Le paysage antique en Syrie, L'exemple de Damas, Syrie LXVII/2 (1990) 339 ss.

خري صفحه ، تطور توزيع المياه في مدينة دمشق ، العوليات الأثرية العربية السورية ٣٥ (١٩٨٥) ، ص ٢١١-٢٣٠ .  
البني عدنان ، أبوالدور المشتني أعظم معمار في التاريخ القديم ، دمشق ١٩٩٠ .  
صلبيين نسيب ، تقييمات من الغرب في دمشق ، العوليات الأثرية العربية السورية ، ٣٥ (١٩٨٥) ، ص ١١٤-١٣٨ .  
داده جورج ، دمشق في كتابات المؤلفين الكلاسيكيين والعرب ، العوليات الأثرية العربية السورية ، المجلد ١ ، الجزء ٢ (١٩٥١) ص ٦٢٧-٦٢٨ .

عبدالحق سليم ، الفن الاغريقي وأثاره في الشرق ، مطبوعات المديرية العامة للآثار والمتاحف ، دمشق (١٩٥٠) .  
الشهابي قلبية ، دمشق ، تاريخ وصور ، دمشق (١٩٩٠) .  
الصفدي شفيق ، الآثية الوري المتفرعة عن نهر بردى ، دمشق ، دراسات تاريخية وأثرية ، دمشق ، (١٩٨٠) ، ص ٤٥-٨٥ .  
وقائمه نسخة دمشق القديمة ، نقابة المهندسين ، دمشق ، (١٩٨٢) .

بعد انهاء محاولتنا في دراسة هذه الفترة من تاريخ دمشق وارسالها للمجلة (هادانا الزميل والصديق الاستاذ الدكتور مجيد رائف العابد كتابه الجديد القائم عن « سوريا في عصر السلوقيين » ، دار شمال ، دمشق ، ١٩٩٣ ، وانتا اذ نسبته هنا كمراجع اساسى لهذه الفترة الهامة تذكر انتا تمنينا لو اسعدنا الحظ بالاطلاع عليه قبل هذا الوقت لاخفائه بعثنا ( المؤلف )

# صورة من أسرة الحسيني في الأربعينات

نصر الدين البحرة

حين غاردننا منزلنا في حي مئذنة الشعم - وهو في العقيقة منزل جدي لأمي - كان المكان قد ضاق بنا تماما ، فقد كانت خمسة مع أمي ، وسادسنا أخي الأكبر الذي كان قد تزوج منذ سنوات ، وصار عنده ثلاثة أولاد . وفي المنزل أحدى حالاتي وزوجها وأولادها ، وخالتي الأخرى وزوجها .. وجدتي .. وكان ثمة غرفة صغيرة في الأعلى احتلها شقيق جدتي أيضا .. وهناك غرفة في الطابق المتوسط ، أجريتها خالتى الثانية لرجل وأمرأته .. كانوا جارين ظريفين لطيفين لا ثقلة لهما .

ولم ننتقل ، كما صار يفعل الكثيرون ، إلى دمشق الجديدة الغربية ، فقد بقينا داخل المدينة القديمة ، حيث لبثناسنوات في ذلك البيت في حي القيمرية .. وكان في الأصل جزءاً من بيت آخر كبير ، مؤلف من جزأين ، كما هي حال البيوت الكبيرة ، السلاملك والحرملك . ويبعدونا أقرباً في السلاملك ..

كان ذلك أواخر الأربعينيات . ولئن كان كثيرون من أهل هذه الأحياء والمارات قد لبشا قاطنين فيها .. فانكثرين أيضاً ، تركوا دورهم ، وانتقلوا إلى الأحياء الجديدة في المدينة ، مختلفين المكان للقادمين من الريف ، وخاصة أهل القلمون .. وقد نزل هؤلاء في تلك البيوت الشاغرة ..

حتى ذلك الزمن ، لم يكن شيء من معالم العي قد تغير .. وإن تكن هوية السكان الاجتماعية ، قد أخذت تتغير ..

(\*) معاشرة القيت في ١٩٩٣/١٢/١٩ في مكتبة الاسد بالتعاون بينها وبين فرع دمشق لاتحاد الكتاب العرب .

يومذاك لم أكن أتصور أن غيبتي عن حينا الأول ، حيث مسقط رأسى ، والغرفة التي ولدت فيها – وهي ما تزال على حالها حتى الآن – سوف تطول حتى تنوف على ربع قرن .. بل قل : أكثر من ثلاثين سنة ..

صحيح أننا كنا نمر بالعي مرتين في الأكثر كل سنة ، صبيحة اليوم الأول من عيد الفطر وعيد الأضحى ، فنзор عمتى معايدتين ، وشرب فنجان القهوة وتناول العلوى .. ثم نمضي . وأنا شخصياً ، مرت بي ظروف قاهرة ، منعتني سنوات حتى من زيارة قبر والدي في تربة الباب الصغير والمور لتهنئة عمتى بالعيد ، وهي التي كنت أش منها وحدها رائعة المرحوم أبي ..

ولكن هذه الزيارات جميعاً لم تكن لتعنى أن الواحد منا ، قد استطاع أن يعود إلى تلمس العجل السري ، أو أن يراجع الذكريات الغافية ، الغائبة بعيداً في الزمان والمكان ..

.. وعندما هاج بي الحنين ذات يوم إلى مرحلة الطفولة ، فقد كنت أعلم أن الأمر يحتاج إلى عدة زيارات . تماماً مثلما يحدث للحاج الذي يشعر بأن حبة واحدة لا تكفي ..

وإذا كانت الأيام التالية ، قد مكنتنى من أن أمعن في البحث والتقصي ، إلا أن انطباع الزيارة الأولى ، ظل هو المهيمن والسيطر على لحظاتي النفسية جميعاً .

أردت قبل كل شيء ، أن أطمئن على معالم الحي العمرانية ، ففوجئت بأن بعضها قد تغير تماماً ، وكان ذلك قد حدث بالطبع ، قبل السبعينيات إذ شمل مرسوم أصدره الرئيس حافظ الأسد ، دمشق القديمة داخل سور ، بالحماية من الهدم ..

وكان في الحي واحد من خانات دمشق القديمة ، هو « خان النعاس » ، وقد ظل حتى الأربعينيات يقوم بوظيفة الغان التاريخية : الطبقة الأولى فيه اصطبلات للدواب ومعازن للبغائع .. والطبقة الثانية لاقامة النزلاء ..

وأذكر أن أحد أركان الغان كان يشهد نحر الجمال ، لتسلخ من ثم ويبيع لحمها جزارون خاصون في الحي ..

٠٠ ولقد نهض مكان العان والدكاين والموانيت المجاورة جميعاً، بناءً حديث ضخم ، ألقى بظلاله الثقيلة ، على كل المواقع التي كانت تشهد جزءاً هاماً من نشاط العي التجاري : أبو شاكر العلاق الذي كان أول إنسان في هذا العي أضع رأسه بين يديه . وإن أنسَ لا أنسَ كرسيه الخشبي الأنثيق ، وتلك السنّاده الخشبية الضيقة المتطاولة التي تنزلق على مستنات حسب ارتفاع هامة الزبون، حتى إذا استقرت أرخى رأسه نحو الوراء مستريحاً على طراحة سوداء صفيرة . ويَا الله ٠٠ كم كان يطربني صوت السنّاده وهي تنزلق ٠٠ في تكتكة لطيفة . وعند الباب كانت تتدلى حبال تسد المدخل تماماً ، وفي كل منها قطع من الخيزران بطول أصبع صغير ، وبين الواحدة والأخرى خرزة ملونة . وكان ذلك لمنع دخول الذباب إلى الدكان .

وكان أبو شاكر يرتدي قنبازاً حريراً من نوع الصاية ، ويلف حول وسطه زناراً ، حريراً هو الآخر . ٠٠ مثلما كان بعض الرجال يرتدي في أوائل القرن الماضي ومطلع هذا القرن .

٠٠ وغير بعيد عن أبي شاكر ، كانت دكان أبي صادق ، وقد حفلت برفوف خشبية على بعضها قطرميزات فارغة . ٠٠ وبعضها الآخر كان شاغراً تماماً ، إلا من القلطط التي كانت تتناثر في جوانب الدكان .

حسبت في البدء أن أبي صادق بائع قلطط ، ولكنهم صحووا لي أنه من أهل الله ، وأنه أخذ على عاتقه العناية بقطط العي جميماً . ٠٠ وهناك من أهل الخير من يعييئه في شأنه هذا . كانت دكان نجار نسيت اسمه ، لكنني أذكر أنه كان يعني بصناعة إطارات الصور : « البراويظ » وقد صنع لي مرة إطاراً صغيراً وضعت فيه صورة والدي الذي رحل منذ سنوات، وما زلت أحتفظ حتى الآن به . ٠٠ وبالصورة ذاتها .

٠٠ وبالتالي كان عجوزاً مقلع الأسنان لكنه يضع على رأسه عمّة من نوع « اللام ألف » الأغباني وينادي باستمرار على بضاعته من الفواكه بصوت متقطع متهدج . وكان متخصصاً ببيع الفاكهة البائنة التي حال لونها قليلاً وانزاحت قشرتها . ومن أجل الترغيب في شرائها فقد كان ينادي هكذا : « المعain ٠٠ حلوا » - والمعain تعني الفاسد قليلاً - .

أما أبو فايز الزيبيق ، فقد اختص ببيع الفحم والدق للعي كله ، وهم زاد المناقل التي كان الدمشقيون يفتئون في صنعها من النحاس ، الفحم يشعل في باحة الدار ، في وعاء خاص يدعى « الشعلة »، في انتظار أن ينفث غاز الفحم السام ويفدو جمراً ، وحيثئذ يوضع المدق وتحته قليل من الرماد : « الصفوة » وفوقه الفحم المتوجه ، فإذا ذوى وترمد ، حان موعد اشتعال المدق ، وكانت سهرات الشتاء تتم حول المنقل ، وعليه أو في جانب من الجمر أو المدق تُغلق القهوة ويصنع الشاي .. وفي بعض الأحيان البطاطا .. وربما : البيض ..

.. أما المدفأة ، فكانت أكثر ماستعمل عند الصباح ، زادها الحطب ، من خشب المشمش أو الزيتون .. على أن في الدار غرفة صغيرة يخزن فيها الحطب ، منذ أوائل فصل الخريف . وكانت أرى العطابين ، يتجلوون في أنحاء العي ، وأمامهم الجمال المحملة بجذوع الأشجار وعلى أكتافهم الفؤوس العادة لقطيعها .. وكانت هذه مناسبة جميلة لنا نحن الصغار ، فتتجتمع حول العطاب ، لنراه كيف ينبع جمله على الأرض ، وينزل الجذوع المربوطة بحبال على جانبي السنام .. ثم يبدأ تقطيعها وتكسيرها ، قطعاً في حجم تستوعبه المدفأة ..

.. أذكر أن أمي رحمة الله ، كانت تغرينا بالاستيقاظ باكراً ، بعد أن صحت قبلنا بزمن ، بأن تقول : إنها أعدت لنا « حريرة » لا تزال حارة .. على المدفأة . كان ذاك هو الجانب الشرقي من خان النحاس .. أما الجانب الجنوبي ، المطل على الشارع الرئيسي ، وهو جزء من الشارع المستقيم الممتد من باب المعاية حتى باب شرقني ، فقد اختفى أيضاً بطبيعة الحال .. ولكن بعض شاغليه ما يزال في الذاكرة ..

أولهم : أبو داغر التوتونيجي ، وكان هذا اسم بائع التبغ - وهي كلمة تركية : توتوني - بوجهه المهيب وشاربيه الأبيضين وقامته البادحة وطربوشه الأحمر الطويل لا يفارق رأسه .. وإنني لأرأه وسط دكانه الصغيرة وأمامه تلك الرخامة البيضاء النظيفة ..

.. يليه « طيفور » وإخوته .. باعة « العرقسوس » .. وكان طيفور أحدب في أواسط العمر ، وقد غطى شفته العليا شاربان كثان أسودان .. ولم

تكن الابتسامة تفارق وجهه . أما السمان الذي يحاذيه فلست أدرى لماذا كان اسمه : « أبو رسلان شر » مع أنني لم أره في أي موقف شرير على الإطلاق .

ومهما يكن من أمر ، فإن مثل هذه التسميات كانت شائعة في حيّنا . فان صاحب الفرن القريب ، وهو من أكبر أفران الحي ، كان اسمه « فتوش » وهي أكلة دمشقية معروفة . وثمة حمصاني عرفناه باسم « أبو الفار » ٠ ٠ ٠ وأخر كان اسمه « أبو منصور الضبع » ٠ ٠

وهناك واحد من أقربائنا ، كان يدعى « أبا ضلال » وبائع الخضار تحت الجامع اسمه « أبو عبيده شدو مطلو » وبائع المخلل قبالته سموه « أبو أكرم الزريق ميق » . أما بائع « الغلينا » – وهو الذي يقللي كلاوي وبيس وكبد الخروف – فإن اسمه هو « من الشاكرية » وكانت إحدى رجلية مقطوعة عند الركبة ، فيتنقل بواحدة صناعية يمرج بها .

٠ ٠ وبين الدكاكين التي كانت عند الجانب الجنوبي من الغان دكان « أبو رعد » ٠ ولم يكن عنده شيء آخر سوى البيض المسلوق ٠ ٠ وبعض الخبز ٠ ٠ بل : دكان بكمالها لبيع البيض والخبز فحسب .

٠ ٠ ومن طريف الأمور أن أحد جيرانه كان رساما ، لكنه كان يبيع البن أيضا . ولكن أي رسام هو ؟ كان المرء يأتيه بصورة شمسية أو ضئيلة – والتصوير الضوئي كان قليلاً في ذلك الزمن – فيعطي سطحها برباعات متناهية الصغر .. ثم ينقل الملامح حسب تلك المربعات ، إلى رقعة كبيرة ، فوق حامل ثلاثي يعتلي صدر الدكان ، وبعد ساعات يعطي الصورة الكبيرة ٠ ٠ طبق ملامح الأخرى الصغيرة تماماً ٠ ٠ وفي الذاكرة وجده البيضوي الأسم ، يتوسطه أنفه الأنفي ، وتحته شاربان أسودان دقيان وخطهما الشيب قليلاً ٠ ٠ ٠ وفوق عينيه نظارة طبية سوداء أنيقة . و كنت أشعر أن وجوده نشاز وسط تلك الأوركسترا الشعبية المتناغمة ٠ ٠ ولعل هذا هو السر في أن إقامته لم تستمر طويلاً في الحي ٠ ٠

بين المعالم التي تبدل في الحي عدة بنية متجاورة هدمت جميعاً ، ونهض مكانها بناء حديث احتلته مدرسة ابتدائية .

كان شمة كُتّاب أنشاء أحد أبناء الجالية الجزائرية التي هاجرت الى دمشق في أواسط القرن الماضي ، بعد أن نزح الأمير عبد القادر الجزائري واختار الاقامة في دمشق . وقد أطلق على كتابهذاك اسم « مدرسة الارشاد والتعليم » ٠

وفي أحد فصول الصيف ، وضعتني أمي في هذا الكتاب ، وكانت قد أنهيت الصف الثاني الابتدائي ٠ وإنكni لم أمكث طويلاً فيه ٠٠ وكانت الأمور تسير فيه ، مثلما كانت قبل ظهور المدارس الابتدائية في دمشق : شيخ يشرف على الصف ثم يغيب ٠٠ وعريف ، من صفاتي تولى تعليم التلاميذ . وثمة العصا الطويلة ، والجلوس على حصيرة من القش على الأرض ، ولوح الأردواز ٠٠ الخ ٠

٠٠ ومن الدور الملاصقة المهدومة دار البوارshi ، وقد حول صاحبها جزءاً منها الى مصنع صغير للسكاكير والكرميل . ومن أبناء هذا الرجل الصحفي السوري بشير البوارshi العامل في صحفة التلبيج .. وكان شريكانا، بل ممول ، لمجلة طلابية أنشأناها عام ١٩٥٢ باسم « الشعلة » وصدرت منها عدة أعداد ٠

٠٠ ودار الأرناؤوط . وكانت هذه نموذجاً ممتازاً للبيت الدمشقي ، أعرفها جيداً لأن أحد أبنائها كان صاحباً لنا ، رغم أنه يكبرني ببعض سنوات ، هو المرحوم محمد الأرناؤوط : ينفتح بباب الدار على دهليز طويل معتم يفضي الى باحة الدار الواسعة ، تتوسطها فسقية ماء تتدفق ووسط مياه الطالع ٠٠ وفي جانبها الشرقي المطبخ والحمام ودور المياه ، وعند الجنوب تصدر غرفتان بينهما ليوان « إيوان » تتوسطه مرآة أنيقة تدعى في دمشق « قنصلية » ٠٠ وعند الزاوية الجنوبيّة الشرقية درج ينتهي الى غرف الدار العليا المخصصة للمعيشة في الشتاء ٠٠

وفي البهجة الشمالية من الباحة كانت القاعة الكبرى . تدخلها من باب خشبي مشغول ، فيواجهك ممشى ضيق ، في نهايته فسقية ماء تنهل من الطالع ذاته ، وعلى جانبها مصطباتان كبيرتان عاليتان ٠٠ في صدر كل منها « كتبات » خشبية مشغولة ومرسمة ، وقد صفت عليها مزهريات الصيني والكريوس الكريستالية والزبادي والكافورات الزجاجية الأنيقة . أما السقف ، فهو عجمي مشغول بعنایة ،

ومزخرف بأشكال طبيعية نباتية .. وفي الحقيقة كان جدران الغرفة كلها كانت منفطة بالغشب المزخرف ، تتناثر في أنحائه أبيات شعرية مكتوبة بخط فارسي جميل .  
وقبالة مدرسة الارشاد والتعليم كان المدخل الغربي لدار نظام التي يجري ترميمها الان .. وقد أذهلني يوم رأيتها في الشهرين ، أن محصلة للقضامة والبزر والفسق قد احتلت مدخلها .. أما الأقسام الأخرى ، فقد كانت خربة مهجورة ينبع فيها البوم والغراب .. علماً أن هذه الدار الكبيرة قد أشتئت في أواخر القرن الثامن عشر ، ولقد رأيت لها صورة حفر « غرافيك » وضعها الفنان الغربي زار دمشق في أواسط القرن التاسع عشر .. وبدت فيها باحة الدار الكبرى ، وبعض غرفها ..

ولم يكن هذا هو المصير المؤسف لدار نظام وحدها ، فتلك هي دار « آل الكسم » ودار « آل الصواف » ودار « آل القباقبي » .. وسواها كثيرون ..  
وكانت هذه الدور جميعاً تطل على جادة ناصيف المنحدرة من مصلبة « مئذنة الشعم » باتجاه الجنوب .. نحو حي الشاغور ..

وعند مطلع هذه الجادة كان جدار المسجد الشرقي - مسجد مئذنة الشعم - تواجهه تلك المئذنة التاريخية الجميلة التي أخذت الحي اسمه منها .. ويقال أيضاً إن الاثنين قبساً اسمهما ، من « ولی » « كان في الحي » ويدعى « الشحمي » .. وقد سمعت جدتي تتحدث مرة أنها نهضت عند الصباح ، واتجهت نحو البئر الكباس كي تتوضأ لتصلي صلاة الصبح ، فإذا هي ترى هذا الولي بثياب بيضاء ، فحياتها ثم لم يلبث أن اختفى . قالت جدتي : إنها لم تر تعد أو ترتعش بل فرحت وتفاءلت واستبشرت .. فيما أnder ما يظهر الشحمي أمام أحد .. وإن ظهوره ليؤكد أنها امرأة صالحة ..

.. عند أسفل جدار الجامع كان اثنان من باعة الخضار ، أحدهما المذكور آنفاً : « أبو عبدو .. شدو .. مطتو » .. والثاني « جميل الفعام » .. وجزار يدعى « المشاعلي » .. - وربما كان جده من حملة المشاعل فاكتسبت الأسرة هذا الاسم - ثم .. « أبو سعood الدقاد » .. ومهنة « الدقاد » هذه من المهن التي انقرضت في دمشق ، وكان صاحبها يدق « الكتك » وهو قشر القنب .. يضع أمامه جذع

شجرة غليظة قصيرة ، ويدق عليه بفأس صغيرة ذلك القشر حتى يصبح نتفاً صغيرة تُخلط بماء الكلس لتقويته ثم تعلق به جدران البيوت ، فتغلفي الطين من تحتها ، وتكتسب الجدران منظراً أبيضاً لاماً .

وأود هنا أن أتوقف قليلاً لأتحدث عن المنزل الذي يلي هذه الدكاكين ، لأنه نموذج آخر من بيوت دمشق . كان صاحب البيت هو الغباز « فتوش » نفسه ، وقد دخلته كثيراً لأن صلة قرني تربطني بأهله ، وأن ابن صاحب الدار كان من زملاء الدراسة : ثمة خلف الباب الدهليز المعروف ، ينحدر قليلاً ، نحو أرض الدار ، وهي صغيرة نسبياً ، وفيها غرفة الضيوف والمطبخ والحمام ودورة المياه . وفي جانب منها درج حجري طويل ، تعلوه فسيقة ماء صغيرة ، يفضي إلى عدة غرف في الأعلى . يجيء عدد منها فوق الدكاكين المذكورة . وقد انتبه الرحالة ابن جبير منذ قرون طويلة إلى هذا التراكب في بيوت دمشق ، وله عنده تفسيره الاجتماعي والعرابي .

.. وإن تجاوز باب هذه الدار ، نصل إلى دكان « عبد العلاق » ، وكان هذا مختصاً بقطع الأضراس والأسنان إضافة إلى مهنته ، وكان يختلف بذلك عن حلاق الحي الثالث « أبو ياسين الهاشم » الذي كان مختصاً بالدواوة وبيع « العلق » وتعليقه أحياناً ..

أما الدكان التالية وهي الأخيرة في جادة ناصيف ، فقد كانت للمبيض . والتببيض ، هو أحد المهن الهامة في دمشق القديمة ، فقبل استخدام « الألومنيوم » في صنع أواني الدار من طناجر وصعون ، كانت تصنع من النحاس وإذا ، فقد كان لا بد من تببيضها ، منعاً لتأثير تفاعل النحاس الغالص ، مع ما يطيخ ويوضع في تلك الأواني .

وقد كانت لي وقوفات طويلة أمام دكان المبيض التي يغشى السخام الأسود مختلف جدرانها وأنحائها . وكنت أستطرف في الدكان حفترتين ، الأولى عميقه ، وهي التي ينزل فيها المبيض ، ليعمل ، وبجانبه الكور الذي يعمل بمناخ هوائي ، فيوجه الجنرال أمانه ، حيث يضع الأواني ويطليها بالقصدير .. أما الحفرة الثانية فكانت غير عميقه ، وهي مخصصة لعمل يسبق التببيض ،

أبعض الآنية التي تراكم عليها الزمن كانت تحتاج إلى فرك، فيضعها المبيض تحت قدميه مضيقاً إليها بعض الرماد والرمل الناعم ، ويأخذ يفركها بقدميه في حركة تشبه الرقص ، وقد رفع سرواله الأسود، وضم فضل ثوبه الأعلى إلى خصره ، في حين يتثبت بكلتا يديه بعصا غليظة غرس طرافها في الجدار على نحو متين . كان الرجل يراني وأنا أتأمل حركاته الراقصة الموقعة كأنه يرقص « سامبا » أو « جيك » بلغة هذا الزمان ، فيبتسـ ٠ بحنان وعذوبة ٠٠ ثم يتابع عمله ٠

و بين الأماكن التي كنت أمضي وقتاً في الوقف عندها أتفرج وأتأمل ، دكان العداد « جرجي بيلونة » . وقد حدثمرة أن التقيت برجل يقاربني عمراً ، فقلت له : أعرف وجهك . لكنه لم يعرفني . وعندما أجهدت الذاكرة قليلاً ، ورجمت إلى تلك الفترة من الأربعينات، قلت له بثقة : ألم تكن تعمل عند جرجي بيلونه . فقال : بلى ٠٠ كنت ٠٠ ولكن كيف تذكرني ولا أذكرك قلت : كنت أقت ملياً بجانب دكانكم أتأملكم وأنتم تعلمون ، تصنعون السكاكيـن والخناجر المجدلانية . وكان أكثر ما يشيرني في عملكم ، تعليمكم مقبض المنجـر وترصـيعه بالحجارة الملـونة ٠٠ كريمة كانت أو غير كريمة ٠

وكان هذا شأني مع « الكوا » ٠٠ كوا الطرابيش ، وهي أيضاً من المهن الهمة التي انقرضت في دمشق ، فقد مزمان على الناس ، كان عليهم أن « يتطربـوا » جمـعاً كما يقول ابراهيم عبد القادر المازـني . وكان ينظر إلى من خلا رأسه من طربوش نـظرة غير مـريحة . والأطرف كما سمعت ، أن مـعتمر الطربوش القصـير ، كان يـنظر إلـيه عـلى أنه من الشـباب ٠٠ غير الراـكزين . - وفي مـطلع هذا القرن ، كان من لم يـبلغ الأربعـين من عمره يـدعـى : ولـدـاً - أما الرجل الراـكـز « المـعـدـلـ » فهو الذي يـعتـمر الطـربـوش الطـوـيل ٠٠

أما الكوا صاحـبـ الدـكانـ ، فـاسمـه « وـاصـفـ الطـرابـيشـيـ » وـيـبدوـ أنـ الأـسـرةـ كلـهاـ كانتـ عـرـيقـةـ فـيـ الـمـهـنـةـ ، حتـىـ أـخـذـتـ اـسـمـهـ مـنـهـاـ ، يـؤـكـدـ ذـلـكـ أـنـ كـواـ آخـرـ للـطـرابـيشـ فـيـ الـحـيـ ، كانـ مـنـ الـأـسـرـ ذـاتـهـاـ ٠٠ وـيـحملـ اـسـمـ الطـرابـيشـيـ نـفـسـهـ ٠

ولـستـ أـدـريـ مـنـ أـخـبرـ وـاصـفـ هـذـاـ بـأـنـ يـشـبـهـ الـمـلـكـ فـارـوقـ ، فـاـذاـ هوـ يـشـبـهـ بـكـلـ شـيءـ ، شـارـبيـهـ ، طـرـيقـتـهـ فـيـ رـكـزـ الطـربـوشـ عـلـىـ رـأـسـهـ ، وـأـخـيرـاـ ، فـانـهـ مـنـ

قبل أن يتزوج دعا نفسه «أبا فاروق» ، وأكل أصحابه «حلوتها» في حفلة سخية في عين الخضرة . ذاك أن من يلقب بلقب ما .. كان عليه أن يقيم وليمة لأصحابه في هذه المناسبة ، تتكرس بعدها تسميته باللقب المختار : أبو أحمد . أبو عبده . أبو ياسين .. أبو فاروق .

وأذكر أن أحدهم لقب نفسه قبل الزواج بلقب معين : «أبو فهد» فعندهما تزوج ورزق بغلام ، أصر والده - أي جدالولد - على تسميته باسمه أي «أبو أحمد» ولكن أصحابه ظلوا ينادونه «أبا فهد» فاقام وليمة لتكريس اللقب الجديد . فكان الداخلون إلى الوليمة .. يحيونه قائلين : مرحباً أباً أحمد ، فعین أكلوا وتفكروا وتعلموا ، وصار عليهم أن ينادروها الوليمة ، عاد كل منهم يودعه عند الباب قائلاً : ديارك عاهرة يا أبا فهد ..

وكان في العياثنان مهنتهما تأجير وإصلاح الدرجات الهوائية : «البسكتيليت» والواحد منها اسمه «بسكتيلياتي» ، فكنا نستأجر من أحدهما دراجة نذهب بها إلى الغوطة الشرقية .. فإذا استأجرناها طوال الليل : «ليلية» ذهبنا وبعد ذلك .. وكان أقصى مكان نذهب إليه هو «السيدة زينب» . وكان حلم الواحد منا أن يحصل على دراجة خاصة به ..

\* \* \*

يرتفع حي متنة الشجم في جانبه الشرقي رويداً رويداً ، حتى يعلو عنده تلتي البغارين والسماكية ارتفاعاً يلفت النظر ، عن مستوى الشارع الذي يتوسط الحي ، ثم ينحدر جنوباً نحو زقاق يدعى «زنقة الناصري» . وفيه مقام «الولي الناصري» .. ما يزال قائماً حتى الآن ، قبلة المنزل الذي ولد فيه الشاعر الكبير نزار قباني ..

وهناك مقهى الناصري ، وفرن الناصري وحمام الناصري . فاما المقهى فما يزال على حاله حتى الآن تقريباً ، وإن يكن رواده قد أمضوا قلة قليلة .. وأما الفرن ، فما برح حتى الآن ، وإن يكن صاحبه قد توفي قبل سنوات ، وكان اسمه «اسماعيل منكيرة» إلا أن الكثرين كانوا يدعونه «هتلر» . وكان هنا هو الآخر معجباً بهتلر ، في أوج عزته وقوته .. وكانت له مواقف في هذا المجال إبان الحرب

العالمية الثانية ، فقد كان مؤمناً بعظمته هتلر وجبه العرب وانتصاره لهم . وكان يقول : انتظروا .. تروا . وكان له شاربان مثل شاربى هتلر تماماً : فراشة تحت أنفه . وأما العمام الذي كانت أمي تأخذنى معها إليه ، بين أفراد الأسرة ، فقد غداً مستودعاً . في آخر مرة ذهبت مع أمي إلى هذا العمام ، وكانت في العادي عشرة ، ولكن شكلي وطولي كانوا يوحيان باكثر من ذلك ، فما إن أبصرتني النساء المستحمات ، حتى اشتغلت ثورة بينهن ، وأخذن يقرعن أجران العمام بالطلاسات ويولولن ، قائلات : المرة الجاوية .. جيبي أبوه معك .. وكان أن تداركت الأمور القيمة على العمام ، فأفردت لنا مقصورة ووضعت على بابها ستارة ، ورجت أمي بحب أن لا تعود إلى مثلها ..

.. وفي الطريق إلى الناصري ، تذكرت واحدة أخيرة من المهن التي انقرضت أيضاً : الرشاش . كان ذاك أبياً محموداً للأطروش . وكان أطروش حقاً . عرفته تماماً ، وكان ابنه « خيرو » من زملائي في المدرسة . أزرق العينين ، في قامة مربوعة ، منعن قليلاً ، وعلى ظهره ربطت قربة جلدية ملأها ماء ، وراح يرش دروب العي ، في حين يتبعه كتّاس .. يتولى التنظيف بعده .. ولم يكن أنظف من حيناً .. يومذاك ، رغم أن بعض دروبه كان ترابياً ..

كانت الطنابير هي وسيلة النقل الأولى في حيننا . وكان لها نوعان : واحد مربع الشكل تقربياً بعجلتين ، في مساحة تناهز مترين مربعين ، تحيط به من جانبيه دفتان خشبيتان ترتفع الواحدة منها أقل من نصف متر ، على أن تُحصر البضائع المنقولة بين هاتين الدفتين . وكثيراً ما كان ينقل الآجر والتراب والرمل على هذه الطنابير التي يجرها بغل متين ..

أما النوع الثاني فقد كان متباوِزاً يكاد يبلغ طوله ثلاثة أمتار ، لكنه ضيق نسبياً . وبست عجلات أصغر ، من عجلات النوع الأول ، ويجره في الأغلب ثلاثة خيول ، مربوطة على التوالي ، وكان منصصاً للنقل السريع ، ذاك أنه كان يمر في العي ، في مثل لمح البرق ..

.. وبين وقت وآخر كانت تمر عربات الركاب يجرها حصانان .. أما السيارات الشاحنة فقد كانت تجوز الشارع المستقيم أحياناً لكنها كانت قليلة .. وأما سيارات الركوب ، فكان منورها نادراً ..

وأذكر أن شيخ حارتنا توفيق القباني ، وكان لديه مصنع للسفاكي والملابس في زقاق معاوية بالحبي ، وهو من الذين دعموا رجال الثورة السورية مادياً ومعنوياً ، وهو والد الشاعر نزار قباني ، أقام وليمة عام ١٩٤٧ للممثل الكوميدي المشهور بشارة واكيم ، لبني الأصل الذي كان وجوده ضرورياً بلهجته اللبنانيّة الأصيلة في الأفلام المصرية . . وحين ظهرت السيارة التي تقله في مصلبة الحبي ، أصرّ الشبان على أن يحملوها . . ويرفعوها بأيديهم . ولست أدرى إن كان ذلك احتفاء بالممثل فحسب . . أم فرحاً بدخول مثل هذه السيارة الجميلة حيناً .

٠٠ على أن هؤلاء الشبان أنفسهم كانوا يتشارجون في كل مساء تقريباً .  
لماذا ؟ لست أدرى . ولكنني كنت أرى بين مساء وأخر ، واحداً منهم وقد طعنه آخر  
بخنجر أو موس كباس ، والرجال يجتمعون . . ورجال الشرطة يخفّون من مخفر  
النبي القريب لجسم الموقف . الغريب في الأمر أن بعض هؤلاء كانوا من المشاركون  
في مقاومة الاستعمار الفرنسي ، وخاصة الإضراب المشهور عام ١٩٣٦ . وأدى  
بعضهم أدواراً مشروفة في شهر أيار ١٩٤٥ ، يوم اندلعت المظاهرات في مختلف أنحاء  
سوريا ، منادية بالجلاء وإنشاء الجيش السوري .

أطرف ما في الأمر أن واحداً من هؤلاء وكان يلقب بـ أبي دعاس ، واسمه  
تيسير العماوي – وقد كان يطل قصة قصيرة لي عنوانها: حكاية مطواة – تشارج  
مع آخر ، ففر هذا أمامه . . فلتحته حتى باب توما . . وهناك ضاء المطارَد في  
غبشة المساء بين الناس ، فلم يكن من العماوي الذي كانت مطواته بيده ، إلا أن  
رفعها في الهواء وصاحت : العماوي يسحب موسه ويرجع بلا دم . . وطنن نفسه .

ولكن أمسيات النبي لم تكن دائمةً جميماً ، فقد كانت تقوم زينات باذخة  
عند المساء على جانبي الشارع المستقيم أمام مسجد النبي وقبالته . . فتعلق  
السباجيّد ، وعند أطرافها أغصان الزيزفون ، يؤتى بها من التفotope ، وفوقها  
تعلق أيضاً السيووف والتروس وصورة رئيس الجمهورية السيد شكري القوتلي .

وكان عيد المولد النبوى الشريف ، وعودة بعض الوجهاء في النبي من الجع  
مناسبة لإقامة هذه الزينات ، وإذا يخلو الطريق تقريباً من مرور العربات  
والجلات ، كان يبدأ الاحتفال . . فينبرى بعض الأقوياء ، بلباسهم التقليدي

الذي كان شائعاً في الحي : الشروال ، والصدرية ، والميتان ، والشملة ، ويتبارون بلعبة الخيزرانات الطويلة «الحكم»، فيبين الواحد منهم خيزرانة وفي يسراه ترس مستدير من القماش الذي ينفلبادة غليظة مهمتها تلقي الضربات .

يبدأ اللعب باستعراض العضلات . فيقوم كل واحد بعرض فردي خاص ، يلوح خلاله في الهواء بخيزرانته ، ثم يتلقاها بترسه .. وربما يقفز خلال ذلك ، ثم انشى نحو الأرض ، ليعود إلى القفز من جديد .. على نحو آخر ..

الاثنان يلبيان : واحد عن يمين الطريق وأخر عن يساره والأنتشار موزعة بينهما . حتى إذا انتهى هذا الاستعراض ، بدأ اللعب الحقيقي ، فحاول كل منهما تسديد ضربة صائبة بخيزرانته إلى جسد الآخر ، فيتلقاها هذا ببراعته ومرؤنته .. بترسه ..

ولم يكن بد بطبيعة الحال ، من أن تسقط بعض الضربات على الجسد ، لكنها لم تكن ضربات قاسية مؤذية .

وفي نهاية كل شوط ، وفي طقس احتفالي تمثيلي ، كان ينهض أحد الوجاه الكبار فيفصل بين الرجلين ، ويجعل كلامهما يقبل شاربي الآخر ..

حينذاك يكون الوقت قد حان ، لمارسة لعبة أكثر جدية ، هي لعبة السيف والترس . وكان يتولاها رجال الم Yi الكهول ..

كان اللعب يبدأ باستعراض تقليدي للقوة ، فينتهي كل واحد جانباً من الطريق ، ملوحاً بسيفه في الهواء ، في حركات ، تتم عن مهارة وخفة ، ثم يتلقاها بترسه .. ومن ثم يضرب بطرفه حجارة الطريق السوداء ، فيتناثر الشرر .. ومثلما كان الشبان يفعلون ، فكذلك كان هؤلاء الكهول ، يثنون نحو الأرض ثم يهبون قافزين .. معلتين استعدادهم لبدء اللعب ..

كان الوحيد المسروح له بأن يلقي بتعليقاته المازحة هو مؤذن الحي «أبو كاسم حصرم» فقد كان أكبرهم عمراً ، وأخفهم ظلاً ، ولم تكن تعليقاته جارحة . كان مثل هذه الاحتفالات يستمر حتى ساعة متأخرة من الليل ، وخلال ذلك يكون سمر وأحاديث وحكايات يشتراك فيها الجميع .

وكانت لأهل الحي مatarحهم الخاصة للنزهة ، قلما تجاوزوها إلى الربوة أو دمر أو عين الخضرة أو عين الفيجة في الأحوال العادمة .

كانت تلك المتنزهات ثلاثة مواضع متقاربة : بساتين القراونة جنوب حي الأمين والشاغور ويقصدها الشبان في الأمسيات والليلي المقرمة ، فيحملون الى هناك عدة القصص والسمسر : بابور الكاز . ابريق الشاي وكؤوسه . وربما حمل أحدهم من منزله حاكياً « فونوغرافا » صغيراً نقالاً مع اسطواناته . . . وربما أثر بعضهم أن يشرب العرق بدل الشاي أو القهوة .

•• الآن درست هذه البساتين ، وكان بينها بستان الذهبي الذي استشهد فيه حسن الغراظ عام ١٩٢٥ ، وقام مكانه ما يسمى : المنطقة الصناعية . . . حيث يندر أن يرى الإنسان غصنأً أخضر .

وحديقة الصوفانية ، غير بعيد عن سور دمشق ، حيث ينقسم أحد فروع بردى قسمين يحيطان بالعدية من جانبيها .

وكان لأمي رحمة الله ، وإحدى خالاتي ، ولع خاص في تناول قهوة الصباح في هذه العدية ، وكانت تصعبني مهلاً لأحمل السلة التي تحتوي على أدوات القهوة . . . وبعض الطعام للافطار .

•• وما تزال العدية على حالها تقريباً ، غير أن حالة النهر المتردية جعلت زيارتها غير مستحبة . . .

•• وكان هناك أخيراً ، ضفاف فرع آخر من بردى، عند جامع الشيخ رسلان .. وقد كان المتنزهون ينتشرون هناك . . . حاملين معهم ، كما هي عادة الدمشقيين ، كل ما يمكن أن يحتاجوا إليه في مثل هذه النزهة . . . أما نحن الأولاد ، فقد كانت لنا تسليتنا المستحبة ، مع أسراب البط التي كانت تسبح في النهر ذاتبة آيبة . . . تتلقى الطعام الذي تقدفه نحوها . . . وربما جاء بعضنا بشبكة صغيرة ، حاول بها أن يصطاد بعض السمك . . .

ما يزال بردى يمر من هناك . . . ولكن لم يبق مكان للنزهة عند الضفاف . . . وتلاشت الأشجار التي كانت تبسط ظلالها الوارفة على المتنزهين . . . واختفت أسراب البط الأبيض تماماً . ومع الروائح غير المستحبة المتبعثة من النهر اختفى السمك أيضاً . . . من يستطيع أن يمثّل على سمكة واحدة . . . في نهر بردى ؟

# لحة تارجيت عن قصر لعظم

حسن كمال\*

القصر الذي سنتناوله في بحثنا اليوم هو واحد من أهم معالم مدينة دمشق التاريخية والأثرية والسياحية .

أقول ذلك لأنه لم يبق فيها أي أثر للقصور التي شيدت عبر العصور المتالية وذلك لأسباب شتى منها الكوارث التي ألمت بهذه المدينة البطلة . ومنها ضعف المواد التي استعملت في بنائها .

فنحن لا نعرف من قصوربني أمية إلا ما بني خارج المدينة ، أما ما بني فيها فلا نعرف عنه شيئاً ، وقد ألف ابن العجائز كتاباً في قصوربني أمية ولكنه لم يصل إلينا ، وكذلك ذكر ابن عساكر عدداً من دورهم كدار هشام ودار عمر بن عبد العزيز ولكنه لم يصف أي منها ، حتى ولا الخضراء ، دار الأمسارة التي بناها معاوية وأقام فيها فترة طويلة من الزمن .

وفي العصر العباسي شاد الم وكل قصراً بين داريما والمزة ،نظم فيه البحيري قصيدة عند ذكره دخول الم وكل لدمشق والمنشآت التي أنشأها فيها . ومن تلك القصيدة هذا البيت :

العيش في ليل داريما إذا بردا والراح تمزجها بالماء من بردي  
وبنى خمارويه في الربوة قصراً غير أن أو صافه غابت عن المؤرخين .

\* مدير متحف التقاليد الشعبية بدمشق .

أما السلاجقة فكان مقرهم في قلعة دمشق حتى إذا جاء نور الدين أنشأ في القلعة «دار المسرة» كما أن القلعة غدت سكناً للملوك الأيوبيين في حين أن أمراءهم كانت لهم قصورهم في المدينة كدار الاستخاتون ، وقصر الملك الأشرف ٠

وفي زمن الماليك ، كانت لأمرائهم ونوابهم دور وقصور غاية في الابداع منها قصر تذكر الذي بناه في داريا ودار الأمير ابن منجك وكانت في المنبع، أي في الأرض التي يشغلها حي الحلبوني اليوم، غير أنه لم يصلنا من أوصافها ما يشفي غليل الباحث . وبقي القصر الأبلق أعظم ما بناه الماليك في دمشق وقد تحدث عنه القلقشندي واصفاً جودة مكانه ومتانة بنائه وحسن ترتيبه ونظامه . وقد بقى حتى العصر العثماني حين قام السلطان سليمان سنة ١٥٦٠ بهدمه وأخذ أحجاره ليبني مكانه التكية المعروفة باسمه في دمشق . وفي العصر العثماني ارتفعت في دمشق وحمة وحلب أبنية كثيرة على أن أعظمها كان قصر العظم في دمشق ١٧٤٧ وقصر العظم في حماه ١٧٥٠ ، وكلاهما بناهما أسعد باشا العظم في البزورية ٠

وأسعد باشا هذا ينتهي إلى أسرة عريقة اشتهرت في القرن الثامن عشر برجاليتها الذين حكموا كوزراء خلال فترة طويلة في سورية ، وقد تناول عدد من المؤرخين الكلام على هذه الأسرة منهم ثريابك في «السجل العثماني» وجودة باشا في «تاريخ الملوك» وابن البرزنجي ، والسويدي البغدادي في «حقيقة الوزارة» والبديري العلّاق الدمشقي . وغوستاف لوبيون في «حضارة العرب» وغيرهم كثير ٠

ومن هذه الأسر نشأ أخوان باسلان هما قاسم وشقيقه ابراهيم جد الأسرة العظمية في دمشق وحمة ومصر النعمان . وتولى منهم عدد من الوزراء شؤون سورية وضواحيها . وجميعهم تركوا لنا آثاراً رائعة منها بناء المدارس والمكتبات وتشييد الأبنية ، ومن مشاهيرهم أسعد باشا صاحب هذا القصر الذي نحن بصدده ، وأسعد باشا هذا ابن اسماعيل بن ابراهيم الذي نشأ في قونية ٠

ولد أسعد باشا في دمشق سنة ١١١٣ هـ الموافقة لعام ١٧٠١ درس العلوم واللغات وأتقن الفارسية والتركية والعربية والـمَ بي بعض العلوم والأداب ، وكان له ولع خاص بالفتوسية وإشادة المباني . وكانت أول ولايته على حماه حيث نال

رتبة مير ميران ومن ثم حصل على رتبة الوزارة ١١٥٦ هـ / ١٧٤٣ م ونقل الى ولاية دمشق خلفاً لعمه سليمان باشا فادر شوونها خلال أربعة عشر عاماً ، كما كان أثناءها أميراً للحج ، فبني الكثير من المنشآت ، في كل المناطق التي خضعت لحكمه ، منها قصره في حماه الذي يعتبر من أروع القصور ، والذي يشغله اليوم متحف حماه ، وقصره في دمشق الذي أقيم فيه متحف التقاليد الشعبية والصناعات اليدوية منذ عام ١٩٥٤ ، كما أقام جسر الكسوة ، وأكثر من عمارة الغزانتين والأبراج على طريق العج منها في المضم والفالحتين وقلعة المدائن التي ذكرها شاعره ، الشيخ سليمان بن أحمد المعاشي الدمشقي، وأرخها من ستة ١١٦٨ هـ ، ومن أشعاره فيها قوله :

### حسن المدائن قد بناه أسعد في أمر محمود أطل بقاه

عدا ما أجرى من الخيرات والمبرات في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وبعد ولايته في دمشق نقل الى حلب ١١٦٦ هـ / ١٧٥٥ م ثم تولى شؤون سيواس ومن ثم عزل عنها واستدعى الى أنقرة ، اثرتهمه وجهت اليه ، حيث تم خنقه في أحد حماماتها وبذلك انتهى تاريخ هذا الانسان العظيم ، واذا كان أسعد باشا من أعاظم البناء ، الا أن عصره اتسم بالفوضى وظلم الرعية والاهمال لشؤون الحكم ، ولا أدل على ذلك مما كتبه معاصره العلاق البديري الذي وصف لنا وصفاً دقيقاً الحالة الاجتماعية والفوضى وانعدام الأمان التي كانت تسود أيام حكمه ، ومع هذا فقد ترك الكثير من المنشآت ومنها قصره في دمشق الذي لا يعود أن يكون بيتاً دمشقياً أصيلاً ، وللبيت الدمشقي صفات ومميزات قد لا تجد لها في غيره من البيوت ، فهو من الخارج يبدو متواضعاً أصمّ لازخارف فيه ولا فتحات اللهم إلافتحة الباب الخارجي وأما من الداخل فهو جنة فيعاء لما تعلق به من جمال من الناحية الطبيعية والمعمارية ، إذ يجد المرء فيه كل ما من شأنه أن يغيري ساكنيه البقاء فيه ، ويتجلى عنصر المفاجأة في البيت الدمشقي عندما يجتاز المرء الباب الخارجي ليجد نفسه أمام باحة تأخذ فيها الطبيعة الفنية مع البناء الآخذ والماء المنتشر في كل الأرجاء ، فعيثما يمتد وجهك في البيت الدمشقي استقبلتك الطبيعة بشارها وأزهارها والأبنية بزخارفها وجمالها .

والى جانب ذلك هناك الأواوين الواسعة المطلة على الصحن ، المزخرفة جدرانها بالأبلق ، وهناك القاعات الواسعة ذات السقوف الخشبية المترفة والجدران السميكة والفصاقى الجارية مياهاها في أكثر القاعات . إلى جانب الزخارف الرخامية والمرمية كل هذا نجده موفوراً في البيوت الدمشقية الفخمة .

في ربيع ١٩٢١ أرسل المجمع العلمي ومتحف اللوفر في باريس السيد « أستاذ دولوري » إلى سوريا للتنقيب عن الآثار الإسلامية في دمشق وفي عام ١٩٢٢ اشتري دولوري القصر ( قصر أسد باشا المعلم ) من أصحابه بـ ٦٠٠٠ ليرة سورية جاعلاً منه مقراً له ، وأعلن أنه سينشيء فيه مدرسة لتعليم الصناعات الوطنية التي اشتهرت بها دمشق وفي عام ١٩٢٥ إبان الثورة السورية احترق القصر وزالت أكثر معاسته ، ويمكن لزائمه القادر إليه من الشارع المستقيم ( شارع مدحة باشا ) أن ينحدر في سوق البزورية إلى آخرها ليجد على يمينه زقاقاً مرصوفاً موصلاً إلى القصر الفخم ، وإذا ما اجتاز بابه الخارجي الغربي ، وصل إلى دهليز ينتهي بمدخلين الأيمن منها يقود إلى السالمك والأيسر يقود إلى العرمك والخدمك . وفيما يلي تفصيل ذلك .

من المعروف أن هذا القصر قد تأثر قبل كل شيء في تخطيطه العام بالanax وبجاجات صاحبه وبالفرض الذي أنشئه من أجله . وقد أنشئ في العقيقة للسكن أولاً واستقبال رجال الدولة والرعاية ثانياً ، واذن فطبيعة العمل والحياة فيه تتضمن أن يكون فيه قسمان : قسم عام لاستقبال الناس وقسم خاص للعرىم والأزواج ، يضاف إلى ذلك قسم خاص بالغدم والاصطبارات . أما القسم العام فيدعى بالسلامك والقسم الخاص بالغرمك ، وقد رواعي بالسلامك أن يكون فيه مكان يجلس فيه الوالي للناس ويستقبل فيه أرباب الدولة وأصحاب الأمور .

والسلامك هنا مؤلف من صحن مستطيل وفي صدره نتو الجنوب إيوان كبير يطل على الصحن . الذي تتوسطه بركة ماء واسعة . وعلى جانبيه غرفتان واسعتان وغرف أخرى موزعة في الجهات الغربية والشمالية ، وفي شرق الصحن قام بناء حديث عام ١٩٣٥ أعد لسكن مدير المعهد الأفوني الذي كان يشغل القصر آنذاك . وقد بناء المهندس ايكتوشار آنئذ

أما العرملك فهو أكثر أهمية وأعظم شأنًا لأن حياة الأسرة السجينة بين الجدران توجب أن يكون في الدار كل ما من شأنه الترغيب بالبقاء فيها ، لذا كان يعني أن تكون حسنة الاتجاه وأن يكون فيها قاعات تستطع فيها الشمس وأخرى يعصم فيها الظل وثالثة تجد فيها البرودة هرباً من حر الصيف وأن يكون فيها صحن واسع يلطى أرضه بالرخام تلعب فيها الصبايا ، وبحرة أو بحارات يتدقق منها الماء . وفي أطراف الصحن ووسطه أحواض فيها الأزهير والأشجار المختلفة أنواعها كالليمون بنوعيه والبرتقال والكمباد ، والنارنج والمشمش الهندي ، والورد والباباسين ، والفلل والأزهار الموسمية .

وفي صحن العرملك الذي تبلغ مساحته ١١٢٥ م<sup>٢</sup> يوجد بعرنان إحداهما مستطيلة تقع تجاه الأيوان الجنوبي وأخرى مستديرة تقع أمام القاعة الكبرى والى الغرب من الأولى ، وبينهما ممر مائي مستطيل ، تحيط به العدائق الفناء من كل جانب ، كما يوجد في العرملك إيوانان أحدهما شمالي كانت تقيم الأسرة في غرفه خلال فصل الشتاء لوفرة الشمس فيه ، أما الأيوان الجنوبي وما يحيط به من الغرف من الجانبين فكانت تخصص لقضاء فصل الصيف فيها لانحراف الشمس عنها .

ويضم العرملك عدداً من القاعات الهامة ولكن يبقى أهمها القاعة الكبرى بطرزاتها الثلاث التي تفتن صاحب الدار بها وأغدق على بنائها المال الكثير لتكون درة العمارة الإسلامية في القرن الثامن عشر ، وقد كانت كذلك حقاً .

هذا وقد بني القسم المطل منها على الباحة بالحجر المزي والأبيض والأسود ، أما من الداخل فقد غشّها بالمرمر والرخام جاعلاً لها ثلاث طرزات أحدهما وهو الجنوبي واثنان متقابلان هما الشرقي والغربي وجعل في كل طزر تسعه نوافذ والطرزان المتقابلان متماثلان وكانت سائر أحجارها منقوشة ومنزلة بالذهب ، وجعل فوق كل شباك قمرية وزخارف منفذة بماء الذهب وعلادة بكتابات جينية تحمل بعض العبارات منها «الخلق الباقي» هذا غيض من فيض مساكتب وزخرف في الطرزين المتقابلين .

أما الطزر الجنوبي فهو يحمل ما يحمله الطرزان الجانبان من الزخارف وإنما زاد عليه في صدره سلسلياً ينزل منه الماء على منحدر من ألواح القاشاني ،

وأبدع في نقش أحجاره المعيبة به وطبعيمها بالذهب النافر المنزلي . وعلى حلقة هذا الطزر ، وجد نص يحدد تاريخ انتهاء عمارةها ، بأبيات فيها مدح لصاحب الدار ، وهي مكتوبة بماء الذهب ، وقد اقتطعنا بعضاً منها وهي :

قاعة أشرقت بشمس الصداره      وأتى السعد معلناً بالبشراره  
قد بنانا الوزير أسعده من قد      أطد الله في المعالي فخاره  
من حقوق الرياح فاح ثناء      والعطایا من جوده مستعاره  
يالها قاعـة يلوح لـديها      كل يوم بها عزَّ الـوزارة ١١٦٣

وفي المتبة بحرة رخامية مستديرة مؤلفة من ٢٤ عموداً من الرخام ملتصقة بعضها ببعض ، وكل عمودين متقابلين متباينين ، هذه الأعمدة مشقوبة من مركزها يخرج منها الماء بشدة من مناهل من النحاس المطلني بالذهب وفي وسط البحرة كأس من الرخام المخرم يخرج منه الماء من خمسين موضعاً .

هذا وكانت أبواب الشبابيك في هذه القاعة مرصعة بفصوص من الصدف ومنزلة بالذهب .

وتحول باب القاعة إطار من العجر المزي والممر المطلني بماء الذهب والمرصع بفصوص من الصدف ، يعلو باب القاعة من الخارج نص محفور على الحجر والنصل هو التالي :

بسم الله الرحمن الرحيم      سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين  
باسم الله حل بها الهاـني      وحمد الله من حسن البضاـعـة  
وبالتوفيق أو الاتقان شيدت      كنور نـير أبداً شـاعـه  
أمير العـجـ أـسـعـدـ فيـ كـمـالـ      حـباءـ اللهـ بـالـاـكـرـامـ قـاعـةـ ١١٦٣

وفي العرمـلـكـ قـاعـاتـ أـخـرىـ خـصـصـتـ كـلـ وـاحـدـةـ لـواـحـدـةـ مـنـ نـسـائـهـ وـخـدـمـهـاـ .

أما الخـدمـلـكـ فـلهـ صـحنـ صـغـيرـ نـسـيـأـ جـهـزـ بـبـحـرـ ، وـفيـهـ مـطـبـخـانـ وـاسـعـانـ ، وـغـرـفـةـ مـجهـزـ بـمـوقـدـ لـغـلـيـ القـهـوةـ عـلـيـهـ ، وـتحـتـ هـذـاـ القـسـمـ قـبـوانـ ، يـقالـ أنـ

أحد هما كان يستخدم كسجن ، وقد قمنا بتعويشه الى مستودع تحفظ فيه بعض الأواني المعدنية .

هذا ويقال أن القصر الذي تبلغ مساحته ٥٥٠٠ م<sup>٢</sup> كان فيما مضى دار الذهب التي أنشأها تنكر وكانت دار الفلوس ، وقد بالغ في زخرفتها وسماتها دار الذهب وبني بجانبها دار القرآن والحديث التنكريّة ، وفي صدر الاسلام جعلها بعضهم دار خالد بن الوليد كما ذكر بدران في منادمة الأطلال ، أما الملاقي البديري فقد جعلها دار معاوية بن أبي سفيان . وكان معبد جوبيت يشكل جزءاً من موقع القصر العالى ودليل ذلك وجود جزء من أبراجه فوق السطح الغربي للقصر لأن هذا المعبد كان بعيد الامتداد في المنطقة .

و هنا يتسائل المرء عن الكيفية التي بني فيها القصر ؟ . مما لا شك فيه أن النصوص كثيرة حول هذا التساؤل غير ان ما أورده البديري يعتبر أكثر صدقأ وأقرب الى الواقع من غيره لأنه عاصر بناء من البداية حتى النهاية ولنسمعه يقول : « في حوادث ١١٦٣ هـ شهر ربيع الأول حدث ما يلي :

« ٠٠٠ في تلك الأيام أخذ الوزير أسعد باشا دار معاوية رضي الله عنه وأخذ ما حولها من الدور والغانات والدكاكين وهدمهم ، وشرع في عمارة دار السرايا المشهورة التي هي قبلي الجامع الأموي وجداً واجتهد في عمارتها ليلاً نهاراً ٠٠٠ وقطع لها جملة من الخشب اثنا عشر ألف خشبة وذلك عدداً الذي أرسلوه له أكابر البلد والأعيان من الأخشاب وغيرها . ورسم على حمامات البلد أن لا يباع قصر مل لأحد بل يرسل لعمارة السرايا ، واشتغلت بها غالباً معلمي البلد ونجاريها وكذلك الدهانين ، بل قل أن يوجد معلم جيد أو نجار أو دهان كذلك إلا والجميع مشتغلون بها . وجلب لها البلاط من غالب بيوت المدينة . أيّنما وجد بلاط أو رخام أو غير ذلك مثل عواميد وفساقى يرسل بقلعهم ويرسل القليل من ثمنهم . وكان في قرب تربة البرامكة قصر الزهرانية ، وكان هنا في مكان عماره الملك الظاهر وهو على ظهر بانياس مطل على المرج ، وكان هنا في مكان منتزة عظيم تهدم غالبه ، وفي قربه مدفن وعليه قبة من حجر فامر أسعد باشا بهدمها ونقل حجارتها الى داره . وفي يوم الخميس الحادي والعشرين من شهر ربيع الثاني ، من السنة نفسها ، عمل حسن أفندي السفرجلاني وليمة لحضره

أسعد باشا والي الشام ، بالصالحية في قاعة ابن قرنق وكانت ضيافة عظيمة ، فنظر البشا الى سروات شاهقات في داره فطلب من صاحبهم قطعهم لأجل عمارة داره فقطعها ، وقطع له ثلاثة سروات ، ليس لهم نظير في الشام .

كما نقل من قرية بصرى ، أحجار أو أعمدة من الرخام شيئاً كثيراً ، وأخذ من مدرسة الناصر في الصالحية ، أعمدة غالباً جيء بهم معملين على عربات تجرها الأبقار . كما هدم سوق الزنوجية الذي فوق حارة العمارة وكانت له أقبية معقودة فأمر بفكها ونقلها لداره ٠٠٠٠ هذا وقد نقل إليها أعمدة من جامع يليغا ٠٠٠ وقد أخذ حضرة البشا قدرأوأفيما من ماء القنوات ، فما وصل إلى السرايا حتى تقطعت السبل ومياه غالب الجوابع والعمامات ، وبقي النهر مدة مقطوعاً حتى عن البيوت « انتهى النص . »

يعتبر هذا النص دون شك وثيقة تاريخية ذات شأن عظيم تبين الكيفية التي بني وفتشها هذا القصر ، وكيف جمعت مواده من خشب وحجارة ورخام من الدور والمدارس القديمة . ويقول ايكوشاران الزائر المدقق في بناء القصر يرى أن هناك قطعاً كثيرة يبدو عليها عدم الانسجام ، لأن كل قطعة منه أخذت من مكان ، ويبدو أن البنائين والمزوقين بذلوا جهدهم ليضفوا على تلك القطع المختلفة روح الانسجام .

### زخارف القصر وتقوشه :

من الملاحظ أن أسعد باشا قد عني بقصره عناية فائقة ليجعل منه قسراً مثالياً إن في فنون العمارة أو في الفنون الزخرفية ، وقد استخدم كل الصناع المهرة في كافة الفنون ليأتي القصر آية في الجمال والإبداع وقد كان كذلك حقاً ، كيف لا وقد استخدم كما قال البديرى كل المعلمين الجيدين ، ولو استعرضنا الزخارف التي نفذت في القصر لوجدناها متمددة الأنواع والأشكال . ففي حقل الرخام والمرمر استخدم أسعد باشا المادتين في تزيين جدران بعض القاعات كالقاعة الكبرى وباحات القصر وعتبات الفرف والأواوين وفق أشكال هندسية رائعة ، كما استخدم الرخام الملون والمجزع المخصص في أماكن كثيرة من

القصر ، كما كانت في بعض الأماكن زخارف محفورة في الرخام ، وقد أحاطت هذه الزخارف بخيوط من ذهب .

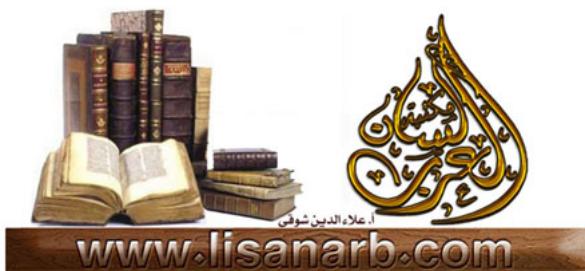
أما الغشبيات المزخرفة المدهوئة بالألوان والمسماة بالعجمي فهي ذات شأن كبير في قصر العظم فهي التي تغشى السقوف والجدران وهي من الزخارف التي امتاز بها العصر التركي ، هذا الغشب يطلي وفق تقنية معقدة بأصباغ مختلفة تمتاز بتوافق ألوانها وانسجام خطوطها ودقة تنفيذها وفي بعض القاعات يتخللها بعض الأشعار ، والأحاديث أو الآيات القرآنية ، وقد نجد أبياتاً من نهج البردة حول الجدران ، وفي أطراف السقوف ، وفي القاعات منها :

**نعم سرى طيف من أهوى فارقني      والعب يعترض اللذات بالألم**

أما سقوف القاعات كافة فتتبادر من حيث العناصر الزخرفية ، أما الأخشاب المزخرفة التي تغطي الجدران فتغتنى بالزخارف النباتية والهندسية والكتابية ذات الألوان التي يربط بينها الانسجام والتواافق .

أما الزخارف العجرية التي تملأ عادة التوافد وبواطن الأقواس فهي أحبار تتضمن زخارف ذات أشكال هندسية لا تعد ولا تحصى وهي في الواقع تمثل فناً عرفت به دمشق يسمى الأبلق ويتم التنفيذ بحفر الرسوم الهندسية وهذه الحفر والتجويفات تملأ بالأسمنت الملون أو بنوع من المؤونة الملونة حتى إذا جفت ، تم صقلها حتى تصبح على مستوى سطح العجر ، وتبدو حينئذ وكأنها مرسومة رسمًا على العجر .

تلكم هي نظرة سريعة عن القصر من حيث مكانته في تاريخ فن العمارة وما يتبعها من فنون الزخرفة .



# فهرس السنة الرابعة عشرة

من مجلة التراث العربي

تشرين الأول ١٩٩٣ - أكتوبر ١٩٩٤

إعداد: مشارأرناؤوط

## الموضوعات والدراسات

عنوان البحث	الكاتب	الصفحة	العدد
- الأب إنتستاس ماري الكرملي	عبد الكريم اليافي	٧	٥٤
- اتساع دمشق في القرن العشرين	عبد الله فريجات	٢١٧	٥٦/٥٥
- استعادة الموروث السردي الأدبي	عبد الله أبو هيف	٩٨	٥٤
- الأدوات النحوية وما يعترض الكتاب من اللبس	صلاح الدين الزعبلاوي	٣٠	٥٣
- أصوات تراثية على مساجد دمشق	علي القيّم	١٩٦	٥٦/٥٥
- الآثار الدفاعي عند الصوفية	اسعد الخطيب	٧٨	٥٣
- الإنسان والحيوان في مملكة العجان	مصطفى العلواني	٧١	٥٣
- البحر في معاجم اللغة	أحمد عبد القادر صلاحية	١٢١	٥٤
- بدر الدين ابن جماعة (من أعلام التراث)	محمد عدنان قيطاز	٧٧	٥٤
- بلاغة التشبيه في القرآن الكريم	علي سيرلوجي فلاورGANI	٢٩	٥٤
- بلاغة على بلاغة	منذر الشعار	١٣٢	٥٤
- تحقيق المرويات من الأخبار والأشعار	عموداً براهم محمد عمود	٦٦	٥٤
- الحسن بن الهيثم (من أعلام التراث)	عبد الطيف أرناؤوط	١١٢	٥٣
- الحياة العلمية في بلاد الشام في أيام الماليك	نقولا زيادة	٥٠	٥٦/٥٥
- الحياة المعاشرة في دمشق في المهد العثماني	نزية الكواكب	١٧٧	٥٦/٥٥
- دمشق أقدم مدينة في العالم	عفيف بهنسى	٢٣٢	٥٦/٥٥

العنوان	الكاتب	الصفحة	العدد
ـ دمشق والتراث	علي عقلة عرسان	٧	٥٦/٥٥
ـ دمشق ٠٠ حكاية الأزل	سليمان العيسى	١١	٥٦/٥٥
ـ دمشق على أبواب القرن المشرين	أسعد الاطروhani	٩١	٥٦/٥٥
ـ دمشق في العرب العالمية الأولى	نور الدين حاطوم	٣٣	٥٦/٥٥
ـ دمشق في مصر البيزنطي	بشير زهدي	١٢٩	٥٦/٥٥
ـ دمشق في المصور الكنعانية	علي أبو عساف	٨٥	٥٦/٥٥
ـ دمشق في النصوص المسماوية	فيصل عبد الله	١٠٧	٥٦/٥٥
ـ دمشق ، ما قبل التاريخ	سلطان محسين	١١٧	٥٦/٥٥
ـ دمشق من ٥٣٨ ق.م الى آخر القرن ٣ م	عدنان البني	٢٤٧	٥٦/٥٥
ـ دمشق ٠٠ من الفتح الى العصر العباسي	نبيه عاقل	٧١	٥٦/٥٥
ـ الديوان الدمشقي (كتاب من التراث)	عبداللطيف أرناؤوط	٢٠٧	٥٦/٥٥
ـ الشرح الموزن بين الأصل والاستدراك	النصف الوهابي	٤١	٥٤
ـ الفصل بين لغات المفرد الواحد وجموعه	عدنان عمر الخطيب	١٢٩	٥٣
ـ فضائل بيت المقدس والشام للمكتاسي	عبداللطيف أرناؤوط	١١٥	٥٤
ـ كتاب من التراث )			
ـ فضل دمشق في تطور الطب في المصريين			
ـ النوعي والملوكي			
ـ فهرس السنة الرابعة عشرة من المجلة			
ـ لمحات تاريخية عن قصر العظم			
ـ محمد بن حمران الجعفري (من اعلام التراث)			
ـ مدينة الزهراء الاندلسية			
ـ مراجعة نقدية			
ـ المرتجل في شرح القلادة السمعطية			
ـ المذهب الذي عند المفكرين العرب المسلمين			
ـ مسائل صرفية وما يعترض الكتاب فيها			
ـ مقاربة الممتع المقيد في نظرية الشعر عند			
ـ القرطاجي			
ـ من اعلام التراث العربي الاسلامي			
ـ بدر الدين ابن جاعة - حياته العلمية وأثاره	محمد عدنان قيطاز	٧٧	٥٤
ـ الحسن بن الهيثم	عبداللطيف أرناؤوط	١١٢	٥٣
ـ محمد بن حمران الجعفري	عادل فريجات	١٢٢	٥٣

★ ★ ★

## كتب من التراث

- الديوان الدمشقي  
– فضائل بيت المقدس والشام للمكتاسي
- ٥٦/٥٥      عبد اللطيف أرناؤوط      ٢٠٧  
٥٤              عبد اللطيف أرناؤوط      ١١٥

## الكتاب

الباحث او الكاتب	الصفحة	العدد
<b>حرف الألف</b>		
أبو عساف ، علي	٨٥	٥٦/٥٥
– دمشق في العصور الكنعانية		
أبو هيف ، عبدالله	٩٨	٥٤
– استعادة الموروث السري الأدبي		
احمد ، علي	١٤٣	٥٣
– مدينة الزهراء الأندلسية		
ارناؤوط ، عبد الطيف	١١٢	٥٣
– الحسن بن الهيثم		
– الديوان الدمشقي	٢٠٧	٥٦/٥٥
– فضائل بيت المقدس والشام – للمكتاسي	١١٥	٥٤
ارناؤوط ، منار	٢٨٤	٥٦/٥٥
– فهرس السنة الرابعة عشرة		
الاسطوانى ، أسعد	٩١	٥٦/٥٥
– دمشق على أبواب القرن العشرين		
اسماعيل ، فاروق	١٥٤	٥٣
– مراجعة نقدية		
<b>حرف الباء</b>		
البني ، عدنان	٢٤٧	٥٦/٥٥
– دمشق من ٥٣٨ ق.م الى آخر القرن الثالث الميلادي		
بهنسى ، عفيف	٢٢٢	٥٦/٥٥
– دمشق أقدم مدينة في العالم		
بيانكى ، آن ماري	٢١٧	٥٦/٥٥
– اتساع دمشق في القرن العشرين		
<b>حرف الجيم</b>		
جعفر ، احسان محمد	٩١	٥٤
– المذهب الذري عند المفكرين العرب المسلمين		

الباحث أو الكاتب	الصفحة	العدد
حروف العاء		
حافظ ، نور الدين		
ـ دمشق في الحرب العالمية الأولى		٥٦/٥٥
ـ حمارنة ، نشأت		
ـ فضل دمشق في تطور الطب بين المصريين النوري والملوكي		٥٦/٥٥
حروف الغاء		
الخطيب ، أسعد		
ـ الآثار الداعي عند الصوفية		٥٣
ـ الخطيب ، عدنان عمر		
ـ الفصل بين لغات المفرد الواحد وجموعه		٥٣
حروف الزاي		
الزعبلاوي ، صلاح الدين		
ـ الأدوات النحوية وما يعترض الكتاب من اللبس		٥٣
ـ مسائل صرفية وما يعترض الكتاب فيها		٥٤
ـ زهلي ، بشير		
ـ دمشق في العصر البيزنطي		٥٦/٥٥
ـ زيادة ، نصولا		
ـ الحياة العلمية في بلاد الشام في أيام المماليك		٥٦/٥٥
حروف الشين		
شعار ، منذر		
ـ بلاغة على بلاغة		٥٤
حروف الصاد		
صلاحية ، أحمد عبد القادر		
ـ البحر في معاجم اللغة		٥٤
حروف العين		
عاقل ، نبيه		
ـ دمشق ٠٠ من الفتح وحتى مصر العباسي		٥٦/٥٥
ـ عبد الله ، فيصل		
ـ دمشق في النصوص المسماوية		٥٦/٥٥
ـ عرسان ، علي عقله		
ـ دمشق والترااث		٥٦/٥٥

العدد	الصفحة	الباحث أو الكاتب
٥٣	٧١	<b>العلواني ، مصطفى</b> - الإنسان والحيوان في مملكة الجان
٥٦/٥٠	١١	<b>العيسي ، سليمان</b> - دمشق ٢٠ حكاية الأزل
٥٣	١٢٢	<b>الفريجات ، عادل</b> - اتساع دمشق في القرن العشرين
٥٤	٢٩	<b>فلاورجانى ، علي مirologi</b> - بلاغة التشبيه في القرآن الكريم
٥٦/٥٥	١٩٦	<b>قيطاز ، محمد عدنان</b> - بدر الدين ابن جاعة - حياته العلمية وأثاره
٥٦/٥٥	٢٧٥	<b>القيم ، علي</b> - أضواء تراثية على مساجد دمشق
٥٦/٥٥	١١٧	<b>كمال ، حسن</b> - لمحات تاريخية عن قصر المظم
٥٤	٦٦	<b>معيسن ، سلطان</b> - دمشق ٢٠ ما قبل التاريخ
٥٤	٤١	<b>محمود ، محمود ابراهيم محمد</b> - تحقيق المرويات من الأخبار والأئم
٥٣	٤٧	<b>الواو</b> - مقاربة المتع المفيد في نظرية الشعر عند القرطاجمي
٥٤	٧	<b>اليافي ، عبد الكريم</b> - الأب أنساتام ماري الكرمي
٥٣	٧	- المرتجل في شرح القلادة السمعية



منشورات اتحاد الكتاب العرب

مطبع أليف باه - الأديب  
دمشق

السعر : ٢٥ ل.س داخل قطر  
٤٠ ل.س خارج قطر